

كتاب تاريخ مصر الحديث

من الفتح الإسلامي إلى الآن

مع

فذلك في تاريخ مصر القديم

٢٤٧٦٩٦



تأليف

جرجي زيدان

منشور الهلال

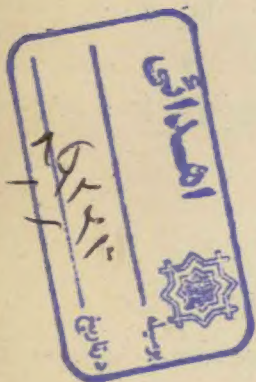
الجزء الثاني

وهو يشتمل على تاريخ مصر من الفتح العثماني إلى سنة ١٩١١
أي في عهد الدولة العثمانية وحملة بونابرت
والدولة المحمدية العلوية أو الأسرة الحديوية

الطبعة الثالثة

مطبعة الخيال

بمصر سنة ١٩٢٥

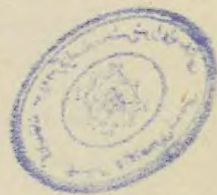


بيان

انتهى الجزء الاول من هذا الكتاب في طبعته الاولى بانقضاء الدولة الابوية فبدأنا الجزء الثاني بدولة المماليك الاولى . ونظراً لتوسعنا في مواضيع الكتاب وازدحام ما جدد من الحوادث المصرية بعد الطبعة الاولى جعلنا الجزء الاول من هذه الطبعة ينتهي في آخر دولة المماليك الثانية . فاصبح الجزء الثاني هذا يبتدىء بدخول مصر في سيادة الدولة العثمانية وينتهي بالعام الماضي . ولذلك كان اكثر توسعنا في تاريخ الدولة الحمديّة العلوية من زمن مؤسسها محمد علي باشا الى الآن (سنة ١٩١١) ويدخل في ذلك بيان ما حدث في هذا العصر من التغيرات السياسية والعلمية والمالية والصحافية وما تقلب على مصر من الاحوال السياسية أشهرها الحوادث العراقية والحوادث السودانية . واقتضى ذلك أن نخص هذا الجزء بدرس خاص فطالعنا اهم المؤلفات التي صدرت عن احوال مصر وتاريخها بعد صدور الطبعة الاولى او ما لم تكن اطلعنا عليه من قبل . وهاك اهمها :

مصر الحديثة	في مجلدين	تأليف اللورد كرومر	في الانكليزية
انكلترا في مصر	» » » »	» » ملنر	» »
الاسماعيلية . رحلة الى خط الاستواء	» »	للسير صموئيل باكر	» »
مصر والحديوي		لدايني	» »
تاريخ السودان	في ٣ مجلدات	لنعوم بك شقير	» العربية
تقارير اللورد كرومر		للورد كرومر	» »
مصر في حكم محمد علي	في مجلدين	لهامون	في الفرنسية

وهذه الطبعة الثالثة في سنة ١٩٢٥



منشأ الدولة العثمانية

قبل التقدم الى تاريخ مصر في سلطنة الدولة العثمانية بحسن بنا ان نأتي على
فذلك في اصلها ومنشأها

يتصل نسب العثمانيين بالتتر الذين كانوا يقطنون ما يجاور جبال التاي عند
حدود الصين الشمالية ويغلب على الظن انهم الاسكتيون المعروفون قديماً بالشجاعة
وشدة البأس . ويقال ان جماعة منهم ينتسبون الى جد يقال له « ترك » تزحوا
غرباً في الجيل الاول للميلاد وأقاموا فيها هو الآن بلاد تركستان ويحدها شمالاً
سيريا وجنوباً بخارا وشرقاً حدود الصين وغرباً بحيرة اورال وهي مشهورة بجودة
الاقليم وخصب المرعى وجمال السكان وقوة أبدانهم

وما استتب لهم المقام في تركستان حتى أخذوا يمدون سلطتهم وهم لا يزالون
في حالة الجاهلية . ولم يعتنقوا الديانة الاسلامية الا في اواسط القرن الرابع
للهجرة واشهرهم طائفتان كبيرتان تعرفان بالاغوزية والسلجوقية

وكان الاترك السلجوقيون يقيمون في ما يجاور بخارا ثم اشتدوا وانشأوا
مملكة مستقلة شامعة الاطراف يحدها بحر قزوين من جهة وبحر الروم من
جهة اخرى عواصمها فرسبوليس (اصطخر) وقرمان ودمشق وحلب ورومية
في آسيا الصغرى . ثم اقتحموا جانباً من بلاد فارس . ثم هددوا امبراطور الروم
وتغلبوا عليه حتى اضطر الى تقبيل الارض بين يدي الب ارسلان ملك السلجوقيين
وفي القرن الثالث عشر للميلاد كانت سلطنة السلجوقيين منتشرة في آسيا

الصغرى وسلطانها علاء الدين ومقره مدينة قونية

وظهر في أثناء ذلك جنكزخان القائد المغولي وغزا قبائل الاترك المقيمين
في تركستان فاذعنوا له الا قبيلة اوغوزية من قبائل خراسان هاجرت تحت قيادة
امير يدعى سليمان تطلب مقاماً لها ومرعى لمواشيها . ومازالوا يسرون غرباً حتى
حدث وهم يعبرون الفرات ان أميرهم سقط بجواده في النهر ومات فدقنوه هناك .
وهو جد ساكن الجنان السلطان عثمان الغازي فاصبحوا بعده جماعات متفرقة
فاتخذ ابنه ارطغرل قيادة جماعة منهم وسار بهم يخترق آسيا الصغرى . وهو في
بعض السهول شاهد عن بعد غباراً متصاعداً وحريراً قائمة فتقدم على نية الانتصار

لاضعف انفتحين ففعل وهو لا يدري لمن ينتصر فقيض الله النصر له وفتح قوت الفتنة الاخرى ثم علم انه انتصر للسلاجوقيين وقهر المغوليين فشكر الله على ذلك فقال بذلك منزلة رفيعة لدى علاء الدين فاقطعه بقعة كبيرة يقيم فيها برجاله على حدود فرنجيا وبيثينيا وكانت ارضاً جيدة ذات مرعى خصب . وفي تلك البقعة نشأ ابنه عثمان وشب وترعرع . وما زال ايرطغرل تحت رعاية علاء الدين حتى توفي هو خلفه عثمان . ثم توفي علاء الدين بغير ولد فاقسم امراؤه مملكته فاستقل عثمان بما لديه سنة ١٣٠٠ م وهو اول امراء دولة آل عثمان



السلطان عثمان الغازي

ومن التقاليد الماثورة بين العثمانيين ان عثمان هذا عشق وهو شاب فتاة تدعى « مال خاتون » وكان والدها شيخاً تقياً ورعاً طاعناً في السن اسمه ادبالي فلما شعر بمحبة عثمان لابنته خاف العاقبة وصار يحاول ابعادها الواحد من الآخر وبالغ في حجاب ابنته لانه لم يكن يطمع بمصاهرة ابن حاكمه

فجاء عثمان ذات ليلة ليبيت في منزل ادبالي وقضى معظم الليل هاجساً بحبيبه حتى غلب عليه النعاس فرأى في الحلم كأن القمر خارج من صدر ادبالي ثم رآه يتسع بسرعة حتى غطى كل ما كان واقفاً تحت نظره من الارض . ثم أخذ في التخلص حتى عاد الى حجمه الاول وارتد الى صدر ادبالي كما كان . ثم رأى شجرة عظيمة خارجة من صلب ادبالي وأخذ ظلها يمتد حتى غطى البر والبحر وتراى له ان نهر دجلة والفرات والدانوب والنيل خارجة من أصل تلك الشجرة . وحبال

قوقاس واطلس وطورس وهيموس يستظل باغصانها ورأى اوراقها تستطيل وتستدق حتى صارت كالسيوف ورؤوسها منصوبة الى أشهر عواصم العالم وخصوصاً القسطنطينية الواقعة عند ملتقى الفارتين ومجتمع البحرين . وخيل له أنها جوهرة بين زمردتين وياقوتتين مصطنعة في فص خاتم وانه هم أن يجعل ذلك الخاتم في اصبعه فاستيقظ مبهوفاً . فاخبر ادبالي في الصباح بما كان فاستبشر بما سيكون من مستقبل ذلك الشاب وانه سيملك القسطنطينية



السلطان محمد الفاتح

يوم دخوله القسطنطينية بعد فتحها سنة ١٤٥٣ م

وما انك خلفاء عثمان كلما اتسع سلطانهم بزادون ثقة بما آل ذلك الحلم وقد حاول بعضهم فتح القسطنطينية فرجع ولم ينل وطراً حتى ظهر محمد الفاتح السلطان السابع من سلاطين آل عثمان ويبنه وبين صاحب الحلم نحو ١٦٠ سنة ففتحها بعد أن ينس المسلمون من فتحها

وحارب العثمانيون أعظم ملوك أوروبا وطاردهم الى بلاد المجر وحاصروا فينا
عاصمة النمسا وأخذوا الجزية من الارشيدوق فردنيان واكتسحوا البحر الابيض
الى شواطئ اسبانيا - ووجهوا مطامعهم من الجهة الاخرى نحو الشرق
ففتحو العراق والشام ومصر على يد سليم الفاتح كما تقدم . وبسلطته يبدأ هذا
الجزء من تاريخ مصر الحديث

الدولة العثمانية

من سنة ٩٢٣ - ١٢١٣ هـ او من ١٥١٧ - ١٧٩٨ م

سلطنة سليم بن بيازيد

من سنة ٩٢٣ - ٩٢٦ هـ او من ١٥١٧ - ١٥٢٠ م

أمر السلطان سليم بدفن طومان باي قرب قبر قنسو الغوري وبعد دفنه بثلاثة
أيام دخل السلطان سليم عاصمة الديار المصرية ظافراً في غاية ربيع اول سنة ٩٢٣ هـ
وبعد يسير نزل الى الاسكندرية في فرقة من جيوشه لوضع الحماية عليها . ثم عاد
الى القاهرة ومكث فيها الى ٢٠ شعبان من تلك السنة فبرحها قاصداً الرومي . ويقال
انه نقل معه الف جمل محملة ذهباً وفضة فضلاً عن أسلاب أخرى وهدايا قدمت
له . وقبل خروجه من مصر جعل فيها حكومة منظمة فاصبحت مصر ايلة عثمانية
وكان فيها من الخلفاء العباسيين اذ ذاك محمد المتوكل على الله (الثالث) الخليفة
الثامن عشر من الدولة العباسية بمصر . وكيفية وصول الخلافة اليه ان الامام
المستنجد بالله الخليفة الخامس عشر الذي تولى الخلافة في ايام يتال سنة ٨٥٩ هـ كما
تقدم توفي في ٢٤ محرم سنة ٨٨٤ هـ بعد أن تولاها ٢٥ سنة وولي مكانه الخليفة
عبد العزيز بن يعقوب حفيد الخليفة العاشر المتوكل على الله ولقب بلقب جده .
ثم توفي يوم الجمعة في ٢ صفر سنة ٩٠٣ هـ خلفه الخليفة ابو صابر يعقوب الملقب
بالمستمسك بالله ثم خلف هذا نحو الفتح العثماني الخليفة محمد المتوكل على الله المتقدم
ذكره . فلما فتح العثمانيون مصر رأى السلطان سليم الفاتح ان نصره لا يؤيد الا اذا
قبض على الازمة الدينية . فاستخرجها من ايدي الخلفاء العباسيين فصارت
الخلافة الاسلامية الى العثمانيين واول خلفائهم السلطان سليم . واما الخليفة العباسي
فانه نقل الى الاستانة وخصص له راتب معين لتنفقاته وقبل وفاة السلطان سليم
يسير عاد المتوكل الى مصر وعاش فيها منفرداً الى ان توفاه الله سنة ٩٤٥ هـ وهو
آخر الخلفاء العباسيين

الخلافة والعرب والترك

ويجدر بنا ان نقول كلمة في الخلافة ونسبها الى العرب او غيرهم . افضت
امور المسلمين الى ملوك وسلاطين من الفرس والترك والاكراد والبربر والجركن

وغيرهم ومع ما بلغوا من سعة الملك وعز السلطان ومع حاجتهم الى السيادة الدينية لتستقيم دولهم وتجتمع الرعية على طاعتهم لم يخطر لاحد منهم ان يطالب الخلافة لنفسه قبل انتقال الاسلام الى طوره الثاني بعد تضعفه بفتوح المغول . ولا ادعاها احد من العرب غير قریش . واول سلطان غير عربي ببيع بالخلافة السلطان سليم العثماني ولا تزال الخلافة في دولته الى الان

على ان الذين قويت شوكتهم في عهد ذلك التمدن من الامراء المسلمين او القواد غير العرب كانوا اذا طمعوا بالسيادة الدينية او الخلافة انتهجوا لانفسهم نسباً في قریش كما فعل ابو مسلم الخرساني لما رأى من نفسه القوة على انشاء الدولة وربما طمع بالخلافة فانتحل لنفسه نسباً في بني العباس فقال انه ابن سليط بن عبد الله بن العباس

واما الملوك او السلاطين الاعاجم فلما ضخمت دولهم في اواخر العصر العباسي ورأوا انحطاط الخلافة وتقهقرها وغنوا الاستغناء عنها ولكنهم لم يروا سبيلاً الى ذلك الا ان يستبدلوا بالخلافة اخرى . على ان بعضهم طمع بالنفوذ الديني من طريق الانتساب الى الخليفة بالمصاهرة . واول من فعل ذلك عضد الدولة ابن بويه المتوفى سنة ٣٧٢ هـ فانه حمل الطائع لله الخليفة العباسي في ايامه ان يتزوج بابنته وغرضه من ذلك ان تلد ابنته ولداً ذكراً فيجعله ولي عهده فتكون الخلافة في ولد لهم فيه نسب ولم يوفق الى مراده

ولما افضت السلطة الى السلاجقة تقدموا في هذا الطريق خطوة اخرى فعمدوا الى التقرب بالمصاهرة ايضاً واسكن على ان يتزوج السلطان طغرلبيك السلجوقي ابنة الخليفة وهو يومئذ القائم بأمر الله فخطبها اليه ووسط قاضي الري في ذلك فانزعج الخليفة لهذا الطلب ايما انزعاج اذ لم يسبق ان يتزوج بنات الخلفاء الا اكفاؤهم بالنسب وكانت يد السلطان قوية والخليفة لا شيء في يده فاخذ في استعطافه ليعفيه من الاجابة على طلبه فاني السلطان الا ان يحجب . وحدثت امور يطول شرحها خيف منها على الدولة فاضطر الخليفة الى القبول — فعقد له عليها سنة ٤٥٤ هـ وهذا ما لم يجر مثله قبله لان آل بويه لم يطمعوا بذلك ولا تجاسروا على طلبه مع مخالفتهم للخليفة في المذهب اذ يكفي من الخليفة تنازلاً ان يتزوج بنات الملوك لا ان يزوجهم بناته ولم ينل هذا الشرف احد قبل طغرلبيك . ومع ذلك فانه لما دخل الى عروسه في السنة التالية قبل الارض بين

يديها وهي جالسة على سرير ملبس بالذهب فلم تكشف الحمار عن وجهها ولا قامت له . وظل اياماً يحضر على هذه الصورة وينصرف . على انه لم يوفق لانعام ما اراده لانه توفي في تلك السنة . اما المبايعة بالخلافة لغير العرب فلم تنلها دولة اسلامية قبل العثمانيين

نظام الحكومة المصرية ايام العثمانيين

واخذ السلطان سليم في تأييد سلطته في مصر ليأمن من تمرداها وتلاعب ذوي الاغراض فيها . فجعل عليها حاكماً يلقب بالباشا اليه مرجع الحل والعقد . وكان من جملة الذين انحازوا الى العثمانيين في واقعة مرج دابق امير يقال له خير بك من كبار رجال قنسو . فلما فتح الله على العثمانيين ولاء السلطان سليم على مصر بلقب باشا . ثم خشي من تفرد هذا الحاكم بالامر مع بعد مصر عن الاستانة ان يكون داعياً لعصيانه . فاعمل الفكرة فيما يكفيه مؤونة هذا الخطر فاهتدى الى طريقة تضمن له ذلك . وهي ان يجعل في مصر ثلاث ادارات كل منها تراقب اعمال الآخرين فلا يخشى من اتحادها وتمرداها فالقوة الاولى « الباشا » واهم واجباته ابلاغ الاوامر السلطانية لرجال الحكومة وللشعب ومراقبة تنفيذها

والقوة الثانية « الوجاقات » فانه اقام في القاهرة وفي المراكز الرئيسية من القطر ستة آلاف فارس وستة آلاف ماش بالبنادق جعلها ستة وجاقات « فرق » تحت قيادة واوامر خير الدين احد قواد العثمانيين العظماء وامره ان يقيم في القلعة ولا يخرج منها لاي سبب كان . وواجبات هذه الوجاقات حفظ النظام في القطر المصري والدفاع عنه وجباية الخراج . وقد رتبها على الوجه الاتي :

١ وجاق المتفرقة . وهو مؤلف من نخبة الحرس السلطاني

٢ وجاق الجاويشية . وهو مؤلف في الاصل من صف ضابطان جيش

السلطان ساهم فعهد اليهم جباية الخراج

٣ وجاق المهجانة

٤ وجاق التفججية . وهم ناقلو البنادق

٥ وجاق الانكشارية . وهم اخلاط من نخبة القبائل الخاضعة للدولة العثمانية

وكانوا يعرفون ايضاً بالمستحفظين لاناطة محافظة البلاد بهم

٦ وجاق العزب

وكان كل من هذه الوجاقات مؤلفاً من افراد يقال لهم « وجاقلية » واحدهم

« وجاقي » على كل وجاق منها ضابط بالآغا يصحبه الكخيا والباش اختيار والدفتردار والحزندار والرزناجي . ومن اجتماع هؤلاء الضباط من سائر الوجاقات يتألف مجلس شوري الباشا فلا يقضي أمراً إلا بمصادقتهم . أما هم فلمهم ان يوقفوه عن الاجراء وان يستأنقوا الى ديوان الاستانة عند الاقتضاء . ولهم ايضاً ان يطلبوا عزله حالما يشتهبون بمقاصده الانكشارية

وامم تلك الوجاقات « الانكشارية » وهم يشملون الجند العثماني في ذلك العهد انشئ هذا الجند في زمن السلطان اورخان ثاني سلاطين آل عثمان (٧٢١ هـ — ٧٦١ هـ) على يد قره خليل احد كبار رجال الدولة ونظر في تنظيمه الى خلوه من عصبية تبعث على التمرد . وكان العثمانيون يومئذ يفتحون البلاد واكثر اهلها مسيحيون فدخل في حوزتهم جماعة من غلمان النصارى الذين قتل آباؤهم واصبحوا لا نصير لهم ولا مرجع لا ملهم — فارتأى ان يرثي اولئك الغلمان تربية اسلامية ويدربهم على الفنون الحربية ويجعلهم جنداً دائماً لا يخشى منه التمرد لانه لا يعرف عصبية غير الدولة ولا عملاً غير الجندية ولا ديناً غير الاسلام . فخدمهم وسارهم الى الحاج بكطاش شيخ طريقة البكطاشية باماسية ليدعو لهم . فدعا لهم وسامع « يكي جري » الجند الجديد

وقسم هذا الجند الى وجاقات واحداها وجاق والوجاق يقسم الى اورط احداها اورطة والكل اورطة عدد تعرف به ولبعضها اسماء خاصة . ويختلف عدد الجند في كل اورطة حسب العصر من ١٠٠ الى ٥٠٠ . ويختلف عدد الاورط في الوجاق وعدد الوجاقات بمقتضى ذلك . واكثر ضباط الوجاق او قائدها الاكبر يسمى « آغا » تحته سكران باشي تحته غيره فقيره على هذه الصورة :

الآغا	قائد الوجاق ويقابل اللواء في هذه الايام
سكران باشي	ينوب عن الآغا في الاستانة ويقابل القائمقام اليوم
قول كخيا او كخيا بك	نائب الآغا او السكران باشي
سمسونجي باشي	قائد الاورطة نمرو ٧١
زغرجي باشي	قائد الاورطة نمرو ٦٤
محضر آغا	ينوب عن الانكشارية عند الصدر الاعظم
مضكي	ينوب عن الآغا في القيادة على الحدود

باشجاويش	قائد الاورطة الخامسة
كخياكري	ينوب عن الوجاق لدى الآغا
الافندي	السكران

ولكل اورطة ضباط يقسمون قيادتها وادارة شؤونها مما يطول شرحه



ش ١ : آغا الانكشارية ونائبه وخادمه

كان للانكشارية رواتب يسمونها العلوفة كانت تدفع يومياً باعتبار درهم واحد لكل انكشاري ثم ارفقت الى خمسة دراهم غير الهدايا التي كانوا ينالونها في الاعياد وعند تولية السلاطين ويسمونها « بنخشيش الجلوس » وغير ما يصرف لهم من الاطعمة كاللحم والخبز او القمح

ملابس الانكشارية وطعامهم

المقصود من البسة الجند التفريق بين رتبهم . فكان لكل طبقة من الانكشارية لباس خاص تقتصر على وصف بعضها بالتصوير (انظر ش ١) فالصورة الوسطى التي تحتها نمرة (٢) هي صورة آغا الانكشارية وعمامته كبيرة منفوخة وعليه القفطان والجبة وحول وسطه الحزام وفيه الخنجر وفي قدميه نعال مكشوفة . والى يمينه في الطرف نمرة (٤) نائبه المسمى « قول كخيا » وقاووقه يختلف عن ذلك اختلافاً عظيماً وفي قنته شبه المروحة من الريش

وبجانبه عمرة (٣) خادم الآغا وعمامته كالعمامة المعروفة . والى يسار الآغا عمرو (١) الباشجاويش ويختلف لباسه عن اوائك من كل جهة وخصوصاً قلاووقه وقفطانه وازاره ونعاله

وترى مثل هذا الاختلاف في صفار الانكشارية ايضاً على تفاوت في الرتب والاعمال فترى في الشكل الثاني ان عمرة (٣) صورة جندي انكشاري واقف وعليه لحيية والقفطان بشكل خاص والقلاووق مثنى الى الورا . وعمرة (٤) انكشاري واقف وقففة الاحترام و (١) ضرب آخر من الانكشارية يعرف بسلاق و (٥) نوع آخر جيولك . وانتهى الى (٢) فانها صورة احد الغلمان الاعاجم الذين يخرج الانكشارية منهم وعمرة (٦) انكشاري مدرع



١ ٢ ٣ ٤ ٥ ٦

ش ٢ : انقار الانكشارية

ويمتاز الانكشارية بعبادات خاصة في طعامهم وام اصنافه الشورباء فقد كانت تصنع في حلال خاصة ترسل الى الاجناد في قدور كبيرة يحملونها معلقة باعواد مستعرضة كما ترى في الشكل الثالث

يحمل الحلة اثنان من الجنود يقال لها « قراقول اقبجي » يتقدمها ضابط اسمه باش قراقول اقبجي يحمل على كتفه معلقة كبيرة من الحديد . فيمر بالاماكن التي فيها عساكر من اورطهم وهم في انتظار وصولهم فيحطون القدر على الارض

ويغرفون بالملعقة لمن يأتي بطبقه على قدر حاجته وللطعام شأن كبير عند الانكشارية وفي مطبخ كل اورطة قدر كبيرة هي مثال لقدر يحترمونها اعتماداً على حديث يتناقلونه بينهم عن الحاج بكطاش صاحب الطريقة البكطاشية التي ينتسب اليها الانكشارية انه طبخ شوربائه فيها ويعتقدون انهم اذا نقلوا هذه القدر من مكانها صبوا هناك ماء زلزات الارض . وكانت هذه القدور ملجأ للمجرمين فمن اتى اليها وجب على الانكشارية حمايته والدفاع عنه كما



ش ٣ : توزيع الشورباء على الانكشارية

كان يفعل العرب في حماية من يستجير بهم . وفي الحوادث الكبيرة التي تنفق لهم كقيامهم بشورة او مفاوضاتهم في امر يهمهم يجتمعون حول هذه القدر للمفاوضة بجانبها تبركاً بها

الامراء المماليك

اما القوة الثالثة فالمماليك . وهم بقايا الدولتين السالفتين والفائدة منهم حفظ الموازنة بين الباشا والوجاقات لانهم في الاصل اعداء لسكلا الفريقين ومن غرضهم الانتصار للفريق الاضعف لينعوا القوي من الاستبداد . وقد كان القطر المصري منقسماً الى ١٢ « سنجقية » (مديرية) بحكم كلا منها حاكم يقال له « سنجق » او « بك » يعينه الديوان (وهو مجلس شورى الباشا) من امراء المماليك . ولا غرو ان تقاطع المصالح على هذه الصورة واختلاطها مع تعداد الامرين مما يقود الى

القلائل والمتاعب. اما الدولة العثمانية فقد اجتنت راحة من هذا التعب لانها كانت على ثقة من استبقاء الديار المصرية في حوزتها
وبقي خير بك باشا والياً على مصر الى ان ادركته الوفاة بمرض جلدي سنة ٩٢٨ هـ ودفن في جامعته المعروف باسمه في شارع درب الوزير تحت القلعة . وبعد وفاته لم تجت الا لسته بدمه لعظم استبداده فكانوا يقولون انه كان ينهض من لحده ليلا ويستغفر الله على ما اناه من الشرور في حياته

سلطنة سليمان القانوني

من سنة ٩٢٦ - ٩٧٤ هـ او من ١٥٢٠ - ١٥٦٦ م



ش ٤ : السلطان سليمان القانوني

وقبل وفاة خير بك باشا بسنتين توفي السلطان سليم وخلفه ابنه السلطان سليمان سنة ٩٢٦ هـ وسنه ٢٦ سنة ويعرف بالقانوني لانه سن قانوناً . فكث على كرسى الخلافة نحواً من نصف قرن وقد اكثر من الاهتمام بمصر وتنظيمها . وكان ابوه قبل وفاته قد رسم الخطة التي يجب ان تمر عليها مصر في حكومتها وادارتها لكنه توفي قبل ان يبرزها الى حيز الفعل فلما تولى السلطان سليمان جعل اهتمامه اتمام مشروع ابيه

نظام الحكومة المصرية ايضا

وكان من رأي السلطان سليم ان ينشئ ديواناً تحت رئاسة الباشا حفظاً للموازنة . اما السلطان سليمان فاقم الموازنة بانشاء ديوانين عرقا بالديوان الكبير والديوان الصغير « او الديوان فقط » واناط رئاستهما بالباشا وعليه ان يجلس عند انعقاد الجلسة وراء ستار المنبر . وعلى السكخيا والدفتردار استئذانه قبل المفاوضة ومتى اقر الديوان على امر ابلاغه ذلك القرار وليس له الا المصادقة والامر بالتنفيذ . وجعل اقامة هذا الباشا بالقلعة تحت ملاحظة الاغا الذي هو قومندانها ويجدد تعيين الباشا في كل سنة

اما واجبات الديوان الكبير فهي المفاوضة والافرار على ما يتعلق بالاشغال العمومية التي لا تتعلق ادارتها بالباب العالي نفسه . اما اعضاء هذا الديوان فهم اغاوات الوجاقات الستة ودفترداروها وروزنامجيوها . ونواب من جميع فرق الجيوش وامير الحج وقاضي القضاة واعيان المشايخ والاشراف والمفتون الاربعة والائمة الاربعة والعلماء . اما الخطابات التي ترد الى هذا الديوان فتعنون باسم الديوان الكبير لكنها تسلم للباشا وله وحده الحق ان يأمر بعقد جلساته ولم تكن كثيرة . اما جلسات الديوان الاصغر فكانت تنعقد يومياً في قصره واءضاء هذا الديوان هم كخيا الباشا ودفترداره وروزنامجييه ونائب من كل من الوجاقات والاغا وكبار ضباط وجاق المتفرقة . ومن واجبات هذا الديوان النظر في الحوادث اليومية ومن اختصاصاته البحث في الادارات الثانوية

وانشأ السلطان سليمان فضلا عن الستة الوجاقات التي انشأها ابوه وجاقاً سابعاً دعاه وجاق الشراكية وهم بقية جند الممالك . ومن هذه الوجاقات السبعة تتألف حكومة مصر وحاميتها . اما نفقاتها فن مخصصات يتولى ضبطها وتفريقها « افندي » من كل وجاق . وجعل لكل وجاق مجلساً مؤلفاً من ضباط ذلك الوجاق وبعض صف ضابطاته لحاسبة الافندية والنظر في الدعاوي الخصوصية وعرض الترقيةات للباشا للمصادقة عليها ومقامهم في القاهرة ولكل منهم لباس خاص برتبته وعليه علاماته ومجموع رجال الوجاقات معاً عشرون الفا وقد يزيد او ينقص حسب الاقتضاء . اما مقرهم ففي القاهرة على اهم كثير ما كانوا يخرجون منها المهمات في المديرية . وكان لوجاق الانكشارية امتيازات على سائر الوجاقات وقائده (الاغا) مفضل على سائر القواد وله نفوذ عليهم

وجعل السلطان سليمان للبكوات المالك الذين اقامهم السلطان سليم امتيازات خصوصية وحققاً بالارتقاء الى رتبة الباشوية . و اضاف اليهم ١٢ بيكاً آخرين لمهمات فوق العادة . وهاك اسماء الموظفين الذين ينتخبون من البكوات المالك وهم : الكرخيا او زهاب الباشا والقباطين الثلاثة وهم قومندان نفور السويس ودمياط والاسكندرية ويسمى واحدهم قبطان بك والدفتردار وامير الحج وامير الخزنة وحكمداربو او مديرو المديرية الخمس الا في ذكرها وهي جرجا والبحيرة والمنوفية والغربية والشرقية ولم يكن لغير الكرخيا والدفتردار وامير الحج الحق في دخول الديوان فالدفتردار كان عليه ضبط الحسابات وحفظ الدفاتر والسجلات ولا ينفذ امر يبيع عقار الا بعد توقيعه عليه اشارة الى تسجيله في دفتاره . وامير الحج يحمل الهدايا والصدقات التي كان يرسلها السلطان سنوياً الى مكة او المدينة وعليه حماية قافلة الحج ذهاباً واياباً . واما امير الخزنة فيحمل القسم الخاص بالقسطنطينية من حاصلات مصر برأ وعليه حمايته . وينتخب من البكوات المالك ايضاً « شيخ البلد » وسنعود اليه

وكانت مديريات القديونية والمنصورة والجيزة والفيوم في عهدة كشاف لا فرق بينهم وبين البكوات في النفوذ . ولا يعمل باقرار احدهم الا بعد مصادقة الشريحية وغيرهم من الوجاهين الذين يتألف منهم ديوان خاص في كل مديرية

ثم ان تعيين كرخيا الباشا وقباطين السويس ودمياط والاسكندرية متعلق رأساً بمجاللة السلطان فيرسلونهم من الاستانة ويستدعونهم اليها في آخر كل سنة . اما البكوات الاخرون فيعينهم الديوان ويوليهم الباشا ويثبتهم الباب العالي ومراكم نائبته الا ان واجباتهم تتغير الا الدفتردار . وقد ينتخب البكوات من وجاق المتفرقة ومتى انتخبوا لا يعودون تابعين لذلك الوجاق . وكان من هم الباب العالي الانتباه الى السويس ودمياط والاسكندرية على الخصوص لانها الابواب التي يدخل منها الى مصر فكان يرسل حاميتها رأساً من الاستانة تحت قيادة القباطين ومجدها كل سنة وهؤلاء القباطين لم يكونوا يحسبون من جند مصر الا باعتبار اقامتهم فيها وبما يتلونه من الامدادات المالية لنفقاتهم . اما فيما خلا ذلك فكانوا يحسبون اجانب في اعتبار الباشا وديوان مصر ولم يكونوا تحت اوامر حكومة البلاد في شيء قواو امرهم كانت ترد اليهم من ديوان الاستانة رأساً

حاصلات البلاد

هذا من قبيل الادارة . اما من قبيل حاصلات البلاد فان السلطان سليمان صرح بانه المالك الحر لارض مصر فكانت له ملكا وكان يفرقها اقطاعات على مزارعين كان يدعومهم « الملزمين » . على انه لم يكن له ان يمنع اقطاعها او يوقفه فلم يكن بالحقيقة فرق بين هذه الاقطاعات والملك الحقيقي . والفلاحون الذين كانوا يحرثون الارضين كانوا يتمتعون بنصيبهم منها ويورثونها لاعقابهم ولكنهم كانوا مجبورين على العمل فيها بدون حق التصرف بها وعليهم خراج لا مناص من دفعه للملزمين فاذا توفي فلاح بلا وريث تعطى ارضه للملزم وهو يعهد بحراثتها الى من يشاء واذا مات الملزم بلا وريث تعود الارض للسلطان . وكان على كل من الملزمين والفلاحين خراج يدفعونه اما نقداً واما عيناً فاذا تأخر الفلاح عن الدفع يمنع من نيل نصيبه واذا تأخر الملزم تؤخذ الارض منه . ونظراً لاتساع ارض مصر لم يمكن حصر املاك كل من الملزمين فلم يكن ممكناً تعيين مقدار خراجها فارسل السلطان سليمان مساحين مسحوا الارضين المصرية فقسّموا المديرية الى اقسام دعوها بالقراريط ومسحوا كلاً منها على حدة وحدوده

باشوات مصر او ولايتها ايام السلطان سليمان

كل هذه النظمات الادارية والمالية اجراها السلطان سليمان بالتتابع بواسطة الباشوات الذين اقامهم على مصر مدة حكمه وعددهم ١٤ . اولهم مصطفى باشا تولى بعد وفاه خير بك باشا في ذي الحجة سنة ٩٢٦ هـ وبعد تسعة اشهر و ٢٥ يوماً ابدل بأحمد باشا وكان عدواً للصدر الاعظم ابراهيم باشا فامر الصدر سنة ٩٣٠ هـ الى امراء القاهرة ان يقتلوه فعلم هو بالدسيسة فقبض على الكتب الواردة بذلك قبل ان تصل الى اصحابها ثم استدعاهم واعلنهم انها اوامر من جلالة السلطان بقتلهم ولم يطلعه على قباوا الاذعان الا ان اباهم لم يمنع قتلهم

ولما تأكد احمد باشا انه صار في مأمن من المقاومين صرح باستقلاله وامر ان يخاطب له وان تضرب النقود باسمه - وهو اول من طمع بالاستقلال من ولاية مصر في عهد الدولة العثمانية . لكنه بالغ بالعسف فاخذتس ممتلكات البعض وحبس البعض فنارت الافكار عليه حتى اصبحت حياته في خطر . وبينما كان ذات يوم في الحمام فاجأه اميران من امرائه كان قد امر بسجنهما وهما جهم الخمزاي ومحمود بك فكسرا باب السجن وخرجا رافعين العلم الشاهاني يستصران

الناس حتى أتيا الحمام فعلم الباشا بذلك ففر من السطح والتجأ الى احد مشايخ
عربان الشرقية واسمه ابن بقر فتعقبه أعداؤه حتى أدركوه وقطعوا رأسه وعلقوه
على باب زويلة ثم نقل الى الاستانة سنة ٩٣١ هـ

فارسل السلطان عوضاً عنه قاسم باشا وفي نيته تقصير مدة هؤلاء الولاة لئلا
يثور في خواطرم حب الاستقلال فبعد تسعة أشهر و١٤ يوماً استبدله بإبراهيم باشا
وكان نشيطاً محباً للإصلاح والنظام الا ان قصر مدته لم تمكنه من اتمام ما كان
شارعاً فيه فعزل واقيم بدلا منه سليمان باشا سنة ٩٣٣ هـ وكان السلطان راضياً عن
هذا الباشا واثقاً به فابقاه في الحكم تسع سنوات و١١ شهراً

وفي سنة ٩٤١ هـ استقدمه الى الاستانة ليمسكه قيادة حملة أعداء لمحاربة الفرس
والهند وقد أقام في اثناء حكمه بنايات كثيرة من جملة جامع سارية في القلعة .
وناب عنه في غيابه خمسو باشا نحو سنة وعشرة اشهر فماد سليمان باشا الى مصر
وبقي عليها بعد ذلك نحو سنة وخمسة اشهر

وفي سنة ٩٤٥ هـ عهدت باشوية مصر الى داود باشا فبقي عليها ١١ سنة
و٨ اشهر وكان رجلاً مستقيماً كرم الاخلاق محباً للعلماء آخذاً بنصرهم كافياً
بالمطالعة وعلى نوع خاص مطالعة المؤلفات العربية فجمع منها عدداً وافراً واستنسخ
كل ما ظفر به من الكتب غير المطبوعة فجمع مكتبة جميلة جداً . وكان الاهلون
في مدة حكمه في مجبوحة السعادة والامن وتوفي في القاهرة سنة ٩٥٦ هـ فتولى
مكانه علي باشا وهذا رمم وبني عدة بنايات عمومية في القاهرة وفي قوة ورشيد
واقضى به غيره من بكوات مصر فعملوا يشيدون الجوامع منها الجامع الذي ابتناه
عيسى بك في ديروط . وكان علي باشا محبوباً مكرماً عند المصريين بمنزلة الاب
لكنه مع ذلك لم يحكم الا اربع سنوات وستة اشهر . ففي سنة ٩٦١ هـ تولى باشوية
مصر محمد باشا وكان الناس ينفذونه فلم يحكم الا ثلاث سنوات . ولما زاد التشكي
منه عزل واستقدم الى الاستانة للمحاكمة فحكم عليه بالقتل سنة ٩٦٣ هـ

وبعد محمد باشا تولى اسكندر باشا فحكم ٣ سنوات و٣ اشهر ونصف . وفي
سنة ٩٦٨ هـ تولى علي باشا الخادم . وبعد ١٧ شهراً خلفه مصطفى باشا (الثاني)
في سنة ٩٦٩ هـ ثم في سنة ٩٧١ هـ تولاها علي باشا الصوفي سنتين و٣ اشهر . وكان
علي الصوفي قبلاً حاكماً في بغداد مشهوراً فيها باعوجاج الاحكام والحيانة . فلما
تولى مصر كثرت فيها السرقات والتعديات حتى غصت ضواحي القاهرة بالصوص

واخترقت فئة منهم المدينة حتى الجامع الابيض . فاضطرت الحكومة أن تقيم
سوراً من قنطرة الحاجب الى هذا الجامع منعاً لمثل ذلك

وفي شوال سنة ٩٧٣ هـ ابدل علي باشا الصوفي بمحمود باشا وهو آخر من
تولى مصر في أيام السلطان سليمان فجاء من الاستانة بموكب عظيم فاهدي اليه في
أثناء مروره من الاسكندرية الى القاهرة هدايا عظيمة . فلما وصل القاهرة لاقاه
الامير محمد بن عمر متولي الصعيد على قارب فيه جميع أنواع الهدايا وخسرون الف
دينار فأخذ الباشا الهدايا منه وأمر بخنقه حال خروجه من مجلسه . وأمر أيضاً
بخنق القاضي يوسف العبادي لانه لم يأت لملاقاته ولم يهده شيئاً واستمر على هذه
المظالم حتى قتل معظم أعيان القاهرة فكان لا يمر الا ومعه الشوباصي (رئيس
الجلادين) فاذا مرّ بأحد وأراد قتله أشار بيده الى الشوباصي فيعمد حالاً الى ذلك
السبي الطالع فيعدمه الحياة بأسرع من ملح البصر

وفي ٣ رجب سنة ٩٧٤ هـ توفي الامير ابراهيم الدفتردار وكان اميراً للحج
فاستولى محمود باشا على مترك من المال والماليك والجواري وجملة ذلك مائة الف
دينار ضمها الى المال الذي يرسل الى الاستانة سنوياً وبعث معها هدايا ثمينة للسلطان
وووزرائه استجلاباً لحاطرم . لكنه لم ينتفع من ذلك قبل أن قتل في يوم الاربعاء
غاية جمادى الاولى سنة ٩٧٥ هـ وهو مار في موكبه الاعتيادي بين البساتين . ولم
تقف الحكومة على القاتل فلم تمت اثنين من الفلاحين وقتلتهما ظلماً لانهما وجدا
بقرب مكان القتل . وكان السلطان سليمان قد توفي قبل ذلك بسنة (صفر سنة
٩٧٤ هـ) وسنه ٧٤ سنة ومدة حكمه ٤٨ فتولى بعده ابنه سليم شاه « الثاني » في
٩ ربيع أول من تلك السنة

وترى في الشكل الخامس نقود السلطان
سليمان ضربت في القسطنطينية سنة ٩٢٦ هـ .
وعما يحسن التنبيه اليه أن سلاطين آل عثمان
لا يؤرخون نقودهم الا بسنة جلوسهم على
السلطنة وليس بسنة ضربها



ش ه : نقود سليمان القانوني

سلطنة سليم بن سليمان

من سنة ٩٧٤ — ٩٨٢ هـ او من ١٥٦٦ — ١٥٧٤ م

فلما بلغ السلطان سليم شاه موت محمود باشا امر بنقل سنان باشا من باشوية حلب الى باشوية مصر . وبعد وصوله اليها بتسعة أشهر انقذه لحاربة اليمن فسار سنان من مصر في ٤ شوال سنة ٩٧٦ هـ ومعه حمزة بك ومالكي بك وغيرهما من امراء مصر واستخلف على مصر اسكندر باشا الشركسي . ومكث سنان باشا في تلك الحملة سنتين و ٤ أشهر ففتح اليمن وعاد ظافراً الى مصر فرأى الاحوال هادئة والنظام مستتباً بدراية اسكندر باشا المذكور لانه كان حكماً محباً للرعية فرفع الضرائب عن الفقراء والعاجزين والقسم الاعظم من طلبه العلم وكان شديد التعلق بالعلم وذويه . فلما عاد سنان باشا الى مصر (اول صفر سنة ٩٧٩ هـ) عادت احكامها الى يده فاهتم بتأييد النظام وحفظ رونق البلاد فأعاد حفر قرعة الاسكندرية ورمم وبني فيها جامعاً وشارعاً وعدة حمامات . وبني في بولاق بمصر شارعاً ووكلات وجامعاً لا يزال معروفاً باسمه . وما زال على مصر الى ذي الحجة سنة ٩٨٠ هـ تخلفه حسين باشا وكان على جانب من اللطف والدعة وحب العلم والادب ولا يعاب الا لكثرته حمله الامر الذي آل الى تكرار اللصوص في ولايته ولم يحكم الا سنة وتسعة أشهر . وفي أيامه توفي السلطان سليم شاه (سليم الثاني)



في ٢٨ شعبان سنة ٩٨٢ هـ بعد ان حكم ثمانين سنين وخمسة اشهر و ١٩ يوماً

وترى في الشكل ٦ صورة تقود السلطان

سليم الثاني مضروبة في حلب بتاريخ سنة ٩٧٤ هـ ش ٦ : تقود السلطان سليم الثاني

سلطنة مراد بن سليم

من سنة ٩٨٢ — ١٠٠٣ هـ او من ١٥٧٤ — ١٥٩٤ م

وفي ١٠ رمضان ببيع ابنه مراد خان (مراد الثالث) وحال جلوسه على كرسي السلطنة ولي على مصر بدلا من حسين باشا مسيح باشا وكان خزانداراً عند السلطان سليم الثاني فحكم في مصر خمس سنوات وخمسة اشهر ونصف ووجه اهتمامه

خصوصاً الى ابطال السرقات والتعديات فكان يقبض على اللصوص ويقتلهم بدون شفقة حتى بلغ عدد من قتل من اللصوص عشرة آلاف فارتاحت البلاد من شرورهم . ثم عكف على اصلاح شؤون الرعية وكان نزيهاً لا يقبل الرشوة ولا الهدية . ومن آثاره مسجد عظيم في ضواحي القرافة لا يزال يعرف باسمه . وقد بناء على اسم الشيخ نور الدين القرافي وجعله له ولنسله ملكاً حراً وخصص دخلاً معيناً للنفقة عليه . وأمر مسيح باشا أن تسهل الاوامر والالتابات الرسمية والاحكام بهذه العبارة « الحمد لله والصلاة والسلام على نبينا وآله وصحبه ان المؤمنين اخوة فاحفظوا السلام بين اخوتكم واتقوا الله »

وفي سنة ٩٨٨ هـ ولي مصر حسن باشا الخادم خزاندار السلطان مراد الثالث فلم يكن همه الا جمع الاموال بأية وسيلة كانت واعادة ما كان حظره سابقه من الرشوة والهدايا . فبقي على ولاية مصر سنتين وعشرة أشهر . ولما عزل عنها سار من القاهرة خفية وطلع من باب المغارب لثلاث ينتم منه أهلها . وفي سنة ٩٩١ هـ خلفه ابراهيم باشا فأخذ يستطلع ويتحرى ما أتاه سابقه من الاختلاس فجعل في جامع السلطان فرج بن برقوق موظفاً خصوصاً لاستماع تشكيات المتظلمين على الوالي السابق من ١٠ رجب من تلك السنة الى غاية رمضان فاطلع على مظالم لا تحصى من جملة ١٠٠ ٤٤٢ أردب قمح من الشون العمومية باعها حسن باشا واستولى على قيمتها فرفع ابراهيم باشا تقريراً مدقفاً بشأن ذلك الى السلطان فأمر بقتله ختفاً . ثم طاف ابراهيم باشا بنفسه يتفقد أحوال المديرين ويتحقق حالها وزار أيضاً آبار امروود في الصحراء ورمم بعضها . وفي عودته الى القاهرة استقال من منصبه سنة ٩٩٢ هـ وتولى مكانه سنان باشا الثاني وكان دفتداراً . وبعد ستة اشهر وعشرين يوماً برح مصر هارباً وسبب ذلك أنه أساء التصرف فاشتكاها الناس الى الاستانة فجاء أويس باشا الى مصر ليتحرى تلك التشكيات فلما علم سنان بحقيقته فرّ هارباً

فتولى أويس حكومة مصر سنة ٩٩٤ هـ وكان صارماً في الاحكام . وكان في أول امره قاضياً ثم صار دفتداراً في الرومي ثم نقل الى باشوية مصر كما تقدم . وبقي عليها خمس سنوات وخمسة اشهر وعشرة أيام وأراد ان يدرب الجنود فقصوه وهجموا عليه في الديوان في ٢٨ شوال سنة ٩٩٧ هـ وأهانوه ونهبوا بيته وفي جملة ما نهبوا منه ساعة كبيرة تعرف منها الايام . ثم ذبحوا الامير عثمان قائد وجاق الجاويشية واخربوا بيت قاضي العسكر وقتلوا قاضيين من قضاة مصر ثم عمدوا الى الخوانيت فنهبوا

كل ذلك والامراء لا يستطيعون منعهم والاضطراب يزداد والثائرون يتمردون وقد حاول الدفتردار ايقافهم عند حدم فذهب سعيه باطلا . ثم ظن أويس باشا انه اذا جاءهم بالحسنى ربما يلينون فبعث الى القضاة أن لا يخافوا لهم أمراً فلم يزدحم ذلك الا عناداً وفجوراً حتى قبضوا على أولاد الباشا رهناً لما يريدون فاضطر الباشا الى الاذعان لما أرادوا وأعطاهم ما طلبوه واستقال من تلك الولاية بعد أن مل من خيبة مساعيه الحميدة فيها . فتولى مكانه حافظ احمد باشا سنة ٩٩٩ هـ وكان حاكماً في قبرص وعلى جانب عظيم من حب العلم وطالبيه حاذقاً مدرباً في امور الاحكام . وكان رفيقاً بالاهلين ففرق الحسنات على الحجاج الفقراء وابتنى في بولاق وكاليتين



وعدة قيصريات وعدة بيوت وخصص ربيع دخلها لعمل الخير وبقي حاكماً في مصر ٤ سنوات

ش ٧ : نقود السلطان مراد بن سليم



وترى في الشكلين ٧ و ٨ صورة نقود السلطان مراد بن سليم مضروبة في القاهرة بتاريخ سنة ٩٨٢ هـ

ش ٨ : نقود السلطان مراد بن سليم

سلطنة محمد بن مراد

من سنة ١٠٠٣ - ١٠١٢ هـ أو من ١٥٠٤ - ١٦٩٣ م

وفي ١٧ رمضان سنة ١٠٠٣ هـ تولى الخلافة في الاستانة السلطان محمد بن مراد (محمد الثالث) عوضاً عن أبيه مراد الثالث

فولى على مصر قورط باشا فلم يبق فيها الا سنة وثمانية أيام وكان الناس يحبونه للطفه ودعته وتنشيطه لطالبي الادب ومساعدته للفقراء ولكل من يلتجئ اليه . وفي شوال سنة ١٠٠٤ هـ خلفه السيد محمد باشا وبقي على الحكومة سنتين اتبع في اثنائها خطة أسلافه في تنشيط العلم والادب فأعاد بناء الجامع الازهر وجعل فيه وظائف يومية من العدم المطبوع تفرق في الطلبة الفقراء ورمم المشهد الحسيني . ومع كل ما كان يتوخاه من السعي في حفظ النظام بين الاهلين لم يمكنه انقاذهم من

ينتظرون عوده . ثم قاموا من هناك يريدون مهاجمة في قلعة الدولاب وكانوا قد علموا بالتجائه اليها . فلما علم هو ومن معه من السناجق بقدوم تلك العصابة تشاوروا فيما بينهم فنصح له السناجق أن يسافر بجرأ قبل أن يصل اليه ضم فلم يصغ لهم وتشدد بمن معه من الجاويشية والمتفرقة

ثم جاءت الجنود النائرة وأحاطوا بالقلعة وبغشوا من بينهم ١٥ رجلاً ليأتوا برأس الباشا فدخل هؤلاء القلعة والسيوف مشرعة في أيديهم حتى جاؤا مجلسه فاتهم قائلاً « ماذا تريدون ألم تستولوا على مرتبانكم والانعام الذي يعطى اعتيادياً عند تولية الحكم عليكم فاذن تطلبون ؟ » فاجابوه « لا نطلب منك شيئاً الا رأسك » قالوا هذا وصفه احدثهم على وجهه وأدركه الباقون بالطعن مراراً . ثم عمد احدثهم الى رأسه فقطعه . فاتهمهم الامير محمد بن خسرو ووبخهم على ما جاءوا به من الفجة فلم يجيبوه الا بما أجابوا ذلك وأخذوا رأسي الاثنين وعادوا بهما الى رفاقهم حول القلعة . ثم حملوهم وداروا بهم شوارع المدينة الى أن علقوها على باب زويلة وكان قد تعود مثل هذه الاكاييل



ش ١٢ : جامع السلطان احمد بالاستانة

وفي ذلك اليوم أقاموا عليهم عثمان بك فلم يقبل فولوا قاضي العسكر مصطفى افندي فلما علم ديوان الاستانة بقتل ابراهيم باشا أرسل عوضاً عنه الوزير محمد باشا الكورجي الملقب بالخدام . وحال وصوله القلعة وردت الاوامر الصارمة من الباب العالي الى جميع السناجق ان يستطلعوا اصل الثورة واسبابها ويقبضوا على زعمائها . فاجتمع السناجق والقسم الاعظم من الجيش في قراميدان وكان الباشا في القلعة فبعث

يستقدم السناجق اليه ليلفهم هذه الاوامر رسمياً فرفضوا المثول بين يديه فتوسط الامراء ووعدوا السناجق انهم اذا سلموا القاتلين نجوا ونالوا العفو العام فقبلوا وسلموا القاتلين الى الباشا فأمر بقطع اعناقهم بين يديه حالا واطلق السناجق. تخاف الثأرون وضعف عزمهم ولا سيما لما رأوا من محمد باشا التيقظ لحفظ النظام ومعاقبة المعتدين وقد قتل منهم نحواً من مائتي رجل في مدة حكمه القصيرة التي لم تدم أكثر من سبعة أشهر وتسعة أيام

فتولى بعده الوزير حسن باشا وهو أقل صرامة من سلفه فكان يعامل الجند بالحسنى وكان ابنه فيهم برتبة بكاريكي وكانت الاحوال هادئة جداً في أثناء حكمه. ثم تولى بعده الوزير محمد باشا في ٧ صفر سنة ١٠١٦ هـ وبقي على حكومة مصر اربع سنوات واربعة أشهر و١٢ يوماً وكان حكيماً حازماً أخذ منذ وصوله القاهرة في المحافظة على السلام فنجى الاهلين مما كان يكدر راحتهم فاكتسب ثقتهم ومحبتهم الا انه لم ينج من الحساد وذوي الاغراض

وفي أواخر شوال من السنة التالية نارت عليه الجيوش واجتمعوا في برج سيد احمد البدوي وتحالفوا ان لا يوافقوه على الغاء الضرائب غير العادلة التي كانت مضروبة على القطر الى ذلك العهد. ثم اختاروا من بينهم رئيساً ولوه عليهم سلطاناً وتقاسموا مصر الى اقسام تولى كل واحد منهم ائارة الشعب والنهب في قسم منها فانتشرت تمديباتهم في جميع الدلتا. فلما علم محمد باشا بذلك جمع السناجق والجوابشية والمتفرقة وسارهم تحت قيادته لردع العصاة في ٩ ذي الحجة سنة ١٠١٧ هـ وأخذ معه ستة مدافع وانضم اليه كثير من مشايخ العرب وفي الليلة التالية عسكر الجميع في بركة الحج

وفي الصباح هاجموا العصاة في الخانقاه فضيقوا عليهم بالنيران فاضطر اولئك الى التسليم فأخذ عليهم الباشا عهداً اولها ان يسلموا اليه سلطانهم وكبار رؤسائهم ووعدهم بالتأمين على حياتهم فقبلوا وسلموا الرؤساء وعددهم نحو ٧٧ فأمر بقتلهم حالا. ثم جرد الباقين من سلاحهم فتفرقوا فتهقبهم رجال الباشا وقتلوا من ظفروا به منهم. فلما رأى قاضي العسكر محمد انندي الملقب ببخشي زاده ما كان يحصل من امثال هذه المذابح يومياً نصح للباشا ان ينفي كل من يقبض عليه منهم الى اليمن ففعل وكانت النتيجة حسنة وبطلت التعديات

ولما ارتاح محمد باشا من تلك الثورات اخذ في اصلاح الادارة المالية فتفحص

ثورة عسكرية انتشرت في غرة رجب سنة ١٠٠٦ هـ في سائر أنحاء القطر المصري. ثم اجتمع العصاة الى القاهرة وكان السيد محمد باشا اذ ذاك في منزله في بركة الجيزة فعاد الى القاهرة تحف به السناجق وزمرة من الحفراء فلم يبال العصاة بذلك بل أطلقوا عليه النار ولم يتخلص من أيديهم الا بعد شق الانفس. فسار الى أحد منازل فتبعوه وحاصروه هناك ليلاً ونهاراً وألحوا عليه أن يسلمهم بعضاً من ضباطه وفي جهنم دالي محمد أحد كبار الامراء والامير جلال الشوباسي والامير خضر كاشف المنصورة فطلب اليهم أن يمهلوه ثلاثة أيام. فلما جاءهم رسوله قالوا له « سيحكم الله بيننا وبين مولانا » وتفرقوا في المدينة فظفروا بقاضي العسكر عبد الرؤوف قاجروه على القيام بمطالبهم. اما الباشا فاغتم اشتغالهم بذلك الشأن



ش ٩ : والي مصر في موكبه بالقرن العاشر للهجرة

وفرّ من منزله ودخل القلعة وأقفل ابوابها ورااه والنجا الى حسين باشا السكراني قائد عموم الجيش وبيري بك أمير الحج فحاولا تسكين الثورة فذهب سعيهما عبثاً. ثم علما ان العصاة قتلوا الامير محمد بك والدالي محمد وعلقوا راسيهما على باب زويلة ونهبوا بيتيهما وأنحنوا في الناس قتلاً ونهباً

وفي ١٧ ذي الحجة سنة ١٠٠٦ هـ ابدل السيد محمد باشا بخضر باشا فحكم ثلاث سنوات و١٢ يوماً وقد أغضب الاهلين منذ وصوله القاهرة لانه أمر بقطع الاعطيات والجرایات التي كانت توزع على العلماء والفقراء من الخنطة ولم يقتصر على الاتباع هؤلاء. الضمفاء بل تجاوزهم الى الضابطة فاحرمهم زادهم فتجهروا في

٢٠ رمضان سنة ١٠٠٩ هـ وساروا الى قاضي العسكر . ثم اتحدوا والقاضي في مقدمتهم وتوجهوا الى الديوان يريدون الانتقام فقتلوا كخيا الباشا وامراء آخرين تخاف الباشا فسلم لهم بما كانوا يطلبونه وأعاد لهم الاعطيات كما شاؤوا وخذت الثورة وعادت المياه الى مجاريها . الا ان الباشا لم يلبث هنيئة حتى جاءه الامر بالاقالة فاستقال وولي مكانه الوزير علي باشا السلحدار وكان محباً للحرب ولذلك كان يكرم الجند على الخصوص لكنه كان سفاكاً للدماء فتظلم الناس من قسوته ولم يكن يخرج في موكبها الى المدينة او ضواحيها الا ويبيت على الأقل عشرة أشخاص تحت حوافر جواده فكان الناس يرتعدون خوفاً من ذكر اسمه . ورافق كل ذلك جوع عظيم فكثر الوفيات وعم الخراب . فازداد الرعب حتى امر الباشا أن تدفن الموتى سرّاً اما هو فترك القاهرة فراراً من تلك الفائلة



ش ١٠ : نقود السلطان محمد بن مراد ضربت في القاهرة



ش ١١ : نقود السلطان محمد بن مراد مضروبة في دمشق

واستخلف عليها يري بك . وبعد يسير توفي هذا فانتخب السناجق الامير عثمان بك ليقوم مقامه وبقي هذا حتى عين الباب العالي من يخلف علي باشا وكان ذلك التغيير بسبب وفاة السلطان

محمد الثالث في ١٦ رجب سنة ١٠١٢ هـ . ورى في الشكين ١٠ و ١١ صورتين من نقود السلطان محمد بن مراد الاولى مضروبة في القاهرة والثانية في دمشق

سلطنة احمد بن محمد

من سنة ١٠١٢ - ١٠٢٦ هـ او من ١٦٠٣ - ١٦١٧ م

فصب ابنه احمد بن محمد (احمد الاول) فولى على مصر ابراهيم باشا . حكم فيها مدة قصيرة انتهت بخطب جسيم - وذلك انه منذ وصوله اليها عزم على ابطال طلبات الجند ولما أراد انفاذ ما نواه زادت الجنود تمرداً . وفي ٣٩ ربيع آخر سنة ١٠١٣ هـ علموا ان الباشا خرج من القاهرة في زمرة من رجاله وركب النيل الى بولاق قاصداً شبرا قرب جسر ابي المنجا . فاجتمعوا في ضواحي القرافة وتعاقدوا بالامعان المغلظة على قتله . وفي الصباح التالي جاؤا وعسكروا في بولاق

١٠٢٧ هـ فقتل الثأرون عدداً كبيراً من الامراء والاغوات وغيرهم من الكبراء واضطر الباقون الى الفرار ولم يسكن الاضطراب الا بعزل مصطفى باشا بأمر السلطان عثمان . فتولى مكانه الوزير جعفر باشا وهذا لم تطل حكمته أكثر من خمسة أشهر ونصف . وكان محباً للعلم والعلماء . يجمع اليه رجال الادب ويكرم مثواهم ولم يهتم كل تلك المدة الا بما فيه منفعة البلاد وراحة العباد

وظهر في ايامه وباء انتشر في مصر وقتك بأهلها فتكا ذريعاً من غاية ربيع أول سنة ١٠٢٨ هـ الى غاية جمادى الثانية من السنة المذكورة وقد لوحظ أن معظم الذين ماتوا بهذا الوباء شبان ما بين الخامسة عشرة والخامسة والعشرين وبلغ عدد من توفي بسببه ٣٦٥٠٠٠ نفس

وتولى بعد جعفر باشا مصطفى باشا فقبض على مصطفى بك الملقب بالكلجي زعيم الثورة التي نشأت في أيام مصطفى باشا لفلي وحكم عليه بالاعدام . فسر الناس بذلك لان مصطفى بك المذكور كان أصل متابعهم . على ان سرورهم لم يلبث أن ظهر حتى أبدل بالكدر لان مصطفى باشا حاكمهم الجديد اضطهد تجارهم وضيق عليهم مسالك رزقهم . فرفعوا تظلماتهم الى السلطان فنظر في دعواهم وانصفهم فعزل ذلك الباشا وولى حسين باشا . فبادر هذا الى ابطال جميع الضرائب غير العادلة التي كان قد ضربها سلفه . وفي ايامه ارتفع انيل ارتفاعاً فوق العادة فطاف على الارض وأغرقها حتى يئس الناس من البقاء لنهاية ذلك الطوفان . وأصابهم ضيق عظيم عقبه طاعون شديد . ثم عزل حسين باشا واستقدم الى الاستانة وقبل وصوله اليها خلع السلطان عثمان الثاني يوم الخميس ٨ رجب سنة ١٠٣١ هـ واعيد مصطفى الاول الذي كان قبله

أما الباشا المعزول فوصل الى الاستانة في اسعد الاوقات له لان اعراض السلطان السابق عنه كان داعياً لرغبة السلطان الجديد في تقريبه منه فاتفقت الاحزاب هناك على توليته الصدارة العظمى . وكان عثمان الثاني قبل وفاته قد بعث الى مصر محمد باشا بدلا من حسين باشا لكنه لم يصل مصر الا بعد ان أني . أهلها بما كان يأتيه في الرومي يوم كان والياً عليها فنفروا منه وخافوا من تصرفه . ولحسن حظهم لم يبق بينهم الا شهرين ونصف شهر فلما تولى حسين باشا الصدارة العظمى عزله بأمر السلطان مصطفى الاول وولى ابراهيم باشا . وبقي هذا على مصر سنة وقد تمكن بحسن سياسته وتدييره من اكتساب رضى الاهلين وثقتهم

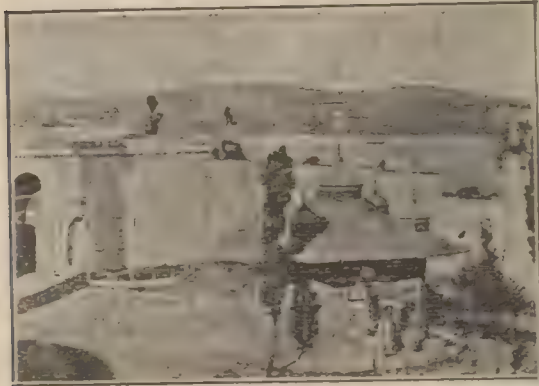
الا انه حصل في ايامه ضيق عيش وغلت اسعار المأكولات جداً
ولما عزل ابراهيم باشا سافر الى الاسكندرية بجرأ خلافاً للعادة الجارية في من
سبقوه على حكومة مصر فانهم كانوا اذا عزلوا من مناصبهم سافروا برأ . وتولى
مكانه مصطفى باشا واستلم زمام الاحكام في ٢٢ رمضان سنة ١٠٣٢ هـ فأنه كتب
الديوان يشكو تصرف سلفه وقالوا انه مدين للخزينة بمبلغ وافر فأرسل في أثره
بعض الجاويشية فالتقوا به فهددهم بالقتل اذا لم يعودوا عنه فخافوا وعادوا الى
القاهرة فأرسل الأمير صالح بك فأدركه وقد نزل البحر في الاسكندرية فأوعز
اليه أن يقف فأجاب أنه متوجه الى الاسكندرية فاذا كان عليه شيء يدفعه هناك الى
السلطان نفسه . قال ذلك ونشر الشراع فمخرت به السفينة فأطلقوا عليه من طاية
منارة الاسكندرية بعض الطلقات المدفعية فلم يبال بها

سلطنة مراد بن احمد

من سنة ١٠٣٢ - ١٠٤٩ هـ او من ١٦٢٣ - ١٦٤٠ م

فبلغ الاستانة والسلطان مصطفى الاول قد خلع وتولى مكانه السلطان مراد
الرابع ابن احمد فلم يتعرض له احد . وبعد تولية مصطفى باشا بثلاثة اشهر أي
في ١٥ ذي الحجة ورد الى القاهرة الامر بعزله وتولية علي باشا مكانه . فاجتمعت
الاجناد وساروا الى القائعام عيسى بك يطلبون الاعطاءات التي تفرق عند تولية
كل وال جديد فانهم عيسى بك قائلاً « أتى كل ثلاثة اشهر تجددون هذه
الطلبات » فأجابوه « وما المانع ؟ ألم يغير مولانا السلطان كل ثلاثة اشهر والياً
علينا . ألا يضر ذلك بمصلحة البلاد واذا أراد ان يولي كل يوم والياً فمن أين يأكل
يوم نطلب الاعطاءات التي لنا » . فحاول القائعام اقناعهم فلم ينجح ولم يزددهم ذلك
الا عناداً وتهديداً وصرخوا جميعاً بصوت واحد « نحن لا نرضى حاكماً آخر غير
مصطفى باشا ويرجع هذا الى حيث أتى » ثم قرأوا الفاتحة وأقسموا ان يحافظوا
على ما قالوه وان لا يبحث احد منهم بذلك وبناءً عليه أعيد مصطفى باشا الى منصبه
فلما رأى الحزب العسكري معه كتب الى السلطان يطلب تنصيبه وأرفق الكتاب
برسائل عديدة ممضاة من علماء القاهرة ومشايخها وقضاها وجميعهم يطلبون تنصيبه .
ثم بلغهم وصول علي باشا الى الاسكندرية فبعثوا اليه وقد أبلغوه ان الجند والاهلين
متفقون على رفضه فجمع الوفد اليه ودفع اليهم كتباً كلها مدح واطناح للامراء

بنفسه النفقات التي كانت تدفع من الخزينة واقتصد منها كل ما لم يكن ضرورياً .
ثم نظر الى الضرائب فأبطل طريقة المليك الشراكية فيها واتبع القوانين التي
صدرت سنة ٩٣٢ هـ في زمن السلطان سليمان القانوني ثم نظم المكوس وعدلها ولم
يكن يكلف نفساً الا وسعها فاذا رأى ارضاً لا تقوى على القيام بما فرض عليها من
المكوس تنازل لها عنه وساعدها في احياء موانئها . ولما برح مصر نال من المكافات
والانعامات ما لم ينله احد من اسلافه في مصر . وتولى بعده محمد باشا الملقب
بالصوفي وكان يحب العلماء ورجال الفضيلة وكان ورعاً حليماً عفيفاً لم يقبل رشوة ولم
يأت ظمناً الا انه كان ملوماً لزيادة ضعفه بما يتعلق بحبوه يوسف الذي كثيراً ما
تعدى حدوده



ش ١٣ : سبيل السلطان احمد بالاستانة

وفي سنة ١٠٣٢ هـ ارسل الصدر الاعظم عشرة آلاف جندي الى اليمن لاختاد
ماكان ثاراً من الشعب هناك وارسلت الفرقة المذكورة عن طريق مصر ومعها امر
سام الى الباشا بدفع النقود اللازمة لها وتشجيع الحملة الى اليمن . فلما وصلت الجيوش
الى مصر وعلموا بما ورد من الاوامر بشأنهم ادعوا انهم جاؤا ليقوموا في مصر ولم
يدعوا لاورامر الباشا بالسفر فاتخذوا لهم منازل في مخازن باب النصر وطرردوا
بعض اصحابها منها فاجتهد الباشا أن يحملهم على التسليم بالاوامر الواردة اليه بشأنهم
فذهب سعيه باطلا وقاموا المتأريين في أبواب الحارة وأقفوا باب النصر ونصبوا

المدافع في برجيه فاضطر الباشا الى محاصرتهم بكل ما لديه من الوجاقات والمدافع فتمكن الامير عابدين بك من الدخول الى حصنهم من باب في المدرسة المدعوة بالجانبلاطية تخاف العصاة وسلموا ففرق فيهم الباشا نحو ثمانين كيساً وسافروا وبعد يسير اقليل محمد باشا الصوفي فاعزل في قبة العدلية ولم يبرحها الا بعد أن علم بوصول خلفه احمد باشا دفتردار مصر سابقاً الى الاسكندرية ثم جاء القاهرة ودخلها بموكب حافل . وبينما هو بموكبه في المدينة رماء بعض الناس بحجر من سطح بعض البيوت فكسر الهلال الذي كان فوق عمامته ولم يؤذ فأمسك الفاعل فاعترف بذنبه فقتل في ذلك المكان

وفي محرم سنة ١٠٢٥ هـ ورد الى الباشا المذكور امر من الاستانة أن يرسل الفأ من جنود مصر لتنضم الى الجيش العثماني الذاهب لمحاربة الفرس . فأرسل تحت قيادة صالح بك أمير الحج فساروا على أتم نظام ومروا بالمديريات ولم يشعر الاهالي بمرورهم لما كان لهذا الباشا من النفوذ وما أقامه في مصر من النظام مع اعطائه الجيوش حقهم من المرتبات . ولم يكن يتيسر قبل ذلك مرور مائة رجل بمقاطعة واحدة ما لم ينهبوها . فالتفت هذه الفرقة بالجيش العثماني في الخانقاه وانضمت اليه ولما ودع الباشا عساكره فرق فيهم المال فأصاب الواحد منهم ٢٠ ديناراً على الأقل

وكانت مدة حكم احمد باشا سنتين وعشرة أشهر واثني عشر يوماً ولم يقتل في أثناءها أكثر من عشرة أشخاص ارتكبوا أموراً استوجبوا من اجلها القتل ولم يكن يحكم على أحد الا بعد البحث الدقيق واستماع تقارير الدعوى من الطرفين

سلطنة مصطفى بن محمد ثم عثمان بن احمد ثم مصطفى بن محمد ثانية

من سنة ١٠٢٦ - ١٠٣٢ هـ او من ١٦١٧ - ١٦٢٣ م

وفي يوم الاربعاء ٢٣ ذي القعدة سنة ١٠٢٦ هـ توفي السلطان احمد الاول وبويع أخوه السلطان مصطفى الاول ويوم مبايعته استبدل احمد باشا بمصطفى باشا لفغلي . لكن السلطان مصطفى لم يمكث على عرش السلطنة الا ثلاثة أشهر وثمانية أيام . وفي يوم الاربعاء ٣ ربيع أول سنة ١٠٢٧ هـ خلفه ابن اخيه ابو النصر عثمان . أما الوزير مصطفى باشا فلم يبق على مصر بعد خلع السلطان الذي ولاه الا بضعة أشهر لانه سهل النفوذ لذويه في الاحكام فنشأت ثورة عسكرية في ٧ شوال سنة

والجيوش فعاد الوفد وقرأ تلك الكتب على الجند فلم يكن جوابهم الا اعادة الوفد ليعيدوا مطالبهم الاولى . فلما رأى اصرارهم استشاط غضباً وأمر فقبض على ذلك الوفد وقيدهم الى قلعة الاسكندرية مغلولين وزجوا في سجنها فتأمرؤا مع جند الاسكندرية وكانوا من حزبهم فخلوا وناقهم وهجموا جميعاً على علي باشا وقوضوا خيمته واجبروه على الخروج من الاسكندرية حالا فانزلوه في قارب مخصوص واخرجوه من الميناء وكانت الريح ضده فاعادته ثانية فاطلق عليه الامير مصطفى من قلعة المنارة عدة طلقات فقتل سفينة ثقبوا لم تفرقها لكنها اخرجتها من الميناء ولقب الامير مصطفى من ذلك الحين بالطبيجي

وفي ٢٠ ربيع آخر سنة ١٠٣٣ هـ جاء القاهرة كتاب بحمله حمام الزاجل - وهو يريد تلك الايام - خواء قرب وصول مندوب عثماني ومعه الاوامر السلطانية . وبعد أيام وصل ذلك المندوب ودخل القاهرة وجمع السناجق والامراء وكبار الموظفين في الديوان والبس مصطفى باشا الخلع المرسلة اليه من السلطان . ثم تلا عليهم الفرمان بتثبيته على مصر . وفي السنة التالية زاد النيل زيادة فوق العادة فبلغ ٢٤ ذراعاً تخاف الناس ان لا ينحسر الماء عن اراضيهم في زمن يمكنهم فيه زراعتها . لكنه أخذ في الهبوط بسرعة فانكشفت الارض وزاد خصبها

الوباء وبيرام باشا

ولم تكد مصر تنجو من الجوع حتى دامها ما هو أصعب مراساً منه - نعي الوباء - فانه ظهر فيها باوائل ربيع أول سنة ١٠٣٥ هـ وأخذ ينتشر في جميع انحاءها بسرعة . وفي شعبان من تلك السنة أخذ بالتناقص ولم ينقص الا في اوائل رمضان . قال بعضهم ان الذين ماتوا بسبب هذا الوباء ثلاثمائة الف نفس . فتذرع الباشا بهذه الضربات لاختلاس اموال الناس فجعل نفسه وريثاً لكل من مات بالوباء من الاغنياء فاستولى على تركاتهم فتظلم الورثاء الى الاستانة . ولا يخفى ان هذا الباشا لم يتول مصر الا رغم ارادة الباب العالي فاغتم هذه الفرصة فمزله وولى ييرام باشا نجاه وحاكم مصطفى باشا وحكم عليه بدفع الاموال التي اختلسها فباع كل ماله من المتاع والمقتنيات ودفع ما عليه . ولما عاد الى الاستانة (سنة ١٠٣٧ هـ) حكم عليه بالاعدام

ولا يخفى ان محاولة الجيوش والامراء عزل وتولية باشوات مصر بمجرد

ارادتهم مخالف للنظام ومغاير لما وضعه السلطان سليم الفانح لكل فئة من فئات مصر الحاكمة من الحدود . فكانت موافقة الباب العالي على مطالب الامراء خرقاً للحدود السابقة . وعلى ما تقدم حصل بعض التعديل في القواعد الاساسية التي سنّها السلطان سليم الاول منذ قرن . وكان يرّام باشا محباً للعلم والعلماء لكنه كان اكثر كجاً بجمع المال واقامة المشاريع المفيدة وتنشيط التجارة على انواعها فاكثر من الضرائب حتى على الصابون وكان حازماً لم يترك للجند فرصة للتمرد فهذأت مصر في ايامه

محمد باشا وموسى باشا

ثم استدعي الى الاستانة وعين وزيراً في ديوانها وهذه هي المرة الثالثة لتعيينه في ذلك المنصب . فتولى بعده الوزير محمد باشا فساس الامور بحكمة ودراية وكان محباً للعزلة فلم يخرج بموكبه في أثناء حكمه التي هي نحو سنتين الا ست مرات . واتصل به ما اصاب اليمن من الشعب الناتج عن سوء السياسة مع القبائل البدوية فعرض على السلطان اخضاعها وتعهد بارسال فرقة من رجاله بقيادة قنسو بك امير الحج لهذه الغاية . فاجابه السلطان الى ما طلب وولى قنسو بك على اليمن مع رتبة باشا وجعله بكريكي (امير الامراء) على الجيش . فانشأ قنسو جيشاً من ثلاثين الف مقاتل وقبض مبلغاً كبيراً ليدفع منه نفقات الحملة وبمد ان قبضه توقف عن السفر وترك جيشه بمصر يسلبون وينهبون ويقتلون الاهلين ويتعرضون للمسافرين . ولحسن الحظ كان بين تلك الجيوش الف رجل من الرومي جاؤا للاشتراك في تلك الحملة تحت قيادة الامير جعفر آغا فاحدوا تلك الثورة والزموا قنسو بك ان يسير بهم الى اليمن في محرم سنة ١٠٣٩ هـ فسار وحارب وقاز . وبعد سبعة اشهر من سفر تلك الحملة (في ١٩ شعبان) طاف على مكة سيل من الماء أغرق القسم الاعظم من ارضها حتى السكبة فهدم معظم بناؤها ولم يبق من جدرانها الا الايمن . فاقبل ذلك بوالي مصر فواصله للسلطان مراد الرابع فانفذ السلطان الى محمد باشا يعهد اليه ترميمها ففعل . فبلغت جميع النفقات نحو مئة الف قرش

وفي سنة ١٠٤٠ هـ كان ارتفاع النيل قليلاً فجاء شهر نوت ولم يبلغ ١٦ ذراعاً ومع ذلك فتح الخليج وسيقت المياه قليلة الى الارضين ولكن البلاد أمنت من الجوع بتدبير محمد باشا . وفي هذه السنة استدعي محمد باشا الى الاستانة وقلده

السلطان منصب الوزارة في الديوان الشاهاني مكافأة لحسن سياسته ودرايته . وتولى مكانه في مصر موسى باشا . وكان للاهلين في بادىء الرأي ثقة فيه وكانوا يحبونه ويحبون قدره فخرجوا للافاقة في شبرا لكنه لم يكذب يمكن قدمه حتى استسلم لهواه . فاخذ في الاختلاس والاستبداد بانفس العباد قامر بقتل اكبر رجال مصر بغير وجه حق وجعل يراقب سير اغنيائها ويترصدهم خطواتهم لعله يجد سبيلاً للاستيلاء على رؤسائهم

وفي شعبان من تلك السنة بعث السلطان يطلب اليه أن يعد حملة من جنده لمحاربة الفرس فجمعها تحت قيادة قيطاس بك وضرب على البلاد ضرائب فاحشة باسم اعانة حرية . ولما وصلت تلك المبالغ اليه زعم ان مصر لا يمكنها تجريد مثل هذه الحملة لان مالياتها لا تسمح لها بدفع النفقات اللازمة . فنصح له قيطاس ان يتبع الاستقامة وهي افضل له فذهبت أقواله عبثاً . ثم أوجس موسى باشا خيفة من قيطاس بك لانه اطلع على فظائعه فاستدعاه الى القلعة في عيد الاضحى يوم الاربعاء في ٩ ذي الحجة وامر اربعين من رجاله أن يقتلوه ففعلوا

فلما رأى الاميران كنعان بك وعلي بك ذلك وقع الخوف في قلوبهما وأسرعوا الى الجيوش فاعلما بما كان من امر قيطاس بك مع موسى باشا فاجتمعت العساكر حالا في الرملة . واما السناجق والامراء والقضاة وكبار الموظفين فاجتمعوا في جامع السلطان حسن وتفاوضوا في الامر فافقروا على عزل موسى باشا وتولية من يقوم مقامه مؤقتاً ريثما يأتي امر الباب العالي بشأنه فخلعوه وأقاموا حسن بك مكانه . فكتب موسى باشا الى السلطان يعلمه بخبر تلك الثورة . وكان رؤساؤها قد رفعوا الى ديوان الاستانة كتابين الواحد بالتركية وقع عليه السناجق والاغوات وكبار ضباط العسكرية والاخر بالعربية من القضاة والمشايع والعلماء يطلبون بصوت واحد خلع موسى باشا فاجابهم السلطان الى طلبهم فولى عليهم خليل باشا

خليل باشا

وفي ربيع أول سنة ١٠٤١ هـ وصل خليل باشا الى مصر واستلم أزمته . وبلغه أن جماعة من اللصوص ناروا تحت رئاسة أحد الشرفاء المدعو ناي ونهبوا مكة فجمع جند القاهرة وأرسلهم بقيادة الامير قاسم بك لاختاد تلك الثورة . فساروا وحاربوا اللصوص وقتلوا زعماءهم . وفي صفر سنة ١٠٤٢ هـ عاد قاسم بك بجيشه الى القاهرة ظافراً . وأقبلت غلة مصر تلك السنة وزاد خصبها وتضاعف ريعها

ونزلت أسعار الخنطة من ثمانية قروش الاروب الى قرشين

وفي سنة ١٠٤٢ هـ استقال خليل باشا من ولاية مصر فخرج منها والناس يثنون عليه ثناءً جميلاً لانه كان عادلاً حليماً . فلم يكن يصدر حكمه الا بعد التروي بما يقوله المتخاصمان . وربما يحكي عنه أنه جئ اليه يوماً بثلاثة اصوص قبض عليهم وهم متلبسون بالجناية . فأمر أن يحاكموا فقال أحد رجال ديوانه ان هذه الحادثة لا تحتاج الى محاكمة اثبتت الجناية فعلاً فيجب اصدار الحكم رأساً بالاعدام . فلم يكن جواب الباشا الا الامر بهدم بيت ذلك الناصح . فاستقر الرجل ذلك وسأل عن السبب الموجب له فأجابه الباشا قائلاً « كيف يحق لك الاعتراض علي اذا أمرت بهدم بيتك المبني من حطام الدنيا ولا يحق لذلك الباقي العظيم معارضتنا اذا هدمنا بنيانه بغير وجه شرعي » ثم أبطل الامر بالهدم وأطلق الاصوص . قال ابن أبي السرور ناقل هذه الحكاية ان الاصوص قتلوا بعد تلك الحادثة احتراماً للباشا

وبعد استقالة خليل باشا من مصر عين على الرومي وتولى مصر الوزير احمد باشا الملقب بالكورجي وكان قبلاً امير ياخور . وفي صفر سنة ١٠٤٣ هـ وردت له الاوامر الشاهانية أن يبعث الفين من عساكر مصر الى سوريا مدداً للحملة العثمانية على دروز لبنان مع خمسة آلاف قنطار من البقسماط وأربعة آلاف قنطار من البارود . ثم جاءت اوامر أخرى بطلب التي رجل آخرين وثلاثة آلاف قنطار من البارود لمحاربة القرس . فرأى احمد باشا أن مصر لا تقوم بهذه الطلبات فاعتذر الى السلطان فبعث اليه ١٢ ألف قنطار من النحاس ليسبكها نقوداً على أن يبعث عوضاً عنها الى الاستانة ثلاثمائة ألف زر محبوب

النقود بمصر

وللنقود في مصر تاريخ لا بأس من الاشارة اليه — كانت المعاملة بمصر عند الفتح الاسلامي بالدرهم وهو وزن درهم من الفضة والدينار وهو مثقال من الذهب وكان الدينار يبدل بعشرة دراهم . ثم تكاثرت الفضة فصار يساوي ١٢ درهماً في أيام بني أمية و ١٥ درهماً في أوائل بني العباس ثم زادت قيمته الى ٢٠ درهماً أو ٢٥ أو ٣٠ باختلاف الاحوال . فلما كانت الحروب الصليبية واختلط الافرنج بالمسلمين دخل البلاد الاسلامية كثير من النقود الافرنجية وحدثت نقود ذهبية جديدة كالبندقي والجر والبينتو وزر محبوب (وهو الدينار) والجنيه العثماني والافرنجي والمصري وغيرها وكلها من الذهب . أما النقود الفضية فأبدلت دراهمها بالانصاف وهي

البارات وكانت المبيعات الصغرى تقدر بالانصاف والكبرى بالبندقي أو الزر محبوب أو غيرهما من النقود الذهبية

فأخذ احمد باشا في سكب النحاس واعد لذلك عمالاً ومعامل . ثم رأى بعد حين ان جميع هذه الاجراءات ذاهبة عبثاً لان الفعلة ملوا العمل ومات اكثرهم من الحر والجهد فجمع اليه ذوي شوره من الامراء وقضاة الاقسام والقرى واستشارهم . وكان من رأيه ان يدفع مطالب السلطان من ماله الخاص ثم يجعل النحاس سبائك صغيرة لتباع في بلاد السودان بين تكرر وبلاد الزنج . فارتأى احد القضاة رأياً آخر وهو أن يجبر أهالي القاهرة على استلام هذا النحاس ودفع المبالغ المطلوبة . وأن يفرق النحاس عليهم مقادير متناسبة لما يدفعونه فوافق الجميع على ذلك وأخذوا في تنفيذه في ١٦ ذي الحجة ١٠٤٣ هـ وعموه في آخر شعبان من السنة التالية وكان ذلك ثقلًا عظيم على كاهل المصريين لانه لم ينج من هذه الضريبة غني ولا فقير فقلت النقود وغلت الجيوب وسار الماكولات غلاءً فاحشاً وزاد في الطنبور نفعة أن النيل في السنة التالية لم يكن وقاؤه حسناً لكن الناس استغلوا الارض غلة متوسطة

مظالم وتهديات

وبعد يسير دعي احمد باشا الى الاستانة فصار ولم يدفع الاموال التي جمعت للخزينة فرفع المصريون شكواهم بشأن ذلك فلما وصل الاستانة حكم عليه بالاعدام . وتولى مكانه الوزير حسين باشا فجاء مصر في عصابة من الدروز التقطهم من كل ناد وكانوا من قاطعي السبل فساموا المصريين أنواع العذاب نهياً وقتلاً فاضطربت الاحوال وأقفلت الحوانيت ووقفت حركة الاعمال . وهذا اصل استهجان المصريين لكلمة « درزي » على ما يظن

وأبطل حسين باشا حقوق الوراثة فاذا مات أحد الناس استولى هو على تركته وأحرم منها ورثته الايتام او الارامل او الشكلى واذا اراد احد الانتقام من عدوه يكفيه أن يشي به الى حسين باشا بأنه غني او ابن غني فيزجه الباشا في السجن ولا يخرج منه الا بالبذل الكثير . ولم يكن يمر يوم لا يطوف فيه حسين باشا المدينة في موكب ولا تغيب الشمس قبل ان يقتل رجلاً او رجلين او اكثر . ويخطر له احياناً أن يقتل كل من لاقاه في طريقه انساناً كان او حيواناً . وقد حسب عدد الذين ذهبوا فريسة عنو هذا الغاشم في مدة حكمه وهي سنة و ١١ شهراً فبلغوا

نحواً من الف ومائتي نفس غير الذين كان يقتلهم بيده . وكان له هبة في قلوب رجاله فأراد يوماً أن لا يشاركوه بالقتل والنهب فخطر عليهم ذلك فلم يعودوا يحسرون على الخالفة ولم يسمع بشيء من تعدياتهم من ذلك الحين . ثم أقبل وخلفه الوزير محمد باشا بن أحمد باشا وابن ابنة السلطان سليم الثاني . وفي شوال من سنة ١٠٤٧ هـ وردت إليه الاوامر ان يرسل الف وخمسمائة مقاتل لمجدة للحملة العثمانية الى بغداد فأرسل تلك الفرقة بقيادة امير الحج قنسو بك في محرم سنة ١٠٤٨ هـ فسارت ولم ترجع الى مصر الا بعد الاستيلاء على تلك المدينة في صفر سنة ١٠٤٩ هـ

واتبع هذا الباشا خطوات سلفه بالاختلاس والنهب فجمع ثروة عظيمة من تركات الامراء والعلماء فقام عليه الورثة وبعد الجهد تمكنوا من تحصيل نصف الاموال وازداد ظلماً وعتواً حتى منع الصدقات التي كانت تدفع الى الارامل والايام واخذها لنفسه فكثرت التظلمات وتعددت العائلات المعصرة . وفي يوم الخميس ١٦ شوال سنة ١٠٤٩ هـ توفي السلطان

مراد الرابع



وترى في شكل ١٤ صورة النقود الذهبية للسلطان مراد الرابع ضربت في القاهرة سنة ١٠٣٢ هـ وهي سنة توليته

ش ١٤ : نقود السلطان مراد الرابع بن أحمد

سلطنة ابراهيم بن أحمد

من سنة ١٠٤٩ — ١٠٥٨ هـ او من ١٦٤٠ — ١٦٤٨ م

فطن المصريون ان في تغيير السلطان منجاة لهم مما كانوا يكابدونه . فبويع اخوه السلطان ابراهيم بن أحمد وأمر حالاً باستبدال محمد باشا واحرمه من العطية التي كانت تعطى لحاكم مصر عند ما يستقيل من منصبه . لكنه امر بعد ذلك بابقائه فعاد الى اعماله وازداد ظلماً وعسفاً ففتك بالناس فتكا ذريعاً لم يبق ولم يذر . ثم استبدل محمد باشا بمصطفى باشا الملقب بالبستانجي^(١) وكان ابي النفس على نوع ما الا ان كاتبه أحمد أفندي كان عانياً غشوماً وكانت ازمة الاحكام بيده فاستبد (١) هو لقب فرقة من الجنود العثمانية بومش رئيسها يعرف بالبستانجي باثي وهو من اعظم وزراء الدولة

بها فكره المصريون الحياة من اجله واتفق في ايامه تقصير النيل فازدادت الانقال بفلاء الحبوب . ولم يكن الباشا يتعرض للاحكام مطلقاً فكثرت السرقات حتى لم ينج حي من احياء القاهرة من النهب واضطر الناس الى مهاجرة بيوتهم . وكان رئيس الضابطة اذا جئ اليه ببعض اللصوص لا تغيب عليهم الشمس في السجن . ومثل ذلك كان يفعل الكشاف «حكام الاقاليم» فتوازت التشكيات الى الباشا فاضطر الى عزل رئيس الضابطة وتولية كنعان بك مكانه فاهتم هذا بالقبض على اللصوص فسجن عدداً كبيراً منهم

وفي شوال سنة ١٠٥١ هـ ثارت الجهادية وتغرد الجاويشيون على رئيسهم الامير علي لانه لا يفرق الاعطيات الا على كنيته فلم ير الباشا بداً من عزله وتولية عابدين بك في مكانه . فلما رأى سائر الجيش ما كان من فوز الفئة النائرة ثاروا جميعاً وادعوا ان مخازن الحبوب فارغة وطلبوا معاشاتهم المتأخرة منذ سنة . فعين محمد أفندي قاضي السكر لتحري دعواهم فتفقد مخازن الحبوب فرآها حقيقة فارغة وعلم ان ما كان فيها باعه الكاتب واخفى ثمنه . فاضطر الباشا مراعاة لطلب الجمهور أن يتخلى عن كاتبه مع شدة حبه له فاستنجد الجاويشية فأنجدوه وأعادوه الى مركزه فازداد تمرداً وبالغ في الانتقام . ثم استقال مصطفى باشا وتولى الوزير مقصود باشا وكان والياً على ديار بكر قديماً . فلما استلم مقاليد الاحكام بعصر بحث عن تصرفات سلفه فاطلع على اعماله فقبض على كاتبه والكخيا وجلدهما وأجبرهما على ارجاع مائتي كيس من النقود الى الخزينة . اما مصطفى باشا فأرسل الى الاستانة وهناك اخذ منه مائتا كيس سلمت للخزينة الشاهانية وأصبح في جملة الوزراء السبعة العظام

الوباء

وفي ايام مقصود باشا قاست مصر امر العذاب من وباء وفد عليها كان أصعب مراساً من الوباء الذي وفد في ايام علي باشا وجمفر باشا لانه كان عاماً لم ينج من اعابته الشيوخ ولا الشبان وقد أصاب من الشيوخ واحداً في الثمانية . ظهر هذا الوباء اولاً في بولاق باوائل شعبان سنة ١٠٥٢ هـ وبعد ذلك بشهرين ظهر في القاهرة . وما زال على معظمه من اول ذي القعدة من تلك السنة الى غاية صفر من سنة ١٠٥٣ هـ ثم أخذ بالتناقص شيئاً فشيئاً ولم ينقض حتى انقضى الشهر الثاني . ولم يكن يسمع الا بالوفيات المتتابعة في كل ساعة . وكانت الجثث تنقل

بالمئات دفعة واحدة فيمصر في الشارع الواحد أحياناً ثلاثون أو أربعون جنازة . وقد روى ابن أبي السرور وهو من المؤرخين المعاصرين ان جملة من صلى عليهم من المتوفين في الجوامع الخمسة الرئيسية في القاهرة في أثناء ثلاثة اشهر الفان وتسماية وستون . وصاروا في آخر الامر يدفعون موتاهم بلا صلاة وعدد هؤلاء لا يقل عن عدد الذين صلى عليهم . أما خارج القاهرة فلم يكن الوباء أقل فتكا ويقال ان ٢٣٠ قرية أصبحت خراباً لاصابة سكانها جميعاً بذلك الداء

مقصود باشا

فلما رأى مقصود باشا ما ألم بمصر من الدمار سعى في اصلاح الاحوال جهده فاستعمل الرفق والرفق والضرائب التي وضعها اسلافه بغير الحق . وجعل الوراثة الى الاقرباء الشرعيين مع دفع شيء من التركات الى الحكومة ونجى التعديت تحريماً شديداً وشد في القبض على اللصوص فقبض على كثيرين منهم فقتل بعضاً وسجن بعضاً وقاص آخرين حسب ذنوبهم مع الصرامة فاستكنت الناس وطابت قلوبهم . وبينما كان هذا الباشا ساعياً في ما تقدم ظهرت في الاسكندرية في ٢٠ ذي القعدة من تلك السنة ثورة كدورت أعماله . وذلك ان نحواً من ستمائة من المسيحيين كانوا تحت طائلة القصاص مغلولين في سجون الاسكندرية ففي اليوم المذكور فتقوا السجون والمسلمون في الجوامع يصلون وطفقوا ينهبون الحوانيت والمخازن والبيوت ولم يبقوا ولم يذروا ولما ملأوا جعبة مطامعهم نزلوا الى مركب كن بانتظارهم في البحر وأقلعوا يطلبون الفرار

ولم يكن ذلك كل ما هدد مقصود باشا وحال دون مشاريعه بل هناك ما هو أدهى وأمر . وذلك ان جماعة السناجق تأمروا على عزله في يوم الجمعة ١٢ رمضان سنة ١٠٥٤ هـ باجتماع عقوده في بيت الامير رضوان بك الملقب بابي الشوارب . وسبب ذلك ان مقصود باشا كان قد طلب اليهم حياً بايقاء رواتب الجيش عن شهر رمضان ان يدفعوا الثلث الاول من المال الذي يطلب منهم للخزينة عن الاقطاعات العسكرية التي في أيديهم . فرفضوا بالاجماع وطلبوا عزل بعض الموظفين الذين يعدونهم من أنصار الباشا . فسلم لهم الباشا بما أرادوا فلم يقنعوا بذلك فكتبوا الى الاستانة يشكون من سوء تصرفه ووافقهم كثيرون من الاعيان فكتب اليه الباب العالي راساً ما مفاده « ان الحضرة الشاهانية لم تعلم أسباب الثورة الجهادية التي انتشرت في مصر وتتعجب كيف ان الباشا لم يبلغ الباب العالي خبرها » فاجاب

الباشا انه لم يحصل لديه ما يدعى ثورة وانما هناك بعض الاختلافات التي يرجو اصلاحها بالنهي هي أحسن ولذلك لم يكن ثم حاجة لابلاغها . فطلب اليه الباب العالي أن يتحرى ويعاقب المعتدين ويصرف الامر بما يتراءى له . ومع كل ذلك اضطر الى الاذعان لكنه أراد الفتك بالامير علي بك والامير مامي بك والدفتدار شعبان بك لعله اتهم زعماء تلك الثورة قاعد لهم كيناً ليقتلهم في الديوان وعين لذلك يوم الاثنين في ٢٣ ذي الحجة سنة ١٠٥٤ هـ لكن الدفتدار نزل الى الديوان وحده في ذلك اليوم فشاور الباشا عقله بين أن يقتك به وحده أو يخفي ما في ضميره وبما يقتك بالثلاثة معاً فقرر أخيراً على ارجاء ذلك العمل الى يوم آخر

ايوب باشا وغيره

وفي اليوم التالي جاء الفرمان بعزله وتولية الدفتدار شعبان بك قائماً يتعاطى الاحكام وقتياً فشق ذلك على الباشا لكنه أذعن وسلم مقاليد الاحكام لشعبان بك فكتب السناجق الى الباب العالي يطلبونه على حقيقة ما حصل في أيام الباشا السابق ويطلبون اليه الامراع في ارسال من يخلفه فانفذ اليهم ايوب باشا . وكان قبل ذلك الحين من رجال القصر الشاهاني . فلما عهدت اليه هذه الولاية تردد في قبولها لما رأى من الاخطار الحادثة بها لكنه لم يردداً من قبولها . وقد كان رجلاً حازماً مستقيماً استعان برجاله على ادارة الاعمال فلم تخس سنتان على حكمه حتى استتب النظام وسادت الراحة . ثم استقال من ذلك المنصب بعد أن صار وزيراً وعكف على العبادة واعتزل السياسة وزهد زهد الدراويش فتنازل عن أملاكه في الاستانة للدائرة الخاصة الهايونية وانفرد في أحد المعابد في الرومي . فولى مكانه الوزير محمد باشا حيدر سنتين ونصف ولم يحسن الادارة فارتبكت الاحوال

وفي ١٠ رجب سنة ١٠٥٧ هـ نارت فرقة من الانكشارية في مصر القديمة فهدم والي الشرطة فازدادوا تمرداً فساروا الى الباشا وطلبوا قتل ذلك الوالي ولم يكن ذنبه الا انه قام بما عليه فوافقهم الباشا على ما أرادوا . اما الوالي فكان من وجاق الجاويشية . فلما علم هؤلاء بزم الباشا قاموا يشكون من سوء تصرفه بصوت واحد يخاف أن تبلغ هذه الشكايات مسامع الباب العالي فتعود العقوبة وبالأعلى عليه فاجتمع بقنوسو بك واستشاره بما يفعل وكان هذا لا يشير الا بما يعود عليه بالمنفعة الشخصية فاشار على الباشا أن يرفع الى الاستانة تقريراً سرياً يشرح فيه ما حصل من الفلاقل وينسبها جميعها الى الاميرين رضوان بك وعلي بك

وينسب اليها ايضاً اختلاس الخزينة المصرية وانهما سلباه منصب امير الحج وحكومة
جرجا كل ذلك لكي يرجع قنسو بك ومامي بك الى منصبيهما
رضوان بك وعلي بك

فباشير الباشا كتابة ذلك التقرير وطلب الى بعض الاعيان أن يوقعوا عليه فبلغ
ذلك مسامع رضوان بك فاسرع الى كتابة تقرير مناقض لتقرير الباشا وبعث به
الى الاستانة فوصل قبل تقرير الباشا وفيه ما فيه من التشكيكات ضد قنسو بك
ومامي بك فورد الجواب من الاستانة مفوضاً الى رضوان بك وعلي بك أمر
النظر في تلك القضية . وفي ٢١ جمادى الاول سنة ١٠٥٧ هـ ورد فرمان بذلك الى
الباشا وفي ٢٧ منه استدعاهما الباشا الى القلعة فاستدعيا قنسو بك ومامي بك
وأمرهما بقتلها وقتل امرأه وآخرين كانوا على دعوتها . ولم تسكد تنخلص مصر من
دسائس هؤلاء حتى ظهرت دسائس مصطفى كخيا الملقب بالششني لان لم يسم
سجناً عوضاً من قنسو بك . وفي ٨ رمضان من تلك السنة وردت الاوامر الى
علي بك أن يترك القاهرة ويتوجه حالا الى حكومته في جرجا . وبعد ثلاثة ايام
استدعى الباشا رضوان بك الى وليمة في القلعة تخاف من دسيسته فابى الحضور
فغضب عليه الباشا وجرده من اماره الحج فخرج رضوان بك من القاهرة في مائتين
من رجاله وفيهم عدة من الامراء والكشاف وانحد مع علي بك فبعث الباشا على
أرهاب الفين من جنوده ونحو خمسمائة من الانكشارية فاجتمع الجند في الرملة
واقروا على اغفال اوامر الباشا . ثم وردت الاوامر من الاستانة بتثبيت رضوان
بك وعلي بك في منصبيهما . فاضطر الباشا الى استقدام الاميرين فقدموا الى القاهرة
في ١٩ رمضان بما لهما من الرواتب والحقوق فسعى الى مصالحتهما مع مصطفى كخيا
وفي ٦ ذي الحجة من تلك السنة شاع في القاهرة ان الوزير مصطفى باشا سمي
على مصر عوضاً من محمد باشا بن حيدر . وفي ٢٦ منه وردت الاوامر قاضية باعادة
محمد باشا الى منصبه . وفي ١٧ رجب سنة ١٠٤٨ هـ
توفي السلطان ابراهيم وتولى مكانه السلطان محمد الرابع
وترى في شكل ١٥ صورة النقود الفضية للسلطان
ابراهيم بن احمد ضربت في القاهرة سنة ١٠٤٩ هـ



ش ١٥ : نقود السلطان
ابراهيم بن احمد

سلطنة محمد بن ابراهيم

من سنة ١٠٥٨ - ١٠٩٩ هـ او من ١٦٤٨ - ١٦٨٧ م

وبلغ خبر ذلك التغير الى مصر في اوائل رمضان مع عزل محمد باشا وتولية
الوزير احمد باشا فاستلم هذا زمام الاحكام مدة سنتين كلهما اضطراب وقلقل
واول تلك الفلاقل كانت سنة ١٠٦٠ هـ بسبب تقصير النيل فانه لم يرتفع تلك
السنة اكثر من ١٦ ذراعاً فلم يرتو من ارض الصعيد الا الثلث أما الوجه البحري
فلم يرتو منه شيء تقريباً . فغلت الاسعار حتى خيف من المجاعة
اما الباشا فلم يكن يمه غير تكثير الضرائب مع انه لم يكن يرسل منها الى
الاستانة الا الثلثين وكان لسوء نيته يرسل تلك المبالغ في عهده رضوان بك ليحمل
الباب العالي على الشك بامانته فيتغير خاطر السلطان عليه . وكان انعاماً لمكيدته
يكتب الى الباب العالي على التابع يشكو من تصرف رضوان بك ويطلب خلعه
عن اماره الحج وتقليدها لعلي بك . وكان هذا على ما علمت من الصداقة مع رضوان
لكنه لم يكن يعلم بدسائس الباشا . اما الباشا فكان في نيته ان يوقع الضغائن بين
الاميرين فيحل عري اتحادهما لكنه لم يتم مقصده حتى أتى الامر العالي بعزله
يوم السبت ٦ صفر سنة ١٠٦١ هـ ورضوان بك لم يرجع الى القاهرة بعد . ولم
تكن نتيجة مساعي احمد باشا الا زيادة تألف قلبي ذينك الاميرين وكان من كرم
أخلاقهما ان كلا منهما كان يتنازل للآخر عن اماره الحج فاعجبت هذه الارحية
المصريين فاحبوها وبالفوا في احترامهما حتى أقاموا لهما دعاه عمومياً في الرملة .
وبالباش اذ ذاك محبوس في القلعة ولم يفرج عنه حتى دفع للخزينة مبالغ وافرة .
فتولي مكانه الوزير عبد الرحمن باشا وما زال الى اول شوال سنة ١٠٦٢ هـ وقد
قامى ما قاساه سلفه من السجن والاهانة لانه سار على خطواته . فاختر الباب العالي
الوزير محمد باشا ليقوم مقامه في ٥ شوال من تلك السنة ولكنه لم يدخل القاهرة
الا يوم الثلاثاء في ٨ محرم سنة ١٠٦٣ هـ

وما زالت الولاة تتوالى على مصر ولا شيء من أعمالهم وأحوالهم يستحق
الذكر . وفي آخر الامر تحول النفوذ كله من أيديهم الى أيدي البكوات المماليك
وهم يعدون مصر وطنهم ويفارون عليها . اما الباشوات اذا اتوا مصر لا يكون

ديدهم الا اكتساب الثروة بآية طريقة كانت لعلم كل منهم انه لا يلبث ان يأتيه الامر بالاعزل وقلما عزل أحدهم ولم يكن السجن مأواه

السلطين سليمان بن ابراهيم واحمد بن ابراهيم

ومصطفى بن محمد

من سنة ١٠٩٩ - ١١١٥ هـ او من ١٦٨٧ - ١٧٠٣ م

قالسلطان محمد الرابع أقيل من السلطنة في ٣ محرم سنة ١٠٩٩ هـ واودع السجن حتى مات (سنة ١١٠٥) وبويع السلطان سليمان الثاني وبعد ٣ سنوات توفي (في ٢٠ رمضان سنة ١١٠٢ هـ) فبويع السلطان احمد خان ويدعى احمد الثاني وبعد ٣ سنوات ونصف توفي (سنة ١١٠٦) فبويع ابن اخيه السلطان مصطفى خان وهو مصطفى الثاني بن السلطان محمد الرابع . وبعد ٩ سنوات تقريباً (في جمادى الاولى سنة ١١١٥ هـ) أقيل وتوفي في السجن (في محرم سنة ١١١٩ هـ)

سلطنة احمد بن محمد

من سنة ١١١٥ - ١١٤٣ هـ او من ١٧٠٣ - ١٧٣٠ م

وبويع اخوه احمد خان وهو احمد الثالث وكانت مدة حكمه على المملكة العثمانية نحواً من ٣٠ سنة . وفي ايامه حصلت ثورات عديدة انتهت بتحول سلطة الباشوات ونفوذهم الى البكوات المماليك . وكانت قلعة الجبل سجنًا للباشوات الذين كانوا يتولون الاحكام ولا يهمهم الا الكسب الشخصي

وقد توالى على مصر من سنة ١٠٦٣ هـ الى ١١١٩ هـ اثنان وعشرون والياً أغضينا عن ذكرهم لعدم أهميتهم . وفي سنة ١١١٩ هـ في ايام السلطان احمد خان تولى مصر حسن باشا وكان على القاهرة قاسم عيواظ بك بوظيفة شيخ بلد ومشيخة البلد منصب كان يتولاه أحد البكوات المماليك كما يتولون ادارة المديرية ويقابل محافظة القاهرة اليوم . ولم يكن المنصب بنفسه مهماً ولكن تراخي الباشوات واستفحال امر المماليك جعل لهذا المنصب أهمية كبرى حتى افضى النفوذ بتوالي الايام الى صاحبه وصار اليه الامر والنهي كما ستره في ما يلي

قاسم بك وذو الفقار بك

وكانت المماليك في مصر على حزبين كبيرين يعرفان بالمماليك القاسمية نسبة الى قاسم بك والفقارية نسبة الى ذي الفقار بك . وكان هذان الحزبان لا ينفكان عن المنافسة يحاول كل منهما اكتساب النفوذ له واذلال الآخر . اما اصل هذين الحزبين ففيه اقوال منها انهما ينسبان الى اخوين هما قاسم بك وذو الفقار ولدي سودون احد امراء المماليك في عهد السلطان سليم الفاتح وان السلطان سليماً هو الذي تشعلها ونشط احزابها . وقد ذكر الجبرتي لذلك قصة طويلة لا حاجة بنا الى ذكرها . وبعضهم يقول ان هذين الحزبين ينسبان الى قاسم عيواظ بك الدفتردار وذو الفقار بك الكبير سنة ١٠٥٠ هـ وكان قاسم عيواظ بك رئيس الطائفة القاسمية وذو الفقار بك رئيس الفقارية وكان لكل من هاتين الطائفتين مناقب مختصة بها . فالفقارية كانت توصف بالكثرة والسخاء والقاسمية بالثروة والبخل . وشارة الفقارية علم ايض مزاريقه برمانة والقاسمية علم احمر وكانت هاتان الفئتان قبل تولي حسن باشا في وفاق تام فلما جاء خشي من اتحادهما فعمد الى الدسائس فألقى بينهما الشقاق فحصلت بين الطائفتين وقائع دامت ثمانين يوماً فكانوا يخرجون من القاهرة الى مكان يعرف بقبة العرب يومياً ويأخذون بالكفاح من شروق الشمس الى غروبها ثم يعودون الى القاهرة فيقضون الليل بسلام في بيوتهم بين نساءهم وأولادهم ثم يعودون في الصباح التالي الى المحاربة . ومن الغريب أن هذه المحاربات لم تؤثر في الراحة العمومية مطلقاً فظلت الاشغال جارية في مجراها والحوانيت والحازن تفتح وتغلق كالعادة

مشيخة اسماعيل بك

وانتهت تلك الوقائع بوقاة قاسم عيواظ بك فأسف عليه الناس وبكوه بكاهم على حاكم عادل أو أب حنون بار . ولم يبق صديق ولا عدو حتى بكاه لانه كان فضلاً عن حكمته وعدله ودعته شجاعاً بأسلاً أبي النفس . فأقاموا ابنة اسماعيل بك مكانه شيخ بلد وصادق الباشا على ذلك لظنه ان اسماعيل اصغر سنه يكون آلة بيده يديرها كيف شاء فزاد كدر ذي الفقار بك واشتد حنقه لانه كان ينتظر أن يأول ذلك المنصب اليه . وكان اسماعيل عاقلاً حكماً كوالده عارفاً وجه الرمح والحق فسعى في الوفاق مع طائفة الفقارية فاجتهدت الطائفتان على الباشا . وكان اسماعيل بك من الجهة الاخرى يظهر الطاعة والرضوخ لاحكام الباشا لانه رئيسه لكنه لم

ينفك ساعياً سرّاً في خلعه فكتب عنه الى الاستانة ففاز بعزله فجاء غيره ثم أبدل
بآخر فأخر واسماعيل بك في منصبه والرعية بحبونه الى ما يشبه العبادة

ومما يحكى عنه ان احد تجار القاهرة في ايامه واسمه عثمان باع لاحد القبطية
(لقب يعطى لالحرس السلطاني) ثلاثمائة قفة بن الى اجل مسمى وكتب عليه بذلك
صكاً. فقبل الاسحقاق جاء من الاستانة اعلان بخيانة القبطي والحكم عليه
بالاعدام حالاً فخفي به الى الباشا فقتله ووضع يده على تركته وفيها البن كما هو.
فعلم عثمان التاجر بذلك فعرض لاسماعيل بك ما كان من امر البن فأجبر الباشا أن
يرجع البن لصاحبه قبل كل شيء. ففعل فأصبح عثمان في حال من الامتنان لا يعرف
كيف يبينها. فلاح له ان يهديه عليه مرصعة وبضعة قناطير من السكر النقي فرفض
اسماعيل بك تلك الهدية وخطب عثمان التاجر قائلاً « اذا كان المال الذي حصلت
عليه بواسطتي حقاً لك فأكون قد فعلت الواجب عليّ والله يكافئني فاذا قبلت
هديتك أظلم نفسي. اما اذا كان هذا المال ليس لك وانما حصلت عليه بالحيلة
فقبولي هديتك بعد مشاركة لك بالخيانة لكنني مع ذلك اقبل السكر الذي حملته
اليّ على ان تقبض ثمنه من وكيلي لاني سأمره ان يدفعه اليك

ويحكى عنه ايضاً انه كان يادب في ليالي رمضان مأدبات يجتمع اليها العلماء
والفقهاء والمشايع وقراء القرآن ولم يكن يؤذن لغير هؤلاء في الحضور فيها. فرأى
ذات ليلة رجلاً بين الحضور عليه ملاح الكآبة واليأس فأوصى بعض الخدم متى
ارفض الاجتماع أن يأتوا به اليه ففعلوا فلما حضر بين يديه أعطاه مصحفاً وأمره
ان يتلو عليه سورة. فتوقف الرجل وجلاً ثم رأى على قدسي البك متضرعاً وقال
« يعش سيدي البك اني رجل نجار لا اعرف القراءة وانما أتيت الى هذه المأدبة
متشكراً بثوب الفقهاء لاملأ جوفي من الطعام فاني في حالة من الفاقة شديدة » فأفصفه
ولم يكتف بالاغضاء عن ذنبه لكنه جعله في عداد خدمته وجعل امثله راتباً معيناً
وصار هذا النجار بعد ذلك من اصدق الخدمة وأكثرهم غيراً وحمّة

وما زال اسماعيل بك شيخاً للبلد ١٦ سنة تقلب في اثنائها على مصر عدة باشوات
كانوا اسما بلا مسمي. وكان لحسن سياسته قد أوقف الفقاريين عن كل حركة
اتظاهروا به على وفاق معهم فلم يجعل لهم فرصة يتحدون بها عليه. على أنه ارتكب
خطأ واحداً آل الى قتله. وذلك ان احد المماليك الفقارية واسمه ذو الفقار ايضاً
كان له عقار يقوم بنفقات عائلته فاقتلته منه احد المماليك القاسمية (من مماليك

اسماعيل بك) فرفع ذو الفقار دعواه الى شيخ البلد (اسماعيل بك) فلم يصغ
لطلبه وقضى بالعقار لمملوكه. فشق ذلك على ذي الفقار فرفع دعواه الى زعيم
الفقارية ويقال له شركس بك. وكان خصماً لاسماعيل بك بالفطرة فسار الى الباشا
وخطبه بشأن تصرف اسماعيل بك. وكان في قلب الباشا حزازات من الحسد عليه
فوافقه على الايقاع به ثم قال له « ليس لك وسيلة افضل من ان تبعث أحد مماليكك
وتأمره بقتله وانما اجعل له جميع ما يتركه من المال والنساء مكافأة لانما به »

فوافقه على رأيه وعين لتلك الفعلة اول يوم يجتمع فيه الديوان وأمر مملوكه
ذا الفقار أن يستعد لاجرائها فقبل اعتماداً على وعد الباشا. ففي اليوم المعين جاء
ذو الفقار الى الديوان وفيه اسماعيل بك فتقدم اليه وقبل يده قائلاً « أرجو أن
تأمر بارجاع عقاري اليّ » فأجابه اسماعيل بك « سنظر في طلبك هذا » فألح
عليه فأتهمه فاستل خنجرأ ماضياً بقر به بطنه فتدفقت امعاؤه ومات لساعته في
وسط الديوان فهجم رجال الباشا وقتلوا كل من كان هناك من رجال اسماعيل ولم
ينج منهم الا سريع العدو. هكذا كانت نهاية حكم اسماعيل بك سنة ١١٣٦ هـ فنقلت
جثته الى بيته ثم دفنت بجانب جثة أبيه بجوار باب اللوق

فتولى مشيخة البلد شركس بك واستولى ذو الفقار على جميع ممتلكات اسماعيل
بك ونسائه حسب وعد الباشا فأصبح رجلاً عظيماً يشار اليه بالبنان وفي حوزته
مئات من المماليك تخافه شركس بك وأخذ يسعى في اذاقته ما أذاقه لاسماعيل بك.
فعلم ذو الفقار بتلك الدسائس فجمع اليه رجاله وفيهم عدة من الرجال العثمانيين
وهجم على شركس بك فخرت واقعة لم يستطع رجال شركس الثبات فيها أكثر
من ربع ساعة فقتل معظمهم وفر الباقيون وزعيمهم معهم يطلبون الصعيد وهو
الملجأ الوحيد للبكوات المغضوب عليهم

ذو الفقار بك

فتولى ذو الفقار مكانه مع لقب بك بعد أن أفر الباشا على ذلك وأصبح
ذو الفقار عدواً لآل ترابه البكوات وعلى الخصوص لآل دفية (سمي بذلك لانه كان
يتشع برداء كبير يقال له دفية) ثم انبى ذو الفقار بك ان ابا دفية ساع في اهلاكه
وحاول ذلك مراراً ولم ينجح. اما شركس بك فجمع دعاته في الصعيد وسار بهم
نحو القاهرة فارسل ذو الفقار بك عثمان كاشف أحد كبار قواده في فرقة من المماليك
لحاربه فتفقهرك شركس ورجاله مراراً حتى لحق بيلاد البربر

فسكر ذو الفقار من خمرة النصر وأخذ في الانتقام من البكوات الذين في القاهرة وقتل منهم من يظن فيه الانتهاء الى شركس بك وهم كثيرون فاعمد من بقي حياً منهم مع رئيس الشرطة والاغا رئيس الانكشارية وبعثوا الى شركس بك بما كان من فعلة ذي الفقار وتعاهدوا جميعاً على محاربته وانضم اليهم مصطفى القرد وكان من اعداء ذي الفقار ومعه جماعة من الرجال الاشداء . فقدم شركس بك الى القطر المصري فعلم ذو الفقار بذلك فجمع اليه العلماء والمشايخ وشاورهم في الامر فاجمعوا على عدم مناسبة الهجوم في تلك الحال الا اذا تأكد الفوز فلم يصغ لمشورهم فارسل عثمان بك أحد قواده لمحاربة شركس بك فحصلت بينهما واقعة قتل فيها مصطفى القرد وغرق شركس بك في النيل وهو يحاول الفرار . فبعث عثمان بك برأسه الى ذي الفقار . اما هذا فلم يهنأ بذلك النصر لانه قتل بعد قتل عدوه شركس يومين بمكيدة أعددها له البكوات في القاهرة . وذلك انهم البسوا واحداً منهم دفة وجاؤا به الى بين يدي ذي الفقار وقالوا له « هذا ابو دفة قد جعله الله في ايدينا » وكانوا قد جعلوا تحت دفته عيارين ناريتين . فلما وقف بين يديه أطلقتهما عليه دفعة واحدة فسقط ذو الفقار مضرباً بدمائه في وسط ديوانه سنة ١١٤٢ هـ فعلم عثمان بك بما أصاب رئيسه فهرع للاخذ بثاره فدخل القاهرة وجعل يفتك بمن يصادفه في طريقه يخافه الجميع

ثم ان محمد بك أحد البكوات الذين كان يترقبهم عثمان بك رأى منصب مشيخة البلد خالياً فطمع فيه فعاهد صديقه صالح كاشف على أن يقتلوا من بقي من زملائه البكوات بمكيدة ينصبها لهم . فادب محمد بك مأدبة فاخرة دعاه اليها فلبوا دعوه ثم علموا بمكيدته فقاوموه مقاومة شديدة ونكسوا من قتله . فبئس صالح كاشف من مرآه ففر الى القسطنطينية بعد ان شاهد رؤوس البكوات ملقاة على الطريق امام جامع الحسين . ثم عقب هذه الفلاقل ضربة أشد وطأة نعمي الوباء الذي أصاب مصر في تلك السنة ويدعى طاعون الكي فانه انتشر في البلاد انتشاراً سريعاً وقتك باعباد فتكا ذريعاً . ووافق كل هذه الضربات خلع السلطان احمد الثالث في جمادى الاولى سنة ١١٤٣ هـ



وترى في شكل ١٦ صورة النقود الذهبية للسلطان احمد بن محمد مضروبة في القاهرة بتاريخ سنة ١١١٥ هـ

ش ١٦ : نقود السلطان احمد بن محمد

سلطنة محمود بن مصطفى

من سنة ١١٤٣ - ١١٦٨ هـ او من سنة ١٧٣٠ - ١٧٥٤ م

وبعد عزل السلطان احمد بويق ابن أخيه محمود بن مصطفى خان وهو السلطان الرابع والعشرون من بني عثمان ويدعونه محموداً الاول وبقي هذا على كرسي السلطنة خمساً وعشرين سنة . أما الباشوات الذين تولوا مصر في أيامه فلم يكونوا أكثر أهلية من أسلافهم وكانت الاحكام قائمة بمشاخ البلد ولهم الحل والعقد لا يستطيع الباشوات معارضتهم في شيء

مشيخة عثمان بك

فبعد قتل ذي الفقار بك تولى مكانه عثمان بك المتقدم ذكره فرقى كثيرين من مماليكه الى رتبة البكوية ليقوموا مقام الذين هلكوا بالحوادث الاخيرة . وكان عثمان بك عادلاً حازماً ولكنه كان صارماً لا يراعي في تنفيذ العدل جانباً . فعلم مرة أن احد بكواته سعى في اقليمه ظمناً فاستدعاه اليه فتحقق ارتكابه فقطع رأسه . ويحكى عن عثمان بك حوادث كثيرة تشير الى حزمه واستقامته وقسطه لا بأس من ذكر بعضها على سبيل المثال

يحكى أن حماراً من حماري القاهرة أراد ترميم مذود حماره . وهو يفعل ذلك عثر في أحد جدران البيت على وعاء مملوء ذهباً ففرح جداً وأخذ الوعاء وسلمه الى امرأته وأوصاها أن تكتم الامر لئلا ينكشف للحكومة فتأخذ المال منه لان لها وحدها الحق بالاستيلاء على مخزونات الارض . فطلبت المرأة من زوجها ان يتاع لها حلياً وثياباً فاخرة لتستمتع بتلك الهبة فأبى زوجها اجابة طلبها لئلا يقود ذلك الى كشف الحقيقة فاعتاطت وأسرعت لساعتها ووشت به الى عثمان بك فاستدعى الحمار وبعد أن سمع حقيقة الحال صرفه قائلاً « احفظ ما وهبك الله وطلق امرأتك وعش بسلام »

ولما جاء الوباء الى مصر كان عثمان بك في أول حكمه فلما رأى الجوع الذي عقب الوباء فتح مخازنه وخزائمه وفرق الاقوات والاموال في الناس . ومع ذلك لم يستطع النجاة من مكاييد ذوي المطامع وفي مقدمتهم ابراهيم واسماعيل رضوان. الاول نكياً^(١) الانكشارية والاخر نكياً العزب وكان كلاهما من المماليك الواحد من طائفة القزدغلية

(١) ويكتب أيضاً كتبخدا وكان لكل وجق نكياً وفي تهنئته ملاحظة شرطة ذلك الوجق واتضايه

والآخر من طائفة الجلفية . وأصل الطائفة الاولى مملوك يقال له القزدغلي كان سروجياً وأصل الطائفة الثانية احمد الجلفي كان في أول امره شيعياً وأغناه الله بطريقة في غاية الغرابة لا بأس من ذكرها وهي :

جاء بعض المماليك الى إحدى معاصر الزيت لينتاع مؤونة بيته من الزيت مدة السنة وكان احمد الجلفي شيعياً في تلك المعصرة فابتاع المملوك الزيت واستأجر احمد حمله وسار معه حتى بلغا بيته فأزل الحمل ووقف ينتظر اجرتة . فجاء المملوك وطلب اليه أن يساعده في اخفاء مبلغ من النقود في أحد جدران البيت وألح عليه أن يكتم الامر سرّاً وأعطاء بضعة دراهم مكافأة لذلك . فساعده وأخذ الدرام وسار في سبيله حامداً شاكراً . وبعد ثلاثين يوماً اتفق له المرور بالقرب من ذلك البيت فشاهد جمهير مجتمعة . ثم علم أن ذلك المملوك توفي وقد عرضت تركته للبيع . فتقدم احمد وابتاع البيت الذي فيه الخبأة وبعد ارفضاض الجمع استخرج النقود وسار بها الى قريته (جلف) في مصر العليا وامتلك ممتلكات كثيرة ثم اتسعت تروته وما زال حتى أصبح زعيماً لعصابة كبيرة نسبت اليه

وكان ابراهيم واسماعيل رضوان في بادئ الرأي على تباین كلي بالاديات والماديات : كان ابراهيم في ضيق من المعاش مع اقدام وبسالة ومطامع كبيرة . وكان اسماعيل غنياً بليداً لا يهتم الا التمتع بالمذات والشهوات . فكان ابراهيم في احتياج الى اسماعيل ولذلك كان يتقرب منه . ثم تزوج ابراهيم ابنة محمد البارودي أحد التجار الاغنياء وأخذ معها مالا كثيراً فتمكن بذلك من التقرب الى بيت شيخ البلد والقضاء المفاسد فيه بواسطة بعض المماليك والأتراك وغيرهم من ذوي الرتب كان يستعملهم آلة لتنفيذ ما ربه . ثم تأتي له الارتقاء الى رتبة البكوية مع صديقه اسماعيل رضوان فصار اسمه رضوان بك واتحد الاثنان على السراء والضراء ووحدتا ممتلكاتهما واجتزعا بالسواء من محصولاتها

فأوجس عثمان بك خيفة من سرعة نمو تروتهما وملافاة لما كان يخشى حدوثه من طموح انظارهما ضم اليه ثلاثة أحزاب احدها حزب ابراهيم بك القطامش وفيه ثلاثة بكوات . والثاني حزب علي بك الدمياطي وفيه يكان . والثالث حزب علي نكيا الطويل وشاورهم في الامر فأقروا على قتل ابراهيم بك وكان اذ ذاك نكيا الانكشارية ورضوان بك فوافقوه على ما أراد . وكان وكيله احمد السكري من ممالك ابراهيم بك فلم يتمكن كتمان ذلك عنه فجاء اليه وأخبره بجميع ما كان من التواطؤ على قتله

وقتل رفيقه . فسار للحال الى رضوان بك وأخبره وتشاورا بشأن ذلك فقررا نصب أحبولة يقتلان بها عثمان بك فبعثا اليه رجالا يتصدونه في طريقه الى القلعة فرفوئبوا عليه فقر مجواده حتى دخل القلعة ولم يظفروا به . فلاقاه وكيله وقد اضر له الشر فسأله عما ألم به فأخبره بما كان فكلمه بلسان الثعلب ناصحاً له أن يبرح المدينة حالا لان الناس قد قاموا يطلبون قتله وما زال حتى أقعته فقر الى سوريا وسار هو معه . حتى اذا دنوا من عزة تسجى احمد عن الطريق واختبأ في قرية يقال لها الاشرفية بحجة استطلاع الاحوال لحماية عثمان بك فتربص هناك مدة ثم عاد الى القاهرة بمن معه من المماليك وسار الى ابراهيم بك وأعلمه بما فعله فكافأه على تلك الخيانة برتبة البكوية . وهم الاهلون ببيت عثمان بك فأحرقوه واقتسموا تركته

اما هو فوصل سوريا وحده وسار منها الى الاسكندرية فولي بروضة ولبث فيها حتى وفاه الله . وجميع هذه الحوادث توالى على مصر في أثناء سنة ١١٥٦ هـ

ابراهيم نكيا ورضوان بك

فلما خرج عثمان بك من مصر صفا الجولاب ابراهيم نكيا ورضوان بك فعلا على ابادته الاحزاب التي تأمرت عليها فاخذ رضوان بك على نفسه قتل علي نكيا الطويل فأمر احد مماليكه ان يقتله بالرصاص في ولية حافلة فلى المملوك الامر لكنه اخطأ الرمي وعوضاً من أن يصيب علياً أصاب مملوكه الذي كان بجانبه فقبض عليه وقتل للحال . اما ابراهيم نكيا فتكفل باهلاك من بقي من الاحزاب وكان على ولاية مصر اذ ذاك كيور احمد باشا فطلب اليه ابراهيم أن يوافق على ابادته البكوات فوافقه وربما فعل ذلك خوفاً منه أو لانه يعود عليه بالنفع الشخصي واستعانوا بالنقود فبذلوا فسهلت مشروعاتهم حتى قتلوا علي بك الدمياطي يد وكيله سليمان في وسط الديوان وقد وعدم هذا بتسليم رؤوس البكوات الاخرين من احزابه . فأمر ابراهيم نكيا ورضوان بك ان تقفل جميع منافذ القلعة على من فيها من البكوات المنوي قتلهم وجعلوا على بابي الانكشارية والعزب جنداً . وحافظ سليمان على وعده فبوشرت المذبحة وأول من قتل فيها خليل بك من دعاة الدمياطي ومحمد بك من دعاة قطامش وكثيرون غيرهم . وحاول علي بك وعمر بك البلاط الفرار فقبهما الباشا بنفسه ثم لاقاهما ابراهيم ورضوان وقتلها عند باب القلعة ولم يدفن من القتلى الا محمد بك و خليل بك

ولم يبق من مناظري ابراهيم نكيا ورضوان بك الا ابراهيم قطامش وعلي نكيا الطويل . فالاول مات من الحزن بعد مدة قصيرة والثاني هاجر من تلقاء نفسه تاركا

الدار ومن بناها . فصفا الجو لبراهيم نكيا قتولى مشيخة البلد وسمى رضوان بك اميراً للحج . ثم جعلاً يتبادلان هذين المنصبين كل سنة وعاد كل منهما الى ميله الطبيعي ابراهيم الى مطامعه ورضوان الى ملاهيه . فأخذ ابراهيم نكيا يفسد الاحكام ويستخدمها لاسترجاع ما بذله للحصول عليها فلم يغادر وسيلة الا استخدامها في سبيل مطامعه من قتل وقتك فابتدأ بسليمان قاتل علي بك الديماطي فحجر عليه في القلعة ولم يفرج عنه حتى استرجع منه ما كان أعطاء من النقود . ثم باغت من بقي من الأغنياء في القاهرة ووضع يده على ممتلكاتهم بعد أن قتل بعضاً منهم وبقي البعض الآخر . فاستولى في يوم واحد على أموال ثمانين بيتاً من بيوت القاهرة ووضع يده على محصولات البلاد والكمارك والقرى والمحازن حتى الحوائت الصغيرة فلم يبق ولم يذر وكان كيور احمد باشا قد استدعي الى الاستانة وولي حكومة قبرص فأقيم مقامه باشا آخر سنة ١١٥٦ هـ فعامله ابراهيم نكيا بالاحتقار فخذ عليه . ثم اتفق غياب ابراهيم في قافلة الحج الى مكة فاعتنم الباشا غيابه وتواطأ مع حسين بك الخشاب على مكيدة يبدانها لبراهيم فاتفقا على أن يقوم الخشاب بقتل ابراهيم ورفيقه رضوان وأن يكافئه الباشا على ذلك بمشيخة البلد . فلما رجع ابراهيم سعى الخشاب في الحجاز وعده ففاز بالقبض على الاثنين فسجنهما في القلعة فولاه الباشا مشيخة البلد . لكنه لم يهنأ بها لان دعاة ابراهيم نكيا اتحدوا وهجموا على حسين بك والباشا وأخرجوا المسجونين ففر الخشاب الى مصر العليا واختبأ في ابريم من بلاد التوبة . أما الباشا فاستدعي الى الاستانة فعاقبه السلطان عقاباً انتهى بالموت نشأة علي بك الكبير

وكان في حوزة ابراهيم نكيا أكثر من ألفي مملوك في جملتهم علي الذي سلبت بعلي بك الكبير ويكون له شأن عظيم بهذا التاريخ وسرى في سيرته انه من أفراد الدهر حزمًا وبطشًا وحكمة . وكان علي سلحداراً بين ممالك ابراهيم نكيا . وكان ابراهيم يحبه كثيراً ويحل مواهبه حتى جعله ناقل سيفه . ومما زاده تعلقاً به انه اصططحبه الى الحرمين في قافلة وكان قد صار كاشفاً . فسار قائداً لتلك القافلة فلاقاهم في الطريق عصابة من اللصوص فدفعهم علي بقلب لا يهاب الموت فلقبوه بالجني . ولما رجع ابراهيم نكيا الى القاهرة عزم على مكافأة علي برتبة بك لكن صغر سنه ودسيسة الخشاب حالاً دون ذلك

ثم عقب ذلك شاغل أكثر أهمية زاد الامر تأخيراً . وذلك أنه جاء القاهرة خبر

وصول باشا جديد الى الاسكندرية بدلا من الباشا الذي أخرج منها . وكان من عادة رجال الحكومة في مصر اذا علموا بمجيء باشا جديد أن يعيشوا وفداً يلاقونه في الاسكندرية وفيهم العيون والجواسيس فيحيطون به يستطلعون مقاصده ونواياه ويطلعون على ما في يده من الاوامر السلطانية فاذا رأوا تلك الاوامر سلمية ومقاصده حسنة رحبوا به وفتحوا له الطريق حتى يصل الى بولاق فيحتفل الامراء بلقائه . أما اذا تبينوا من احواله غير ذلك أبلغوا الامراء بالقاهرة فيجتمعون ويقررون اعلانه أن يقف حيث هو ويكتبون الى ديوان الاستانة بعدم مناسبة ذلك الباشا الجديد وان بقاءه في مصر محل بالنظام العمومي أو ربما حل الرعية على الثورة . ثم يطلبون استبداله بأخراً أكثر موافقة للبلاد منه



ش ١٧ : أكبر رجال الدولة بملايهم الرسمية
الصدر الاعظم والقائم مقام الرئيس فندي وعصو خمس

فلما اتصل بهم خبر قدوم هذا الباشا واسمه راغب محمد باشا سار شيخ البلد بنفسه لاستقباله ومعه البكوات نخلع على كل واحد منهم خلعة كالعتاد . ثم اجتمعوا جميعاً بجلسة رسمية واقسموا على الطاعة والاخلاص لأمير المؤمنين . واحب الامراء راغب باشا محبة عظيمة لانه عرف كيف يعامل شيخ البلد فحبه الرعية ومولوا بكليتهم اليه ففضى بين ظهرانيهم سنتين كلهما سلام وطماً نينة حتى اجتمع البكوات على استبقائه بينهم زمناً طويلاً

وهم في ذلك ورد الى الباشا خط شريف^(١) ان يسعي جهده في قطع دابر البكوات وفي جعلتهم شيخ البلد ومن يلوذ به . فاستنج الباشا من نص ذلك الخط ان ديوان الاستانة مشته بتصرفه في مصر وأنه وشي الى جلالة السلطان بان اتفاه مع بكوات مصر ليس الا لعزمه على استخدامهم في ما ربه بالاستقلال بحكومة مصر واخراجها من طاعة الدولة العلية . فوقع في حيرة وتردد بين ان ينفذ الاوامر الشاهانية مع ما فيها من الخطر أو ان يعصيا او يؤخرها فيعرض حياته للخطر ويؤيد التشكيك التي تقدمت بحقه . وبعد ان نظر في المسألة من سائر وجوها فضل الفتك باصدقائه البكوات . فتواطأ مع عصاة من رجاله انه متى اجتمع البكوات في مجلسه فليكونوا على استعداد للهجوم عليهم معاً عند اول اشارة . ففعلوا ما امرهم به لكنهم لم يفوزوا كل الفوز لان ثلاثة من البكوات تمكنوا من النجاة وفي مقدمتهم شيخ البلد بعد ان جاهدوا الجهاد الحسن واوسعوا الباشا تعنيفاً على فعلته هذه التي لم يكونوا ينتظرونها منه بعد ما اظهروه نحوه من اللطف والاخلاص . فبرأ ساحته باطلاعهم على الزمان السري الوارد له بهذا الصدد فكفوا عن الانتقام منه لكنهم عزلوه وكتبوا الى الاستانة يطلبون بدله . وعينوا ثلاثة بكوات في مكان الثلاثة الذين قتلوا بتلك المكيدة

واغتم ابراهيم نكيا هذه الفرصة لترقية علي كاشف فرقاها الى رتبة بك فشق ذلك على احد البكوات المدعو ابراهيم بك شركي المولد يعرف بابراهيم بك الشركي وكان من دعاة ابراهيم نكيا لكنه تظاهر عند ذلك بعداوتة وتمت بينهما الصلح ولم تنقلا الا بقتل ابراهيم نكيا بعد ذلك بخمس سنوات بسد ابراهيم بك الشركي المذكور سنة ١١٦٨ هـ . وفي تلك السنة توفي السلطان محمود بن مصطفى



ش ١٨ : فرد لمدان محمود بن مصطفى

ورى في شكل ١٨ صور نقود السلطان محمود بن مصطفى مضروبة في القاهرة بتاريخ سنة ١١٤٣ هـ فالاولى منها ذهبية وهي صورة القطعة المعروفة باسم زر محبوب أو سكوب . والثانية ذهبية أيضاً وهي نصف سكوب أو نصفية والثالثة صورة القطعة النحاسية المعروفة بالجديد

(١) يصدقون بالخط الشريف الاوامر الصادرة من جلالة السلطان رأساً

سلطنة عثمان بن مصطفى

من سنة ١١٦٨ — ١١٧١ هـ او من سنة ١٧٥٤ — ١٧٥٧ م

فبويع أخوه السلطان عثمان بن مصطفى ويدعونه أيضاً عثمان الثالث وتقي على كرسي الخلافة ثلاث سنوات فقط . فشنى ابراهيم بك الشركي غليله بقتل ابراهيم نكيا لكنه لم يرو مطامعه لان مشيخة البلد انتقلت الى رضوان بك صديق ابراهيم نكيا ثم ظهر لرضوان منافس آخر من زعماء حزب ابراهيم يقال له حسين بك أصبح بعد قتل الكخيا اكبر رجال ذلك الحزب قادى لنفسه الاولوية بمشيخة البلد فلم تقبل دعواه فجمع اليه بعض دعاة المالك وصعد الى قلعة القاهرة واستولى على بطارية من المدفع تشرف على بركة النيل حيث يقيم رضوان بك فأطلق بعض الفنايل على المنازل فخرقت جدرانها قداعت أركانها ورضوان بك مشغول بحلاقة لحية . فلما أحسن بالامر طلب جواده ولم يعثر ظهره حتى أصيب برصاصة كسرت فخذه . وتمكن من الفرار ومعه بعض المالك الى قرية الشيخ عثمان وهناك توقف عن المسير لزيادة الالم ومعه رئيس الضابطة وكان مجروحاً ثم توفيا الاثنان ودفنا معاً

فسمي حسين بك من ذلك الحين شيخ البلد وأخذ يتقرب من أترابه البكوات وهم لا يزيدون منه الا نقوراً . ولم تمض بضعة أشهر من توليته حتى كمنوا له في مكان مصاطب الشباب في السهل الواقع بين القاهرة وأرض ابراهيم بك . وكان مشتغلاً بعرض جنوده المالك فهموا به وذبحوه ثم قطعوه ارباً ارباً وصار يعرف من ذلك الحين بحسين بك المقتول . فتولى مكانه خليل بك واشتهر بحب القتل وكان متظاهراً بالعداوة والحسد لعل بك على الخصوص لاعتقاده انه أشد أعدائه وطأة وأقوام عزيزة

سلطنة مصطفى بن احمد

من سنة ١١٧١ — ١١٧٨ هـ أو من سنة ١٧٥٧ — ١٧٧٤ م

وفي سنة ١١٧١ هـ تولى الخلافة العثمانية مصطفى بن احمد وهو مصطفى الثالث . وبالْحَقِيقَةُ ان علي بك كان كثير الاخلاص لابراهيم نكيا لا ينفك ساعياً في الانتقام له ولكنه كان يرى السبيل الاقرب والاسهل لبلوغ مرامه انما هو القوة . فأخفى ما في ضميره ٨ سنوات اشتغل في أتمائها بجمع القوة . فابتاع عدداً وافراً من المالك

ووطد علائقه مع البكوات الآخرين واكتسب ثقتهم بما كان يظهره من الغيرة عليهم والاخلاص لهم وما كان يكرمهم به من الهدايا . وما زال يخطو خطوة بعد أخرى حتى اقترب من النقطة المطلوبة فأوجس خليل بك خيفة منه وجعل يتجسس حركاته بالارصاد والعيون ويعد الميكائد في شوارع القاهرة . ففي ذات يوم هجم عليه حسين كشكش بأمر خليل بك وبعد موقعة هائلة اضطر علي بك أن يفر الى الصعيد في طائفة من أصدقائه البكوات يستعد للانتقام مضاعفاً

فصرح خليل بك أن علي بك وأتباعه البكوات مجردون من رتبهم وحقوقهم وولى مكانهم بكوات من ذويه وقتل من ظفر به في القاهرة من أصدقاء علي بك أو المتمين اليه . أما علي بك فالتقى في الصعيد بواحد من ممالك مصطفى القرد يدعى صالح بك كان منفيًا هناك وفي قلبه من خليل بك حزازات فاجده الاثنان ورجلها وزحفا على القاهرة . فخرج خليل بك وحسين بك كشكش فدارت رحى الحرب فكان الفوز لعلي ورفيقه فتداردا خليل بك ورجاله حتى قطعوا مديرية القليوبية وأوصلوهم الى المسجد الأخضر على ضفاف النيل . واشتد الكفاح هناك فالتجأ خليل بك ورجاله الى طنطا فبعث علي بك كاشفه محمد الملقب بابي الذهب ليهاجمهم فهاجمهم واستلم طنطا بعد أن قتل حسين كشكش . أما خليل بك فاختبأ بالمسجد وبقي فيه وقد غلبه الجوع ثم قبض عليه ونفي الى الاسكندرية وحقن هناك . ونقلوا رؤوس القتلى الى القاهرة وطاقفوا بها في أسواقها

علي بك الكبير

من سنة ١١٧٧ — ١١٨٧ هـ أو سنة ١٧٦٣ — ١٧٧٤ م

تمكن علي بك بهذا الانتصار من استلام مشيخة البلد في القاهرة سنة ١١٧٧ هـ وأول أمر بأمره قتل ابراهيم الشركسي الذي قتل سيده فثارت عليه أحزابه يطلبون الانتقام وهم عديدون تخاف علي بك على حياته فقر الى سوريا فالتجأ الى متسلم (حاكم) بيت المقدس وكانت بينهما صداقة قديمة الا أن هذا الملجأ لم يحمه الا شهرين لان أعداءه البكوات لما علموا بمقره شكوه للسلطان مصطفى وأخبروه بمقره فأقعد الى متسلم القدس فرماناً يأمره به أن يرسل علي بك مخفوراً الى الباب العالي . فلم علي بك بذلك فقر الى عكا وهناك اكتسب صداقة الشيخ ضاهر العمر أمير تلك المدينة الحصينة فأكرم وفدة وسمى في تبرئته أمام الباب العالي . وبمساعدة

نصرائه من أصدقاء ابراهيم نجيا اكتسب له العفو من الحضرة الشاهانية فألغيت الاوامر بالقبض عليه وأعيد الى القاهرة في منصبه الاول وفي سنة ١١٧٩ هـ أي بعد ذلك بسنتين هدد علي بك بالاقالة من ذلك المنصب . وذلك ان محمد راغب باشا الذي كان على مصر وعزل منها على ما مر بك كان يتذكر كرم اخلاق علي بك مذ كان كاشفاً . فبعد استقالته من مصر ولي بر الاناضول وبعد تسع سنوات صار صدراً أعظم وما انك متذكراً صداقة علي بك لا يفتر عن معاضدته وتسهيل مطالبه سرّاً وجهرّاً . ففي سنة ١١٧٩ هـ توفي الوزير محمد راغب باشا فأصبح علي بك في حاجة لمن يعضده . فاعتم أعداؤه هذه الفرصة ووشوا به الى الاستانة فاضطر أن يفر الى اليمن ولم تأت سنة ١١٨٠ هـ حتى عاد الى القاهرة واسترجع منصبه بمساعدة أحزابه وموت أربعة من دعاة ابراهيم الشركسي . ثم رأى له أن صديقه صالح بك تحبسه نفسه بخرق حرمة الصداقة وأتباع داعي المطامع الشخصية فوكل أمر قتله الى ابراهيم كاشف احد أتباعه فقتله طعناً وسترى ان ابراهيم هذا سيرتقي حتى يتولى مشيخة البلد

ورأى علي بك أن قبائل العربان في مصر السفلى قد شقت عصا الطاعة فأفخذ اليها أحد مماليك المدعو احمد في فرقة من الرجال خارب أولئك العربان وأمعن في قتلهم حتى لقبوه بالجزار وهو الذي تولى عكا بعدئذ واشتهر باحمد باشا الجزار . أما من بقي من أعداء علي بك تخافوا ولزموا السكوت وتحقق تخلصه من القلاقل والمفاسد والمقاومات ورأى من باب الاحتياط والحرص أن يرقي ثمانية عشر مملوكاً من أتباعه الى رتبة البكوية لينصروه وقت الحاجة وهذه أسماؤهم :

١	رضوان ابن أخيه	من جورجيا
٢	علي الطنطاوي	»
٣	اسماعيل	»
٤	خليل	»
٥	عبد الرحمن	»
٦	حسن	»
٧	يوسف	»
٨	ذو الفقار	»
٩	عجيب	»



١٩ : حوزة ختم سليمان باشا

١٠	مصطفى	من جورجيا
١١	احمد الجزار	» اماسيا
١٢	سليم آغا	انكشاري
١٣	سليمان نكيا	»
١٤	لطيف	شركمي
١٥	عثمان	»
١٦	ابراهيم	»
١٧	مراد	»

ولهذين الاخيرين شأن في هذا التاريخ لأنها سيتنازعان السلطة في مصر
١٨ محمد

وكان يعز محمداً هذا اكثر من الجميع وستراه رجلاً عتوقاً متكرراً للجميل . ولما تقلد البكوية لقب بأبي الذهب فأحب ان يجعل هذا اللقب اسماً على مسمى فظاهر بالكرم المفرط وبدلاً من ان يفرق العطايا بالبارات فرقها بالارباع أما علي بك فكان ساهراً على مصلحة البلاد سهرأ تاماً وكان مخلصاً في أعماله فظهر البلاد من اللصوص وسعي جهده في اصلاح شؤونها فساد الامن فيها بعد ان كانت معرضاً للقتال والمفاسد . ولم تقف مطاعم علي بك عند هذا الحد فانه رأى من تحمل الواشين بينه وبين ديوان الاستانة وايقاع ذوي الاغراض به وبسلطته ما حمله على السعي في الاستقلال بمصر وتجريدها من رعاية الدولة العثمانية لكنه كتم مقاصده وجعل يسعى في تنفيذها تحت ظي الحفاء

مساعيه في سبيل الاستقلال

وأول خطوة خطاها نحو هذه الغاية أنه اتحل أسباباً بني عليها عزل مستخدمى الملكية والجهادية ورؤساء الوجاقات واستبدلهم برجال على دعوته الا وجاه الانكشارية فانه لم يمه بعد ان تمكن من استبقائه تحت حمايته وسد جميع السبل التي يمكن بها التطرق الى مقاومته وأخر دفع مراتب الوجاقات الاخرى عمداً وصار يدفع رواتبهم أقساطاً عممة ورق كانت تخرس المائة منها تسعين فكان يربح أرباحاً عظيمة باسترجاع الورق بالاثمان البخسة وصرفه ثانية بثمنه الاصلي . فلما رأت رجال الوجاقات انهم لا يستولون من ماهياتهم الا على العشر كرهوا الاستخدام العسكرية وجعلوا يستقيلون منها شيئاً فشيئاً ويتعاطون أشغالا أخرى أكثر فائدة لهم

ثم سعى في تقليل العساكر العثمانية واستخدام المالك من دعاة . حتى صاروا نحواً من ستة آلاف وحظر على سائر البكوات والكشاف الذين يخشى تغييرهم عليه ان يقتني أحدهم اكثر من مملوك أو مملوكين . وكان على ولاية مصر إذ ذاك محمد باشا فازعجته اجراءات علي بك وخشي عاقبتها فنصح له أن يقف عند حده فلم يكثرث بقوله . فأقر على مقاومته لان هذه الاجراءات مضادة لمصلحة الباب العالي ولكنه لم يكن يستطيع المجاهرة بمقاصده هذه فأخذ يدسها سراً واتحد مع من بقي من دعاة ابراهيم الشركي وأجمعوا على الانتقام من علي بك ثم جعلوا يسعون فساداً بين أحزابه واستجلبوا بعضاً منهم الى جانبهم بالواعد المبنية على الحسد والطمع . وفي جملة هؤلاء محمد بك أبو الذهب الذي طمره علي بك بفضله حتى ازوجه ابنته وكان يناديه كما ينادي أولاده . ولم يكونوا يستطيعون تنفيذ ما ربههم جهاراً فأغروا صهره محمد بك المذكور بالمال ووعدوه أنه اذا قتل علي بك يتولى المشيخة مكانه فقبل ولكنه علم بعدئذ انه يقصر عن مناواة علي بك واستعظم الخيانة فعدل عنها الى جنابة تقرب منها . وذلك أنه شكى الى علي بك معاملة الباشا له فأسرع علي بك الى انقاذه منه وما اتفق عن الباشا حتى أخرجه من مصر فعاد الى الاستانة . ولم يزد علي بك الا ثقة في محمد بك ابني الذهب واخلاصاً له رغم ما كان ينقل اليه عنه من السعي ضده وفي سنة ١١٨٢ هـ انتشبت الحرب بين روسيا والدولة العلية فبعثت هذه الى مصر ان تمدّها بانثي عشر الفاً فوصلت الاوامر لعلي بك بذلك ومشروعه لم يفضح بعد فلم يسعه الا مباشرة ما أمر به فابتدأ بجمع الجنود . أما أعداؤه فاعتصموا تلك الفرصة للوشاية فضموا اليهم الباشا الجديد الذي كان قد أرسل من القسطنطينية بدلاً من الباشا الذي أخرجه علي بك واتفقوا جميعاً على كتابة تقرير أمضاه الباشا وسار البكوات اعداء علي يشون به الى الديوان الشاهاني بدعوى انه انما اراد بما يجمعه من الحيوش معاضدة روسيا للاستقلال بمصر فانفذ الديوان الشاهاني الى الباشا أمراً مشدداً ان يقتل علي بك ويرسل رأسه الى الاستانة

فاقتل ذلك بعلي بواسطة أصدقائه بالاستانة فبعث علي بك الطنطاوي احد دعاة في عشرة من اتباعه المالك متكرين بلباس البدويكمون على مسافة قصيرة من القاهرة حيث لا بد للقاجي باشي حامل ذلك الفرمان من المرور به فبكثوا هناك ثلاثة أيام وفي اليوم الرابع بان لهم القاجي ومعه أربعة رجال فوثبوا بهم وقتلهم وطمروهم في الرمل وأخذوا ملابسهم والفرمان وساروا الى علي فقرأه ثم جمع اليه

ديوان البكوات العمومي واطلهم عليه واقنعهم أن ذلك الأمر ليس لقتله وحده بل لقتلهم جميعاً ثم خاطبهم قائلاً « دافعوا إذاً عن حياتكم وحقوقكم واعلموا أن مصر ما برحت منذ القدم يحكمها دول من الممالك كانوا سلاطين اشداء تفاخر بهم الأرض السماء فاعيدوها اليهم . وهذه فرصة لا تضيعوها فانكم لن تعزوا عمركم على فرصة مثلها . هلم إذاً نسعى في الاستقلال فان فيه حياتنا وحريتنا »

استقلال علي بك بمصر

فتأثر البكوات من فصاحة علي وبلاغته وكانوا ثمانية عشر قد أجمعوا على دعوته فاعادوه على الدفاع عنه ما استطاعوا الى الدفاع سبيلاً . أما سائر الامراء الممالك من اعدائه فخافوا العاقبة ولزموا السكوت . فكتب ديوان علي بك أمراً الى الباشا أن يبرح الديار المصرية في ثمان واربعين ساعة وإذا لم يفعل يقتل وان مصر قد أصبحت مستقلة . وبعث علي الى الشيخ ضاهر العمر أمير عكا يعلنه رسمياً باستقلال مصر ويدعوه للمساعدة في ذلك فأجابه الشيخ ضاهر مسروراً وجمع اليه رجاله ورجال بني السبعة وصهره وانضم الجميع الى جنود علي وكان قد أضاف الى الستة الآلاف التي عنده من الممالك الاثني عشر الفاً التي جمعت مدداً للعثمانيين واطاف الى هذه أيضاً رجال أصدقائه البكوات حتى رجال اعدائه لانهم لم يعد يسمعون الا طاعته فاتصل ذلك بالاستانة فأرسل الباب العالي أمراً الى والي دمشق أن يسير في ٢٥ الفاً لمنع جنود عكا من معاضدة علي فصار الوالي في ذلك العدد من الرجال فلاقاه الشيخ ضاهر في ٦ آلاف بين لبنان وبحيرة طبرية وردده على أعقابها سنة ١١٨٣ هـ . وكانت هذه الواقعة آخر الوقائع لان الباب العالي أمسك بعدها عن ارسال الجند كانه نسي علاقته مع سوريا ومصر بالكلية

أما علي فاغتم اشتغال الدولة العلية بالحاربة مع روسيا وصرف عنايته في تنظيم مملكته الجديدة واصلاح ما داخلها من الخلل تخفيض الضرائب وجعل على المالية مدير الكرك القديم المعلم ميخائيل فرحات القبطي بدلاً من يوسف بن لاوي الاسرائيلي وكان قد قتل جزاء خيانه . ونظم التجارة الخارجية والمواصلات وابعدهم الى الصحراء فاستولى الامن وانتشر الاصلاح في القطر فزادوا على القاب علي لقب بلوط قبان (مبيد اللصوص)

قبيلة الهوارة

وكان في جملة القبائل الثائرة على مصر قبيلة الهوارة وهي أشد من بأساً وأطول

بأعاً جاءت في الاصل من ضواحي تونس الغرب واستقرت بين جرجا وفرشوط في بقعة من الأرض لم تكن تصلح للزراعة فاعتنوا فيها حتى انشأوا عدة قرى وما زالوا ينشرون سطوتهم حتى احتلوا جميع البقاع بين هوارة وكفر الشيخ سليم . ثم اغتم الشيخ همام (شيخ الهوارة) اشتغال مصر بما تقدم ووضع يده على البلاد من اسيوط الى اصوان وجمع اليه محصولاتها . وكان قد حارب هذه القبيلة كثيرون ممن تولوا مصر قبل علي وفرضوا عليها ضريبة مقدارها ٢٥٠ الف اردب من الخنطة توردها سنوياً الى مصر ففي سنة ١١٨٣ هـ أرسل علي بك صديقه محمد بك ابا الذهب لمحاربة الشيخ همام وقبيلته خارجهم وتغلب عليهم في أواخر تلك السنة . فاضطر أبناء الشيخ أن يتناعوا حياتهم بما لديهم من زروة أيهم . فرجع ابو الذهب من ذلك ما لا كثيراً ثم أسرع الى القاهرة لما علمه من الدسائس التي كان ساعياً بها رفيقه احمد بك الجزار على علي بك وكأنه لم يكن يريد أن يشاركه أحد بالدسائس على سيده . وكان احمد الجزار ينظر الى ابي الذهب نظره الى عدو يناظره في ارتكاب الدنيا فسمى في قتله فلم ينجح . وكان لاحد الجزار سيف مشهور بطيب فولاذه واتقان صنعه . فاتفق يوماً أنه اجتمع بمحمد ابي الذهب فقال له محمد : « أرني حسامك لا جرين فرند » فأجابه احمد : « لا يستل حسامي سواي ولا أعنده حتى يستباح قتل » ثم نهض للحال وغادر القاهرة قاصداً القسطنطينية فوصلها . ثم عهدت اليه ولاية عكا بعد ذلك . وما زال فيها حتى توفاه الله

فتوح علي بك ومعهاداته

أما علي بك فبعد أن تغلب على الصعيد ثار في خاطره حب الافتتاح فجرد الى اليمن جيشاً تحت قيادة محمد ابي الذهب فصار في عشرين الف مقاتل فقطع برزخ السويس ومضيق العقبة ولم يبق على أحد من القبائل التي حاولت الوقوف في طريقه وما زال حتى أتى اليمن وافتتحها . وأمر علي فصار اسماعيل بك في ثمانية آلاف لافتتاح السواحل الشرقية للبحر الاحمر وحسن بك لافتتاح جدة ولقب بالجدايي اشارة الى انتصاره على تلك المدينة وما زال يعرف بهذا اللقب من ذلك الحين . ولم تمض ستة اشهر حتى افتتحت شبه جزيرة العرب وفي جملة مكة المشرفة ولحق بها نهب شديد وأزل شريفها وأقيم مقامه ابن عمه الامير عبد الله فوافق علياً في سلطته وسماه بسلطان مصر وخاقان البحرين . فعل ذلك بصفته الدينية تملأاً لعلي . فلما حصل علي بك على ذلك من شريف مكة أخذ يتمتع بحقوق السلطنة فأمر أن يخطب باسمه في الصلوات العمومية أيام الجمعة . وضرب النقود سنة ١١٨٥ في القاهرة باسمه كما سترى

وسعى علي بك في هذه السنة الى أمر سيق به الى حتفه وذلك انه عهد الى محمد بك ابي الذهب أن يسير في ثلاثين ألفاً لاختضاع بلاد الشام لأنه كان يعتبر هذه الولاية بعد خروجه من طاعة الدولة العلية عدواً قريباً يخشى منه على نفسه وعلى صديقه ومحالفه الشيخ ظاهر . وكان ينظر الى سوريا كأنها جزء طبيعي من مملكة مصر . وكانت بالواقع قسماً منها في سائر الأزمنة التي كانت فيها مصر مستقلة في الدولة الطولونية والفاطمية والايوية والمماليك وغيرها



ش ٢٠ : كاترينا الثانية

وسعى علي بك في التحالف مع الدول التي بينها وبين الاستانة عداوة طبيعية فاستخدم تاجراً إيطالياً اسمه روسي عقد له معاهدة سلمية مع البندقيين على أن

يكونوا حلفاء له . ثم عهد الى رجل ارميني اسمه يعقوب أن يستطلع من الكونت الكسيس اورلوف قومندان القوات الروسية في البحرين (المتوسط والاسود) عن عقد معاهدة دفاعية وهجومية مع قيصرية روسيا كاترينا الثانية . فأجاب الكونت بالإيجاب وفتحت المحادثات بشأن ذلك وطال أمرها كثيراً بعد المسافة بين الطرفين . أما جنود علي بك في سوريا فصاحبها الظفر وأحدثت بجنود الشيخ ظاهر فاستولوا على غزة والرملة ونابلس والقدس ويافا وصيدا وأخيراً حاصروا دمشق ولم تلبث يسيراً حتى سلمت

خيانة محمد بك ابي الذهب

فلما رأى محمد ابو الذهب تمام هذه الفتوحات العظيمة على يده حدثته نفسه أن يجعلها لنفسه . ثم قاده مطامعه الى محاربة علي واستخراج مصر من يده . ويظن أنه لم يتقدم على ذلك من تلقاء نفسه وإنما حمل عليه بأوامر جاءت من الاستانة لان المحاربات السرية كانت متواصلة بينه وبينها بواسطة الباشا الذي أخزجه علي من مصر . فأمسك محمد عن المسير في البلاد العثمانية وحوّل شكيمة مقاصده نحو الديار المصرية فجمع ما كان لديه من الحيوش وضم اليها الحاميات التي كان قد أقامها في المدن المفتوحة وسار قاصداً مصر . لكنه لم يحسر على المسير الى القاهرة رأساً خوفاً من الانكشافية والوجاقات الاخرى لعلمه بما في قلوبهم من الضغينة عليه . فخرج نحو الصحراء حتى أتى الصعيد فخط رحاله هناك واستولى على اسيوط في آخر يوم من سنة ١١٨٥ هـ . ثم استقدم قبائل العربان وطاب محالفتهم ومحالفة بكوات الصعيد وجاهر بعزمه على خلع علي بك وسار قاصداً القاهرة فوصلها في أوائل سنة ١١٨٦ . فنزل بجيشه تجاه البساتين فوق مصر القديمة فلما علم علي بك بذلك تدم على ما وضعه من الثقة في رجل كان له أن يعتبر من سيرته الماضية أنه على غير الاخلاص والاستقامة . فجدد ٣ آلاف رجل بقيادة اسماعيل بك وأمرهم أن يمنعوا محمداً من عبور النيل . فسار اسماعيل لكنه خاف سطوة عدوه ووردت عليه كتب مفعمة بالمواعيد يمازجها بعض التهديد فأخذ جانبه وضمّ جيشه الى جيشه فقطع محمد بك النيل فاستقبله رجال اسماعيل بالترحاب . فاتصل ذلك بعلي فيئس من الفوز فانقطع الى القلعة باهله واصدقائه ورجال دعوته وقد عزم على المدافعة الى آخر نسمة من حياته

علي بك في عكا

وبعد ثلاثة أيام ورد اليه كتاب من الشيخ احمد أحد أبناء صديقه الشيخ ظاهر أن يبرح القاهرة خلا ويأتي الى أبيه في عكا . فخرج علي من القلعة بمن معه وسار من

جهة الجبل الأحمر طالبا سوريا عن طريق الصحراء . وكان خروجه قبل دخول محمد بك القاهرة يوم واحد أي مساء ٩ محرم سنة ١١٨٦ هـ وهذه هي المرة الثالثة لخروجه منها الى سوريا وفي معيته عدد يسير من الجند لا يبلغ ستة آلاف معظمهم من الخدمة الذين لا يستطيعون الدفاع . ولم يحمل معه من المال الا ثمانمائة الف زر محبوب يحملها ٢٥ رجلا . ونقل معه من المصوغات والحلى ما يساوي اربعة اضعاف ذلك . وما زالوا في المسير ليلا ونهاراً فوصلوا الى خان يونس في حدود سوريا بعد ثلاثة أيام فرأوا ان خمسة من الجمال الحاملة للنفود قد ذهبت فريسة بيد القبائل البدوية وان عدداً من جنوده فروا ومعهم يوسف الخزندار . وفي اليوم التالي دخل علي بك غزة ثم واصل السير حتى أتى عكا بعد ثمانية أيام فرحب به أميرها وكانت بينهما مودة شديدة فاطمان علي هناك . غير ان ما تكبده من المشاق في الاسفار مع ما أثر في نفسه من الغيظ الشديد غير صحته فلم يصل عكا الا وهو في حالة الخطر من شدة المرض

وفي أثناء ذلك وصل ميناء عكا أسطول روسي فلما علمت حاميته بما حل بعلي عقدوا معه معاهدة ثانية وقدموا له كل ما يحتاج اليه من المؤن والزخائر وكان في خدمة ذلك الاسطول فرقة من الالبانيين « الارناؤوط » مؤلفة من ثلاثة آلاف رجل فأمدوه بهم . فلما رأى علي بك ما كان من نجدة الروسين مع ما يمكنه الحصول عليه من جنود الشيخ ظاهر عزم على مناوأة أبي الذهب لكنه لم يكن يستطيع مباشرة ذلك بنفسه لانحراف صحته . فعهد الى علي بك الطنطاوي بعد ثلاثة اشهر ان يسير أولاً لاسترجاع المدن السورية التي دخلت في حوزة محمد أبي الذهب فسار واستولى على صور وصيدا وقرى أخرى من سواحل سوريا كانت قد احتلتها جنود عثمانية بعد انسحاب جنود محمد أبي الذهب . ثم سار علي بنفسه مع من بقي من الجند الى يافا وافتتحها بعد محاصرة خمسة اشهر استولى في أثناءها على غزة عنوة وعلى الرملة والدلتا تسليماً . فأعاد يافا الى حكومة الشيخ ظاهر وجعل على الدلتا حسن بك الجداوي وعلى الرملة سالم بك محمد أبو الذهب بمصر

وفي ٩ ذي القعدة ١١٨٦ هـ كان علي بك في يافا فجاءته رسل من القاهرة بجمعة سرية من وجاق الانكشارية والوجاقات الاخرى وسائر أعيان القاهرة يعلمونه ان محمداً أبا الذهب دخل القاهرة حالما خرج منها هو وسمى نفسه شيخ البلد وجعل يعيش في البلاد عينا لم يسبقه الى مثله احد ممن تولى مصر قبله . فجعل بعض الضرائب ضعفين وبعضها ثلاثة اضعاف . ثم اختلق قانوناً غريباً دعاه قانون رفع المظالم والمقصود

منه بحسب الظاهر انقاذ ملتزمي الاموال الاميرية من الاجراآت الاستبدادية التي كان يسومهم إياها الكشف الى ذلك العهد واستبدالها بما يعود بالمنفعة والحقيقة ان الضرائب ما اتفكت أشد وطأة من ذي قبل والاجراآت لم تزد الا استبداداً فضلاً عما رافق كل ذلك من القتل بالعباد قتلاً ونهباً

ثم قالوا ان مصر بجملتها لما رأت ما وصلت اليه من الانحطاط وما لحق باهلها من المظالم التي ما أنزل الله بها من سلطان قد اتابهم ان يبلغوا علي بك انها بصوت واحد تلتبس رجوعه ليحكم فيها لانه هو منقذها الوحيد وان مدينة القاهرة مستعدة ان تقف أبوابها لاستقبال أميرها القديم وان تدافع عنه الدفاع الممكن اذا حاول محمد بك أبو الذهب ما يخالف الصوت العمومي

خروج علي بك لمحاربة أبي الذهب

فلما علم علي بك بكل ذلك شعر أن آماله عادت اليه وبرح يافا للحال قاصداً القاهرة ولم يكن معه من الجنود الا الفان وخمسمائة فاستجد حاميات الدلتا والرملة وانضم اليهم جنود الشيخ ظاهر وجنود ابنه الشيخ شلي وصهره الشيخ كرم وحسن شيخ صور وكان قد استأجر ثلاثة آلاف وخمسمائة من المغاربة . فكان عدد جنوده جملة ثمانية آلاف محارب

في ١١ محرم سنة ١١٨٧ هـ وصل علي بك الى خان يونس وفي ١٦ منه أقرب من الصالحية . وفي ١٨ منه التقي بمقدمة جيوش محمد بك أبي الذهب وعدتهم اثنا عشر الف مقاتل وبعد محاربة بضعة ساعات ظهر علي بك عليهم وقد قتل عدداً غفيراً من رجالهم . فاقتحمت له أبواب الصالحية فدخلها وقد أصيب بجروح بلغية . ثم علم ان اعتماده على أحزابه في القاهرة لا يورثه الا خيبة الامل لان أبا الذهب كان قد جمع اليه كبراء البلاد ورجال حكومتها لم يعلم بمظاهرتهم لعلي وأقنعهم ان علي بك قد غدر الامة وخان الوطن وأباح دماء المسلمين بمعاهداته مع الروسين وغيرهم من الامم النصرانية . واستخدم أبو الذهب في سبيل اقناعهم الدرهم الواضح فانحازت اليه القوات العسكرية الا وجاق الانكشارية فإنه ظل محافظاً على ولاء علي بك . فلما تحقق محمد بك أبو الذهب اجتماع الاحزاب على دعوته أمن من الاضطراب الداخلي فسار بنفسه لمحاربة علي

أما علي فارتعج لتلك الاحوال ازعاجاً كثيراً فضلاً عما كابده من مشاق الاسفار في قطع الصحراء الحارة وزد على ذلك الجروح التي أصابته في واقعة الصالحية

فأصيب بحمى شديدة عجز معها عن ركوب جواده وقيادة جنوده . وفي ٢٠ محرم سنة ١١٨٧ هـ علم مجيء أبي الذهب وهو على ما تقدم من المرض فلم يتردد في وجوب الدفاع . فأمر قواده فانتظمت رجاله على قتلها وتهيات للدفاع وكان على أحد جناحي الجيش علي بك الطنطاوي ومن معه من البكوات وعلى الجناح الآخر ابن الشيخ ظاهر وعهره فاستظهرت جنود علي في بادي الرأي حتى قاربت الفوز التام ثم أرسل أبو الذهب بعض جواسيسه إلى المغاربة في جيش علي يغريهم على خيانة رئيسهم فوافقوه ووافقهم كثير من بكوات علي وفي جملةهم إبراهيم بك ومراد بك . وهذا الأخير اشترط أن يأخذ مقابلًا لحياته هذه ما يخلفه علي من المتاع والنساء وخصوصاً امرأته نفيسة وكان علي يحبها ويحترمها لما كانت عليه من الفطنة والجمال

فلما انتشبت الحرب في الصباح التالي انحاز جميع المغاربة والبكوات الذين خانوا إلى معسكر أبي الذهب . وكانت جنود علي بك قريبة من الفوز فلما رأت تلك الخيانة تضعفت وفر الجند يطلبون النجاة بأنفسهم بعد أن قتل علي بك الطنطاوي والشيخ شلي ونجا الشيخ كريم والشيخ حسن ورضوان بك من المعركة وساروا إلى فسطاط علي وأعلموه بما حصل وطلبوا إليه أن يمتطي فرسه ويسير برفقتهم إلى غزة حيث يلاقيهم الشيخ ظاهر بمن معه من الجند

مقتل علي بك

أما علي بك فأبى نفسه الاصغاء لما أرادوا فجلس يباب خيمته وقال لهم « أني ملازم هذا الموضع لا أبرحه حتى تبرحني نفسي لان الموت هنا أفضل عندي من الفرار . أما اتم اذا شئتم النجاة بأنفسكم فبادروا إلى الفرار قبل ان يغشاكم ما ربما لا تقوون على دفعه » . فاضطر ابن أخيه ورجاله الباقون ان يذعنوا لما أمر . فودعوه وحولوا الاعنة في طريق خان يونس قاصدين غزة فلقوا الشيخ ضاهراً هناك فاعلموه بما كان وبوفاة ابنه فاسف عليه كثيراً . ومكث علي بك بعد ذهاب أصدقائه بضع ساعات ينتظر مئيته وبجانبه عشرة من مماليكه واذا بخمسين رجلاً تحت قيادة الكخيا نائب محمد أبي الذهب قد وصلوا إلى الخيمة ودخلوها وقتلوا من كان فيها من المماليك ثم وثبوا على علي وكان المرض مشدداً عليه وفيه جروح لكنه نهض بسيفه فقتل أول قادم إليه وجرح اثنين آخرين نخشي الباقون الاقتراب منه فأطلقوا عليه البنادق فجرحوه جروحاً بليغة في ذراعه اليمنى ونخذه . فجعل يدافع يسرا دفاعاً شديداً إلى ان وثب

عليه السكخيا بنفسه فدافعه علي حتى أصيب في ذراعه اليسرى وفي أماكن أخرى فسقط على الأرض وهو لا يتفك عن الدفاع فتكاثرت عليه الرجال حتى أمسكوه حياً وساروا به إلى محمد أبي الذهب وطرحوه عند قدميه فأمر بحمله إلى القاهرة فحملوه إليها وأنزلوه في داره بدرب عبد الحق في شارع البكري وراء صندوق الدين فلبث فيها سبعة أيام ثم توفاه الله . وقد قال بعضهم ان أبا الذهب أدخل السم في جروحه فقتله والله أعلم . ودقوه بترية استأذه إبراهيم كخيا بجوار الامام الشافعي . وكان لموت هذا الرجل تأثير عظيم في قلب كل من عرفه حتى ان أبا الذهب نفسه لم يسمع الا الندم داخلاً لما فرط منه وما أتاه من نكران الجليل وارتكاب مثل هذه الخيانة

مناقبه

ومن مناقب علي بك انه كان عظيم الهية حتى اتفق لانا من انهم ماتوا خوفاً من هيته . وكانت تأخذ الرعدة بعضهم بمجرد المثل بين يديه فيأخذ هو بتلطيف رعبه فيقول له « هون عليك » . وكان صحيح القراءة شديد الحذق يفهم مدحخص الدعوى الطويلة بين المتخاصمين ولا يحتاج في التفهم إلى ترجمان او من يقرأ له الصكوك والوثائق بل يقرأها هو بنفسه ولا يحتم ورقة حتى يقرأها ويفهم خواها . ومن ما رآه البناية العظيمة بطنطا وهي المسجد والجامع والقبعة على مقام السيد البدوي والمكاتب والميضة الكبيرة والخفيات والمنارتان العظيمتان والسييل المواجه للقبعة والقيصرية العظيمة . وجدد أيضاً قبة الامام الشافعي وبنيات ووكلات في بولاق مصر ولا يزال هذا الرجل ميمراً عند المؤرخين بلقب الكبير فيدعونه « علي بك الكبير »

وترى في الشكلين ٢٠



و ٢١ صورتي النقود التي ضربت على عهد علي بك في القاهرة . الاولى فضية وعليها الطغراء الشاهانية للسلطان مصطفى بن احمد

وتاريخ توليه السلطنة سنة ٢٠ ش : قود السلطان مصطفى بن احمد وعلي بك

١١٧١ هـ ويشاهد عليها ايضاً من الاعلى اسم علي وتاريخ ٨٥ وهي مختصر



ش ٢١ : نقود السلطان مصطفى
ابن احمد وعي بك

من سنة ١١٨٥ هـ وتدعى هذه القطعة من المعاملة قرشاً . والثانية فضية أيضاً ويشاهد عليها الطغراء العثمانية . أما تاريخ تولية السلطان فاستبدل بسنة ١٢٨٣ هـ وهي السنة التي صرح بها علي بك باستقلاله ويشاهد عليها اسمه . وتدعى هذه القطعة عشرينية اي نصف قرش

سلطنة عبد الحميد الاول



ش ٢٢ : عبد الحميد الاول

من سنة ١١٧٧ — ١٢٠٣ هـ أو من سنة ١٧٧٤ — ١٧٨٩ م

وفي تلك السنة تولى الخلافة العثمانية السلطان عبد الحميد الاول عوضاً من السلطان مصطفى الثالث



ش ٢٣ : نقود السلطان مصطفى بن احمد

وترى في الشكين ٢٣ و ٢٤ صورتي نقود ضربت في القاهرة في عهد السلطان مصطفى بن احمد قبل استقلال علي بك بتاريخ ١١٧١ هـ الاولى فضية والثانية نحاسية

وبوفاة علي بك عاد وادي النيل الى ما كان عليه قبله تابعاً لاملاك الدولة العلية وعادت أحكامه الى مشايخ البلد والكشاف الذين جعلوا تلك المناصب وسيلة لاختلاس أموال الناس وحقوق الدولة وكان علي بك قد جعل



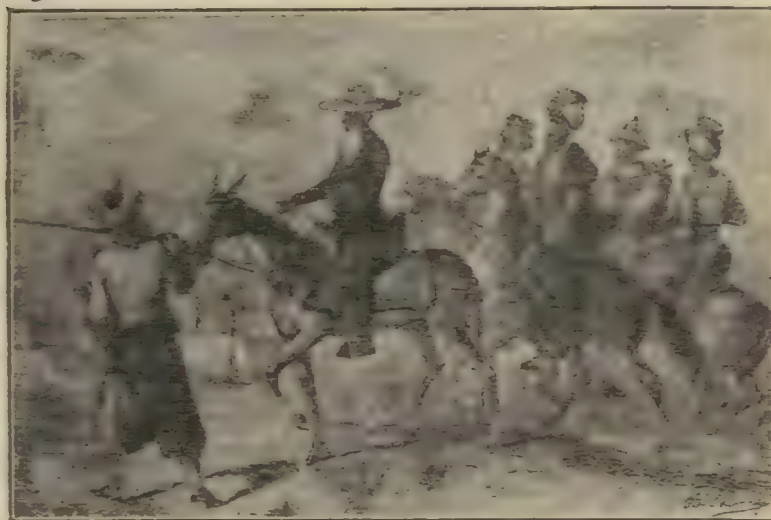
ش ٢٤ : نقود السلطان مصطفى

لكل هذه المظالم حداً وأصلح الشؤون حتى علقت الآمال باعتزاز مصر ورفع شأنها فلم تبق المنية عليه نعم ان مصر بعد وفاته عادت الى كنف الدولة العلية لكنها بالحقيقة لم تهدأ شيئاً لأنها كانت في الحالة الاولى طعمة الرجل محب للإصلاح مخلص بمقاصده وان كانت بعزل عن سيادة الدولة وأصبحت في الثانية طعمة لثلاثين رجلاً كل منهم يسعى في ابتلاعها لا يتفقون الا على كره الدولة الذين هم تحت حمايتها . اما السلطان عبد الحميد فلم يكن يرسل اليها من الولاة الا من كان اسماً بلا مسمى كما كان شأنهم قبل ظهور علي . فكان الباشا من هؤلاء آله يديرها البكوات كيف شاؤوا ولم يكن لديه من الاعمال الا مخبرة القسطنطينية سرّاً بما كان يقع بين هؤلاء البكوات من الخلاف وما كانوا يتداعون اليه من الخصام . وواجباته المهمة ان يستلم الجزية من الحكومة المصرية ويرسلها الى الاستانة اذا تمكن من قبضها

أبو طبق وعزل الباشوات

فكانت ولاية مصر منصباً يستحي العقلاء من قبوله لانهم كانوا يعتبرونها منقبة استحققتها الباشا أو الوزير الذي يرسل اليها وكان يعلم قبل خروجه من الاستانة انه اذا لم يكن راضياً بما يرزاه شيخ البلد لا يلبث ان يصله منه رسالة ينقلها ناقل يقال له الاوطه باشي وفيها الامر بعزله أمراً لا مرد له ولا مجال للدافعة بعده . وكيفية ذلك ان شيخ البلد اذا رأوا في تصرف الباشا ما يوجب الشك اجتمعوا اجتماعاً عمومياً في الديوان وقرروا عزله وكتبوا بذلك أمراً يسلمونه الى الاوطى باشي ليوصله الى الباشا فيحمله ويسير على حمار (لان القانون لا يسمح له بركوب الخيل

أو البغال) وبين يديه فرمان العزل فاذا مر في الاسواق على هذه الصورة علم الناس أنه ساع في أمر هام فيه عزل فيهرولون وراءه. ولا يزال ساراً في عرض الطرق قائداً لتلك الجماهير نحو القلعة. ومن واجبات أي جندي لقيه في تلك الحال أن يرافقه اتقاء ما يخشى حدوثه عند وصوله إلى القلعة



ش ٢٥ : أبو طبق في موكبه

فاذا وصل القلعة يدخل على الباشا ثم يجثو أمامه باحترام ووقار وعندما ينهض يطوي السجادة التي كان جاثياً عليها وينادي بأعلى صوته « أنزل يا باشا » وعند طي السجادة والتلفظ بهذه العبارة تسقط كل حقوق ذلك الباشا ولا يعود له أقل سلطة على الجنود التي كانت قبل بضع دقائق تنتظر اشارته. وتصبح تحت أوامر الاوطه باشي وكانوا يسمون الاوطه باشي أبا طبق لأنه كان يلبس على رأسه قبعة مثل الطبق والباشا يقف ممثلاً يسمع تلاوة فرمان سواء كان منطوقه بعزله أو بقتله فلا يسمع الا الطاعة التامة. على مثل ذلك كانت معاملة باشوات مصر - فأنهم كانوا عرضة لاوامر العزل التي اذا لم تكن من الاستانة كانت من مصر

فلما مات علي بك اختلف أعداؤه في القاهرة على الاجزاء من انتصاراتهم فكان كل منهم يظن لنفسه الحق بالتمتع بأغار الانتصار كغيرة أو أكثر فاختلفت الاحزاب من بينهم. أما من بقي من رجال علي فلم يجدوا مكاناً فيه راحة لهم وكانوا في عكا

عند الشيخ ظاهر على ما تقدم فتقهقر أبو الذهب لأنه كان يحب الانتقام جداً يفوق التصديق وقد آلى على نفسه ألا يبقى على أحد من رجال علي

أما الشيخ ظاهر أمير عكا فلم يعد يطيب له السكون بعد أن خسر ابنه في سبيل نصرة علي بك فارت في خاطره بواغث الانتقام. ولكن أبا الذهب لم يعد يستطيع صبراً على ذلك فاسترحم من الباب العالي أن يؤذن له بالمسير لاختضاع سوريا ولا سيما عكا وأنهم أميرها الشيخ ظاهر بالعصيان وأنه ساع ضد الدولة. فأجاب الباب العالي بفرمان يثبت في مشيخة البلد مع لقب باشا ورتبة والي القاهرة مكافأة لما أتاه من كسر شوكة علي وأحزابه وأذن له أن يتبع ذلك الشيخ العاصي. فلما وصل فرمان إلى أبي الذهب كاد يطير من شدة الفرح وأعد جيشاً تحت قيادته واستخلف في مصر اسماعيل بك وعهد حكومة مدينة القاهرة إلى ابراهيم بك. وسار في جيشه إلى سوريا ولم تنته سنة ١١٨٩ هـ حتى دخل فلسطين. وكان لشدة عجزه بما أوتيته من الالقاب والرتب وما وعده به الباب العالي من المساعدات لا يزيد الا كبراً حتى جعل خيمته التي يستريح فيها من أمن ما يمكن وزينها أبدع زينة. فربحان يونس فالرملة ولم يلاق مقاومة. أما ياقا فكان عليها الشيخ كريم صهر الشيخ ظاهر فدافعت قليلاً ثم فتحت عنوة فدخلها رجال أبي الذهب وقتلوا القسم الاعظم من سكانها رجالاً ونساءً شيوخاً وأطفالاً

فلغت تلك الفواحش مسامع الشيخ ظاهر وهو في عكا يخاف أن يصيبه ما أصابها فقر بعائلته وبمن هاجر إليه من المصريين ولم يترك في المدينة الا ابنه علياً ولما علم هذا باقتراب جيوش أبي الذهب أخلى القلعة وانسحب منها لاعتقاده أنه اذا حاول الدفاع انما يحاول عبثاً. فوصلها أبو الذهب وأبوابها مفتوحة فدخلها ولم يبق عليها وفي هذه المدينة انتهت فظائع هذا الرجل لأنه بينما كان عازماً على العود إلى مصر أصبح القوم فوجدوه ميتاً في خيمته ولم يعرفوا القاتل رغم ما اتخذوه من الاحتياطات وما كان لديهم من القرائن الكثيرة. فقال بعضهم انه أصيب بنقطة وهي داء السكتة وقال آخرون انه مات مقتولاً يدعدو فاتهك والله أعلم. وبعد موت أبي الذهب عادت الحيوش المصرية تحت قيادة مراد بك إلى مصر ومعهم جثة رئيسهم فدقوها بالقرب من مدفن علي بك. ومات أبو الذهب بعد موت علي بك بستين ولقب « بالخانن »

مشيخة اسماعيل بك

وتولى مشيخة البلد بعده اسماعيل بك ولم يبق غيره من رجال ابراهيم نكيا . وهو من الذين نالوا البكوية بواسطة علي بك وكان لا يزال على دعوته وانما انضم الى ابي الذهب خوفاً . وقبله لم يفتّر لإهجا بالمدافعة عن رئيسه لانه لم يأت نحوه الا ما يستدعي نصرته فضلا عن انهما من طائفة واحدة

فلما استلم زمام الاحكام تسج على منوال علي بك فبعث الى رجال حزبه الذين كانوا لا يزالون في سوريا فاستقدمهم اليه واقرهم في اماكنهم وطيب خاطرهم استعداداً لمقاومة مراد وابراهيم مناظريه على مشيخة البلد . وكانا قد اتحدا على خلع اسماعيل بك فطلبنا أولاً طرد حسن بك الجداوي صديق اسماعيل بك فلم يفوزا لكنهما تمكنا من احتلال القلعة فاتحد اسماعيل بك وحسن بك واخرجاها منها فقرا الى الصعيد . ثم جمعا حزباً كبيراً واستعدا لقتال اسماعيل فبعث جيوشاً لتخمد انقاسهما فعادت على اعقابها وفاز الاميران . فاضطر اسماعيل بك الى مغادرة القطر المصري فيم الاستانة . اما حسن بك فقبض عليه وتقي الى حدة بحراً فاحتال في اثناء الطريق فارضى رئيس المركب الذي نقله فانزله في القصير على سواحل القلزم ومن هناك قطع الصحراء غرباً حتى اتى الصعيد فاستكن في اعلاه

مراد بك وابراهيم بك

فلما خلا الجو لمراد بك وابراهيم بك اقتسما الاحكام فتعين الاول أميراً للحج والثاني شيخاً للبلد ورقياً كثيرين من مماليكهما الى رتبة البكوية وقبلاهم مصالح البلاد وكانت الاحكام في عهدهما كما كانت في أيام اسلافهما من المظالم والاستبداد . وبلغهما بعد مدة ان اسماعيل بك عاد من الاستانة وجاء حلوان فبعث اليه فرقة من المماليك فتكت بكل من كان معه من عائلته ورجاله . اما هو فتمكن من النجاة باختبائه في بعض الكهوف ثلاثة أيام . ثم خرج طالباً للثلال وهناك اجتمع بصديقه حسن بك الجداوي وسارامعاً واويا الى الجنادل في السودان

فاختلف مراد بك وابراهيم بك على ارسال حملة للقبض على الممارين فارتأى احدهما وجوب التجنيد وخالفه الآخر حتى آل الامر الى الخصام وخروج ابراهيم بك مقتظاً من القاهرة الى المنيا في الصعيد . فأرسل اليه مراد بك بعض الاختيارية يسكنون من غضبه فأرضوه وأعادوه الى مركزه في القاهرة . الا ان العلاقات الودية ظلت متكدرة بين الاثنين ولم تمض مدة حتى خرج مراد بك الى المنيا غيظاً من زميله

لانه اتحد مع خمسة من ريت عدوها القديم وهم البكوات عثمان الشرفاوي وأيوب الصغير وسليمان وابراهيم الصغير ومصطفى الصغير ولبث مراد بك بعيداً عن القاهرة خمسة أشهر وابراهيم يظن أنه لا يلبث أن يسكن غضبه ويعود اليه فلما استبطأه ارسل اليه الاختيارية كما فعل ذلك معه . فأبى مراد بك ورد الاختيارية خائين . ثم جند جنداً من أتباعه الممالك وسار على الضفة الغربية للنيل حتى أتى الجزيرة مقابل مصر القديمة وعسكر هناك . وهم بقطع النيل فلم



ش ٢٦ : مراد بك

ابراهيم بك بذلك فجد في الجهة المقابلة على البر الشرقي لينعه من المرور ولبث الجانبان على تلك الحال ثمانية عشر يوماً لا يتحاريان الا على سبيل المناوشة باطلاق مدفع أو مدفين ولم يقتل الا رجل أو فرس . فلما مراد بك من تلك الحال فعاد الى المنيا

أما ابراهيم بك فكان كثير الرغبة في مصالحة زميله فانفذ اليه بعد خمسة أشهر

من خروجه وفداً ثانياً من كبار البلاد ومشائخها يطلبون اليه الرجوع الى القاهرة فوافقهم لكنه اشترط عليهم أن يسلموه الخمسة البكوات المتقدم ذكرهم حال وصوله الى القاهرة . فقبلوا بذلك الشرط فنزل معهم فعمل أولئك البكوات سرّاً من ابراهيم بك بما اشترطه مراد بك فخرجوا من القاهرة نحو القليوبية على نية الشخوص الى الصعيد عن طريق الاهرام . فاتصل ذلك بمراد بك فجعل عند الجسر الاسود قرب الاهرام عصابة من العربان يترصد مرورهم ولم يستطع صبراً على ذلك فقطع النيل ببعض رجاله فالتقى بالمنهزمين عند رأس الخليج فتلاحوا فخرج مراد بك ونجا أولئك فلاقام العربان عند الجسر الاسود فأسروهم وجاؤا بهم الى مراد بك فقام الى المنصورة وفرسكور ودمياط تقريباً لكلهم وبعد مدة يسيرة عادوا واجتمعوا في آخر سنة ١١٩٧ واتفقوا أن يفرّوا الى الصعيد ويجمعوا اليهم عصابة يقاومون بها عدوهم ولم يباشروا ذلك حق توسط شيخ جامع الازهر في أمرهم وحصل لهم العفو من مراد بك فصحب عنهم وأعادهم الى القاهرة بكل اكرام وأعاد اليهم رتبهم وامتيازاتهم

حالة عثمانية لحرب الممالك

مضى بعد ذلك ثلاث سنوات على ابراهيم بك ومراد بك وهما على وفاق وسكينة يقتسمان ايراد البلاد بينهما بالسواء لا يقدمون عنه حساباً أو اذا قدموه كان حبراً على ورق . فوشى بهما محمد باشا والي مصر اذ ذاك الى السلطان وبما كانا فيه من الاستئثار بمالية البلاد . فامر السلطان عبد الحميد سنة ١١٩٩ هـ أن يرسل الى مصر جيش لا يقاومها عند حدّها . فسار الجيش في عمارة بقيادة حسن قبطان باشا فوصلت الاسكندرية في ٢٥ شعبان سنة ١٢٠٠ هـ تخاف البكوات خوفاً شديداً واجتمعوا اجتماعاً عاماً في الديوان وتباحثوا في ما يجب اجراؤه . فكثرت اللفظ واختلفت المقاصد والآراء فلم يقرروا على شيء وأخيراً ارتأوا طلب توسط محمد باشا ولما عرضوا عليه رأيهم رفض . فطلبوا من الشيخ احمد العريشي شيخ الجامع الازهر والشيخ محمد المهدي - الذي تعين في زمن الفرنساوية كاتم سر الديوان الخصوصي كما سيجيء - وغيرهما أن يسيروا الى رشيد ويستعطفوا القبطان باشا . وترى في شكل ٢٧ صورة ختم الشيخ المهدي وتوقيعه الرسمي وفيه لفته كما يكتبه بيده

فركبوا من بولاق في زورق فاخر وما زالوا حتى بلغوا رشيداً فلاقام القبطان باشا بما يليق من الاحترام . أما هم فلعلمهم أن الاميرين ابراهيم ومراداً لا يثبتان على رأي خافوا اذا طلبوا لها العفو وحصلوا عليه أن ينكت ذاك فتكون الملامة

عليهم . فقال الشيخ العروسي « يا مولانا ان رعية مصر ضعفاء ويوت الامراء مختلطة بيوت الناس »

فقال الباشا « لا تخشوا بأساً فإن أول ما أوصاني به مولانا السلطان هو قوله « ان الرعية وديعة الله عندي وأنا أستودعك ما أودعني الله تعالى »

فدعوا له بطول العمر ثم قال لهم « كيف ترضون أن يملككم مملوكان كافران يسومونكم سوء العذاب لماذا لا تخرجونهما من بلادكم ؟ »

فأجابهم أحدهم بقوله « يا سلطانم هؤلاء عصابة شديدة البأس لا نقوى على دفعهم » فطيب خاطرهم ووعدهم بالحماية .

وبالحقيقة ان هذا الوفد تصرف بالحكمة لأنهم لم يكادوا يخرجون من حضرة القبطان حتى سمعوا بقدم مراد بك ومعه عشرة من البكوات وبعض الكشاف والماليك . ثم شاع أنهم نزلوا في الرحمانية عند منشأ التربة

اخمودية الاسكندرية . وسبب ذلك ان مراد بك بعد ما أرسل الوفد خطر له الدفاع بالسيف فجمع اليه ذوي شوره

وفلأولهم فأقروا على الدفاع وان يسير مراد لذلك ويبقى ابراهيم بالمحافظة على القاهرة فسار مراد بمن معه ونزلوا في الرحمانية كما قدمنا فلاقتهم الجنود العثمانية وجرت بينهما واقعة لم تطل الا يسيراً فاندعرت جنود الممالك من قنابل العثمانيين التي كانت تدافع بين حوافر خيلهم فتشتت شملهم وقاز العثمانيون . ففرّ مراد بك ومن معه حتى أتوا القاهرة فاجتمعوا بابراهيم بك وخرجوا جميعاً الى الصعيد ومكثوا ينتظرون هجرات العثمانيين . فلما رأى محمد باشا الوالي خلو القاهرة من الممالك جمع اليه الوجاقات ونزل بهم من القلعة لاستقبال الجنود العثمانية

ففي ٥ شوال سنة ١٢٠٠ هـ دخل حسن باشا القاهرة بعد ان أخبرت جيوشه كل ما مروا به من المدن والقرى ونهبوها ولولاه لم يبقوا على شيء أصلاً . لكنه كان يمنعهم من ذلك بالقوة وقتل منهم كثيرين عبرة للباقيين فكفت الأيدي فسكنت الناس فلما وصل القاهرة نزل في بيت ابراهيم بك عند قصر العيني على النيل . ثم عرض أمتعة البكوات المنهزمين للزاد العمومي وفي جملتها حريمهم وأولادهم وماليكهم . فاسترحم

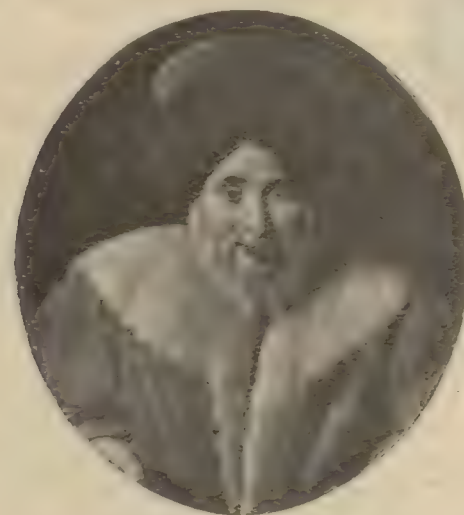


الحمد لله
محمد بن محمد
المرسي
كان
المصري

ش ٢٧ : ختم محمد المهدي
وامضاءه

المشأن أن يخرج الأولاد والنساء الحوامل من معرض البيع لأن ذلك فضلاً عن مخالفته للعواطف الإنسانية فهو مغضب لله

فاتهرم القبطان باشا قائلاً : « سأكتب الى الاستانة بأنكم تعارضون في بيع أمتعة أعداء جلالة السلطان » فأجبه الشيخ السادات قائلاً : « قد أرسلت اليها لمعاقبة شخصين مجرمين وليس لهنك شرائعنا والظمن في عاداتنا فكتب الى الاستانة ما شئت »



ش ٢٨ : الشيخ بو لانور السادات

فعند ذلك أمر الباشا باستثناء المحظيات الحوامل من البيع . وبعد أن بيعت سائر الامتعة عكف حسن باشا على اصلاح الادارة فأصلحها على ما يوافق الارادة الشاهانية وكان قد استقدم اسماعيل بك وحسن بك الجداوي من الصعيد فأرسلهما في جيش بقيادة عابدين باشا ودرويش باشا قائدي الحملة العثمانية التي جاءت مصر عن طريق البر (فضلاً عن العمارة البحرية المتقدمة ذكرها) وسار في تلك الحملة أيضاً نحو ألف مقاتل من رجال الشام تحت قيادة امير كبير من أمراء شين اغلي فاجتمعت هذه الحملة وسارت نحو الصعيد لمحاربة مراد بك ورجاله .

فحصلت هناك واقعة عظيمة شفت عن عدة قتلى من الجانبين وانهزم مراد بك ورجاله الى الشلالات ورجعت الجنود العثمانية ظافرة الى القاهرة . ثم جاءت الاوامر الشاهانية بعزل محمد باشا وتولية عابدين باشا مكانه

وهنا تنتهي مهمة حسن قبطان باشا فاستدعي الى الاستانة بسبب الحرب مع روسيا . ولكن مصر لم تتج من البكوات وكانوا لا يزالون في مصر العليا كما رأيت . والمسيحيون يشكون من معاملة حسن باشا بأنه أخذ متاعهم وباعه على مشهد من الناس فضلاً عن الاهانة التي ساءمهم إياها وعلى الخصوص المعلم ابراهيم الجوهري أمين احتساب مصر فانهم قبضوا على امرأته وأجبروها أن تخبرهم بمخايب زوجها من التقود فأخبرتهم فاستخرجوها وأخذوها . ولما برح حسن باشا القاهرة أقام عليها اسماعيل بك شيخ البلد فعهد هذا الى صديقه القديم حسن بك الجداوي امرة الحج واتفقا معاً على

اقتسام الاراد



وفي سنة ١٢٠٣ هجرية توفي السلطان عبد الحميد الاول

وترى في الشكلين ٢٩ و ٣٠ صورتي التقود ش ٢٩ : تقود السلطان عبد الحميد الاول



الذهبية التي ضربت على عهد السلطان عبد الحميد

الاول بن احمد في القاهرة بتاريخ ١١٨٧ هـ

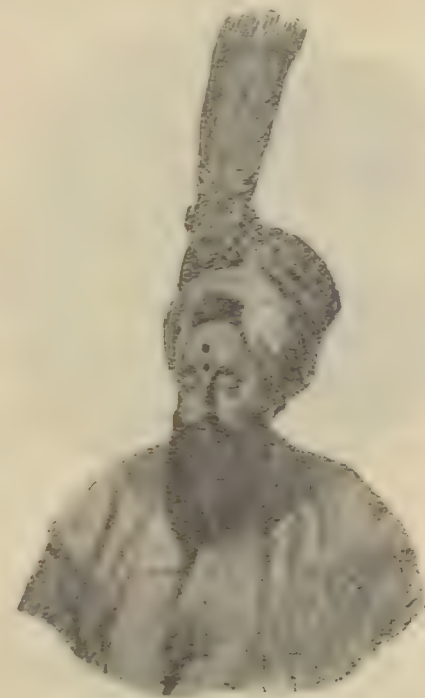
الاولى تدعى نصف زر محبوب والثانية قندقلي ش ٣٠ : تقود السلطان عبد الحميد الاول

سلطنة سليم الثالث

من سنة ١٢٠٣ — ١٢١٣ هـ او من سنة ١٧٨٩ — ١٧٩٨

فبويع السلطان سليم الثالث بن مصطفى فأقر اسماعيل بك في مركزه فتعاطى الاحكام بديارية وحكمة الى سنة ١٢٠٥ هـ وفي هذه السنة طرأ على الديار المصرية ولا سيما القاهرة وباء شديد الوطأة لم تقاس مثله قبله حتى بلغ عدد الموتى به نحو الالف في اليوم بالقاهرة وحدها وتقلب على حكومتها في يوم واحد ثلاثة حكام . وسبب ذلك ان اسماعيل بك أصيب بالوباء فأقيم آخر مكانه فأخر حتى فني كل من كان من بيت اسماعيل بك الا واحداً يدعى عثمان بك الطبل . ولا يزال هذا الوباء مشهوراً بفتكه ويعرف بطاعون اسماعيل . فتولى عثمان بك الطبل المذكور مشيخة البلد ولم يكن قادراً على ادارة الاعمال التي عهدت اليه فاستدعى ابراهيم بك ومراد بك فدخلوا القاهرة في ٢١ ذي القعدة من تلك السنة ففر حسن بك الجداوي الى مصر العليا قاصداً

فاسلم ابراهيم ومراد أزمة الاحكام وجعلنا يعثان فيها وكانا يتناوبان مشيخة البلد وأمارة الحج سنوياً بعد ان أقيا كل من كان على غير دعوتها فصفا الجو لها . أما قلباها فكانا لا يخلوان من الضغائن المتبادلة لما طبع عليه كل منهما من حب الآثرة وقد اختلقا في الطباع والمناقب : كل من مراد بك شديد البطش مقدماً لا يهاب الموت وكان ابراهيم بك أكبر سناً وأكثر اختباراً ربعاً ضخم القامة حسن الطلعة جاد البصر وكان يترهب لمراد محاذراً بطشه لثلاثا يطلبه للزوال ولولا ذلك لم يرض معه بالاجتزاء



ش ٣١ : السلطان سليم الثالث

من الدخل اجزاء سوية . وكان لا يعارضه في ما يأتيه من الاستبداد ووضع الضرائب وسلب أموال الناس لانه شريك في الارباح الناتجة من ذلك . وكان في ابراهيم رياء أظهر غير ما يضره اذا استصرخ وبعد مع العزم على الاخلاف . وكان جباناً فاذا يراد أمراً لا يتظاهر به وانما يسعى اليه بالدسائس والمكائد

أما مراد بك فلم يكن يعرف المسكر وانما كان يسعى في أغراضه بالقوة والحزم وكان طويل القامة عضلي البنية شديد البأس يقطع عنق الثور بضربة من سيفه وعلى وجهه

ملاح الاسود فاذا غضب يهايه ويخاف منه كل من يراه حتى أحب أصدقائه . (انظر ش ٢٦) . وكان كريم النفس لا يبيت على غيظ حر الضمير لا ينكر الحق ولو كان عليه مخلصاً لأصحابه مقيماً على قوله . وكان طمعه بمقدار سخائه وحب لذاته بمقدار حرية مبادئه . وكان سريع الغضب شديده لا يراعي في حال غضبه أمراً من الامور وربما فتك بمصلحة نفسه أو أضراً بشخصه



وترى في شكل ٣٢ صورة كل من ختمي مراد بك و ابراهيم بك محفورة على شكل جميل

والم بالبلاد بعد عود هذين الاميرين الى

مصر جوع هائل ويقال انه حصل من كثرة ش ٣٢ : ختم مراد بك وختم ابراهيم بك ما ضبطاه من الحبوب في مصر العليا طمعاً بالكسب . ثم الغيا النظامات التي وضعها حسن باشا قبطان وابدلاها بما يوافق مطامعها الشخصية . فكثرت تعديات مماليكهما وعلى الخصوص تعديات احدهم محمد الالفي ^(١) فثار الاهلون ثورة عامة لم يسعهما معها الا توقيف تلك الاجراءات وقتياً تخمدت الثورة فعادوا الى ما كانوا عليه فعاد الناس الى الاضطراب وكسدت سوق التجارة لقلّة الامنية

نسخة قديمة من القرآن

يحكى ان مراد بك اظهر يوماً انه عازم على تجديد الملابس والامتنعة العسكرية وطلب ما يقوم بنفقاتها ففرض على الاسرائيليين مبلغاً كبيراً اعانة لهذا المشروع فاجتمع رؤسائهم وتخابروا في ماذا يصنعون لينجوا من هذه الضريبة فاقروا على ان ينفذوا اليه اثنين من كبارهم يسعيان في ما ينجيهم من هذه الضريبة فساروا ولما مثلاً بين يدي مراد بك قالوا له « ايها الامير اتنا فقراء ولو بعنا ممتلكاتنا ونساءنا واولادنا واقسنا لا نجتمع عشر ما تطلبه منا فاذا اعفيتنا من هذه الضريبة التي يستحيل علينا دفعها نطعمك على مخبأة تسكفين مؤنة هذه المطالب . وهذه الخبأة لا يعلم بها احد سوانا وقد تنوّل هذا السر في مائلتنا حتى وصل الينا ونحن نوصله لاولادنا عندما نحضرنا الوفاة »

(١) سمي بهذا الاسم لانه يبيع باليد ديار

فلما سمع كلمة « نجاة » فتح اذنيه وقاطعهما قائلاً « هلم بنا لنرى تلك النجاة » فاني اذا رأيتم صديقين اعفيكم وطائفتكم من كل ضريبة . هلم بنا الى النجاة اين هي ؟ » فاجابا « ان هذه النجاة ايها الامير في جامع عمرو بن العاص في مصر القديمة جعلها ذلك الفاتح هناك في صندوق من حديد في دهليز لا يعرف مقره الا نحن » فتأكد مراد بك انهما يتكلمان الصدق فصرفهما . ثم سار في اليوم التالي مظهراً للعبيد في البرية فمر بجامع عمرو فدخله كأنه يريد الصلاة ثم نظر الى الجامع فاذا به قد تداعت اركانه فالتفت الى شيخه قائلاً « بما ان الله قد ادخلني هذا المسجد المبارك وجب علي ان اسعى في اصلاحه لكي يذكر اسمي في الصلاة مع اسم مؤسسه الفاتح عمرو بن العاص وغداً ان شاء الله ارسل اليكم الفعلة يباشرون العمل »

وفي اليوم التالي ارسل الفعلة بمراقبة احد ثقاته وبدلاً من ان يبدأوا بهدم القسم المتساقط من الجامع بدأوا بالقسم القائم وبعد بضع ساعات جاء مراد بك بنفسه فرآهم قد وصلوا الى دهليز فيه صندوق من الحديد فتحقق ما قاله له الاسرائيليان وكانا بين الجماهير فامر فخرج الصندوق ثم امر بفتحه فاذا هو ملآن رقوقاً عليها آيات بالقلم الكوفي ثم علموا بعد ذلك انه القرآن الشريف

وترى في شكل ٣٣ رسم كلات من فاتحة القرآن مثلاً لنوع كتابته الكوفية .

وكان يظن انه كتب في ايام عمرو بن العاص فلما رأى الاسرائيليان ذلك فرأوا من بين الجماهير . اما مراد فاستشاط غيظاً ولما عاد الى القاهرة ضاعف الضريبة على الاسرائيليين واصراً الا ان يدفعوها حالا واستعمل الكرياج لحثهم على ذلك . اما تلك الرقوق الثمينة فالقيت في الدهليز بغير اعتناء وتركت هناك عرضة للشمس والماء ففسد بعضها ولما كانت الحملة الفرنسية التقط ما بقي منها الميسر ما رسل مدير مطبوعات تلك الحملة وحفظها عنده في

متحفه الخصوصي . وفي المكتبة الخديوية نسخة من القرآن يقال انها وجدت في جامع عمرو فلا يبعد ان تكون هي التي التقطها ما رسل . وهي من اقدم نسخ

بسم الله
الرحمن
الرحيم

ش ٣٣ : كلمات من فاتحة القرآن الشريف

القرآن الموجودة في العالم اليوم والغالب انها كتبت في اوائل القرن الثاني للهجرة

وعاد مراد بك ورفيقه الى ما كانوا عليه من اختلاس اموال الاهلين واموال الاجانب بالضرائب الفاحشة . وضربا على التجار الاجانب في الاسكندرية والقاهرة ورشيد ضرائب ما ازل الله بها من ش : ٣٤ نقود السلطان سليم بن مصطفى

سلطان فرفضوا شكواهم الى قناصلهم فلم تكن النتيجة الا زيادة الاضطهاد . اما توسط الباشا في مثل هذه الامور فكان عديم الفائدة على الاطلاق فرنع المتظلمون شكواهم الى الاستانة فكان جوابهم الصمت ولم يزد مراد بك الا اعتواً وعسفاً ولم يكن يبالي بما يقوله القائلون او يتظلم منه المتظلمون من سائر ساكني القطر . كل ذلك جرى على عهد السلطان سليم بن مصطفى وهو من اكثر السلاطين رغبة في الاصلاح ولكنه غلب على امره

ش : ٣٥ نقود السلطان سليم بن مصطفى

وترى في الشكلين ٣٤ و ٣٥ صور نقود السلطان سليم مضروبة بتاريخ

سنة ١٢٠٣ هـ



الحملة الفرنسية

تمهيد

قد رأيت ما كان من انهماس مراد بك ورفيقه في المظالم واختلاس الاموال بغير الحق . وكيف انهما تطرقا بتصرفهما هذا الى الاجانب القاطنين في هذا القطر تحت حماية دولهم فانهما لم يكونا يراعيان حرمة ولا ذمة . وكان اولئك الاجانب يتحملون تلك



ش ٣٦ : نابليون بونابرت

التعديت بالصبر الجميل لانهم رفعوا شكواهم الى دولهم مراراً فاعززت الى الظالم ان يرعوي فلم يرعو . وما زال الحال كذلك حتى جاء نابليون بونابرت الرجل العظيم برجاله لاقتراح هذه الديار . وقبل الخوض في تفاصيل تلك الحملة نشرح للفارى : اولاً ما الداعي الذي حمل الفرنسيين الى تجريدنا . ثانياً كيف كانت مصر عند وصول تلك الحملة اليها

لماذا جرد الفرنسيون الى مصر

لما قتل الفرنسيون ملكهم لويس السادس عشر وتخلصوا من الحكم الاستبدادي اقاموا عليهم نوعاً من الحكومة دعواها « الادارة » وهي عبارة عن لجنة مؤلفة من خمسة أعضاء يسمون كلاً منهم « مديراً » وذلك سنة ١٧٩٥ للميلاد (١٢١٠ هـ) ثم جعلوا يحملون على ممالك الارض يفتحونها بهمة كبير قوادهم الرجل العظيم بونابرت فحاربوا النمسا ثم ايطاليا فغيرها ولم يبق في سبيلهم الا دولة انكلترا واقفة لهم بالمرصاد وهي على جانب عظيم من القوة ولا سيما في البحار . فتباحثت ادارة فرنسا بذلك مراراً لكنها لم تستطع مناهضة تلك الدولة لما كانت تعلمه من قوتها ومناعة جانبها وكان بونابرت قد مرّ في البحر المتوسط وضمّ قسماً عظيماً من شواطئه الى فرنسا فقطع بمصر وقد اعجبه شأنها وما فيها من الخيرات وما بها من التعزيز لدولته والارهاب لانكلترا . الا ان الادارة لم تكن على بينة من الامر فعرض بونابرت رأيه هذا عليها وشرح لها مبرراته مستوفياً كيف كان هذا الوادي منذ القدم منشأ الخيرات العالم المتمدن ثم امسى موضوعاً لمطامع الدول العظيمة . وشاغلا لرجال الفتوح من الاسكندر الى الايام الاخيرة ثم قال مخاطباً الادارة :

« ان مصر ايها السادة اكثر بقاع الارض خصباً . كانت اهرام لرومية قديماً وللقنسططينية الآن . وفيها الحنطة والارز وسائر انواع البقول والسكر والنبالة والقطن والسنا والخيارشني والتطرون والكتان والقنب وفيها صنوف الماشية والطيور الداجنة وقد اشتهرت على الخصوص بحسن حميرها وقوة جمالها . نعم ان مواد الاشتعال والزيت والبن والتبغ نادرة فيها لكن ذلك مستدرك لان الشرق لا يستغني عن هذا الوادي وهو مركز متوسط بين افريقيا وآسيا . فالقوافل تحط رحالها في القاهرة كما رسو المراكب عند الشواطئ بعد سفر طويل . وهذه القوافل مؤلفة من مئات وأحياناً الوف من الجمال قادمة من بلاد العرب أو سوريا أو سواحل المغرب أو الحبشة أو أواسط افريقيا أو من رأس الرجاء الصالح أو السنغال تحمل أنواع التجارة من الحشب والفحم والزيت والتبغ والبن والاثار ومن الرقيق والتبر والعاج والريش والصمغ والاطياب والعطور والشالات وكل محاصيل الهند فتبيعها في مصر وتأخذ بدلا منها اسحالا من مصنوعات أوروبا

« فما برحت مصر ايها السادة منذ القدم موصلاً تجارياً بين أوروبا والشرق وهذه

تجارتنا مع الهند قد كانت قبل اكتشاف رأس الرجاء الصالح تأتينا عن طريق مصر ترسو السفن عند برنيس من سواحل البحر الاحمر ومنها تنقل السلع على الجمال في الصحراء ٢٤ مرحلة الى طيبة (الاقصر) ومنها في النيل الى مصر وتوزع فيها ومنها تنقل الى أوروبا. وكانت تنقل أحياناً الى القصير في البحر الاحمر ومنها الى السويس ثم على الجمال الى منف ومنها إلينا. وإذا اغضينا عن أهمية مصر بالنسبة لتجارة الهند فإن لها أهمية عظيمة بالنظر لتجارها الخصوصية

فإذا فتحنا هذه البلاد واعتدنا بإدارتها خمسين سنة فقط يبلغ عدد سكانها اضعاف اضعاف ما هو عليه الآن. كان سكان هذا الوادي في الازمنة الخالية بين ١٢ و ١٥ مليوناً وهم الآن لا يبلغون ربع هذا القدر لسوء الإدارة. فضلاً عما تقدمه مصر لمعاملتنا من مصلحتها وما نبيعه فيها وفي جوارها من مصنوعات بلادنا. فما هي مستعمراتنا بالنسبة الى هذه البلاد الخصبة الشاسعة الاطراف؟ هل إليها فستغل من أرزها وسكرها وقطنها كما فعل غيرنا وهي تغنينا عن حاصلات أميركا وتكفينا مؤونة الارتباط بها.

« ولا يخفى عليكم أيضاً أننا إذا ثبتنا قدمنا في مصر لا تبقى انكلترا طويلاً في الهند أو نجعل على سواحل البحر الاحمر حاميات تقيمها في معازل منيعة تذر فيها نتاج ذلك القطر ونحول التجارة الهندية إليه. ولو فرضنا بقاءها عن طريق رأس الرجاء الصالح كما هي الآن فالتا تقيم بيننا وبينها باباً للمنافسة ونشق رعة بين السويس والنيل. ولا شك اذا فعلنا ذلك أننا نحيط مساعي انكلترا جملة لان التجارة تتحول إلينا. اما هذه التبعة فقد كانت محفورة منذ القدم ولا يصعب علينا إعادة حفرها. فإذا فتحنا مصر لا يقتصر نفعها لنا مثل نفع سائر المستعمرات العظيمة لكننا نعرفل مساعي انكلترا بها فتكتفي مؤونة مقاومتها - هذا اذا لم نذهب بها الى الخضم »

فترددت الإدارة بقبول مشروعه لكنه ما زال يستحث اعضاءها حتى اشتد الجدل بينه وبينهم فرأى فيهم اصراراً على مقاومته فعرض بذكر استقلاله فقبضوا إليه ووقفوه واعادوا النظر في ما عرضه ووافقوه على رأيه بشرط أن يكون ذلك سرّاً لئلا تتصل مقاصدهم بمساعي انكلترا فتسعى ضدهم. فانحصر هذا المشروع بين بونابرت والخمسة المدبرين فقط - حتى الكتاب الذي كتب الامر باعداد الحملة لم يكن يفهم حقيقته لأنه أمر أن يكتبه بصورة مبهمه في ٥ مارس سنة ١٧٩٨

ومن مقتضى هذه الاوامر السرية ان تكون هذه الحملة مؤلفة من اربعين الف

مقاتل عليهم اربعون قائداً يختارهم بونابرت وطائفة من رجال العلم لا يقل عددهم عن المائة بين مهندسين وجغرافيين وطبيعيين وكيميائيين ولغويين وفلسفيين ونحو ذلك العدد من سائر الصنائع. وعمارة بحرية بقيادة الاميرال برويس يضاف إليها المراكب الراسية عند طولون. وان يقبض في مدة عشرة أيام من الخزينة مليون وخمسمائة الف فرنك فضلاً عن ثلاثة ملايين من خزينة بارن وان يتصرف بهذه المبالغ حسب حكمته والاوامر السرية المنعطة له

فبذل بونابرت جهده لتعزيز هذه الحملة والاسراع في اعدادها. فشاعت الاقويل عن هذه الاعدادات وكثرت الظنون فقال بعضهم انها حملة تعدها فرنسا لمحاربة انكلترا وقال آخرون انها تفعل ذلك لاقتتاح مدن جديدة في آسيا وافريقيا وقال آخرون غير ذلك

وبونابرت لم يأل جهداً في اعداد الميهات وترتيب أمور الحملة فجعل المراكب المعدة لنقل الجند اربعة مائة مركب تسير في أربع فرق من أما كن مختلفة. الفرق الأولى تسير من طولون والثانية من جينوا والثالثة من شيفيتافسكا والرابعة من جاكسيو ثم تجتمع وتتحد وتسير الى مصر. وأن تنقل على هذه المراكب أيضاً مطبعة عربية كانت في البروباغندا برومية مع ما يلزمها من العمل. وعلى أنقاض هذه المطبعة أقيمت مطبعة بولاق الاميرية ونقلوا أيضاً كل ما يلزم من الادوات الكيمية والطبيعية والرياضية وانضم الى طائفة العلماء كثير من مشاهير علماء فرنسا وصنائعهم متطوعين ومثل ذلك القواد. فكان فرنسا بحملتها ناقت الى مرافقة هذا القائد العظيم فانضم الى حملته كثير من ابطالها وعلمائها وصنائعها بقلب واحد. وهم لا يعلمون الى أين تذهب بهم الاقدار

أما الجيوش فجعل فيهم الفين وخمسمائة من الفرسان وألفاً من الطبيجية والمهندسين ومن بقي (من الاربعين ألفاً) من المشاة. وكان من جملة القواد الذين رافقوا تلك الحملة كلاير وديزه ورينيز وبون ومينو وهم قواد الخمس الفرق من المشاة. وكان مورات قائداً للفرسان وكافرلي قائداً للفرقة المهندسين ودومارتين على الطبيجية

هذا من قبيل الحملة البرية أما الحملة البحرية فكانت مؤلفة (أولاً) من ١٥ مركباً حريباً من حملتها « الشرق » محمولاها مائة وعشرون مدفعاً ومركبان محمول الواحد منهما ثمانون مدفعاً وعشرة مراكب محمول الواحد منها ٢٤ مدفعاً. واثنان محمول كل منهما ٦٤

(ثانياً) من اربع عشرة مدرعة في بعضها أربعون مدفعا وفي بعضها ٣٦ وفيها اربقان
(ثالثاً) من ٧٢ مركباً حريباً صفاراً على أشكال مختلفة
- هذه هي الحملة البحرية وهي كما رأيت أكثر من مائة قطعة ومعها سبعمائة مركب
لنقل العساكر البرية ومهماتهم وخبولهم وأسلحتهم بقيادة برويس . وبلغ عدد
الملاحين نحو عشرة آلاف

أما الحملة العلمية المرافقة لتلك الحملة العسكرية فكانت مؤلفة من فرق اسكن من
العلوم أو الصنائع وجملة أعضائها مائة فيهم فرقة للهندسة وأخرى للفلك وفرق أخرى
للميكانيكات والكيمياء والمعادن والحيوان والنبات . ومثل ذلك للجراحة والطب
والاقتصاد السياسي والانشاء والجغرافيا وعلم الآثار والبناء والتصوير والرسم والنقش
والحفر والموسيقى الخ . وقد اختير لهذه الفنون أشهر من اشتغل بها ومعهم المطبعة المتقدمة
ذكرها وعدة مترجمين . وجميع هذه الممدات كانت على أهبة السفر في ٢٠ ابريل
سنة ١٧٩٨ أي بعد صدور الامر ببضعة أسابيع . ومن الغريب أنه مع تعداد الرجال الذين
ساعدوا في تنفيذ أوامر الإدارة وفيهم القواد العظام ورجال العلم والصناع لم ينكشف
لاحد منهم حقيقة المقصود من هذه الحملة الا لثاليران وهو الرجل السياسي الذي
أرسلته الإدارة الى الاستانة لخبرة الباب العالي بشأنها وطلب مصادقته على مجريدها
وفي ٩ مايو سنة ١٧٩٨ م وصل بونابرت الى طولون والجند في انتظاره كانوا
على جمر النضاض فخطب فيهم فزادهم حماسة ورغبة في الحرب . وفي ١٩ منه ودع
بونابرت امرأته وركب على الدارعة « الشرق » وهي أكبر دوارع الاسطول ومعه
أركان حربه كانوا ذاهبون الى زهرة أو غنيمية باردة . وأقبلت سائر المراكب من
النقط الاخرى حتى اتحدت وعددها جميعاً يزيد على الخمسمائة فسارت تخرق عباب
البحر وعليها خمسون الف نسمة . وفي ٩ يونيو سنة ١٧٩٨ وصلوا الى مالطه ومنها
ساروا يطلبون الاسكندرية

فأوجست انكلترا خيفة من هذه الحملة فانفذت ناسون أحد كبار قوادها البحريين
في أسطول وعهدت اليه أن يقتصر آثار الاسطول الفرنسي في البحر المتوسط وأن
يكون ساهراً على أجزائه وأن يتناوهم اذا رأى منه مساً لحقوق انكلترا . فسار
ناسون فطاف البحر المتوسط ثم تنبأ أن الاسطول الفرنسي لا يقصد الا مصر أو
سوريا فسار نحوهما . فبلغ ذلك بونابرت فأمر الاسطول أن يقيم غربي الاسكندرية
ببضعة مراحل وأن يكون دائماً في استعداد للدفاع

حالة مصر عند قدوم الحملة الفرنسية

لم يكن في وادي النيل اذ ذاك أكثر من ثلاثة ملايين من السكان يتألفون من
ثلاث طوائف كبرى وهم : أولا الاقباط سكان مصر الاصليون لا يزيدون عن مائتي
الف نفس . ثانياً العرب الذين اقتحوها . ثالثاً الاتراك وفيهم المماليك . وشرذمات
من طوائف أخرى

والباشا هو الحاكم المرسل من الاستانة لتأييد سلطة السلطان كان يقيم في قلعة
الجيل في القاهرة لا فائدة من وجوده هناك الا اثبات سلطة جلاله السلطان على
مصر ويقوم ذلك بالخطبة له في الصلاة وضرب النقود باسمه . أما المماليك فكانوا
أخلاقاً من الاتراك والشراكية والكرج وجميع ثروة البلاد وإدارتها في أيديهم .
على أنهم مع ذلك لم يكن لهم في البلاد عصبية لأنهم لم يكونوا يتوارثون الحكم الا
نادراً . وانما كان يتولى منهم من يمتاز بالنفوة أو الاحتيال أو المحسوية وما شاكل .
وقلما ارتقوا منصة الحكم بالحكمة والدراية وحسن السياسة ولذلك كانت أحكامهم
عرضة للفساد وداعية للاخلل . وكان مقرهم في بهو كبير مختص بهم في قلعة الجبل
وفيها اصطبلات كبيرة لحيلهم ومخازن لاسلحتهم ومعداتهم . أما مساكنهم الخصوصية
فكانت غالباً في حي قيسون وحي بركة الفيل ودرب الجبانية في أجمل ما يكون من
البناء مرصفة بالرخام والفسيفساء وفيها الرياش من الحمل المزركش بالحرير . وفي
بعضها حدائق غناء ترينها السراي الجميلات من نساء الكرج وغيرهن

أما الجنود فكانوا لا يزيد عددهم على الثمانمائة أو الالف من المماليك الاشداء وقلما
يكونون على شيء من الفنون الحربية وأكثرهم من الفرسان أما المشاة فقليلون بينهم .
فاذا امتطى السلوك صهوة جواده تقلد القرينة بتمكيه والطينجات في منطته والسيف
على يساره وهرأوة في قربوزه وقضيباً من الفولاذ أمام أنفه ممتداً من جهة الى ذقنه
وقد يتفق أن يتمرن أحدهم على الحركات العسكرية أما الجماعات فلا يعرفون شيئاً عن
المربعات أو الخطوط الحربية وانما كانوا يتقنون الفروسية . وفي يوم قدوم الفرنسيين
الى مصر كان على الاحكام ابراهيم بك ومراد بك كما مر بك الاول شيخ البلد والثاني
أمير الحج وبأيديهما الحل والعقد . وكان ابراهيم بك مشهوراً بالغنى والطمع والاحتيال .
وكان مراد بك يفوقه اقداماً وحزمًا وفيه كرم وسخاء . وكلاهما لم يؤيدا سلطتهما
الا بالقتل والنهب والاحتيال وقد اتفقا على اقتسام ايراد البلاد

أما العرب فمنهم فئة العلماء والفقهاء وفي أيديهم إدارة المعابد والتكايا وهم في الغالب من عائلات قديمة متصلة بالصحابة أو غيرهم من أصحاب البيت وكانت معيشتهم غالباً في ترف ورخاء وإن لم يبلغوا في ذلك مبلغ البكوات المالكيين . وكانوا محترمين لدى الأهليين احتراماً دينياً وادبياً . أما نفوذهم السياسي فكان ضائعاً في جانب استبداد المالكيين . وكانت التجارة رائجة في مصر وأصحابها من ثقات العرب وأصحاب الأمانة ولذلك قلت بينهم التفاليس . وكانت فرضة القاهرة بولاق وفيها كانت ترسو المراكب حاملة البضائع على اختلاف الأنواع قادمة من أقطار شتى من العالم . ومن بولاق تحمل إلى الخانات أو الوكالات كخان السبع قاعات وخان التركاني وتباع فيها بالأجمال . أما البيع بالمفردات فكان في الأسواق إلى شمال المدينة ومن باب زويلة إلى الباب الذي يشرف على الصحراء .

أما جباية جمع الخراج فكانت موكولة إلى فئتين من المصريين هما المسلمون والاقباط . فمن المسلمين كان الروزنامجية وعندهم تقاويم الأرضين وسجلات الأملاك وكانوا ممتازين عن سائر الأهليين ومحافظين على أنسابهم لا يتزوجون إلا من بنات أكفائهم وكانوا على جانب من الثروة ولهم عقارات واسعة يضرب بهم المثل في ذلك . أما الاقباط فكانوا يقتصرون على ضبط الحسابات في القبض والصرف كمائر الحساب إلا فيما ندر . وكانت مساكن الاقباط في القاهرة شمالي المدينة وغربها فيما كان يعرف بباب المنس حيث تبن الأربكية الآن وفي باب البحر ولذلك دعي بعض أحيائها بحارة النصارى وأكثرهم من متوسطي الثروة . أما أصحاب المصارف والمدائنون والصيارف فكانوا من اليهود وقيمون عائلات كثيرة في بيت واحد بحارة اليهود ويضطهدهم المالكيين اضطهاداً شديداً .

أما الأجانب في القاهرة فأكثرهم من الفرنسيين وكانوا يلبسون اللباس العربي ويتكلمون اللغة العربية جيداً وقيمون في جهة الموسيقى وكانوا يتزوجون مع المسيحيين من السوريين وهؤلاء كانوا يقيمون غالباً في درب الجنينة . وكان في وادي النيل جماعة كبيرة من السوريين يقيمون غالباً في السواحل وفي المدن الكبيرة مثل دمياط ورشيد وأسيوط يتعاطون التجارة أما بضائهم أوروبا أو بحاصلات السودان من العاج والریش والصمغ أو بضائهم أخرى . أما علاقة مصر مع الدول الأجنبية في ذلك العهد فكانت قاصرة على التجارة . والبندقية « قيس » أمثنت علاقة معها من

سائر الأمم ولها قنصل مقيم في الاسكندرية فضلاً عن علاقات أخرى مع تجار فرنسا وإنكلترا

هذا ملخص حالة مصر عند قدوم الفرنسيين إليها

فتح فرنساويين مصر

من سنة ١٢١٣ — ١٢١٦ هـ أو من سنة ١٧٩٨ — ١٨٠١ م

مرَّ بك في الفصل السابق أن الاسطولين الفرنسيين والانكليزي ساروا في البحر المتوسط قاصدين شواطئ الدلتا

في يوم الأحد الواقع في ١١ محرم سنة ١٢١٣ هـ ظهر في ميناء الاسكندرية اسطول مؤلف من خمسة وعشرين مركباً انكليزياً . وكان متسلم الاسكندرية « حاكمها » السيد محمد كريم أحد أعيان الوطنيين . فلما علم بقدوم الاسطول جعل يراقب حركته وسكناته وأهل المدينة يتساءلون فيما بينهم عن أمره وبعد قليل اقترب من الثغر قارب فيه عشرة من الأفرنج طلبوا مقابلة الحاكم فجيء بهم إلى السيد محمد كريم وهو في مجلسه وحوله رجال حكومته فسألهم عما جاؤا من أجله فقالوا « إن ما ترونه في هذا البحر اسطول انكليزي جاء للتفتيش عن عمارة فرنساوية عظيمة خرجت مؤخراً تريد جهة من الجهات قربا دامتكم فلا تقوون على دفعها فتكون لكم نصراء عليها » فظن السيد محمد كريم ذلك مكيدة فاعلظ لهم بالقول فقالوا « اتنا رسو في هذا البحر نحافظ عليه لا نطلب منكم إلا المدد بالماء والزاد بشمته »

فاجابهم « إن هذه البلاد بلاد السلطان ولا يد للفرنساويين فيها فإذا جاؤا لا نبالي بهم فاذهبوا أنتم عنا » فادوا ثم أقبلت المراكب تخترق عباب البحر . أما السيد محمد كريم فاتفق إلى مراد بك في القاهرة حال وصول الاسطول يخبره بما كان وارسل إلى كاشف البحيرة يأمره بجمع العربان وأن يأتي بهم للمحافظة على الثغر . فلما اتصل ذلك بمسمع الأمراء والبكوات لم يكتروا به وقالوا « لا نبالي بمن تحدته نفسه بدامتكم واتنا ندوسه تحت حوافر خيولنا » أما الشعب فاضطرب وخاف . ثم جاء خبر آخر باقلاع الانكليز فسكن الجأش

وفي يوم الاثنين في ١٨ منه وصلت ثمر الاسكندرية العمارة فرنساوية فارسلت أحد قواربها تطلب القنصل فناع السيد محمد كريم في أول الأمر بتسليمه . ثم اذن له فنزل حتى أتى الدارعة التي عليها بونابرت فسأله عن حال المدينة فأخبره بما كان من

أمر الأسطول الانكليزي واث الاهلين في يقظة واستعداد للدفاع جهاداً في سبيل الدين

تدابير المالك لرد الفرنسيين

وكانت حامية الاسكندرية لا تزيد على خمسمائة من الانكشارية معظمهم يتعاطون التجارة أو يشتغلون بالصناعة وكانوا مع ذلك في استعداد للدفاع . وكتب السيد محمد كريم الى مراد بك و ابراهيم بك في القاهرة بما جرى الى أن قال « ان العارة التي ظهرت في هذا اليوم لا يعرف أولها من آخرها » فلما تلا مراد بك الرسالة استشاط غيظاً ورمى بالكتاب الى الارض . ثم ركب جواده قاصداً ابراهيم بك في سراي قصر العيني على ضفة النيل المطلة على جزيرة الروضة . فلما اجتمعا قررا عقد جمعية عمومية فبعثا الى كبراء البلاد ورجال الدولة وفيهم بكير باشا الوالي فاجتمعوا اجتماعاً حافلاً وتباحثوا في ما جاءهم من الانباء الاخيرة . فقال مراد بك وهو ينظر الى بكير باشا شزراً « لا ريب ان الفرنسيين لا يجسرون على القدوم الى مصر من تلقاء أنفسهم فلعلهم جاؤا بأمر من الباب العالي . . . ولكن الله قادر أن ينصرنا على الاثنين »

فاجابه بكير باشا « ان هذا الكلام لا يليق صدوره منك وكيف يخال لك ان الباب العالي يسلم بدخول أمة غريبة الى بلاده . دع عنك ذلك وهلم الى سيفك ورجلك لدفع العدو الذي دامحك » . وبعد المفاوضة أقروا على المواد الآتية :

١ أن يسير مراد بك في فرقة من الفرسان على الضفة الغربية لفرع رشيد من النيل نحو الاسكندرية لايقاف الفرنسيين عن التقدم

٢ أن يعسكر ابراهيم بك بمن يبق من الجند على الضفة الشرقية عند بولاق لحماية القاهرة

٣ أن يرسل بكير باشا الى الاستانة يستمد الباب العالي « بالترياق من العراق » ثم شاع في أسواق القاهرة خبر قدوم الفرنسيين فكثرت المهرج وازداد الاضطهاد على المسيحيين . وعبثاً حاول ابراهيم بك وبكير باشا اقناع المسلمين ان هؤلاء المسيحيين من جملة رعايا الدولة العلية

فتح الاسكندرية

أما بونايرت فبعد أن استوعب كلام القنصل أقرّ على النزول الى البر حالاً فاعترضه الاميرال برويس بما يحول دون ذلك من بعد المسافة وصعوبة المسلك فاصرّ على النزول

وكانت قيادة القوتين البحرية والبرية يده فوافقه برويس مكرهاً فسار بالمركب الى جهة العجمي وبرزج مرابوت على مسافة قصيرة جداً من الاسكندرية غرباً . وقضوا النهار بطوله يستعدون للنزول . وفي الساعة العاشرة مساءً باشرؤا النزول بالسرعة الممكنة وما زالوا يحدين في ذلك الى الساعة الاولى بعد نصف الليل وقد نزل منهم أربعة آلاف وثلاثمائة رجل فنزل بونايرت وكانت الليلة مقمرة فقام نحو ساعتين على الرمال . ثم أرسل ثلاثه وسار بمن بقي مشاة مستترين بجنح الليل ومستترين بالقمر وفي الصباح التي بونايرت بقبائل من عرب البحيرة « ولد علي » تحت قيادة أميرهم فتبادلوا طلقات قليلة . ثم قرّ العربان وتقدم بونايرت برجاله حتى أشرفوا على الاسكندرية يستدلون على مكانها بعمود السواري

ثم وقف بونايرت على مرتفع أشرف منه على الاسكندرية فرآها وفيها المآذن والمناظر تاطح السحاب . فحمل رجاله فرقاً بين الواحدة والاخرى مرمى رصاص وخطب فيهم وحرّضهم أن يتجنبوا اهراق الدماء ما استطاعوا الى حجبها سيلاً فهاجم الفرنسيون المدينة ودخلوها عنوة وقد أصيب الجنرال كلاير برصاصة في رأسه لم تمته فاستلمت الجنود الفرنسية الاسوار وفرت الحامية المصرية تطلب ملجأ في الابراج القديمة وسقط الجنرال مينو عن أحد الاسوار التي استلمها هو فخرحت نخذه . أما الجنرال مرمون فدخل المدينة من بابها بعد أن حطبه بالفؤوس . وخرق باقي الجيش الاسوار ودخلوا منها لأنها لم تكن متينة البناء

ثم أرسل بونايرت أحد ضباط جيشه الى سكان المدينة يخبرهم أنهم في مأمن على أرواحهم وأموالهم وان الفرنسيين لم يأتوا لمحاربتهم وانما جاؤا لمحاربة المالك

أما السيد محمد كريم والعساكر الأتراك ففروا الى حصن فرعون فاضطر الاهلون الى التسليم قهراً فدخل بونايرت ورجاله الاسواق . وبلغ ذلك السيد محمد كريم فجاء بمن معه وسلّحوا وفعل مثل ذلك المشايخ والعلماء فاصكروهم بونايرت اكراماً خصوصياً . ثم التفت الى السيد كريم قائلاً « قد أخذت سلاحك بالسيف وكان لي أن أعاملك معاملة الاسير لاني أخذتك بعد أن دافعت عن نفسك ما استطعت . ولكن الشجاعة حليفة الشرف ها اني أعيد اليك سيفك على أمل أن تكون مساعداً أميناً للجمهورية الفرنسية كما كنت للحكومة السابقة على عتوها وظلمها » ثم سأله اذا كان يرغب في معاضدة مساعيهم وهي تأييد سلطة الباب العالي وقمع المالك . فاجاب بالانجاب فاقره على الاسكندرية تحت مناصرة الجنرال كلاير وكان قد اضطر الى البقاء

في الاسكندرية بسبب الجرح الذي أصابه

ثم أباح بونابرت للمسلمين المحافظة على معتقداتهم وصلواتهم كما كانوا قبلاً . وجرد الاهلين من السلاح وأمرهم أن يحملوا على صدورهم الجوارح وهو علامة مصنوعة من الجوخ أو الحرير مستديرة بقدر الريال مؤلفة من ثلاث قطع كحلية ويضاء وحجراه توضع بعضها فوق بعض بحيث تظهر الالوان الثلاثة - شارة العلم الفرنسي ذي الثلاثة الالوان

منشور بونابرت الى المصريين

ولما رسيخت قدم الفرنسيين في الاسكندرية نزل للبر بعض رجال الحملة العلمية ومعهم المطبعة العربية وجعلوا ينقبون في آثار الاسكندرية البناية والجيولوجية . ثم أمر بونابرت أن تنزل جميع المهات العسكرية من خيول وأسلحة ومدافع وغيرها الى البر سريعاً . وان يطبع منشوراً عربياً يفرق في البلاد فكتب وطبع وهذا نصه بالحرف الواحد :

« بسم الله الرحمن الرحيم . لا اله الا الله لا ولد له ولا شريك في ملكه . من طرف الجمهور الفرنسي المبني على أساس الحرية والمساواة السركر الكبير بونابرت أمير الجيوش يعرف أهل مصر جميعهم ان السناجق الذين يتولون مصر منذ زمن مديد يعاملون الملة الفرنسية بالاحتقار والاعتداء وقد حضرت الآن ساعة عقوبتهم . واحسرتاه انه منذ أيام وعصور هؤلاء الممالك الجلوبون من بلاد الاباطة والكرج يفسدون في أحسن أقاليم الكرة الارضية ولقد حتم رب العالمين القادر على كل شيء بانقضاء دولتهم . فيا ايها المصريون وقد يقال لكم اني ما نزلت هذه الجهة الا بقصد ازالة دينكم فذلك كذب صريح لا تصدقوه وقولوا لاهوانكم اني ما قدمت اليكم الا لأخذ بحفكم من الظالمين واني اكثر من المالك عباداً لله سبحانه وتعالى واحترماً لنبه محمد « صلعم » وللقرآن العظيم . وقولوا لهم أيضاً ان جميع الناس شرع عند الله وان الذي يميز بعضهم عن بعض هو العقل والفضائل والعلوم . وأي شيء في الممالك يميزهم عن غيرهم ويستوجب ان يكون لهم وحدهم كما تجلب به الحياة الدنيا . فحينئذ تكون أرض خصبة فهي للمالك ومثل ذلك احسن الجواني واكرم الخيل وأجمل المساكن . فان كانوا قد أخذوا الارض المصرية التزاماً فليظهروا لنا الحجة التي كتبها لهم الله . ولكن رب العالمين رؤوف على الناس وبعونه

تعالى من اليوم فصاعداً لا يستثنى احد من أهالي مصر عن الدخول في المناسبات السامية وعن اكتساب المراتب العالية فالعقلاء والفضلاء والعلماء بينهم يفوز اليهم تدير الامور والمهام وبذلك تصلح حال الامة كلها في الاراضي المصرية كاللبن العظيمة والحلجان الواسعة والمتجر الواسع الذي اضاعه طمع المالك وظلمهم . فيا ايها القضاة والمشايخ والائمة ويا ايها الشريفة وأعيان البلاد قولوا لامتكم ان الفرنسيين هم أيضاً مسلمون مخلصون . واثباتاً لذلك قد نزلوا رومية الكبرى واخربوا فيها كرسي البابا الذي كان دائماً يحث التصاري على محاربة المسلمين ثم قصدوا جزيرة مالطا وطردها منها الكفالية الذين كانوا يزعمون ان الله تعالى يطلب منهم محاربة المسلمين . ومع ذلك فان الفرنسيين في كل وقت احباء حضرة سلطان العثمانيين واعداً أعدائهم ايد الله ملكه . وبكسهم المالك فانهم خرجوا عن طاعة السلطان غير ممثلين لاوامره ولم يطيعوه الا عن طمع في قلوبهم كين . فطوبى لهم في طوبى لاهالي مصر الذين يتفقون معنا بلا تأخير فتصلح حالهم وترفع مراتبهم وطوبى للذين يقعدون في اماكنهم غير مائلين لاحد الفريقين المتحاربين . لكن الويل ثم الويل للذين يتحدثون مع الممالك ويساعدونهم في الحرب علينا فلا يجدون طريق الخلاص ولا يبقى لهم أثر

« المادة الاولى : جميع القرى الواقعة في دائرة قرية على مسافة ثلاث ساعات عن المواضع التي يمر بها العسكر الفرنسي يجب ان ترسل للصاري عسكر بعض وكلاءه من عندها لكي يعرفوا المشار اليه انهم اطاعوا وانهم نصبوا العلم الفرنسي الذي هو أبيض وكحلي واحمر

« المادة الثانية : كل قرية تقوم على العساكر الفرنسية تحرق بالنار

« المادة الثالثة : كل قرية تطيع العساكر الفرنسية يجب عليها ان تنصب العلم الفرنسي كذلك علم سلطان العثمانيين محبنا دام بقاءه

« المادة الرابعة : على المشايخ في كل بلد ان يحتضروا حالاً جميع الارزاق والبيوت والاملاك خاصة المالك وعليهم الاجتهاد الزائد لكي لا يضيع أدنى شيء منها

« المادة الخامسة : يجب على المشايخ والقضاة والائمة ان يلازموا وظائفهم وعلى كل واحد من أهل البلد أن يبقى في مسكنه مطمئناً كذلك تقدم الصلاة في الجوامع على العادة . وعلى المصريين جميعاً أن يشكروا فضل الله سبحانه وتعالى على انقراض الممالك قائلين بصوت عال ادام الله اجلال سلطان العثمانيين . ادام الله اجلال العسكر الفرنسي . لعن الله المالك واصلاح حال الامة المصرية

« نحرراً في معسكر الاسكندرية في ١٣ شهر مسدور من السنة السابعة من الجمهورية الفرنسية يعني اواخر شهر محرم سنة ١٢١٣ هـ » ا هـ .

زحف بونابرت على القاهرة

وامر بتوزيع هذا المنشور في البلاد المصرية . ثم فكر في أمر التوجه الى القاهرة واخضاع سائر القطر . وكان من الاسكندرية الى القاهرة طريقان الواحد يمر بدمهور وهو طريق الصحراء على البر الغربي والثاني طريق رشيد في النيل . فرأى الطريق الثاني أصعب مسلكاً عليه لان رشيد كانت لا تزال في حوزة المالك فقرر ان يسير عن طريق دمنهور في الصحراء وكان قد انقذ الجنرال ديزه عند استلام الاسكندرية ليسير في ذلك الطريق وارسل عمارة بحرية لتحمل رشيد ثم تقدم في النيل لملاقاته في الرحمانية

وفي ٢٤ محرم سنة ١٢١٣ هـ (٧ يوليو سنة ١٧٩٨ م) برح بونابرت الاسكندرية في الساعة الخامسة مساء اتقاء الحر تاركاً كلابراً فيها . وما زال سائراً بحملته الى منتصف الليل فزلوا للراحة فرقدوا ساعتين ثم نهضوا وما زالوا يواصلون السير ليلاً ونهاراً وقد قاسوا عذاباً شديداً من قلة الماء حتى وصلوا دمنهور فوجدوا خيرات كثيرة ومائة غزيراً فسكرتوا هناك يومين وليتين . ثم شخصوا الى الرحمانية في صباح ٢٨ محرم سنة ١٢١٣ هـ (١١ يوليو سنة ١٧٩٨ م)

وفي اليوم الثاني من سيرهم لاقتهم شرذمة من الفرسان المالك فحرب بين الفريقين مناوشة شفت عن انهزام المالك وقد قتل منهم نحو خمسين فارساً . فواصل بونابرت سيره حتى وصل الرحمانية وقابل النيل فتوالت العساكر على مائه كأنهم ذئاب خاطفة فتمربوا وتركوا خيولهم للمرعى . وعسكر بونابرت ومن معه طلباً للاستراحة على أثر ما قاسوه من مشاق السفر والعطش ريثما تصلهم العارة البحرية التي بعثوها الى رشيد . وبعد ليلتين من مكوثهم هناك أتت العارة وقد استولت على رشيد وجعلت فيها حامية تحفظها . وكانت الجيوش قد استراحت فأهبت للرحيل الى القاهرة فسارت المشاة والفرسان على الضفة الغربية حذاء النيل والى يسارها العارة سائرة في النيل وما زالوا يجدون السير حتى اتوا محلة سلامة عند المساء فلم يمكنهم استطلاع حالة العدو تلك الليلة

خطة مراد بك في الدفع

اما ما كان من امر مراد بك فلما عهد اليه المسير الى الاسكندرية كما تقدم جمع

اليه فرسانه وقبل خروجهم من القاهرة صاروا يصادرون اثناس ويأخذون ما يحتاجون اليه بلائمن . ثم سار بهم الى الجسر الاسود في البر الغربي فسكت يومين ريثما تكامل العسكر وسناجقه وفيهم علي باشا الطرابلسي وناصيف باشا وكنا من اخصائه المقيمين معه في الجزيرة . وأخذ معه كثيراً من المدافع والبارود . وجعل الرجال وهم اسراب من الالادشات والغليونجية والاروام والمغاربة حملة بحرية تسير في النيل على الغلايين الصغار التي انشاها هو

ولما برح الجسر الاسود ارسل الى مصر باشارة علي باشا الطرابلسي يأمر باصطناع سلسلة من الحديد في غاية الذخن والمثانة طولها مائة وثلاثون ذراعاً تصب بعرض البوغاز عند برج مغيزل من البر الى البر لتمنع مراكب الفرنسيين من المرور وان يشاد عندها جسر من المراكب عليها المناريس والمدافع ظناً منه ان الفرنسيين لا يناهضون المصريين في البر ولا بد من قدومهم بحراً وأنهم يطاولونهم ويصارونهم في القتال حتى تأتيهم النجيدات . وما زال مراد بك سائراً فيمن معه على ضفة النيل الغربية والى يمينه الغلايين وفيها من ذكرنا من الرجال قاصداً الجيوش الفرنسية فوصل الى قرية شبراين وعسكر هناك بفرسانه وارسل عمارته لملاقاة عمارة الفرنسيين فالتقت بها على مسافة قصيرة من منية سلامة وقد تجاوزت جنود البر بسبب الريح الشديد التي طلعت عليها ذلك اليوم

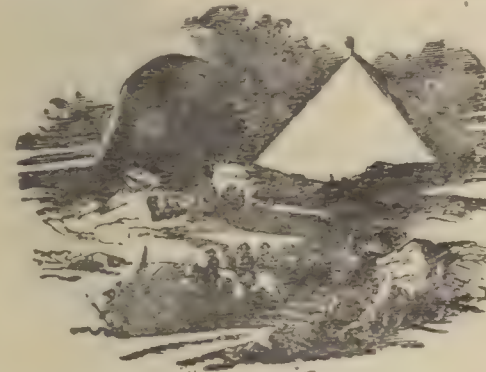
التقاء الجيشين

فبغت الفرنسيون لذلك الاتفاق فاطلقوا نارهم فاجابهم المالك وكان على قيادة العارة المصرية علي باشا الطرابلسي المتقدم ذكره فاحتدمت الحرب بين الفريقين وكادت تدور الدائرة على الفرنسيين وقد يتسوا لدخول عدة من مراكبهم في حوزة المالك فارسل يريه قائد العارة الفرنسية رسولا يوصل الخبر الى بونابرت ليسرع الى امدادهم . ثم اتفق ان احدى قنابل الفرنسيين اصابت المركب الذي فيه ذخائر المالك فأحرقتها وتطايرت اجزاؤها في الفضاء فاندعر المالك وخابت آمالهم . ثم وصل بونابرت بمن معه فحمد الاتفاق الذي نجى عمارتهم وأمر ان تجعل عساكره مربعات منتظمة لملاقاة المالك في البر أيضاً فالتقى الفريقان وبعد الاخذ والرد عاد المالك على أعقابهم يطلبون النجاة وفر كل من كان في القرى المجاورة فدخلها الفرنسيون فلم يجدوا فيها أحداً فواصلوا السير حتى اتوا وردان فمسكروا للاستراحة ثم بلغهم أن مراد بك ورجاله تحصنوا في ابابيه مقابل القاهرة

وفي ٧ صفر سنة ١٢١٣ هـ خرج بونابرت من وردان بجيشه قاصداً القاهرة وما مشي يسيراً حتى ظهرت له الاهرام العظيمة وراء الافق . وما زال اهل القاهرة منذ سفر مراد بك لملاقاة الفرنسيين في اضطراب يجتمع علماءهم وفقهاؤهم في الجامع الازهر يقدمون الصلوات والتضرعات الى الله أن ينصره على اعدائه ومثل ذلك كان يفعل القراء وتلامذة المدارس . أما باقي الاهلين فكانوا في اضطراب عظيم ولا سيما عند ما كانوا يسمعون بتقهقر المماليك

ممركة امبابه

أما ابراهيم بك فكان معسكراً في بولاق كما تقدم . فلما بلغه تقهقر مراد بك من شبرايس بمدافعه خابر رجال حكومته فاقروا على بناء الطوابي عليها المدافع من بولاق الى شبرا عزيزاً للقاهرة . أما سكان القاهرة فمن يسكن جاشهم وقد وقع في قلوبهم الرعب ؟ وكان مراد بك قد تحصن في امبابه على أن يقابل الفرنسيين هذه المرة بالمدافع وليس بالفرسان كما فعل في شبرايس . وفي صباح يوم السبت في ٨ صفر بلغ الفرنسيون الجسر الاسود ثم أم دينار . وفي صباح ٨ منه (٢١ يوليو) غادر الفرنسيون أم دينار ونزلوا على ميلين من امبابه في حقل من البطيخ . فكان النيل عن يسارهم والاهرام وسلسلة جبال اييا عن يمينهم وامبابه أمامهم وفيها مراد وجنوده وعليهم الالبسة والدروع من الحديد المصقول تتلألأ في أشعة الشمس . وألوان ملابسهم تزيدها رونقاً وأصوات خيولهم قد ملأت الفضاء



ونظر بونابرت الى معسكر العدو فرآه حصيناً وفي مقدمته أربعون مدفعاً معدة لاطلاق القنابل على الفرنسيين عند أول حركة يتحركونها نحوهم . فالتفت الى رجاله وأشار الى الاهرام قائلاً « اعلموا ان خمسين جيلاً من الناس

تظن اليكم من قم هذه الاهرام وتراقب حركاتكم تظن ما يؤول اليه أمركم مع هؤلاء المماليك »

وربى في شكل ٣٧ الجيوش الفرنسية بجوار اهرام الجيزة

ثم أمر فرقة الجنرال ديزه أن تتقدم نحو الجبل والفرق الأخرى نحو اليسار

تجنباً لثيران تلك المدافع . فادرك مراد بك مرادهم من هذه الحركات فامر أيوب بك الدقتردار أن يطلق القنابل على فرقة الجنرال ديزه ويوقفها عن المسير . فوقفت على شكل مربع تنتظر هجوم المماليك فهجم أيوب بك هجمة الاسود وتبعه السناجق بالسيوف فلاقاه مربع ديزه بنار كالصواعق المتساقطة فلم ينفك أيوب بك هاجماً وهو ينادي بأعلى صوته « يؤيل لكم أيها الكفار الملاعين قد ساقتم كبرياؤكم الى أرضنا مهلاً أتنا سنلاً القبور بأجسادكم ونجعل هذا اليوم يوماً تذكرة أعقابكم من بعدكم . أما نحن فإذا مات أحداً فانه يذهب شهيداً الى النعيم والذي يبقى حياً فله السعادة الى آخر أيامه »

هجمت الفرق الفرنسية من على اليسار واشتد القتال وما زالت الحرب سجالات حتى تقهقر المماليك وقتل أيوب بك وفر مراد بك بمن بقي من رجاله قاصداً الصعيد واستولى الفرنسيون على امبابه

خوف أهل القاهرة

فلما اتصلت تلك الاخبار بالقاهرة ضجت العامة وكثرت الغوغاء من الرعية واخلاط الناس بالصياح منادين « يا رب يا لطيف يا رجال الله » كأنهم يقاتلون ويحاربون بصياحهم وجلبتهم والعقلاء منهم ينادونهم أن يتركوا ذلك الصياح قائلين « ان الصحابة والمجاهدين انما كانوا يقاتلون بالسيف والحراب وضرب الرقاب لا برفع الاصوات والصراخ والتباح » فكانوا لا يسمعون ولا يرجعون

ثم ركب طائفة من الامراء والاجناد من المعسكر الشرقي في بولاق وفيهم ابراهيم بك وشرعوا في التعدية امداداً لمراد فزاحموا على المعادي لان التعدية من محل واحد والمراكب قليلة فلم يصلوا الى البر الثاني حتى وقعت الهزيمة على المحاربين وريخ التكباء يشتد هبوبها وأمواج البحر في قوة اضطرابها والرمال يعلو غبارها وتنسفها الريح في وجوه المصريين فلم يستطع أحدهم أن يفتح عينيه من شدة الغبار . وكان ذلك من أعظم أسباب الهزيمة حتى خيل للناس ان الأرض زلزلت والسما ساقطة عليها . والهزيمة مع ذلك متواصلة حتى انهزم ابراهيم بك وبكبير باشا . وجعل أهالي المدينة يأخذون ما خفت حمله وغلائمه ويفرون من وجه الموت جنوباً وشرقاً الى الصعيد أو الى السويس وبليس . أما ابراهيم بك فسار نحو الشرق . كل ذلك ظناً منهم ان الفرنسيين قد عدوا الى البر الشرقي ولا سيما عند ما رأوا الدخان يتصاعد من جهة بولاق وقيل لهم ان الفرنسيين قد احرقوها وجاؤا ليجرقوا المدينة وينهبوا ويفتكوا

وفد العلماء الى بونابرت

ولما أصبح القوم تبين لهم ان الفرنسيين لا يزالون في البر الغربي فاجتمع المشايخ والعلماء في الازهر وتشاوروا في ما يفعلونه وأقروا على مغادرة فرنسا والفرار الى ما يأول اليه أمرهم فجمعوا وفداً يتوب عنهم في ذلك فاعتزم بونابرت تلك الفرصة وأجابهم بخطاب خواه « اتنا ما حضرنا الا بقصد ازالة المالك الذين يعاملون فرنسا بالذل والاحتقار وأخذ مال التجار ومال السلطان . ولما حضرنا الى البر الغربي خرجوا الينا فقابلناهم بما يستحقونه وقتلنا بعضهم وأسروا آخرين ونحن في طلبهم حتى لا يبقى أحد منهم بالفطر المصري . وأما المشايخ والعلماء وأصحاب المراتب والرعية فيكونون مطمئنين في مساكنهم »

ثم قال « فليات الينا المشايخ لئولف لهم ديواناً نتخبه من عشرة أشخاص عقلاء يدبرون الامور »

فلما عاد الوفد الى المشايخ وبلغهم ما قاله بونابرت اطمأنوا وركب جماعة منهم الى معسكر بونابرت في الجزيرة قلقاً بالترحاب وطمأنهم وطلب اليهم أن يستدعوا كبارهم ليؤلف منهم ديواناً

الديوان العمومي

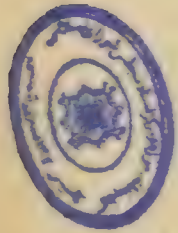
ثم دخل بونابرت القاهرة وجعل المشايخ وطلب اليهم أن ينتخبوا منهم عشرة أشخاص فوق الانتخاب على الاسماء الآتية :

الشيخ عبد الله الشرقاوي	الشيخ موسى السرمي
« خليل البكري	« مصطفى الدمهوري
« مصطفى الصاوي	« احمد العريشي
« سليمان الفيومي	« يوسف الشبرخي
« محمد المهدي الكبير	« محمد الدواخلي

هؤلاء العشرة هم أعضاء الديوان الوطني . وبعد أن تم انتخابهم انتخبوا رئيساً عليهم منهم بالقرعة فوق الانتخاب على الشيخ عبد الله الشرقاوي واحتفل بونابرت بافتتاح الديوان وبانغ في اكرام أعضائه وأمر بعض المصورين فصورهم كل واحد على حدة ولا تزال هذه الصور محفوظة في معرض فرسايل . وترى في ما يلي نسخاً من بعضها . وهو أول ديوان وطني تألف بمصر - لم ينتخبه الشعب لان الشعب لم يكن له ذكر ولكن العلماء انتخبوه وهم نواب الشعب بحكم العرف

فكان ذلك قاتحة السلطة النابية الانتخابية

وأعضاء هذا المجلس هم خيرة علماء مصر في ذلك العصر : فالشيخ عبد الله الشرقاوي هو ابن ابراهيم الشافعي الازهري الشهير بالشرقاوي ولد سنة ١١٥٠ هـ وترى بالقرن ثم نقل الى الازهر وقرأ على أعلم مشايخ عصره في الازهر وغيره وله مؤلفات اسلامية مفيدة منها الحاشية على التحرير ومتن العقائد وشرحها وشروح ومختصرات



ش ٣٨ : الشيخ عبد الله الشرقاوي

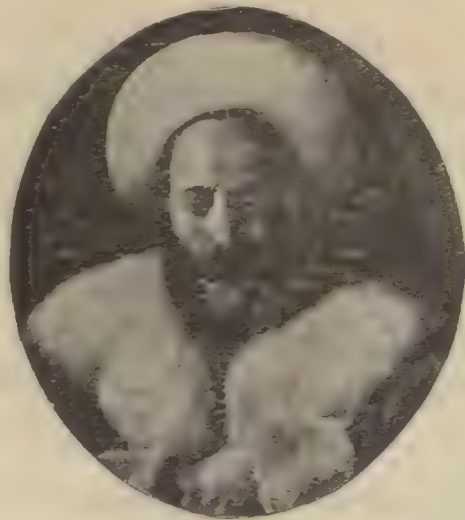
كثيرة في الفقه واللغة والتاريخ . وكان في صباه في قلة من العيش ثم اتسمت حاله بالهدايا التي كانت تأتيه من بعض التجار . ولما مات الشيخ العروسي تولى بعده مشيخة الجامع الازهر ووقع بينه وبين والي مصر اختلاف وتفاضل حيناً ثم تصالحا بشرط أن يلزم الشرقاوي داره . فلما جاء بونابرت الى مصر سنة ١٢١٣ هـ والى الديوان الذي نحن في صدده جعله رئيساً عليه . واكتسب في أيام الفرنسيين مالا كثيرة فاستعت عليه الدنيا فاشترى الابنية والقصور والحمامات والخوانيت حتى توفي سنة ١٢٢٧ هـ والسيد خليل البكري من سلالة أبي بكر الصديق وتولى نقابة الاشراف بمصر ومشيخة السجادة . وتأييد منصبه بها بعد مجيء بونابرت فاستولى على أوقافها وانتخبوه من جملة أعضاء الديوان كما رأيت . وكان وافر الحرمة مقبول الشفاعة عندهم فكان

أمراء الممالك المارونية يوسطونه لدى الفرنسية في العقود عنهم . ولما خرج الفرنسيون طادت نقابة الاشراف الى السيد عمر مكرم . وتوفي سنة ١٢٢٣ هـ



ش ٣٩ : السيد حسين البكري

والشيخ المهدي الكبير يختلف في نسبه عن سائر أولئك العلماء فقد وُلد قبطياً وأبوه اسمه ايغانيوس فضل الله . ولما وُلد سمي هبة الله وكان أبوه كاتباً في بيت



ش ٤٠ : الشيخ محمد المهدي الكبير

سليمان كاشف أو مباشرة لأموره ولما ترعرع هبة الله اعجب به الكاشف وأحب أن يجعله من ضمن ممالكه ولم يكن له ميل الى العسكرية فأدخله في مصاف طلبة الازهر ولم يكن يقبل فيه غير المسلمين فاعتنق الاسلام وسمي محمد المهدي وكان زكياً فذاً يرتقي حتى صار من كبار العلماء والفقهاء ودرس في الازهر وألف كتباً كثيرة ونال حظاً من الوجاهة واتسعت حاله ونال الاقطاعات والهدايا من الكشاف وغيرهم فبني الدور واقتنى الخدم وشارك في التجارات حتى أصبح من أهل الثروة . ولما دخلت الفرنسية مصر قربوه وسائرهم في أغراضهم ووثقوا بقوله فكان موضع ثقتهم والواسطة العظمى بينهم وبين الناس حتى لقبوه كاتم السر ولما رتبوا الديوان انتخب من أعضائه وصار اليه النفوذ الاكبر وله تاريخ طويل لا محل له هنا والشيخ سليمان الفيومي أصله من الفيوم . أتى الى مصر وهو رقيق الحال وتلقى العلم في الازهر وتقرب من الامراء الممالك لحسن انشاده وقراءة الاشعار . وتقرب



ش ٤١ : الشيخ سليمان الفيومي

من بعض الامراء البروقية وتعرف الى الاغوات وتوسط بهم الى التوكل بالقضايا والدعاوي واكتسب الاموال الطائلة وتحسنت حاله فتجمل بالملابس وركب البغال وتعين أستاذاً في الازهر برواق القيمة وكان للامراء الممالك ثقة فيه فانفذوه بمهمة خصوصية الى الاسكندرية . ولما عاد الى مصر توالى عليه الهدايا من الامراء والاعيان وغيرهم فانتسعت حاله وصار منزله ملجأ للناس على اختلاف الطبقات . ولما دخلت

الفرنساوية مصر وهرب الامراء جاءت نساؤهم الى دار الشيخ الفيومي ووسطوه فدافع عنهم لدى الفرنسية وتوسط في العفو عن بعض رجالهن وكان في جملة من تعينوا في الديوان كما رأيت

الديوان الخصوصي

على أن الفرنسيين شعروا أن هذا الديوان لا يمثل كل عناصر الامة وطبقاتها فعمدوا الى تشكيل مجلس عام يؤلف من الطوائف القاطنة في مصر على اختلاف عناصرها وطبقاتها ومذاهبها. ومتى اجتمعوا ينتخبون من بينهم ديواناً يسمى الديوان الخصوصي أو الديوان الديمومي أي يشتغل دائماً والديوان الآخر يجتمع عند الاقتضاء. فنشروا منشوراً على أهل القطر طلبوا فيه الى أعيان البلاد من المشايخ والتجار وأهل الوجاهة من كل الطوائف والملة أن يحضروا الى دار الحكومة. فجاء كثيرون وانتخبوا منهم ستين شخصاً ممن ثبتت لهم صفة تميزهم عن العامة بالعلم أو الثروة أو غيرها وهذه أسماؤهم باعتبار طوائفهم:

مشايخ وعلماء: السيد البكري. السيد الدمرداشي. السيد حسين رفاعي. الشيخ عبد الله الشرقاوي. الشيخ محمد المهدي. الشيخ مصطفى الصاوي. الشيخ موسى السري. الشيخ محمد الامير. الشيخ سليمان الفيومي. الشيخ احمد العريشي. الشيخ ابراهيم بن المفتي. الشيخ صالح الحنبلي. الشيخ محمد الدواخلي. الشيخ مصطفى الدهموري

وجاقلية: محمد آغا شوربجي فلاح. علي تكياء المجدي. خليل آغا شوربجي فلاح. أحمد ذو الفقار اوطه باشي فلاح

انكشارية: يوسف شوربجي باش جاويش توزنكجيان. يوسف شوربجي باش جاويش جليان. مصطفى اقدي شراكية. امير سليم شرابي

عرب: مصطفى اقدي عاصي. مصطفى تكياء باش اختيار. حسن شوربجي بركاوي تجار القورية: الحاج محمد الاشوي شيخ القورية. الحاج محمد أبو النصر. الحاج

سيد شيخ المغاربة

تجار البهار: الحاج أحمد محرم. الحاج أحمد الحروي. ابراهيم اقدي. قاضي البهار الحاج حسين جار ابراهيم. المعلم ميخائيل كحيل. المعلم يوسف فرحات. الحاج أحمد حنين

تجار البضائع التركية: السيد أحمد العقاد الحروي. الحاج مصطفى شيخ العقادين.

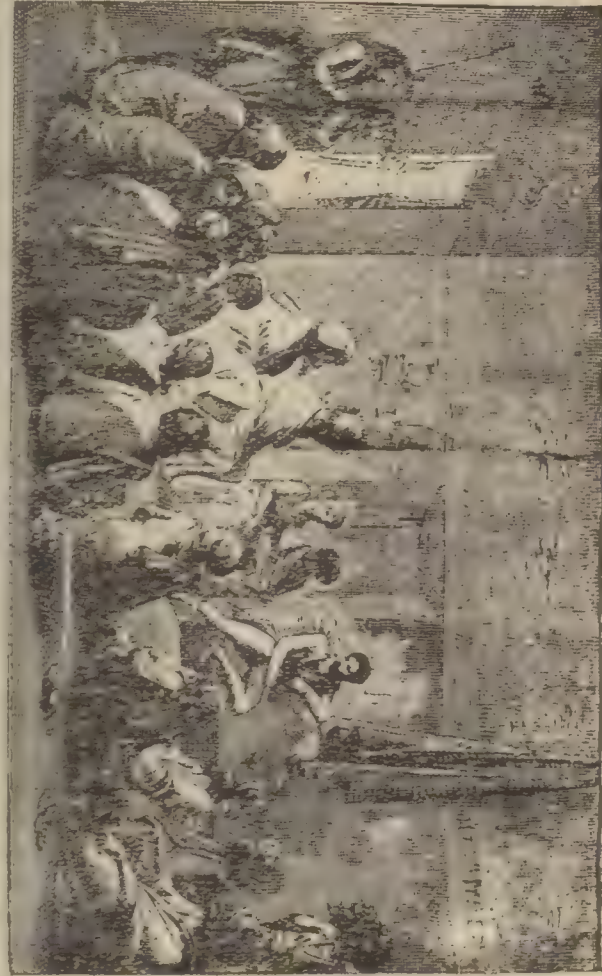
الحاج أحمد الفازنجي

تجار العطور: السيد محمد شيخ العطارين
تجار السكر: درويش عبد القاهر البغدادي. ابراهيم قرموط. محمد همشري
تجار النحاس: السيد مصطفى مصباح. الحاج حسين النحاس
صياغ وجوهرجية: الحاج سالم الجوهرجي. محمد البغدادي
تجار ورق: علي بن الحاج خليل الوراق
تجار أقمشة: الحاج ابراهيم المصري. علي الصلاتجي شيخ القماحين
تجار صابون: السيد أحمد زرو. سيد يوسف نحر الدين
تجار دخان وأقمشة سورية: أحمد نظام
مشايخ الاقسام: شيخ جزاري الحسينية. شيخ العطوف
الاقباط: المعلم لطف الله المصري. المعلم ابراهيم جر العايط. المعلم ابراهيم مقار.
ابراهيم كاتب الصرة

الفرنساويون: دلمار. وكاف. وبوديف

هؤلاء اعضاء المجلس العام أو الديوان العام وهو منتخب من أعيان البلاد. وقد اصدروا بتعيينه أمراً رسمياً مؤرخاً في رجب سنة ١٢١٣ هـ واشترطوا في ذلك الامر أن يكون في الديوان المذكور مندوب فرنساوي اسمه جلوتيه ومندوب مسلم اسمه ذو الفقار تكياء وأن يجتمعوا في يوم عينه في الامر الموماً اليه لينتخبوا منهم ديواناً مؤلفاً من ١٤ عضواً يسمى «الديوان الخصوصي» ويكون الانتخاب بالقرعة وبالاكثرية المطلقة. وعين لاجتماع الديوان الكبير ثلاثة أيام متوالية ثم لا يجتمع إلا عند الحاجة. ومتى تم انتخاب الديوان الخصوصي يصادق عليه السر عسكر (بونابرت). ثم ينتخب له رئيس يوالي اجتماعاته كل يوم لمساعدة الحكومة في النظر في مصلحة الوطنين. ويعين له كاتب ورجلان ومخضر وعشرة حجاب يقومون بخدمته. وختم الامر بتعيين رواتب اعضاء المجلس الخصوصي واتباعهم وهي مائة ريال في الشهر للرئيس ومائة ريال لكل عضو. وللمحضر ٦٠ بارة في اليوم وللحاجب ٤٠ بارة فاجتمع الديوان العام المشار اليه وانتخب من أعضائه ١٤ عضواً يتألف منهم الديوان الخصوصي وهو غير الذي تقدم ذكره. فان هذا لم يكن فيه من المشايخ إلا الشرقاوي والمهدي والصاوي والبكري والفيومي. وباقي الاعضاء من سائر الطوائف على هذه الصورة. من التجار الحروي واحد محرم ومن النصارى القبط لطف الله

المصري ومن السوريين يوسف فرحات ومخائيل كحيل ومن الانكليز «رواحة» ومن الفرنساويين بودني وموس . فهو مجلس وطني مختلط تشكل من نواب يمثلون أهم العناصر التي تتألف منها الامة المصرية - بعضهم من الوطنيين الاصليين المسلمين



ش ٤٢ : الديوان الخصوصي
أول مجلس شورى وطني في مصر أثناء بونابرت سنة ١٨٠٨

والاقباط والبعض الآخر من الجالية السورية والافرنجية . فهو كثير الشبه بالمجلس النيابي الذي أشار اللورد كرومر بتشكيله من العناصر التي تتألف منها الامة المصرية الآن وجعل ذلك شرطاً لاستقلالها ونجاحها

ولما تم تأليف المجلس الخصوصي على هذه الصورة كتب بونابرت بذلك منشور

علقوها في الاسواق ضمنها التهديد المشوب بالزلف مثل سائر منشوراته بمصر . وقد صوروا هذا الديوان في احدى جلساته وفيه بونابرت قاعداً على دكة والعلم الفرنسي بجانبه وقد قعد الاعضاء بين يديه وفيهم الكاتب والترجمان والحضر وبعض الحجاب كما ترى في الشكل ٤٢

وأخذ الديوان المذكور يوالي اجتماعاته ولا يبرم بونابرت أمراً مهماً بمصر إلا شاوره وأخذ رأيه فيه وإنما كان شغله بالأكثر النظر في المسائل الوطنية . فالديوان الخصوصي هذا خطوة أخرى نحو السلطة النيابية في مصر لأنه منتخب من وجهاء البلاد من كل الطوائف وإذا لم تشترك العامة في انتخابه فلا انتخاب حتى في الحكومات الدستورية اليوم يتم بالحقيقة على أيدي الوجهاء والخاصة الذين تنتخبهم العامة

وشكل فرنساوية مجلساً آخر أو ديواناً سموه محكمة القضايا مؤلفاً من ١٢ عضواً ستة من الاقباط وستة من التجار المسلمين وجعلوا قاضيه الاكبر أو رئيسه المعلم ملطي القبطي وفوضوا اليه النظر في القضايا التي تقع بين التجار والعامة وفي الموارث ونحوها فهو شبيه بمحكمة أهلية مختلطة . وكانت تلك القضايا تنظر إلى ذلك الحين في المحاكم الشرعية . فكان بونابرت أول من أسس المحاكم النظامية بمصر

زول : فرنساويين القاهرة

وفي يوم الثلاثاء ١١ صفر عدت الجيوش فرنساوية إلى القاهرة ونزل بونابرت في بيت محمد بك الالفي وأخذت العساكر الذين دخلوا القاهرة من فرنساويين يعاملون الباعة باللين ويتنازعون ما يحتاجون اليه ويدفعون فيه ثمناً غالياً فأحببتهم الناس وارتاحوا اليهم

ثم أخذت العساكر فرنساوية تعدي للبر الشرقي شيئاً فشيئاً حتى كثر عددهم في القاهرة فتمتلات منهم الاسواق وسكنوا في البيوت والسكنهم لم يشوشوا على أحد وكانوا يأخذون ما يحتاجون اليه بزيادة في الثمن ففجر السوق وصغروا أقراص الخبز وطحنوا الحنطة بترابها وكثرت باعة المأكولات وفتح الاروام عدة حوانيت لبيع الاشربة وحانات وقهوات وفتح بعض الافرنج المتوسطين بيوتاً لصنع الاطعمة والاشربة على النمط الافرنجي (أي لوكاندات افرنجية) ولم يكن ذلك معروفاً في مصر إلى ذلك العهد ولذلك وصفها المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي كأنها شيء جديد دخل عليهم فقال : « وفتحوا بيوتاً لصنع الاطعمة والاشربة على طرائقهم في بلادهم وجعلوا على أبوابها

علامات يعرفونها بينهم فإذا مرت طائفة تريد الاكل بذلك المكان دخوله وهو يشتمل على عدة مجالس بين دون وعال ووسط وعلى كل مجلس علامة ومقدار الدراهم التي يدفعها الداخل . وفي تلك المجالس موائد من الخشب عليها الطعام وحولها الكراسي فيجلسون اليها ويأتيهم الفراشون بالطعام على قوانينهم فيأكلون ويشربون على نسق لا يتعدونه ثم يدفعون ما وجب عليهم من غير نقص ولا زيادة ويذهبون لحالهم

وفي يوم السبت ١٥ صفر سنة ١٢١٣ اجتمع الديوان المتقدم ذكره وتباحث في احتياجه الى التقود فقرر استدانة خمسمائة الف ريال من التجار المسلمين والتصارى والقطب والسوريين والاقرنج وأخذوا في تحصيلها وقرروا أن ينادى في الاسواق ان من اخذ شيئاً من نهب البيوت عليه ان يحضر به الى بيت القائمقام وان لم يفعل وظهر بعد ذلك يشتد عقابه . وان ينادى على نساء الامراء والبكوات بالامان وان يسكن بيوتهن وان كان عندهن شيء من أمتعة أزواجهن يصلحن على انفسهن . فجاء كثيرات منهن وصالحن ودفعن مبالغ عظيمة

وفي يوم الاحد في ١٦ منه طلب بونابرت الخيول والجمال والاسلحة فجمعوا شيئاً كثيراً منها وكذلك الابقار والثيران وأشاعوا التفتيش وكسروا عدة دكاكين بسوق السلاح وغيره وأخرجوا ما وجدوه فيها من الاسلحة وأخرجوا كثيراً من الخبايا والودائع بواسطة البنائين والمهندسين وأخدم الذين يعرفون بيوت أسيادهم . فكانوا يطلعونهم على أماكن الخبايا ومواضع المدافن تقريباً من الفرنسيين . وفي ذلك اليوم قبضوا على شيخ الجعيدية « الرعاع » ورموه بالرصاص ببركة الازبكية مع رفيق له ثم قبضوا على آخرين في الرميعة نخاف الناس وصار يأتي الذين عندهم منهوبات ويقدمونها للديوان

وفي يوم الثلاثاء ١٨ منه طلبوا أهل الحرف والتجار وضربوا عليهم مالا على سبيل القرض لم يستطيعوا دفعه فامهلهم ستين يوماً لدفعه فاستغاثوا وذهبوا الى الجامع الازهر والمشهد الحسيني واستشفعوا المشايخ فشكلوا بأمرهم أمام الديوان فلطف المطلوب الى نصفه ووسعوا لهم في الاجل . وكان بكل عطفة او حارة من عطف القاهرة وحاراتها باب كبير مصفح بالحديد يقفل ليلاً . فأمر بونابرت بنزع أبواب الدروب والعطف والحارات واستمروا في ذلك عدة أيام نخاف الناس وكثرت ظنونهم في المقصود من تلك الاعمال . فظن بعضهم أن الفرنسيين عازمون على قتل المسلمين وهم في صلاة الجمعة وقال آخرون غير ذلك . وكان في القاهرة دار لضرب التقود

تضربها باسم السلطان فامر بونابرت ان يستمر الضرب كما كان وعهد ذلك الى احد رجاله . وكان في نيته انشاء يزيد (بوسطة) بين مصر والاسكندرية لكنه لم يستطع ذلك لكثرة الاخطار التي تحيط برسل البريد في اثناء الطريق

وفي ٢٠ منه وردت الى الديوان كتب من قافلة الحج بالعقبة فذهب ارباب الديوان الى السر عسكر بونابرت وأعلموه بذلك وطلبوا منه اماناً لأمير الحج فامتنع لئلا يكون في كثرة من الحجاج فيحدث ما يكدر الراحة . وقال « لا أعطيه ذلك الا اذا جاء في قلة ولا يدخل معه المالك » فقالوا « ومن يخفر الحجاج » قال « انا أرسل لهم من عساكري أربعة آلاف يوصلونهم الى مصر » فكتبوا الى أمير الحج كتاباً لطيفاً وأوعزوا اليه أن يحضر بمن معه الى الدار الحمراء وأنه متى وصل الى هناك يدبرون ما فيه الخير . فلم يصله ذلك الكتاب حتى خابره ابراهيم بك وكان في بليس يطلب اليه أن يوافيه الى هناك حالا . فسار الى بليس فلم بونابرت باقامة ابراهيم بك في بليس فارسل اليه فرقة من جيوشه تحت قيادة الجزال لا كلارك فسار وعسكر في الخانقاه وراء المطرية ومكث هناك يومين ولم يصادف اقل مقاومة

وفي اليوم الثالث هجم عليه وعلى رجاله قبائل من العرب بينهم عدد كبير من المليك وبعد محاربة شديدة تقهقرت الجيوش الفرنسية نحو القاهرة لعجز خيولهم فلم الجزال موراث بذلك فاستمد بونابرت فامده فاجتمعت الجيوش الفرنسية ثانية الى الخانقاه وتبعهم بونابرت بنفسه خيفة أن يكونوا في ارتباك فينكسروا وتعود العائدة عليهم فاتحدت جميع الجيوش الفرنسية في الخانقاه وساروا جميعاً في أثر العربان والمالكي حتى الصالحية وهناك كان ابراهيم بك بمن معه ثم علموا انه ترك الصالحية فآراً نحو سورية ملتجئاً الى الجزار في عكا وانضم كثيرون من رجاله الى عسكر الفرنسيين وسلمت الصالحية بمن فيها

واقعة أبي قير

فلما رأى بونابرت ذلك أسرع بالعود الى القاهرة . وبينما هو في الطريق قابله رسول بكتاب مفوض فتلاه فاذا به خبر قدوم عمارة نلسون الانكليزية الى الاسكندرية وحصول واقعة كبيرة في أبي قير شفت عن محط العمارة الفرنسية برمتها . فاندعر لذلك الخبر ولكنه تجدد وقال لاركان حربه وكان قد فض الكتاب وتلاه قبله « دع هذا الخبر في سرك الان لئلا يأتى به الغد »

وتفصيل تلك الواقعة ان نلسون بعد ان برح الاسكندرية علم بقدم الفرنسيين اليها ودخلهم القطر المصري فعاد بعيارته ثم جاء الاسكندرية في ١٩ صفر سنة ١٢١٣ هـ (اول اغسطس سنة ١٧٩٨ م) وكانت العارة الفرنسية راسية في جون أبي قير على خط واحد مستقيم من الشمال الغربي الى الجنوب الشرقي تحت قيادة الاميرال برويس وكانت قد ارسلت في ذلك الصباح خمسة وعشرين قرآ من كل دارعة من دوارعها الى البر لحفر الفعلة المرسلين لاحتفار الآبار . فلما استكشفوا العارة الانكليزية نادوا بالرجال ان يعودوا الى المراكب



ش : ٤٣ : الاميرال نلسون

ثم تداول الاميرال برويس مع ضباطه في كيف يقابلون العارة الانكليزية فاشاروا عليه ان يخرج من الجون ويستقبلها في ظهر البحر فاصر على بقاءه في مكانه لان عدد رجاله لا يسمح له بقبول مشورتهم فبتت العارة في الجون بانتظار الانكليز . اما نلسون فكان مذكراً باحتلال الفرنسيين مصر وهو يعمل فكرته في كيفية ملاقاتهم . فلما صار على مشهد من عمارتهم فكر في احسن أسلوب يأخذهم به فقر على ان يرسل قسماً من مراكبه يدخل بين سفن الفرنسيين والبر والقسم الآخر يأتيهم من الامام فيجعلهم هدفاً لتارين حاميتين وكان عالماً بما يحيط بهذا العمل من

اخطر لكنه كان ممن يستسهلون الصعب . فسارت بعض مراكبه من وراء الفرنسيين بينهم وبين البر وتقدمت بقية المراكب من الامام وكانت الشمس قد مالت الى الغروب وابتدأ نلسون باطلاق المدافع فاجابه الفرنسيون بنار مثل ناره . وبعد ١٢ دقيقة انكسرت دارعة فرنساوية ثم انكسرت دارعتان أخريان ولم يأت العشاء حتى استولى الانكليز على عدة دوارع فرنساوية غير التي كسرت

وكان الاميرال برويس على الدارعة « الشرق » ذات المائة والعشرين مدفعاً وعليها نحو الف رجل . وكان نلسون من الجهة الاخرى على احدى دوارعه يراقب حركات الفرنسيين ويعطي الاوامر فاصابه رصاصة في جبهته فوق احدى عينيه فتدلى الجلد حتى غشى بصره فرفعه بيده غير مبال وهو ينظر الى ما يكون من حركات الدوارع وكان بجانبه احد ضباطه فامسكه بيده فانتبه كأنه كان في غفلة وبأداه قائلاً « قد قتلت فارجو ان تذكرني امام امرائي »

وحملوه الى غرفته وأحاط به الاطباء وبعد ان كشفوا عن جروحه طيخوا خاطره وطمأنوه ان الجرح لا يؤذن بالخطر السريع . اما هو فلم يكن ينتظر الشفاء ولكنه مع ذلك لم يشغل عن اصدار الاوامر الى ضباط الدوارع وكان يتبع حركاتها وهو على فراشه . ثم ضمدوا جرحه وهو يخاطب كاتب سره ان يكتب حالاً لثائرة البحرية في لندن عن هذه المعركة . فلم يستطع أحد من الحضور ان يمسك القلم من شد التائر فاخذ نلسون قلماً وكتب ما أوتيته من النصر

اما الاميرال برويس فأصيب أولاً ببعض الجراح ثم أصابته قنبلة قطعت أحشاءه فسقط على الارض فارادوا حمله الى أسفل الدارعة فاشار ان يتركوه يفارق الحياة على ظهرها فتركوه . وبعد العشاء يسير أصاب « الشرق » الدارعة الفرنسية العظيمة احتراق تطرق الى جارتها فبلغ ذلك الاميرال نلسون فطلب ان يحمله الى ظهر دارعته ليشاهد ذلك فحملوه . فلما رأى تلك المشاهد تأثر منها كثيراً فامر ان يسير أحد الضباط في سرب من العساكر لمساعدة الفرنسيين في انقاذ الدارعة « الشرق » من الحريق ولم ينج من رجالها الا القليل . واشتد الحريق حتى رآه أهل الاسكندرية ورشيد . وما زال الاطلاق متواصلاً والاضطراب متسلطاً الى ظهره اليوم التالي وقد فاز الانكليز فوزاً ميبناً

وكان كلاير ورجاله في الاسكندرية باثناء المعركة في خوف واضطراب وكانوا جميعاً تحت السلاح . وفي الصباح وردت لهم الاخبار بانكسار العارة الفرنسية . ثم

جاءت مكاتبات أخرى أن أسرى فرنساويين وجرحاهم محفوظون بكل اكرام عند الانكليز وفي نية نلسون أن يبعث بهم الى البر يقيمون في المستشفيات تحت معاينة بعض اطبائه . فلما وصل خبر انكسار فرنساويين الى رشيد والاسكندرية خاف فرنساويون وانحط فكرهم في اعين الوطنيين . واضطر الرشيدون منهم الى مواصلة الحاربة مع الاسكندرانيين فاقاموا قافلة تنقل البرد وفيها الكتب والرسائل والاخبار لاجل المفاوضة في أمر الدفاع اذا أراد الانكليز محاربتهم . فكتب كلاير الى بونابرت بواقعة الحال وما انتهت اليه العارة فرنساوية فوصله الكتاب في أثناء عوده من الصالحية كما مر بك . أما العارة الانكليزية فاقلمت عن الاسكندرية

فسار بونابرت حتى أتى بليس فرأى ضباطه واركان حربه على المائدة صباحاً فرحين بالتصارع على الممالك في الصالحية لا يعلمون بشيء من واقعة أبي قير فقال لهم ضاحكاً : « افرحوا ولتنشرح صدوركم واجتهدوا أن تعادوا على هواء هذا الاقليم فاتنا أصبحنا لا مراكب لدينا تنقلنا إلى أوروبا » فاضطربت قلوبهم عند ذلك فطلب اليهم أن لا يذيعوا الخبر ثم ساروا حتى وصلوا القاهرة مساء الخميس ٤ ربيع اول فتح الخليج والمولد النبوي

وفي اليوم التالي كان يوم وفاء النيل (١٣ مسرى) فأمر بونابرت أن يحتفل بفتح الخليج كالعادة فزينوا عدة غلايين (مراكب) ونادوا في الناس الخروج للزفة في النيل والمقياس والروضة على عادتهم . وأرسل بونابرت دعوة رسمية إلى نكيا الباشا وإلى القاضي وأرباب الديوان وأصحاب الشورى وأرباب المناصب وغيرهم للحضور في صباحها وركب هو معهم في موكبه وزينته وعساكره وطبوله وزموره إلى قطرة السد وكسروا الجسر بحضورهم وأطلقوا المدافع إطلاقاً متوالياً وأحرقوا النفوط حتى جرى الماء في الخليج ثم ركب وهم معه حتى أتى إلى داره . أما أهل المدينة فلم يخرج منهم تلك الليلة للزفة في المراكب كالعادة إلا الافرنج والسوريون والقبط وقليلون غيرهم ثم جاء المولد النبوي ولم يكن في نية العلماء الاحتفال به فاستفهم بونابرت عن سبب ذلك فاعتذر الشيخ البكري بتوقف الاحوال وتعطل الامور وعدم امكانهم القيام بما يقتضيه ذلك الاحتفال من النفقات . فقال لا بد من الاحتفال كالعادة ودفع في الحال ثلثمائة ريال فرنساوي وأمر بتعليق قناديل واحمال وتعليق واجتمع فرنساويون يوم المولد ولعبوا ميادينهم وضربوا طبولهم وأرسل بونابرت بطليحاته الكبرى (الموسيقى) الى بيت الشيخ البكري واستمروا يضربونها طول الليل والنهار بالبركة

تحت داره وأحرقوا في أثناء الليل نفوطاً وشوارب كثيرة . وفي ذلك اليوم البس الشيخ خليل البكري فروة وتقلد نقابة الاشراف ونودي في المدينة بان كل من كان له دعوى على شريف فليرفعها الى القتب

ثم جاء يوم احتفال فرنساويين بجمهوريتهم للسنة السابعة فاحتفلوا به غاية الاحتفال وشخصوا فيه معركة امبابه وانكسار الممالك ونصبوا شجرة الحرية فدهش منها الوطنيون ولم يكونوا يفهمون المقصود بها . ثم أرسل بونابرت مندوباً ينصب العلم فرنساوي ذي الثلاثة الالوان على قمة احد الاهرام العظمى وحفروا هناك اسماء الضباط الذي قتلوا في واقعة امبابه

قتل السيد محمد كرم

قد تقدم ان السيد محمد كرم بقي في الاسكندرية كما كان فيها قبل مجيء فرنساويين . وقبل واقعة أبي قير يسير عثر فرنساويين على كتاب مرسل من محمد كرم المذكور إلى مراد بك يتواطأ معه على تسليم الاسكندرية . فاستحضر إلى القاهرة فحكم عليه أن يدفع ثلاثمائة ألف فرنك غرامة على حياته وأنه إذا لم يدفع المبلغ في خمسة أيام يقطع رأسه . فقال له التراجمة « أنت رجل غني فافد نفسك بهذا المبلغ » فبسم وقال « لا لا أدفع شيئاً لأنني إذا قدر لي الموت لا يدفع الدفء مقدوراً ، وإذا قدرت لي الحياة فأنا حي بلا دفع » . ثم استحضر وسئل عن تلك الحيانة فأنكر فأبرزوا له الكتاب فاخبره فارسله بونابرت الى شيخ البلد فطلب العلماء من بونابرت أن يعفو عنه فاطلعهم على كتابه وأصر على قتله وما انقك حتى اذاقه الموت وطوف رأسه بالمدينة مكتوباً فيه « هذا جزاء الخائن »

الشارة فرنساوية أو الجوكار

وفي ٢٠ منه استدعى بونابرت مشايخ القاهرة وعلماءها الى بيته فلما استقر بهم الجلوس خرج ثم عاد ويده طيالة ملونة بثلاثة الوان كل طيلسان ثلاثة عروض أيضاً وأحمر وكحلي فوضع واحداً منها على كتف الشيخ الشرقاوي رئيس الديوان . فرمى به الى الارض واستعفى وتغير مزاجه وأخذ منه الغيظ مأخذاً عظيماً . فقال الترجمان الذي كان مرافقاً لبونابرت « يا مشايخ ما بالكم لا تزالون في نقرة من حضرة الصاري عسكر فقد صرتم من احبائه وهو يقصد بالباسكم هذه الطيالة تعظيمكم وتشريفكم بزيه وعلامته فانكم اذا تميزتم بها عظمتمك العساكر واكثر من احترامكم » فقالوا « لكن قدرنا ينحط عند الله وعند اخواتنا المسلمين » فاعتباط بونابرت وانتهر

الشرقاوي قائلاً « ان مثلك لا يصلح للرياسة » فنهض بقية الجماعة وجعلوا يلففون من غضب بونابرت ويطلبون اليه ان يعفيهم مما أراد فقال « ان لم يكن هذا فلا بد من وضع الجوكار في صدوركم وهي العلامة التي يقال لها الوردية » وقد تقدم ذكرها فقالوا « نستمهلك ربيك نتروى في الامر » وانصرفوا

ثم استدعى بونابرت الشيخ السادات اليه فحضر فلاحظه في القول واعرب له عن محبته له (كل ذلك بواسطة الترجمان) ثم ناوله خاتماً من الالماس هدية وطلب اليه ان يحضر في اليوم التالي فحضر . فأتى له بجوكار وعلقه بفرجيته فسكت ولما انصرف نزع . وفي ذلك اليوم تودي بالمدينة بوجوب نقل هذه العلامة وانها هي علامة الطاعة والمحبة فاتفق الناس على ان بعضهم علم أنها لا تخل بالدين وخاف العقاب فوضعها . وفي العصر نادوا بعدم اعطائها الا لبعض الاعيان اما الباقون فيضعونها اذا جاءوا لمقابلة رسمية

سياسة نابليون في مصر

ومن الغريب أن بونابرت مع رغبته في الاستيلاء على مصر وسهره على ذلك لم يحسن التصرف كما يجب . فقد رأينا يصرح باحترامه الديانة الاسلامية وتأمين الاهلين على عاداتهم وأدينتهم وأرزاقهم وأعراضهم . وأظهر تقربه من المصريين حتى قيل انه كان يتزين بزيتهم في الاحتفالات الوطنية فيلبس القفطان والحية والعمامة - وهو لباس أمراء الشرق او سلاطينه - وقد مثله بعضهم بصورة نقلناها في الشكل ٤٤ عن كتاب نوابغ الاقباط ومشاهيرهم - كل ذلك يوجب الثناء عليه الا اننا لا نرى وجهاً يصبو ادعائه الاسلام ادعاء لم يصدق احد من المصريين ولم يزد الناس بسببه الا حذراً من الفرنسيين لانهم لم يدعوا غير دينهم الا تقرباً منهم لغرض في نفوسهم يحاولون فيه على انه لو ادعى تلك الدعوى ثم تظاهر بما يشبهها لكان خيراً لكتبنا رأينا من الجهة الاخرى يأمر بالمساواة في الارث بين الانثى والذكر أمرآ يخالف نص القرآن مخالفة صريحة كما لا يخفى وقد تجاهل العادات الشرقية وأراد أن يجعل الشعب المصري بعد ما قاساه في أيام المماليك أن يسير على خطوات الشعب الفرنسي من عاداته وشرائعه وأزيائه . فكانت المساواة تدخل بيوت الهوانم اللواتي لم يجسر الباشا أن يدخلها - وكان السبب في ذلك ان بونابرت أجاز لرجله الدخول في بيوت النساء للتفتيش عن أسلحة أو مخبآت أو أمور أخرى - ولا يخفى ما في ذلك من تقييد القلوب وكل هذا يعلم ان الشرقي أشد حرصاً على عرضه منه على حياته . ناهيك بما كان

يأتيه الجند الفرنسي من الفواحش التي تأبها النفوس الشرقية على ان لا تنكر على هذا الرجل العظيم ما أدخله بواسطة هذه الحملة من الاصلاح في أحوال الامة المصرية صحياً وأديباً وشرعياً ولكننا لا نعجب بعد أن علمنا من سوء تصرفه اذا رأينا الاهلين بعيدين عن الاخلاص له - رغم قرب الشعب المصري من الطاعة والانقياد . ولا غرو بعد هذا اذا رأيناهم يشقون بمصائبه ويتربصون فرصة



تم : ٤٤ بونابرت بسادته في

لشق عصا الطاعة وتفضيل سلطة المماليك على تمسكها من العسف والظلم لانهم شركاؤهم بالدين وهو أكبر رابط بين المشاركة . وقد خدع بونابرت بقبول العلماء الاجتماع في ديوان تحت حمايته وما علم أن قبولهم ذلك وغيره من مثله إنما جرى رغم ارادتهم

وامثالاً لقول القائل « اذا لم يكن ما تريد فارد ما يكون »

ومن الامور المغيرة التي آتاهها الفرنسيون واستوجبوا من أجلها نفور الناس زيادة الضرائب والشدة في محصيلها واستحداث القوانين على الموتى والضرائب على الموارد وعلى المسافرين من بلد الى آخر فتعطى لهم تذكرة مرور بشنها واباحة بيع المسكر في الشوارع وهدم بعض الجوامع والمنائر وتخريب بعض التراب باسم الاصلاحات الصحية وبناء القلاع والاستحكامات على التلال خارج القاهرة وقطع أرزاق الاوقاف عن أهلها وتسليمها لغير المسلمين

منشور آخر

وفي خاتمة الجميع وردت للعلماء والمشايخ تحارير سرية من ابراهيم بك واحد باشا الجزائر حاكم عكا في ٣ ربيع آخر ما لها ان السلطان قد أرسل قوة عسكرية ستصلهم قريباً لاتقاذهم من نير الفرنسيين - علم بونابرت بذلك فجمع العلماء والفقهاء واعيان البلاد وخاطبهم يحاول اقناعهم ان خطابات المالك لهم كاذبة وفي ١٨ ربيع آخر استكتب بونابرت المشايخ كتاباً أرسل منه نسخة لجلالة السلطان ونسخة لشريف مكة وطبعوا منها عدة نسخ الصقوها بالشوارع جعله عن لسان المشايخ يتكلمون عن أعمال الفرنسيين بمصر ومفاده :

« ان الفرنسيين قد قاتلوا المالك وهزموهم وانهم آتوا مصر وتسكبدوا ما تكبدوه في سبيل حبيب الباب العالي لانهم من اخضاء جلالة مولانا السلطان واعداً اعدائه وإن السكة والخطبة لا تزالان باسمه وشعار الاسلام قائمة على ما كانت عليه وانهم هم أنفسهم مسلمون يحترمون النبي والقرآن الشريف وانهم أوصلوا الحجاج المتشتتين وأكرمهم وأركبوا الماشي منهم وأطعموا الجائع وسقوا الظمان واعتوا باقامة الزينة يوم جبر البحر استجلاباً لسرور المؤمنين وأنفقوا أموالاً برسم الصدقة على الفقراء واعتوا كذلك بالمولد النبوي وأنفقوا المال بشأن انتظامه وعلو شأنه وانهم قد أنفقوا رأياً على لبس الخناب الاكرم مصطفى آغا كخيا بكير باشا والي مصر حالاً وانهم (المشايخ) استحسنا ذلك لبقاء علاقة الدولة العلية وانهم مجتهدون في انعام مهمات الحرمين - وقد أمرونا أن نعلمكم بذلك والسلام » . وأرسلوا من هذا المنشور نسخة الى احمد باشا الجزائر والي عكا وأخرى الى والي سوريا

ثورة أهل القاهرة

وفي أول جمادى الاولى سنة ١٢١٣ هـ (٢١ أكتوبر « ت ١ » سنة ١٧٩٨)

جاء إلى الشيخ البكري جم غفير من أولاد المكاتب والفقهاء والعميان والمؤذنين وأرباب الوظائف والمستحقين من خدمة الاوقاف وشكوا من قطع مرتباتهم وخبزهم لان الاوقاف تعطل ايرادها واستولى على نظاراتها غير المسلمين فوعدهم انه اذا قدموا شكواهم إلى الديوان يساعدهم في تحصيل حقوقهم

وفي اليوم التالي اجتمع المشايخ في الجامع الازهر وأرسلوا القراء يطوفون الاسواق ينادون قائلين « فليذهب كل من يوحد الله إلى الجامع الازهر هذا هو يوم الجهاد في محاربة الكفار وأخذ الثار » فجع الناس وأقفوا حوايتهم وتقعدوا أسلحتهم وكانوا قد خباؤها في أماكن معلومة وساروا نحو الجامع أفواجاً يراحم بعضهم بعضاً وفي مقدمتهم السيد بدر وبعض رعاة الحسينية ينادون بأعلى أصواتهم « نصر الله دين الاسلام » وساروا توالاً إلى بيت القاضي العسكر فوجدوا هناك كثيرين آخرين ممن سبقوهم على شاكلتهم . خاف القاضي وأغلق بابيه وأوقف حجابيه فضربوهم وحاول هو الحرب فامسكوه . وكان قد توجه القسم الاعظم من الجماهير إلى الجامع الازهر ثم سارت فرقة منهم إلى بيت الجزال كافارلي وفيه بعض الادوات قهوه وأخربوه ولم يكن الجزال فيه

وكان الجزال ديموي قائمقام القاهرة مقيماً عند بركة الفيل وشاهد في الصباح بعض الجماهير مارين في الاسواق فلم يعبأ بحركاتهم وعند الظهر رأى الجماهير تعاضمت والاسواق ازدحمت فركب في جماعة واسرع إلى بيت الشيخ الشرفاوي رئيس الديوان بقرب القورية فلم يجد فساداً نحو بيت القاضي وهو يرى الجماهير تزداد والاصوات تعاضم فمر بين القصرين فرأى جمهوراً كبيراً أوقفه عن المسير فكلهم بواسطة الترجمان فلم يسمعوا فامر رجاله بالهجوم عليهم فرماه بعض الناس من احد الشبانك على عنقه بحرية مشدودة برأس عمود فقطعت له وعاء دمويّاً كبيراً وكانت القاضية عليه

وتعاضمت الجماهير على الخصوص بجوار الجامع الازهر أما أهالي مصر القديمة وخط بركة الفيل فلم يتجرأوا على ذلك وكانت الجيوش الفرنسية على غير استعداد لمثل هذه الثورة وحصونهم على سفح المقطم والربى خارج القاهرة خالية من الجنود فلم يكونوا يستطيعون تهديد المدينة . وجعل الثارون يطوفون الاسواق يقتلون المسيحيين على اختلاف نزعاتهم بين الافرنج واقباط وسوريين ويونانيين وينهبون مساكنهم

دفع الفرنسيون

فلما اتصل ذلك بونابرت ركب في ٣٠ من دواليه وسار إلى أكثر الأماكن تعرضاً للنهب والسلب فاتمشت جنوده بوجوده فعهد قيادة المدينة إلى الجزال بون وفرق الطوبخية عند مجتمعات الثائرين . وأصبح القوم في اليوم التالي وإذا بسفح المقطم والرعي خارج القاهرة مرصعة بالمدافع وقد أرسل بونابرت وفداً إلى المشايخ يطلب اليهم أن يوقفوا الرعاع عن التجمهر فلم يفعلوا . وفي الساعة التاسعة (أفرنجية) من الصباح بلغ بونابرت أن بعض العربان قادمون إلى القاهرة يريدون الدخول إليها من باب النصر فبعث أركان حربه سالكوسكي لينظر في أمر ذلك فبينما كان ماراً عند باب العدوي هجم عليه بعض الثائرين وقتلوه وكان بونابرت يحبه فأسف عليه كثيراً .
وهم في ذلك وصل الجزال كلابر بجيشه من الاسكندرية بعد ما شفي من جراحه فاشتد أزر الجنود الفرنسية وتألفوا للمحاربة بقلب واحد فقبضوا على جمهور عظيم من الثائرين بجهة الارزبكية . وفي الساعة الثالثة بعد الظهر أطلقت المدافع من الحصون خارج القاهرة على خط الجامع الأزهر بؤرة الثورة وفيه زعمائها وما زال الضرب إلى المساء فاضطرب الناس ووقع في قلوبهم الرعب فاجتمع المشايخ على التسليم فركبوا خيولهم وساروا إلى بونابرت يطلبون الامان فوبخهم على ما أتوه من سفك الدماء ثم أمنهم وأوقف الضرب . أما سكان خط الحسينية ومعظمهم من الجزارين فلم ينفكوا عن الضرب حتى فرغت جمعهم من البارود فهدأوا

دخول الجامع الأزهر

فدخلت الجنود الفرنسية وأخذوا في تسكين الناس وتفريق الجموع وفرقوا الحيازة في الاسواق للخفر فأدخلوا خيولهم إلى الجامع الأزهر وكسروا قناديله ومحووا بعض ما كان مكتوباً عليه من الايات القرآنية . وفي يوم الثلاثاء ٤ جمادى الاولى خرج المسلمون للصلاة في الجامع الأزهر فاذا بالخيول تعج فيه عجيجاً . وفي صباح الاربعاء ٥ منه بعث المشايخ إلى بونابرت يلتمسون اخراج الخيول من الجامع فسألمهم عن زعماء الثورة ومنشطها فلم يحسيوه فرفض طلبهم . ثم تدخل محمد الجوهري من أعيان القاهرة وفضلائها في الامر وكان ممن لازموا الحيازة فوافقهم بونابرت على اخراج الحيازة من الجامع على أن يجعل في ذلك الخط خفراً من سبعين رجلاً . ثم جاء السوريون واليونانيون الذين نهبت بيوتهم بسبب الثورة إلى بونابرت وشكوا اليه خسارهم . فعكف على الاقتصاص من زعماء الثورة . فجعل يقبض على من تقع عليهم

الشبهة رجالاً ونساء حتى قتل منهم ١٢ شخصاً دفعة واحدة وجعل جثثهم في أكياس القاها في النيل وعزم من ذلك الحين على الصرامة في معاملته المصريين فتنع المشايخ من المباحة في الديوان وحصر شغلهم في نشر المنشورات على الشعب لاجل تسكين الثورة فسكن روع الشعب حسب الظاهر

فرمان السلطان

وفي ليلة السبت ١٤ جمادى الاولى جاء الى القاهرة هجان بكتابات من احمد باشا الجزار وفيها فرمان عليه الظفر العثمانية وكتابات أخرى من بكير باشا وابراهيم بك وجميعها مصنوعة باسم مصطفى بك فلما تناولها وقرأها لم يسهه من خوفه الا أن يسلمها الى بونابرت فترجمت له وهالك ترجمتها بعد الاستهلال « ان الفرنسيين أبادهم الله وغشي أعلامهم غشاء العار لأنهم كفار معاندون لا يؤمنون برسالة النبي (صلم) ويسخرون بجميع الاديان ويحجدون البعث وما قدره الله فيه من الثواب والعقاب وهم يعتقدون ان الصدقة العمياء هي المتسلطة على الحياة والموت وان النفس مادة وان الاجسام بعد انحلالها في الارض لا تعود الى الحياة ثانية ولا يلحقها حساب ولا دينونة وبناء على هذا الاعتقاد قد وضعوا أيديهم على هياكلهم وطردوا منها قسمهم وورهابهم وعندهم أن الكتب المنزلة خزائن وأكاذيب ملفقة وأن القرآن والتوراة والانجيل خرافات وان موسى وعيسى ومحمد أرجال مثل سائر الرجال وان الناس جميعاً خلقوا سواء لا شيء يميز بعضهم من بعض . وان كلاً منهم يعتقد بما يحظر له وعلى هذه المعتقدات قد بنوا جميع أعمالهم ووضعوا شرائع جهنمية وقد اهتزت أوروبا لاجرا آتهم هذه وسفكت في سبيل ذلك دماء غزيرة . وأنتم تعلمون ما يأمركم به الدين الاسلامي الخفيف فعليكم الانتباه لئلا تلاقوا ما يبتونه بينكم لان غرضهم هدم مكة والمدينة وأورشليم وذبح من فيها من الاطفال واقتسام رعايتهم وأراضيتهم . أما من يبقى منهم حياً فيجبروهم على اتباع مبادئهم وتعلم لغتهم فيذهب الاسلام من الارض . فافهموا اذاً ما تكون النتيجة اذا لم ينهض كل واحد لنصرة الاسلام ومجاهد ضد هؤلاء المعطلين فانتبهوا اذاً الى الشراك التي نصبت لكم . والاسد لا يكثر بالتعالب كثر عددها أو قل الخ »

منشور آخر لأهل مصر

فلما فهم بونابرت خوى هذا فرمان اجتهد أن يفرس في أذهان المشايخ أنها فن قد سعى بها أعداء الدولة والدين وما زال حتى استكتبهم منشوراً أمضوه وفرقوه في

البلاد وهذا نصه بالحرف الواحد :

« نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن ونبرأ الى الله من الساعين في الارض بالفساد .. نعرف أهل مصر قاطبة انه حصل بعض الخلل في مدينة المحروسة من طرف الجندية واشتراك الناس فحركوا الشرور بين الرعية وعسكر الفرنساويين بعد أن كانوا أحراراً واحباباً وترتب على ذلك قتل جملة من المسلمين ونهب بعض البيوت ولكن بلطف الله سكنت الفتنة بسبب شفاعتنا عند أمير الجيوش بونابرت وارتفعت هذه البلية لانه رجل كامل العقل ذو رحمة وشفقة على المسلمين ومحبة الى الفقراء والمساكين ولولاه لكانت العساكر احرقت جميع المدينة ونهبت جميع الاموال وقتلت كمل أهل مصر . فليكن أن لا تثيروا الفتن ولا تطيعوا المفسدين ولا تسمعوا كلام المنافقين ولا تتبعوا الاشرار ولا تكونوا مع الخاسرين سفهاء العقول الذين لا يفكرون بالعواقب لكي تحفظوا اوطانكم وتطمثوا على عيالكم وأديانكم فن الله سبحانه وتعالى يؤتي ملكه من يشاء ويحكم من يريد . ونخبركم ان كل من تسبوا في اثاره هذه الفتنة قتلوا عن آخرهم وأراح الله منهم البلاد والعباد ونصيحتنا لكم أن لا تعلقوا بأيديكم الى التهلكة واشتغلوا بسباب معاشكم وامور دينكم وادفعوا الخراج الذي عليكم والدين النصيحة والسلام » وهذا المنشور ممضي من علماء مصر كافة طبعوه بالمطبعة التي أتت بها الحملة كما تقدم

نصيحة العلماء

ثم شاع بين الاهالي أمر الفرمان الذي ورد من جلالة السلطان فاضطربوا فاصدر المشايخ والعلماء منشوراً يبرئون به الفرنساويين مما جاء بحقهم في ذلك الفرمان ونصه حرفياً :

« نصيحة من علماء الاسلام بمصر . نخبركم يا أهل المدائن والامصار من المؤمنين ويا سكان الارياض من العربان والفلاحين ان ابراهيم بك ومراد بك وبقية دولة المماليك أرسلوا عدة من المكاتبات والمحاطبات الى سائر الاقاليم المصرية لاجل تحريك الفتنة بين الخلوقات وادعوا انها من حضرة مولانا السلطان ومن بعض وزرائه بالكذب والبهتان . وسبب ذلك انه حصل لهم الغم الشديد والنرب الزائد واغتazonوا غيظاً شديداً من علماء مصر ورعاياها حيث لم يوافقوهم على الخروج معهم وأن يتركوا عيالهم وأوطانهم فارادوا أن يوقعوا الفتنة والشر بين الرعية والعسكر الفرنساويين لاجل خراب البلاد وهلاك كامل الرعية وذلك لشدة ما حصل لهم من الكرب الزائد

بذهاب دولتهم وحرمانهم من مملكة مصر الحمية . ولو كانوا في هذه الاوراق صادقين بانها من حضرة سلطان السلاطين لارسلها جهازاً مع أغوات معينين . ونخبركم ان الطائفة الفرنساوية باخصوص عن بقية الطوائف الافرنجية دائماً يحبون المسلمين وملتهم ويفضون المشركين وطبيعتهم وهم أحرار لمولانا السلطان قاعون بنصرته وأصدقاء ملازمون له لمودته وعشرته ومعونه يحبون من والاه ويفضون من عاداه . ولذلك بين الفرنساويين والموسكو غاية العداوة الشديدة ومن أجل هذا يعاونون حضرة السلطان على أخذ بلاد الموسكو ان شاء الله ولا ييقون منهم بقية . فتصحكم يا أهالي الاقاليم المصرية أن لا تحركوا الفتن ولا الشرور بين البرية ولا تعارضوا العسكر الفرنساوي بشيء من أنواع الاذية فيحصل لكم الضرر والهلاك والبلية . ولا تسمعوا كلام المفسدين ولا تطيعوا أمر المفسرين الذين يفسدون في الارض ولا يصلحون والا تصبَحون على ما فعلتم نادمين وانما عليكم دفع الخراج المطلوب منكم لكامل التزمين لتكونوا في اوطانكم سالمين وعلى عيالكم واموالكم آمنين مطمئنين لان حضرة صاري عسكر الكبير أمير الجيوش بونابرت اتفق معنا على أنه لا ينازع أحداً في دين الاسلام ولا يعارضنا فيما شرعه الله من الاحكام ويرفع عن الرعية سائر المظالم ويقتصر على أخذ الخراج ويزيل ما أحدثته الظلمة من المغارم فلا تعلقوا آمالكم باراهيم ومراد وارجعوا الى مولاكم مالك الممالك وخالق العباد . فقد قال نبيه ورسوله الاكرم الفتنة ناعمة لعن الله من أيقظها بين الامم عليه افضل الصلاة والسلام ختام » ولصقوا نسخاً من هذين المنشورين في أسواق القاهرة وفرقوا منها في سائر بلاد القطر

اصلاحات الفرنساويين بمصر

وأقام بونابرت على القاهرة الجزال استنك عوضاً من ديوي الذي تقدم انه قتل ثم عمد الى مداخل القطر المصري الاسكندرية ورشيد ودمياط فحضرها تحصيناً منيعاً وجعل في القاهرة وضواحيها استحكامات تمنع ثورة الاهالي مرة أخرى . وأنشأ في القاهرة مطاحن هواء ومطاحن ماء لاجل طحن الخنطة وأقام في الروضة مستشفى (اسبتيالية) يسع خمسمائة مريض

وأقام مطاحن ومستشفيات أيضاً في الاسكندرية ورشيد ودمياط وأنشئ في القاهرة اذ ذاك مدرسة لتعليم أولاد الفرنساويين المولودين في مصر وجريدتان فرناويتان الواحدة تدعى « دكاد اجبسيان » والاخرى « كوريه ديجيت »

ومرسح للتشخيص ومعامل للاقتال والاسلحة والتجارة . ومعامل للمدافع وتوابعها وآلات الهندسة والورق والاقشة وسائر احتياجات البلاد . واستحدث فيها أيضاً أما كن للهو وحدائق للترفيه وأنشأ مجمعاً علمياً مصرياً (انستيتي ديجيت) وبالنسبة إلى الجيش الفرنسي لم يكن ينقصه من داعيات الراحة إلا البريد



ش ٤٥ : جرجس الجوهري أحد رؤساء القبط وكتابهم في زمن الفرنسيين (١)

وكان بونابرت لا يغفل عن شيء يري فيه راحة جيشه ورفاهية البلاد . فسكنت الأحوال مدة شهرين تمكن الفرنسيون في أثناءها من اجراء بعض الإصلاح في المدينة فردموا ما جاور بركة الازبكية والاماكن المجاورة لمسكن بونابرت فجعلوها راحة واسعة . وجددوا قطرة المغربي وبنوا جسراً ممتداً من الازبكية إلى بولاق حيث ينقسم إلى فرعين يسير أحدهما إلى طريق أبي العلاء والآخر إلى جهة التبانة وضفة النيل وجعلوا بجانب ذلك الجسر خندقين وغرسوا على جانبيه أشجاراً وسدباناً واحداثوا طريقاً آخر بين باب الحديد وباب العدوي عند المكان المعروف بالشيخ (١) فكانت هذه الصورة بالقوتوغراف عن رسم له يباريس لكنها أخذت من موقف منحرف فظهرت كما ترى

شعب ومهدوا جسراً آخر من هناك إلى خارج الحسينية وأزالوا ما يتخلل ذلك من الابنية وهدموا الابنية التي بين باب الحديد والرحبة التي بظاهر جامع المقس ومهدوا الأرض بينهما . فعلوا ذلك كله ولم يسخروا أحداً بل كانوا يدفعون الأجور فوق الاستحقاق . وجعلوا جامع الظاهر خارج الحسينية على طريق العباسية قلعة ومنارته برجاً فصار يعرف بقلعة الظاهر

وبنوا اما كن للارصاد الفلكية والرياضيات والنقش والرسم والتصوير في حارة الناصرية حيث الدرب الجديد ورسموا ما فيه من بيوت الامراء واستخدموها لتلك الغاية وجعلوا بيت حسن كاشف جركس في تلك الحطة مكتبة للمطالعة يحضرها من يريد المطالعة منهم في أوقات معينة من النهار وإذا دخلها أحد الوطنيين رحبوا به وإذا أراد التفرج أطلعوه على ما أراد او المطالعة سلموه ما أراد من الكتب ولا سيما التي تدهش البسطاء بما فيها من الرسوم البديعة وفي جملتها رسم للبي ورسوم أخرى للخلفاء الراشدين وغيرهم من الأئمة والاماكن المهمة . وكان في مكتبتهم هذه كتب كثيرة عربية . وأفردوا للاشتغال بكل علم داراً ولا سيما الكيمياء فانهم خصصوا معملات كبيرة للتقطير والتصعيد واستحضار الخلاصات وسائر الاعمال العقارية وكانوا يجرون امام الاهالي بعض التجارب الكيماوية التي تدهش غير العارفين بنواميس الكيمياء وقد ذكر المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي بعض تلك التجارب وأظهر دهشته منها . وأفردوا أيضاً اما كن للتجارة والصناعة وطواحين هوائية واستخدموا العربات . وقرروا اطلاق مدفع كل يوم عند الزوال

منشور بونابرت عن تجديد الديوان

وفي ١٦ رجب سنة ١٢١٣ هـ (٢٥ ديسمبر (ل ك) سنة ١٧٩٨ م) امر بونابرت بترتيب الديوان على نظام جديد كما تقدم في الكلام عن هذا الديوان عند انشائه وكتب بذلك منشوراً أرسله إلى الاعيان والصق منه نسخاً في الأسواق ونصه : « من بونابرت امير الجيوش الفرنسيين خطاباً إلى جميع أهل مصر الخاص والعام . فاعلمكم ان بعض الناس الضالين العقول الخالين من المعرفة وادراك العواقب أوقفوا الفتنة سابقاً بين أهل مصر فاهلكهم الله بسبب فعلهم ونيتهم القبيحة والباري سبحانه وتعالى أمرني بالشفقة والرحمة للعباء فامتثلت أمره وصرت رحيماً بكم شفوفاً عليكم . ولكن كان حصل عندي غيظ وغم شديد بسبب تحريك هذه الفتنة بينكم ولاجل ذلك أبطلت الديوان الذي كنت رتبته لنظام البلد واصلاح أحوالكم من مدة

شهرين والآن توجه خاطرننا الى ترتيب الديوان كما كان لان حسن احوالكم ومعاملتكم في المدة المذكورة أنسيانا ذنوب الاشرار وأهل الفتنة التي وقعت سابقاً

« فيا ايها العلماء والاشراف اعلموا أمتكم ومعاشر رعيتم بان الذي يعاديني وبخاصني انما خصامه لكن ضلال عقله وفساد فكره فلا يجد مخلصاً ولا ملجأً ينجيه مني في هذا العالم ولا ينجو من يد الله لمعارضته مقاديره سبحانه وتعالى. والعاقل يعرف ان ما فعلناه بتقدير الله تعالى وارادته وقضائه ومن يشك في ذلك فهو أحق وأعمى البصيرة. واعلموا ايضاً أمتكم ان الله قدر في الازل هلاك اعداء الاسلام وتكسير الصليبان على يدي. وقدر في الازل ان اجيء من ارض المغرب الى ارض مصر لاهلاك الذين ظلموا فيها واجراء الامر الذي أمرت به. ولا يشك العاقل ان هذا كله بتقدير الله وارادته وقضائه. واعلموا ايضاً أمتكم ان القرآن العظيم صرح في آيات كثيرة بوقوع الذي حصل وأشار في آيات أخرى الى امور أخرى تقع في المستقبل وكلام الله في كتابه صدق وحق لا يختلف. واذا تقرر هذا وثبتت هذه المقالات في آذانكم فلترجع أمتكم جميعاً الى صفاء النية واخلاص النية قن منهم من يتمتع من لعني واظهار عداوتي خوفاً من سلاحي وشدة سطوتي. ولم يعلم ان الله مطلع على السرائر يعلم خائنة الاعين وما تخفي الصدور والذي يفعل ذلك يكون معارضاً لاحكام الله ومناقضاً وعليه اللعنة والنقمة من الله علام الغيوب. واعلموا ايضاً اني قادر على إظهار ما في نفس كل منكم لانني أعرف أحوال الشخص وما انطوى عليه بمجرد نظري اليه وان كنت لا أتكلم ولا أنطق بالذي عنده ولكن يأتي وقت ويوم يظهر لكم عياناً ويتضح ان ما فعلته وحكمت به هو حكم الهي لا يرد. وان اجتهد الانسان بغاية جهده لا يتمتع من قضاء الله الذي قدره واجراه على يدي فطوبى للذين يسارعون في التحادهم ومهمتهم مع صفاء النية واخلاص السريرة والسلام »

ترعة السويس

وفي ذلك اليوم (١٦ رجب) برح بونابرت القاهرة في سرب من رجال معيته وبعض المهندسين قاصداً برزخ السويس لاستطلاع آثار الترعة التي حفرت قديماً بين البحر المتوسط والنيل فوصل السويس في ١٨ منه وفي ٢١ منه قطع البحر الاحمر الى آبار موسى فجعل يتأمل ويتذكر ما قيل عنها من المعجزات. وفي ذلك اليوم عاد بمن معه قاصداً السويس خوفاً في البحر مثل ما فعل موسى فاخطأوا الطريق حتى كادت المياه تغمر خيولهم وبعد المشقة وصلوا السويس في اوائل الليل. وفي الصباح

التالي أتم بونابرت استكشافه وبرح السويس قاصداً القاهرة فمر ببليس فاستولى عليها وسار منها حتى أتى القاهرة في ٢٥ منه (في ٣ يناير سنة ١٧٩٩)

وفي يوم وصوله لاقاه الجنرال كلابر قادمًا من الاسكندرية ومعه كتب وجرائد واردة من فرنسا وغيرها تنبئ بتغير الباب العالي على الجمهورية الفرنسية لافتتاحها مصر واستقلالها بأحكامها. فلندع بونابرت يطالع كتبه وجرائده ولتلفت الى الجنرال ديزه وحملته الى الصعيد بعد واقعة امبابة

حملة ديزه في الصعيد

لما عدى الجيش الفرنسي البر الشرقي ودخل القاهرة بعد واقعة امبابة عهد بونابرت الى الجنرال ديزه أن يسير جنوباً لتعقب المالك واخضاع الصعيد. فسار في ١٦ محرم سنة ١٢١٣ هـ حتى أتى بني سويف فلاقاه مراد بك برجاله وطال الحرب بينهما وكثر الاخذ والرد وانتهت الوقائع بتقهقر المالك وامعائهم في داخلية الصعيد وفي ١٣ جمادى الاخرى برح الجنرال ديزه بني سويف فأتى المنيا في ١٨ منه وترى هناك ينتظر الدوارع القادمة على النيل لتجدته فتأخر وصولها بسبب الريح المعاكسة لسيورها. ثم سار من المنيا وما زال يتعقب مراد بك وأتباعه حتى أتى اصوان في البر الغربي فسكر هناك. وكان كلما مرَّ بأثر من الآثار المصرية القديمة حفر عليه اسمه وأسماء المدن التي اقتتحها. وقد شاهدنا مثل هذه الكتابة على جاني باب من أبواب هيكل الكرنك بجوار الإقصر

واستطلع ديزه أخبار العدو في اصوان فعلم أنه معسكر فوق الشلال الاول بمسافة قصيرة فاحتل جزيرة فيلوي وحصن اصوان لدفع المالك اذا قدموا اليها لانه لم يرَ فائدة من تتبعهم الى ما وراء ذلك وقد حفر على صخر فوق الشلال جميع فتوحه على مثل ما تقدم. وهناك آخر ما وصله الفرنسيون في حملة بونابرت. ولم يكذب ديزه تحصين اصوان حتى سمع باحتلال ألني بك جهات طيبة فعاد اليه وحاربه وهزمه. فأذعن الصعيد وهدأت أحوالها

حملة بونابرت على سوريا

أما بونابرت فانه علم من مطالعة تلك الجرائد ومن قرائن أخرى أن الدولة العلية تسعى في استرجاع مصر من الفرنسيين وقد بعث بمشورات رسمية الى سائر بلادها طعناً بالجمهورية الفرنسية وأمرت احمد باشا الجزار والي عكا أن يبعث جيشاً لاحتلال العريش ففعل. فبعث اليه بونابرت أن يخلي تلك المدينة لأنها من حدود مصر

فلم يطمع فأمر بإعداد حملة يسير بها ليس للمداخلة عن مصر فقط بل لافتح سوريا أيضاً . فأعد حملة من اثني عشر ألفاً بينها ألف ومائتان من الطبجية وسار قاصداً سوريا بعد أن عهد بقيادة القاهرة إلى الجزال دوغا وبقيادة الصعيد إلى الجزال ديزه وقيادة الاسكندرية إلى الجزال مرمون وأمر بتحصين دمياط . وجعل في تلك الحملة بعض مشايخ القاهرة ليستعين بنفوذهم الديني . وفي ٢١ شعبان أصدر منشوراً مطبوعاً فرقه في الناس وهاك نصه بالحرف الواحد :

« الحمد لله وحده . هذا خطاب إلى جميع أهل مصر من خاص وعام من محفل الديوان الخصوصي من عقلاء الانام وعلماء الاسلام والوجقات والتجار الفخام »
 « نعلمكم معاشر أهل مصر أن حضرة صاري عسكر الكبير بونايرته أمير الجيوش الفرنساوية صفح الصفح الكامل عن كل الناس والرعية بسبب ما حصل من أراذل الناس أهل البلد والجندية من الفتنة والشر مع العساكر الفرنساوية وعفا عفواً شاملاً وأعاد الديوان الخصوصي في بيت قائد آغا بالازبكية ورتبه مع أربعة عشر شخصاً أصحاب معرفة واتقان انتخبوا بالقرعة من ٦٠ رجلاً حصل انتخابهم بموجب فرمان وذلك لاجل قضاء مصالح الرعايا وحصول الراحة لأهل مصر من خاص وعام وتنظيمها على أكمل نظام واحكام . كل ذلك من كمال عقله وحسن تدبيره ومزيد حبه لمصر وشفقة على سكانها من صغير القوم حتى كبيرهم . ورتبهم بالمنزل المذكور كل يوم لاجل خلاص المظلوم من الظالم وقد اقتص من عسكره الذين أساؤا بمنزل الشيخ محمد الجوهري وقتل منهم اثنين في قره ميدان وأزل طائفة منهم عن مقامهم العالي إلى أدنى مقام لان الخيانة ليست من عادة الفرنسيين خصوصاً مع النساء والارامل فان ذلك قبيح عندهم لا يفعله الا كل خديس . وقبض بالقائمة على رجل نصراني مكاش لانه باغته أنه زاد المظالم في الجمر بك مصر القديمة على الناس . ففعل ذلك بحسن تدبيره ليمتنع غيره من المظالم ومراده رفع الظلم عن كامل الخلق ودائماً يفكر في فتح الخليج الموصل من بحر النيل إلى بحر السويس لتخف أجرة الحمل من مصر إلى قطر الحجاز وتحفظ البضائع من اللصوص وقطاع الطرق وتكثر عليهم أسباب التجارة من الهند واليمن وكل فيج عميق . فاشتغلوا في أمر دينكم وأسباب دنياكم وارتكوا الفتنة والشرور ولا تطيعوا شيطانكم وهواكم وعليكم بالرضى بقضاء الله وحسن الاستقامة لأجل خلاصكم من أسباب العطب والوقوع في الندامة رزقنا الله وإياكم التوفيق والتسليم . ومن كان له حاجة فليأت الديوان بقلب سليم الا من كان له دعوى شرعية

فتوجه إلى قاضي العسكر المتولي بمصر الحامية بخط السكرية والسلام على أفضل الرسل إلى الدوام »

فتح العريش وغزة

وفي ٢٥ شعبان (أول فبراير) شباط سنة ١٨٩٩ م) سار الجزال كلاير والجزال ريز في مقدمة الحملة نحو العريش وفي ٥ رمضان أو ١٠ فبراير (شباط) سافر بونايرت بمن بقي منها . وكان على العريش قاسم بك من قبل الجزال وقدم عسكر خارج المدينة . ففي صباح ٨ منه كانت مقدمة الفرنسيين على مقربة من معسكر قاسم وفي المساء هاجموه بغته فقتلوه وشتتوا جيشه واستولوا على الذخائر والمهمات وساروا نحو المدينة . أما بونايرت فوصل الصالحية في ٧ منه وفي ١١ منه وصل المسعودية فطلعت ريح شديدة نسفت عليه وعلى رجاله الرمال احمالا وكانت المياه قليلة فغطشت العساكر عطشاً عظيماً فمسكر هناك وبث الخبراء يستطلعون خطوات كلاير وجهة مشيره فعادوا وأخبروه قهض وما زال حتى أتى العريش في ١٢ رمضان فرأى كلاير قد حاصرها وامتنع عليه فتحها لقلعة الطبجية ونقاد المون . فلما وصل بونايرت أرسل إلى حامية العريش كتاباً يطلب اليهم التسليم ويهددهم فسلموا بعد بضعة أيام فدخل الفرنسيون العريش وأمنوا أهلها على حياتهم وقبضوا على خمسة كشاف كانوا هناك من قبل المالك وأرسلوهم إلى القاهرة تحت الحجز ثم جعلوا في العريش حامية وساروا إلى غزة فاستولوا عليها بغير قتال وجعلوا فيها حامية وديواناً وطنياً لتنظيم الأحوال

فتح يافا وقتل حاميتها

وفي ٢٣ رمضان سنة ١٢١٣ هـ (٢٨ فبراير) شباط سنة ١٧٩٩ م) ساروا إلى يافا فلما وصلوها أمر بونايرت الجزال كلاير أن يتقدم في فرقه إلى عكا ففعل . وكانت حامية يافا أخلاطاً من الأتراك والمغاربة والارناوط والاكراد فلم ير بونايرت محاصرتها فأمر بالهجوم عليها في ٢٧ منه ٤ مارس (آذار) فهجم الفرنسيون عليها وما زالوا حتى خرقوا الاسوار ودخلوها ففرت الحامية فتبعوها وقد تحصنت في بعض الخانات الكبيرة فالحوا عليها فقال الارناوط ومنهم تألف معظم الحامية « نحن نسلم لكم أنفسنا إذا أمتحنونا على حياتنا » وكان على قيادة الهاجين من الفرنسيين أحد أركان حرب بونايرت فوعدهم بالامان فسلموا فقادهم موثقين وعددهم نحو أربعة آلاف حتى أتى بهم المعسكر الفرنسي فلما رأى بونايرت قلة القادم إليه : « ما هذه الجماهير » قال « هي حامية هذه المدينة قد سلمت وجئت بها إليك » قال « ماذا تريدون

أن أفضل هذا العدد أعندكم زاد يكفيهم أو مراكب تنقلهم إلى مصر أو فرنسا وإذا أرسلناهم في البر فمن يتولى خفارتهم ؟ فأجاب قائلاً : « اتا قد قبلنا تسليمهم حجباً للدماء » فقال بونابرت « نعم يجب أن تفعلوا ذلك ولكن مع الاطفال والنساء والشيوخ وليس مع مثل هذا القدر من الرجال الأشداء المجندين » ثم أمرهم بالجلوس مكتوفي الايدي امام المعسكر . وفي اليوم التالي فرقوا فيهم شيئاً من البقساط الجاف والماء ثم عقد بونابرت مجلساً في خيمته للمفاوضة في ماذا يجب أن يفعل هؤلاء الاسرى وبعد الاجتماع عدة جلسات لم يقرروا على شيء فازعج بونابرت لكثرة التردد في الامر وبعد التفكير والتأمل رأى أنه لا يستطيع استبقاءهم معه لعدم وجود ما يكفيهم من الزاد ولا ارسالهم إلى مصر لعدم استغنائه عن رجال يسيرون خفارتهم ولا اطلاق سبيلهم لئلا يرددوا عليه فقرر على اعدامهم . وفي ٤ شوال (١٠ مارس) اذار (سنة ٩٩) بعد الظهيرة قادوهم موثقين إلى صحراء رملية خارج يافا ثم جعلوهم فرقاً ساقوا كلاً منها إلى ناحية وقتلوا الجميع بالرصاص قتلاً ما أنزل الله به من سلطان . فلما بلغت هذه الفعلة مسامع الجزار ورجاله في عكا أصروا على الدفاع إلى آخر نسمة من حياتهم لئلا يصيبهم اذا سلموا ما اصاب أولئك

منشور بونابرت بفتح يافا

ولما استلم بونابرت يافا أمر بترميم حصونها وبعث إلى الاسكندرية يأمر العمارة بالباقية هناك أن توافيه إلى يافا . ثم فشا الطاعون في يافا وضواحيها لفساد الهواء من الجثث التي ملأت تلك الجهات . وكتب بونابرت إلى جند بيت المقدس يطلب اليهم التسليم فأجابوا أنهم تابعون لولاية عكا وحالما تسلم عكا يسلمون . ثم كتب إلى القاهرة منشوراً باستيلائه على يافا وكان قد أرسل مثل هذا المنشور عند ما استولى على العريش وغزة ولتذكر هنا منشوره من يافا فقط على سبيل النموذج وفيه تفصيل ما تقدم عن فتح يافا وهاك نصه بالحرف الواحد :

« بسم الله الرحمن الرحيم سبحانه مالك الملك يفعل في ملكه ما يريد . هذه صورة تمليك الله سبحانه وتعالى جمهور الفرنساويين لبندر يافا من الاقطار الشامية . نعرف أهل مصر وأقاليمها ان العساكر الفرنساوية انتقلوا من غزة ثالث وعشرين شهر رمضان ووصلوا الرملة في ٢٥ منه في أمن واطمئنان وشاهدوا عسكر احمد باشا الجزار هارين بسرعة قائلين الفرار الفرار ووجدوا في الرملة ومدينة اللد مقداراً كبيراً من مخازن البقساط والشعير ووجدوا أيضاً ١٥٠٠ قرية مجهزة جهازها

الجزار ليسير بها إلى اقليم مصر مسكن الفقراء والمساكين ومراده اتوجه اليها مع العربان الاشرار من سفح الجبل ولكن تقادير الله تقسد المكر والحيل . وما كان قصده سوى سفك الدماء مثل عادته في أهل الشام وناهيك ما هو مشهور عنه من التجبر والظلم والجور فانه ترى الممالك الظلمة المصريين وفاته ان الامر لله وكل شيء بقضائه وتديره

« وفي السادس والعشرين حلت طلائع الفرنساويين ببندر يافا من الاراضي الشامية واحاطوا بها وحاصروها من الجهة الشرقية والغربية وأرسلوا إلى حاكمها وكيل الجزار ان يسلمهم القلعة قبل ان يحل بهم وبعسكرهم الدمار ولكنه لحشونة عقله وفساد رأيه وسوء تدبيره لم يرد . وفي ذلك اليوم أي ٢٦ من شهر رمضان تكامل العسكر الفرنساوي على محاصرة يافا وانقسم ثلاث فرق توجهت فرقة منهم على طريق عكا على مسافة اربع ساعات من يافا وفي ٢٧ أمر حضرة صاري عسكر الكبير بحفر خنادق حول السور لعل المتاريس متينة واستحكامات حصينة اذ عرف ان سور يافا ملآن بالمدافع الكثيرة مشحون بعساكر الجزار الوفيرة

« وفي ٢٩ ناهز حفر الخنادق النهاية وصار على مسافة ١٥٠ خطوة في السور فأمر صاري عسكر ان تنصب المدافع على المتاريس وان توضع أهوان القنابر بأحكام وأمر بنصب مدافع أخرى بجانب البحر لمنع الصلة بين عسكر البر والمراكب التي أعدها عسكر الجزار في المينا للهرب والفرار . ولما رأى عسكر الجزار المحاصرون في القلعة ان عديد الفرنساويين قليل غرهم الطمع فخرجوا اليهم من القلعة مسرعين ظناً منهم انهم يغلبون على الفرنساويين فهجم عليهم الفرنسيين وقتلوا منهم كثيرين وأجبروهم على الدخول إلى القلعة ثانية

« وفي يوم الخميس غاية شهر رمضان اشفق حضرة صاري عسكر وخاف على أهل يافا اذا دخلت عساكره بالقهر والقوة فأرسل اليهم مع رسول خطاباً هذا مضمونه : « لا إله إلا الله وحده ولا شريك له . باسم الله الرحمن الرحيم . من حضرة صاري عسكر برتيه كنتخدا العسكر الفرنساوي إلى حضرة حاكم يافا . نخبركم ان حضرة صاري عسكر الكبير بونابرتة أمرنا ان نعرفكم في هذا الكتاب ان سبب مجيئه إلى هذا الطرف هو اخراج عسكر الجزار فقط من هذا البلد لانه تعدى بإرسال عسكره إلى العريش ومرابطته فيها والحال انها اقليم مصر التي أنتم الله بها علينا فلا تجوز له الاقامة بالعريش لانها ليست من أرضه فقد تعدى على ملك غيره . ونعرفكم يا أهل

يافا اتنا حصرنا بندركم من جميع اطرافه وجهاته وضيقتنا عليه آلات الحرب والحصار والمدافع الكثيرة والكلل والقناير وفي برهة ساعتين نجرب سوركم وتبطل آلات حربكم . ونخبركم ان حضرة صاري عسكر لمزيد رحمته وحنوه خاف عليكم من سطوة عساكره الحاربيين فانهم اذا دخلوا عليكم بالقوة والقهر أهلكوكم جميعاً ولذلك أمرنا أن نرسل اليكم هذا الخطاب تأمناً لأهل البلد ولا سيما الضعفاء والفقراء والقرباء وان تؤخر ضرب المدافع واطلاق القناير ساعة واحدة واني لكم لمن الناصحين وهذا آخر خطاب ينشأ » فجعلوا جوابنا حبس الرسول مخالفين بذلك الشريعة المظهرة المحمدية والقوانين الحرية . فميز صاري عسكر من الفيض وهاج واشتد غضبه وأمر باطلاق المدافع والقناير . ولم يمض الا اليسير حتى خربت مدافع يافا وانقلب عسكر الجزار في وبال وخسران وعند الظهر انخرق سور يافا وارمى له القوم ونقب من الجهة التي ضربت منها المدافع ولا مرد لقضاء الله ولا مدافع . وفي الحال أمر حضرة صاري عسكر بالهجوم وفي أقل من ساعة ملكت العساكر الفرنسية جميع البندر والأبراج ودار السيف في الحاربيين وحمل الوطيس وكثر القتل

» وفي يوم الجمعة غرة شوال وقع الصفح الجميل من حضرة صاري عسكر الكبير ورق قلعة لاسيما على من كان في يافا من اهل مصر فأعطاهم الأمان وأمرهم بالعود الى الاوطان . وكذلك أمر اهل دمشق وحلب بالرجوع الى بلادهم ليعرفوا مقدار رحمته ومزيد رأفته . وقتل في هذه الواقعة اكثر من ٤٠٠٠ من عسكر الجزار بالسيف . أما الفرنسيون فلم يقتل منهم الا القليل وسبب ذلك ان سلوكهم الى القلعة كان في طريقة أمينة خافية عن العيون وأخذوا ذخائر كثيرة وأموالاً غزيرة واستولوا على المراكب التي في الميناء ووجدوا في القلعة نيفاً وثمانين مدفعاً وقد فات الجزار وعساكره ان آلات الحرب لا تدفع مقادير الله . فاستقيموا عباداه وارضوا بقضاء الله ولا تعترضوا على احكام الله وعليكم بتقوى الله واعلموا ان الملك لله يؤتية من يشاء والسلام عليكم ورحمة الله »

حصار عكا

ثم سار بونايرت برجاله قاصداً عكا تاركاً في يافا حامية كافية فقابله في الطريق بعض العصاة من المماليك فحصل بينهما مناوشات شفت عن فرار المماليك فواصل السير حتى أتى سفح الكرمل واذا بعكا قد تحصنت تحصناً متيناً بهمة واليها احمد باشا الجزار

وهو الرجل الوحيد الذي كان يعتمد عليه الباب العالي في حماية سوريا فعبروا النهر وعسكروا في البر الآخر . وفي ٢ شوال سعد بونايرت الى راية وجعل يتأمل حصون عكا بالنظارة المكبرة ثم أمر ان يسير بعض العساكر الى المدينة وكانت في مياها عمارة انكليزية بقيادة السير سدي سميت قد زادت الجزار تمسكاً بالدفاع . ففي اليوم التالي استطلعوا الحصون واستكشفت قوات العدو . وفي ٤ شوال او ٢٠ مارس (اذار) بدأوا بالحاربة وكانت الدوارع الانكليزية تساعد الجزار من البحر وقد أظهر هذا الرجل بسالة عظيمة لكنه اضطر أخيراً الى استجداد قوات صيدا ودمشق وحلب



ش ٤٦ : مدينة عكا

اما بونايرت فابقي الحصار على عكا وحول شكيمة فتوحاته نحو جهات أخرى من سوريا فأرسل فرقاً استولت على صفد وصور وطبريا وأما كن أخرى واتوا منها بمؤن كثيرة . وبعد يسير وصلت الدوارع الفرنسية من الاسكندرية ومعها المدافع والمؤن . وفي ٤ ذي القعدة سنة ١٢١٣ هـ (٩ ابريل) نيسان) سنة ١٧٩٩ م) قتل الجزال كافارلي

وفي ٥ ذي الحجة ٩ مايو (ايار) وهو اليوم الخمسون لحصار عكا اقر بونايرت على الهجوم النهائي فهجموا عليها هجمة اليأس بقلوب لا تنهاب الموت ولم تكن عكا لتقف في طريقهم لولا العمارة الانكليزية وهي التي آخرت الفتح بدفاعها عنها بالبر والبحر . ثم جاءتهم نجدة من الاستانة تحت قيادة حسن بك فازداد المدافعون قوة ومضى ذلك اليوم ولم ينل الفرنسيون شيئاً . وفي اليوم التالي هجموا هجمة أخرى لم ينالوا منها الا التفهقر لانهم لا قوا مقاومة عنيفة قتل فيها الجزال بون فيثس بونايرت

لجبوط مساعيه وفشل حملته السورية على انه كان يتعزى بما سبق استيلائه عليه من المدن والقرى السورية الا ان تلك الاماكن حالما سمعت بما ألم بحيشه من الفشل انحازت الى الباب العالي هرباً من العقاب . وزد على ذلك ان السير سدي سميت كتب مذكورات وزعمها على المشايخ والامراء في لبنان يدعوم الى الاتحاد مع الباب العالي وأرسل الى سراة المسيحيين ايضاً صورة منشور بونابرت الذي يقول فيه انه هدأ أركان الديانة المسيحية فامتنع اللبنانيون عن توريد الحنجر والبارود للفرنساويين فاصبح بونابرت في حالة اليأس الشديد لا يدري ماذا يصنع وقد خابت آماله . فكتب الى ديوان مصر انه قد هدم أسوار عكا وأخرب بيوتها بالقنابل وجرح واليها الجزار وانه سيرحها بعد ثلاثة أيام عائداً الى مصر ومتى جاءها يقتص من الباغيين . ثم استقدم حاميات صفد وطبرية وغيرها

رجوع حملة بونابرت الى مصر

وفي ٢١ ذي الحجة او ٢٣ مايو (ايار) امر بونابرت بالمسير الى مصر بكل رجاله وفيهم الجرحى فقاموا عذاباً مرّاً من العطش وفشا فيهم الوباء فزادهم عناء قامر بونابرت أن يسير الرجال الاحياء على أقدامهم وأن تعطى الخيول والجمال للمرضى والجرحى . وزادهم شقاء ان العمار الانكليزية كانت تعقبهم في البحر والعربان يتعرضون لهم في البر والجنود العثمانية تسوقهم من وراءهم . أما هم فكانوا يخرجون كل ما يمرون به من المدن والقرى . وفي ٦ ذي الحجة او ٢ يونيو (حزيران) وصلوا العريش قامر بونابرت بتحصينها تحصيناً منيعاً واشتد عليهم القَيْظ وكان في الماء الذي يشربونه علق يمتص الدم فكان يعلق بحلقهم عند الشرب فيعذبهم عذاباً أليماً ثم واصلوا المسير الى القاهرة رغم الحر والوباء حتى وصلوها فخرج المشايخ والاعيان الى خارج المدينة لاستقبالهم فدخلوها ولم يصدقوا انهم تخلصوا من حملة سوريا وما مروا به من الصحاري الحارة . فاخذ بونابرت في تنظيم العساكر وتطبيب الجرحى واعادة النظام واكتساب ثقة الاهلين ولم يكذب يفعل حتى بلغه تقدم المالك من جهة الصعيد . وسبب ذلك ان مراد بك كان في أعلى الصعيد فبلغه قدوم حملة عثمانية لاجراج فرنساويين من مصر فجمع اليه رجاله وسار ببعضهم على الضفة الغربية للنيل وأرسل البعض الآخر على الضفة الشرقية للاتحاد مع ابراهيم بك القادم من جهة سوريا فلم بونابرت بذلك فانفذ جنداً على كل من الضفتين لمحاربة الفرقتين فالتقى جند الضفة الشرقية بفرقة ابراهيم بك وراء المقطم فشدتها وأخذامتها وانثى جند

الضفة الغربية وفيه بونابرت بمراد بك في الجزيرة فانقضت الحرب فانكسر المالك وتشتت شملهم فعادت الجنود الفرنسية ظافرة

حملة عثمانية لاجراج فرنساويين من مصر

وفي ٦ محرم سنة ١٢١٤ هـ او ١٥ يوليو (تموز) سنة ١٧٩٩ م وردت لبونابرت رسالة من الجنرال مرمون في الاسكندرية تنبئه بمجيء الحملة العثمانية ونزولها ابي قير في ١١ الجاري فانزعج بونابرت من هذا الخبر قامر باعداد حملة تسير الى الاسكندرية وبعث الى الحصون في رشيد ودمياط أن تكون على يقظة واستعداد

وسبب قدوم الحملة العثمانية ان الباب العالي بعث الى فرنساويين مراراً يقيم الحجة على استقلالهم باحكام مصر ويطلب اليهم الانسحاب منها ولم يكن الجواب الا الماطلة وكانت انكسرت في الوقت عينه تستحث الباب العالي على هذه المطالبات واخيراً اتفقت معه أن يرسل كل منهما عمارة الى ابي قير حيث تتحد العمارتان وتخرجان فرنساويين من مصر بالقوة . فسارت العمارة العثمانية تحت اميرالية بارونا بك وعليها ثمانية آلاف من الجنود البرية بقيادة مصطفى باشا سرعسكر ومعهم حسن بك ورجاله وسارت العمارة الانكليزية باميرالية السير سدي سميت المتقدم ذكره والتقت العمارتان في ابي قير واتحدتا فأسرع الجنرال مرمون الى اعلام بونابرت

فبحر بونابرت القاهرة برأ ثاني يوم وصول الرسالة صباحاً فسار من الجزيرة الى الرحمانية ومن هناك كتب الى القاهرة كتاباً يضرب به على وتر الدين حيث يقول « ان بين الذين قدموا للمحاربة رجالا روسيين لا يؤمنون بالله واحد وانما يعبدون آلهة ثلاثة » ثم برح الرحمانية فوصل الاسكندرية في ٢٤ محرم او ٢٣ يوليو (تموز) فلاقاه مرمون فنفذه لغفلته عن حصن ابي قير حتى احتله الدثانيون وفي اليوم التالي استكشف استحکامات العدو ثم سار برجاله نحو ابي قير فاذا بالجنود العثمانية تحت قيادة مصطفى باشا على مسافة ميل ونصف وراء ابي قير ومنهم نحو الف رجل في حصن على راية من الرمال في البين بجوار الشاطئ وجماعة آخرون في اليسار في حصن على راية أخرى وهاتان الرايتان بمثابة جناحي الجيش

فهاجم بونابرت أولا الراية اليمنى ففر من كان فيها الى قرية وراء قلب الجيش فارسل كوكبة من الفرسان لملاقاة الفارين وفعل مثل ذلك بالراية اليسرى ثم هجم على قلب الجيش فتقهقرت الجنود العثمانية الى طاية كانوا قد جعلوها وراءهم فتشجع فرنساويون وتعقبوا الهاربين لكنهم لم يسروا يسيراً حتى سمعوا دوي المدافع

الانكليزية ووزر قنابلها فارتدوا الى الورا . فارتد العثمانيون عليهم وتعقبوهم حتى كادوا يظفرون بهم لكنهم شغلوا بتقطيع رؤوس القتلى فاغتم أحد القواد الفرنسيين فرصة تعافلهم وسار في فرقته عن اليسار قاصداً الطابية الخلفية وسار قائد آخر من اليمين فدخل الطابية وقطعا على العثمانيين خط الرجوع وأسرع أحدهما «الجزال مورات» بنفسه للقبض على مصطفى باشا في خيمته فأطلق عليه الباشا عياراً نارياً فلم يعبأ به وهجم عليه بسيفه فقطع أصبعه وأمر اثنين من رجاله فاوثقاه وأرسلاه الى معسكر الفرنسيين وأخذت العساكر الفرنسية بالتهيب فلم يغادروا في معسكر العثمانيين شيئاً من المؤن والذخائر وفر من بقي من العثمانيين الى البحر في قوارب أرسلها لهم السيرسدي الا بعض الحامية في حصن أقاموه هناك فهجم عليه الفرنسيون وبعد دفاع سبعة أيام هدموه وأسروا من كان فيه فشناع خبر انتصار الفرنسيين في القطر المصري فعظموا في عيون الاهلين

عود بونايرت الى فرنسا

ثم ورد لبونايرت من فرنسا رسائل منبهة باضطرابهم هناك وبثقل اليد عليهم وفيه الحاح كلي عليه أن يسير حالا الى فرنسا بعد أن يجعل في مصر حامية منتظمة فكتم الامر ولم يكشف به أحداً الا الاميرال غاتوم لانه لم يربداً من مكاشفته لكي يعد له دارعتين تنقلانه ومعيته الى فرنسا . ولكي لا يحمل للعصريين شبهة بمقاصده عاد الى القاهرة بما يلزم من احتفال النصر فوصلها في ١٣ صفر فخرج الاعيان لملاقاته بالموسيقى

وبعد قليل نزل الى الاسكندرية مظهرأ التجول في الوجه البحري فلما وصل الاسكندرية كتب الى الجزال كلاير وكان على مديرية الغربية بوليه القيادة العامة على مصر ويبين له وجوب المحافظة على الاحتلال لثلاثي دولة أخرى تحتل هذا القطر بعد أن بذلوا فيه ما بذلوه من المال والرجال ووعدوه بنجدة يبعث بها اليه حال وصوله الى فرنسا وأخبره أخيراً عن الداعي الذي حمه على هذه السرعة . وكتب كتاباً آخر الى عساكره يشجعهم على الثبات والصبر وكتاباً الى علماء مصر ومشايخها يطلب اليهم أن يعتبروا الجزال كلاير مكانه جاعلا السبب في سفره أنه ذاهب لقمهر من بقي من أعدائه في أوروبا لانه ان لم يفعل ذلك لا يطمئن باله على مصر ويعدهم أنه لا يغيب عنهم أكثر من ثلاثة أشهر وأرسل هذه الكتب معاً الى كلاير وأوصاه أن يطلع أمحاجها عليها في الوقت المناسب

ثم بعث يستقدم الجزال مينو اليه فجاءه حالا وهو على أهبة السفر في ٢٥ صفر أو ٢٢ أغسطس (آب) فعهد اليه قيادة الاسكندرية ورشيد والبحيرة وسلمه كنب كلاير وأوصاه أن يوصلها اليه حالا . ثم ركب جواده وسار مساءً بمن معه الى جهة مرابوت أو العجمي وكان الاميرال غاتوم ودارعتاه بانتظاره هناك وفي الساعة العاشرة من تلك الليلة نزل بمن معه الى البحر . وفي صباح اليوم التالي ودعوا سواحل الدلتا وأقلعوا قاصدين فرنسا

أما اهل الاسكندرية ولا سيما الحفر خارج المدينة فأنهم شاهدوا في ذلك الصباح غباراً عجائباً بجهة حصن العجمي خافوا أن تكون كتيبة من العربان قادمة على المدينة ثم تبين لهم أنها خيول مسرجة ولا راكب عليها فسألوا لمن هذه الخيول فقيل لهم أنها الخيول التي نقلت بونايرت ومعيته الى البحر وقد سافر الى فرنسا فاندعر القوم لتلك الاخبار وكادوا لا يصدقونها حتى بلغهم مينو رسمياً ما عهد اليه بونايرت قبل ذهابه

ثم أرسل مينو الاوامر والكتب التي بيده الى كلاير فوصلته وهو في رشيد قادماً لمقابلة بونايرت . فذهب الى القاهرة وبلغ المشايخ والعلماء ما أمره به بونايرت وتلا عليهم كتابه اليهم وهؤلاء بلغوا الاهلين وهكذا ذاع خبر بونايرت في سائر القطر . وكان كلاير بالحقيقة أولى من سائر قواد تلك الحملة بذلك المنصب لانه كان أفضلهم حزمًا وعقلا وهبة واثقة وبسالة

فقد ظهر لك مما تقدم ان الحملة الفرنسية لم يكن القصد منها غير الاحتلال الدائم . ذلك كان قصد بونايرت . أما كلاير فلم يكن ذلك رأيه وانما كان ينظر الى مصر نظره الى بلاد لا تصلح لسكنى الفرنسيين لما بينها وبين بلادهم من اختلاف الهواء والعادات والاخلاق فضلا عن انه لم يكن يرى امكان استمرار الحال على ما تركها بونايرت ولذلك بادر عند استلامه أزمة القيادة الى اطلاق فرنسا على حالة مصر عند خروج بونايرت فكتب اليها يقول :

رأي كلاير بمصر

« قد سافر بونايرت الى فرنسا في الفروكيدور السادس بدون أن يعلن أحداً لكنه أرسل إلي كتاباً وآخر للصدر الاعظم ارسله الى الاستانة مع علمه أنه وصل الى دمشق . أما أعداؤنا الآن فليسوا المالك فقط وانما هم ثلاث دول عظمى : الباب العالي وانكلترا وروسيا . أما جنودنا فقد أصبحوا نصف ما كانوا يوم قدومهم

الى مصر مبعثرين في أنحاء القطر من العريش والاسكندرية الى اصوان . أما معداتهم فغير كافية لهم لان معامل الاسلحة والبارود معطلة . ومثل ذلك الالبسة فقد أصبحت رجالنا لاحتياجهم الى الالبسة معرضين لاوبئة البلاد . وزد على ذلك اتنا خسرنا ١٢ مليوناً من الفرنكات بسبب تضمين الضرائب غير الاعتيادية بامر بوناپرت . نعم ان الممالك تشتتوا لكنهم لم يبيدوا . هذا مراد بك ما أنفك في مصر العليا في كثرة من الرجال يمكنه بهم أن يشغل قسماً من جنودنا لمدة طويلة . وهذا الصدر الاعظم جاء بحملة عثمانية لناهضتنا وقد سار من دمشق الى عكا . أما حصوننا واستحكاماتنا فلا زبدنا قوة — ان حصن العريش لا يدفع مهاجماً والاسكندرية أشبه بمعسكر محاط بزرية . فأفضل ما يمكنني اجراؤه والحالة هذه مخافة الباب العالي لعلنا نصل الى وفاق فيه خير لنا . وقد علمت الآن ان عمارة عثمانية رست أمام دمياط »

حمة اخرى لاجراج الفرنسيين

الا ان كلابر مع ذلك لم يتقاعد عن تنظيم الاحوال واكتساب ثقة الاهلين وجمع العوائد والمكوس لدفع مرتبات الجند على حين انه لم يكن ممن يريدون احتلال مصر أو استعمارها بل كان يفضل الانسحاب منها على شروط لا يكون فيها عار على دولته ولكن الاحوال لم تنله ما نواه لان الدولة العلية عادت الى استخراج هذا القطر السعيد من أيدي الفرنسيين بالقوة فارسات الصدر الاعظم يوسف باشا بنفسه الى دمشق بجند عظيم يسيره عن طريق البر الى القاهرة وجنداً آخر يسير بحراً في عمارة السير سدي سميت باتفاق مع انككترا لمطاوله الفرنسيين من جهة البحر ليسهل على حملة البر المسير في داخلية القطر . فسار جند البحر الى دمياط ونزل في قلعة قديمة شرقي البوغاز فاخرجتهم منها الجنود الفرنسية

أما الصدر الاعظم يوسف باشا فقدم يافا بحملته ثم جعل يتخبر مع كلابر في وفاق ينتهون اليه فاتهت الخابرة بمؤتمر عقد في العريش مؤلف من الصدر الاعظم من العثمانيين والجزال ديزه والمسيو بوسيلك من الفرنسيين أقر على معاهدة صالح امضيت في ١٢ جمادى الآخرة سنة ١٢١٤ هـ أو ٣ دسمبر (ك ١) سنة ١٧٩٩ م غير ان هذه المعاهدة لم يطل بقاؤها لان العثمانيين خرقوها بمهاجمتهم العريش في ٢ رجب أو ٢٣ دسمبر (ك ١) وهي تحت قيادة الكولونيل كازال وكان من البسالة على جانب عظيم فأحب الاهلون التسليم فآبى وأصر على الدفاع الى آخر نسمة من حياته ولم تكن العريش من المناعة على شيء فدخلها العثمانيون واستولوا عليها فاتصل

ذلك بالجزال كلابر فاغتاز جداً وكتب الى السير سدي يعثفه مع علمه ببراءته
معاهدة الصلح

فعاذت المحابر وعقد مؤتمر ثان في ٤ شعبان سنة ١٢١٤ او ٢٤ يناير (ك ٢) سنة ١٨٠٠ م في العريش مؤلف من ديزه وبوسيلك من الفرنسيين واثنين من العثمانيين وأقروا على معاهدة عرفت بمعاهدة العريش مقتضاها انسحاب الفرنسيين بمؤتمهم وذخائرهم عن طريق رشيد والاسكندرية وأبي قير الى فرنسا انسحاباً قانونياً بكل ما لديهم

فسر كلابر لتلك المعاهدة لاعتقاده ان انسحابه على هذه الصورة لا يمس شرف دولته . ولما شاع خبر تلك المعاهدة بمصر فرح الاهلون عموماً وكذلك الجنود الفرنسية لأنهم لم يكونوا راضين بالمقام في بلاد تخالف بلادهم اقليماً واخلاقاً ومعيشة فضلاً عما كانوا يقاسونه من عصيان الاهلين وسفك الدماء . فضرب كلابر على البلاد ضريبة غير اعتيادية مقدارها ثلاثة آلاف كيس لتنفقات الجيش في نقل المهات وصدرت الاوامر بالتأهب للرحيل . فباع الفرنسيون كل ما يصعب حمله من متاعهم وبعث كلابر الى الجنود المتفرقة في جهات الصعيد بالقدوم الى مصر . واطمان الممالك الذين كانوا قد فروا من وجه الفرنسيين فعادوا الى القاهرة بنسائهم وأولادهم . ثم نهض الصدر الاعظم بحيشه نحو القاهرة حتى اذا أتى بليس سار علماء مصر ومشايخها باذن من كلابر لملاقاته وتقديم واجب العبودية لجلالة السلطان فسر الصدر الاعظم بهم وخلع عليهم

نقض المعاهدة

وبينا الحال كذلك ورد للجزال كلابر كتاب من السير سدي مآله نقض معاهدة العريش وتعرييه ملخصاً :

« سيدي . اعلم حضرتكم اني قد تشرفت باوامر شاهانية تمنع عقد أية معاهدة مع الخيوش الفرنسية التي هي تحت قيادتكم في مصر وسوريا الا اذا سلموا أنفسهم وسلاحهم كما يفعل أسراء الحرب مع التخلي عن كل المراكب والمؤن التي لهم في الاسكندرية »

على ان السير سدي نفسه لم يكن يرى الا البقاء على المعاهدة لكن دولته حملت الباب العالي على اصدار هذه الاوامر . وقد كتب السير سدي الى دولته يظهر رأيه ويبين أوجه الخطأ التي اتتها بذلك النقض ولم يحصل نتيجة . أما كلابر فاستشاط

غضباً لذلك ولم يكن جوابه الا الحرب فأسرع الى احتلال الطوابي على الروابي خارج القاهرة وتعزيزها بما يلزم من العدة والرجال . وكان يوسف باشا قد أصبح على مقربة من القاهرة ومعه الحيوش العثمانية فكتب الى المشايخ والعلماء يستحثهم على اخراج الفرنسيين من بلادهم

فعقد الجنرال كلاير مؤتمراً حريياً قال فيه : « ان الدولة العثمانية قد سهلت انسحابنا فوقف الانكاز في طريقنا فعلينا محاربتهم » ثم بعث الى الصدر الاعظم بعزمه على الحرب وحشد جيشه خارج القاهرة وكانت مقدمة الجنود العثمانية بقيادة ناصيف باشا أحد قواد الحملة معسكرة في المطرية النيل الى يمينها والصحراء الى يسارها ووراء ذلك الخانقاه وفيها باقي الجيش بقيادة يوسف باشا وعددهم نحو من اربعين ألفاً أو تزيد وانضم اليهم الانكشارية والماليك تحت قيادة ابراهيم بك . فالتقى كلاير بمقدمة العثمانيين فتقهقرت بعد الدفاع الحسن وفر ناصيف باشا وبعض الماليك لجهة القاهرة فقدم كلاير برجاله فظهر له عن بعد غبار عجاج في سهل بين قريتين وهما سرياقوس الى اليسار والرج الى اليمين . ثم انقشع الغبار عن الجنود العثمانية قادمة من الخانقاه لملاقاة الفرنسيين فالتقى الفريقان وانتشبت الحرب فدافعت الجنود العثمانية دفاعاً حسناً معهوداً بالرجال العثمانيين الا انهم اضطروا أخيراً الى التقهقر نحو الخانقاه فتبعهم الفرنسيون فخرجوا منها وما زالوا حتى تجاوزوا الصاحية فوصلها كلاير فراحا خالية فاستولى على ما كان فيها

ثورة اهل القاهرة

أما أهل القاهرة فلما علموا بمسير كلاير الى المطرية ناروا على من بقي في مصر من الفرنسيين وبعد الظهيرة أتاهم ناصيف باشا ومعه جماعة من الماليك المتقدم ذكرهم وقالوا انهم غلبوا الفرنسيين وجاؤا لاستلام المدينة باسم جلالة السلطان . فأمر ناصيف باشا أن يقتلوا من بقي في مصر من المسيحيين رغم كونهم من رعايا الدولة العلية . أما العساكر الفرنسيون الباقون في القاهرة فكانوا يدافعون بالامر الممكن . وطالت المذبحة في احياء المسيحيين من الاقباط والسوريين والافرنج الى أن جاء عثمان بك أحد ضباط العثمانيين الى ناصيف باشا قائلاً « ليس من العدالة أن تهرقوا دماء رعايا الدولة العلية فان ذلك مخالف للارادة السنية » وبث رجاله في المدينة لايقاف القتل

ثم تمكن الفرنسيون من احتلال القلعة وباقي الطوابي ولبثوا ينتظرون ما يكون من ناصيف باشا . فهاجم عليهم فأطلقوا عليه وعلى رجاله ناراً أرجعتهم الى أماكنهم

حتى لم يبق منهم في الازبكية رجل واحد واستمر اطلاق النار على المدينة من القلعة وباقي الطوابي الى منتصف الليل فوقع الرعب في قلوب الاهلين وهم المشايخ بالقرار فأمسكتهم الرعية قهراً . وكان في بعض بيوت المدينة مدافع فأخرجها الاهلون ورتبوها على هيئة بطارية أحاطوها بطاية وحظروا على الناس الخروج من تلك الطاية ولم يكن عندهم قنابل فاستخدموا عيار الموازين عوضاً عنها . وبعد مضي يومين على تلك الحال أنبى ناصيف باشا بقدم جند فرنساوي من جهة المطرية لتجدة حامية القاهرة فبعث اليهم سرية من الفرسان فلم ينالوا منهم مارباً فوصل الفرنسيون منادين بالتصارعهم في مواقعهم مع العثمانيين . وكانت المدينة برمتها في يد الوطنيين فحجز الفرنسيون عن الدخول اليها ثم جاءت نجدة أخرى ولم يستطيعوا اتحاد الثورة . ثم جاء الجنرال كلاير وقد كادت مؤن جيوشه في القاهرة تنفذ وخرج جميع المسيحيين من الاقباط والسوريين قارين من على السور طالين الالتجاء الى معسكر الفرنسيين ثم تضايق الاهلون لقلعة الماء لان الفرنسيين قطعوه عنهم

وفي ٢٧ شوال او ١٤ ابريل (نيسان) طلب كلاير الى سكان بولاق أن يسلموا فأجابوا انهم تابعون للمدينة بما يلحق بها فأطلق عليهم قنابل لا تزال بعض آثارها باقية الى هذه الغاية فسقطت البيوت ودخل الفرنسيون بولاق ولم يبقوا عليها نهياً وقتلاً فلما تأتى ذلك لكلاير خرج نحو المدينة بالمدافع والحراريق وكانت ليلة ممطرة اختلطت فيها أصوات المدافع بقصف الرعد وشرارها بلع البرق وهجمت العساكر على المدينة خاضعين في الاحوال يثبون من حائط الى آخر بين البيوت التي هدمتها مدافعهم وفي أيديهم خرق مبتلة بالزيت مشتعلة يرمونها ذات اليمين وذات اليسار لاحتراق المدينة فعلا الصباح من النساء والاطفال خوفاً من التيران حتى كانوا يلقون بأنفسهم عن الجدران والسطوح تخلصاً من اليبس

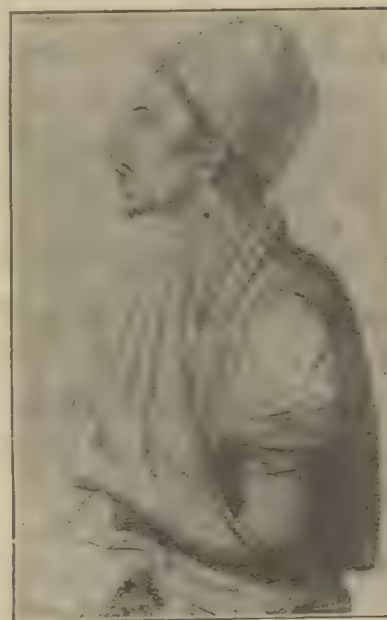
فهم ناصيف باشا بالقرار فتبعوه فدخل بيتاً لبعض ذويه واختفى . فأمر كلاير أن ينادى في الناس « وما النصر الا من عند الله وهو سبحانه وتعالى قد أمر الظافرين بالرفق وعليه فان الصاري عسكر ينفو عن أهل القاهرة وسائر البلاد المصرية عموماً ولو اتحدوا مع الاتراك فليرجع كل الى شأنه » فكف الناس عن القتال وهدأت الاحوال فبعث كلاير أن تنظف الاسواق وترفع الجثث وأمر أن تنور المدينة ثلاثة أيام احتفالاً بالنصر ودعا اليه العلماء والمشايخ وأعد لهم ولجبة حافلة وبعد يومين جمعهم في مجلسه وأخذ يعنفهم على ما أتوه من الخيانة فأجابه الشيخ المهدي « اتنا لم نأت خيانة أما اتحادنا مع

العثمانيين فكان بأمر منك » وحجر كلابر على خمسة عشر شيخاً لم يتركهم حتى أخذ منهم غرامة مقدارها ١٢ مليوناً من الفرنكات . وسكنت بعد ذلك الاحوال واظمانت القلوب

ثم علم مراد بلسر بما حل بالمدينة وما كان من نصرة الفرنسيين فأحب الانحياز الى الجانب الاقوى فجاء الى ضواحي القاهرة وكتب الى كلابر ثم اجتمع معه وتفاوضا فتعاهدا على الاتحاد وتهاديا هدايا فاخرة قولاه مصر العليا مكافأة لصدائه

مقتل كلابر

فاطمان كلابر من قبيل مصر بعد اتحاده مع الممالك وعظم في عيون الاهلين



ش ٤٧ : سليمان الحلي قاتل الجنرال كلابر

وسكن في بيت مراد بك في الحيزة وأمر بترميم الاماكن التي هدمت بسبب تلك الثورة وفي جملتها ديوان الجيش غربي الازبكية في اول شارع بولاق الى اليمين . وفي ١٤ يونيو (حزيران) سنة ١٨٠٠ م دعي كلابر الى غداء عند اركان حربه الجنرال داماس في منزله قرب ديوان الجيش . فبعد مناولة الطعام خرج كلابر والمسيو بروتين مهندس الحملة يمشيان في رواق (ممشى) موصل بين بيت الجنرال داماس والديوان

نحو الساعة الثانية بعد الظهر . فبينما كانا يتحدثان وثب رجل من آخر الرواق عليه ثوب خلق وفي يده خنجر طعن به صدر الجنرال كلابر فنادى الحرس وهجم بروتين على الرجل فقال منه مثلما نال من كلابر فسقط بروتين على الارض فتركه ذلك الشقي



ش ٤٨ : مقتل كلابر

وعاد الى كلابر وطعنه ثانية وثالثة حتى أجهز عليه ثم سمع ضجة ففر الى حديقة بالقرب من ذلك المكان واختبأ وراء الحائط . فلما أتى الحفر لم يروا الا ذنبك

الرجلين نخبطان بدمهما فخلاهما الى البيت وأتوا لها بالطبيب فمات كلاهما حالا اما بروتين فبقي تحت المعالجة

ونودي في المدينة بالقبض على ذلك الفاعل حيثما وجد وكان بروتين قد أفهمهم شيئاً عن ملائسه وشكله . وبعد يسير جيء برجل عليه لباس رث وأوقفوه أمام بروتين فعرفه وقال هذا هو الجاني . ثم قرر آخرون انهم رأوه منذ بضعة أيام يتردد بين البيوت ويختلط بخدمة الديوان

وبعد استطاقه بسبل مختلفة وجد ان اسمه سليمان الحلبي التي به أحد أغوات الانكشارية في بيت المقدس وكان قد ذهب الانكشاري اليها للتفتيش عن رجل يقدم على قتل كلاير . فخطب سليمان الحلبي بذلك فاجاب على شرط أن ينجي أباه في حلب من ضرائب فادحة يطلبها منه والي تلك الولاية . فجاء به الى غزة وهناك أناء بكتب توصية من آغا غزة لعملاء الازهر . فبرح سليمان غزة في ٨ مايو فوصل القاهرة في ١٤ فنزل في بيت مصطفى افندي لية ثم تمشى الى بعض العلماء قابو مشاركته بالجناية

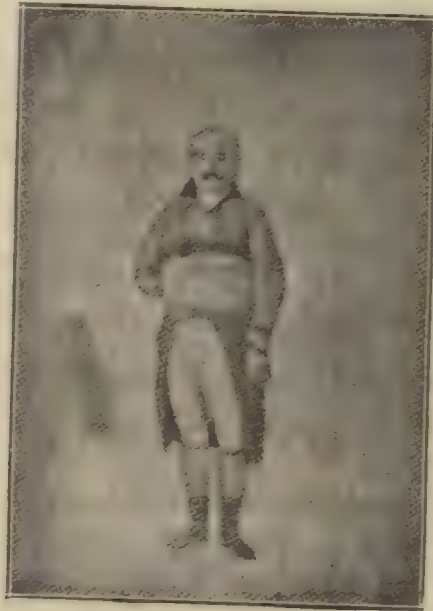
اما هو فلم يفك حتى اغتم تلك الفرصة وفعل ما فعل فاستدعي المشايخ المتهمون وهم ثلاثة وبلاستفهام منهم أجابوا انهم لم يروا الرجل ولم يعرفوه قبل تلك الساعة . ثم عين الجزال مينو لجنة لفحص القضية ففكت باعدام المشايخ الثلاثة لانهم عرفوا عزم القتل على القاتل ولم يخبروا عنه . اما القاتل فحكم عليه بالاعدام على الخازوق لكنهم أوقفوا تنفيذ الحكم بعد دفن الفقيه . فثبعت جنازته باحترام واحتفال ولما واروه التراب جاءوا بالجائزين وأعدموهم

الجزال مينو

وأقاموا على القيادة العامة بدلا من كلاير الجزال مينو وكان ممن يرغبون في البقاء بمصر فاسلم ودعى نفسه عبد الله وولد له غلام دعاه سليمان . ثم ظهر من تصرفه بالاحكام انه ليس على شيء من الهمة والدراية فسخر به الفرنسيون وكرهوه وكان ديوان القاهرة مؤلفاً من طائفتي المسلمين والمسيحيين فجعله من المسلمين فقط وهذه أسماء المشايخ الذين تألف منهم الديوان بأمر الجزال مينو وهم تسعة مع من يلحقهم :

الشيخ الشرقاوي رئيس الديوان والشيخ المهدي كاتب السر والشيخ الامير والشيخ الصاوي وكاتبه والشيخ موسى السرمي والشيخ خليل البكري . والسيد علي الرشيد نسيب صاري عسكر والشيخ الفيومي والقاضي الشيخ اسماعيل الزرقاوي .

وكاتب سلسلة التاريخ السيد اسماعيل الحشاش . والشيخ علي كاتب عربي . وقاسم افندي كاتب افرنجي . وترجمان كبير القس رفايل . وترجمان صغير الياس خورشامي . والوكيل الكماري فوريه ويقال له مدير سياسة الاحكام الشرعية . ومقدم وخمسة قواسة وأخذ مينو جانب المسلمين فعهد اليهم جباية الخراج بعد أن كانت في ايدي الاقباط . على ان ذلك كله لم يغير شيئاً من كره الوطنيين لتلك الامة الاعجمية التي جاءت لامتلاك بلادهم ومن جهة ما جرهم الى ذلك انه أعلن حماية فرنسا على مصر .



ش ٤٩ : الجزال مينو

وان مصر قد أصبحت مستعمرة فرنساوية . وشق ذلك على قواد الحملة فجاءوا اليه بصفه رسمية وبلغوه ان الجيش الفرنسي غير راض عن هذه البدع وان الجمهورية الفرنسية لا تقصد بحملتها على مصر ما قد صرح به هو فلم يجيبهم بشيء وانما وعدهم انه سينظر في ما قالوا

وكانت انكسرت لا تنفك عن السعي في اخراج الفرنسيين من مصر صيانة لمصالحها في الهند على الخصوص . فاعدت عمارة بحرية مؤلفة من ١٧٥ مركباً وخمسة عشر ألفاً من الرجال وارسلتها الى مصر بقيادة السير رالف ابركرومي فصار اليها

ودخل جون ابي قير في ٢ مارس (اذار) سنة ١٧٠١ م فشاهد آثار العمارات الفرنسية التي حطمتها عمارة نلسون . وفي ٧ منه نزل السير راف المذكور في قارب لاستكشاف الشاطئ ليختار محلاً ينزل فيه الجيش . وفي ٩ منه شرعت الجنود الانكليزية بالنزول الى البر فاطلق عليهم من الزمّل عدة قنابل من طاية تحصن فيها متسلم الاسكندرية بالف وخمماية رجل اما الانكليز . فلم يكثرثوا بذلك بل استمروا على النزول بسرعة والقنابل تتساقط حول قواربهم حتى امتلكوا البر ولم يلحقهم الا ضرر يسير

ثم شخصوا الاسكندرية فلاقاهم الفرنسيون باربعة آلاف وخمسمائة مقاتل وفيهم حامية الرحمانية . وانتشبت الحرب بين الطرفين طول ذلك النهار ولم يظهر أحد منها . وكانت خسائر الفرنسيين خمماية رجل والانكليز ألفاً ومائة . ومما أعاق الانكليز قلة فرسانهم فعسكروا بجوار الاسكندرية وبنوا الطوابي والحدائق وحفروا آباراً لاستخراج الماء . اما القاهرة فكانت على عهدك بها لقساد سياسة مينو . وفي ٤ مارس وصلته الاخبار بوصول العمارات الانكليزية الى ابي قير فبدلاً من الاسراع في النجدة جعل يتوهم أوهاماً لا طائل تحتها . وبعد اللتيا والتي بعث فرقة الى بليس وأخرى الى دمياط وأخرى الى ابي قير براً وأخرى في النيل

بجي الانكليز الى مصر

وفي ١١ منه جاءته الاخبار باحتلال الانكليز ابا قير وهجومهم على الاسكندرية فارتبك في امره فجمع اليه مشايخ الديوان وقال انه ذاهب الى السواحل وقد استخلف الجزال يليارد مكانه وزعم ان سبب ذهابه قدوم بعض المالطية والايطالين الى ابي قير ثم استقدم الفرقة التي أرسلها الى بليس وأمر من بقي من الجيش في مصر أن يسيروا الى الرحمانية . فبرح مينو القاهرة في ١٢ منه لكنه لم يصل الاسكندرية الا في ١٩ منه وقد تحصن الانكليز محصناً لا يقوى هو على مقاومته فاستشار قواده فأشاروا عليه بالهجوم على ذلك الحصن الايمن لانه أقوى حصونهم لكنه لم يجسر على ذلك نهراً فجهم ليلاً فلم ينجح

وفي اليوم التالي ٢١ مارس (اذار) أمر أن تهجم الجيوش كلها دفعة واحدة باكرأ بلا ضرب النفير وكان الانكليز في بقطة تامة في الساعة الثالثة بعد نصف الليل سمعوا دوي المدافع عن يسارهم فوجهوا نيرانهم نحوها ثم سمعوا مثلها عن يمينهم فأجابوا بمثلها وبعد معركة كبيرة تفهقر الفرنسيون مجانبه ففهم ابر كرومي غرضهم من ذلك فعزز

مينة معسكره واتخذ قيادتها بنفسه فأصيب بجرح قتال ألقاه على الصعيد فقدم السير سدني سميت وانفضه وما زالت الحرب قائمة حتى الساعة الحادية عشرة قبل الظهر وقد قتل كثير من الضباط الفرنسيين . فأمر الجزال مينو بالراحة فصادت رجاله وعدد قتلاهم وجرحاهم نحو ألفين اما خسائر الانكليز فكانت ٢٤٠ قتيلاً و ١٢٥٠ جريحاً من جملةهم السير رالف ابر كرومي فنقلوه الى احدى الدوارع فعاش بضعة أيام وتوفي فتحولت قيادة العمارات الى الجزال هتشنسون

نجدة العثمانيين للانكليز

وفي ٢٥ مارس (اذار) جاءت الانكليز بنجدة عثمانية بقيادة حسين قبطان باشا . فرأى الجزال هتشنسون أن يبعث اربعة آلاف من الجنود العثمانيين وفرقتين من الانكليز وثمانية مدافع بقيادة الكولونل سبنسر لاحتلال رشيد . فاتصل ذلك بالجزال مينو فأرسل اركان حربيه لاستطلاع قوة تلك التجريدة فقدرها أقل مما هي كثيراً فاستخف بها فلم يجد رشيداً

أما الكولونل سبنسر فما زال ساراً حتى أتى رشيداً فدخلها بسلام ولما استقر بها بعث الطوبجية بمدافعهم لضرب حصن جوليان وفيه حامية من الفرنسيين فضيقوا عليهم حتى سلموا فامنهم ثم أخرجوهم من الحصن . فاتصل ذلك بحامية الرحمانية فاستمدت الجزال يليارد في القاهرة فاجاب معتذراً بعدم امكانه الاستغناء عن لديه من الجنود فبعثت الى مينو في الاسكندرية فامدها بما استطاع

فأصبحت الجيوش الفرنسية بذلك أقساماً متفرقة لا تقوى على دفاع : الجزال يليارد بالقاهرة في خمسة آلاف يتأهب لدفع الجيوش العثمانية القادمة بطريق الصحراء بقيادة الصدر الاعظم يوسف باشا . وحامية الرحمانية لما بلغها سقوط رشيد خارت قواها والجزال مينو كان محاصراً في الاسكندرية لا يدي حراكاً وقد ضايقه الانكليز بقطع الجسر الفاصل بين الملاحة وبحيرة مريوط وزد على ذلك أنهم قطعوا المياه عن الاسكندرية فلم يبق عنده الا مياه الصحاريج

أما الجنود العثمانية والانكليزية فبعد أن احتلوا رشيداً صعدوا في النيل في ٨ مايو (ايار) حتى أتوا العطف فاستلوهما ثم ساروا الى الرحمانية واستولوا عليها أيضاً فقررت الجنود الفرنسية الى القاهرة وأعلموا يليارد بما كان فأمر بعقد مجلس حربي للمفاوضة بالدفاع النهائي لان العدو تكاثف عليهم : هتشنسون من الجهة الواحدة والصدر الاعظم

يوسف باشا من الجهة الاخرى وكان قد استولى على دمياط وسار قاصداً القاهرة في ثلاثين الف مقاتل حتى عسكر في بليس في ١١ مايو (ايار) . أما مراد بك فبعد محالفته الفرنسيين على ما تقدم توفي وتولى مكانه على الصعيد عثمان بك البرديسي فلما علم هذا بقدم العثمانيين والانكليز نقض التحالف

فلما اجتمع المجلس الحربي تفاوضوا في جميع ذلك فأرأوا ان الجيوش الفرنسية الموجودة في القاهرة وفي جملتها حامية الرحمانية لا تزيد على اثني عشر ألفاً نصفهم جرحى ومرضى وليس لديهم من المال الا اليسير . فلم ير يليارد حل هذا المشكل الا وجهين اما أن يسير بما لديه من الجند في النيل لملاقاة مينو فيتكاتفان على الدفاع أو ان يسير الى دمياط . ولم يبدأ على الحالين من اخلاء القاهرة وكان يفضل المسير الى دمياط لأنها تصلح للحصار اذا طال . وفيها من الحاصلات ما يقوم باحتياجات جيشه وهو في الحالين عالم بجزءه عن مناهضة عدوه

ثم حدثته نفسه أن يلاقي الجنود العثمانية والانكليزية جميعاً عند اقترابهم من القاهرة . فخرج في خمسة آلاف في ١٦ مايو (ايار) متسللاً بكلاير وعسكر في نقاب فوصلت اليه مقدمة جيوش يوسف باشا فلم يستطع الوقوف أمامها فعاد الى القاهرة

انسحاب الفرنسيين من مصر

وفي ٢٣ مايو وصل هتشنسون الى طرامة فقطع رعة منوف وسار بنفسه الى معسكر يوسف باشا وفأوضه في الطريقة التي يجب اتخاذها لاتمام مشروعهم فأقروا على طريقة . ثم عاد هتشنسون الى طريقه وسار في رجاله على فرع النيل الغربي حتى أتى الحيزة في ٣٠ منه وواصل يوسف باشا سيره من الجهة الاخرى فاحصر يليارد في القاهرة لا يستطيع حراكاً ف عقد مجلساً حروبياً أقر فيه على تسليم المدينة والانسحاب نحو الاسكندرية أو دمياط فبعث الى معسكر الانكليز مندوباً بشأن ذلك وبعد الخاطرة تقرر أن تنسحب الجيوش الفرنسية الموجودة في القاهرة انسحاباً قانونياً بما لديهم من الميهات والاسلحة الى فرنسا وأن يكون ذلك على نفقة الانكليز وكتب بذلك معاهدة أمضيت في ٢٥ يونيو (حزيران) سنة ١٨٠١ وتبثت في ٢٦ منه على أن تنفذ بعد ١٥ يوماً

ففي ١٠ يوليو (تموز) (٤ ربيع اول سنة ١٢١٦ هـ) برح يليارد القاهرة ومعه ١٣٧٣٤ من العساكر والضباط قاصدين رشيداً على أن يسافروا منها الى فرنسا

حتى لم يبق منهم في الازبكية رجل واحد واستمر اطلاق النار على المدينة من القلعة وباقي الطوابي الى منتصف الليل فوق الرعب في قلوب الاهلين وهم المشايخ بالقرار فأمسكتهم الرعية قهراً . وكان في بعض بيوت المدينة مدافع فأخرجها الاهلون ورتبوها على هيئة بطارية أحاطوها بطاية وحظروا على الناس الخروج من تلك الطاية ولم يكن عندهم قابل فاستخدموا عيار الموازين عوضاً عنها . وبعد مضي يومين على تلك الحال أتى ناصيف باشا بقدم جند فرنساوي من جهة المطرية لتجدة حامية القاهرة فبعث اليهم سرية من الفرسان فلم ينالوا منهم مارباً فوصل الفرنسيون منادين بامتصارهم في مواقعهم مع العثمانيين . وكانت المدينة برمتها في يد الوطنيين فعجز الفرنسيون عن الدخول إليها ثم جاءت نجدة أخرى ولم يستطيعوا اخذ الثورة . ثم جاء الجنرال كلاير وقد كادت مؤن حيوشه في القاهرة تنفذ وخرج جميع المسيحيين من الاقباط والسوريين فارين من على السور طالين الاتجاه الى معسكر الفرنسيين ثم تضايق الاهلون لقلّة الماء لان الفرنسيين قطعوه عنهم

وفي ٢٧ شوال او ١٤ ابريل (نيسان) طلب كلاير الى سكان بولاق أن يسلموا فأجابوا انهم تابعون للمدينة بما يلحق بها فأطلق عليهم قابل لا تزال بعض آثارها باقية الى هذه الغاية فسقطت البيوت ودخل الفرنسيون بولاق ولم يبقوا عليها نهياً وقتلا فلما تأتى ذلك لكلاير عرج نحو المدينة بالدافع والحراريق وكانت ليلة ليلاء ممطرة اختلطت فيها أصوات المدافع بقصف الرعد وشرارها بلع البرق وهجست العساكر على المدينة خائضين في الاحوال يثبون من حائط الى آخر بين البيوت التي هدمتها مدافعهم وفي أيديهم خرق مبتلة بالزيت مشتعلة يرمونها ذات النيران وذات اليسار لاحراق المدينة فعلا الصباح من النساء والاطفال خوفاً من النيران حتى كانوا يلقون بأنفسهم عن الجدران والسطوح تخلصاً من اللهب

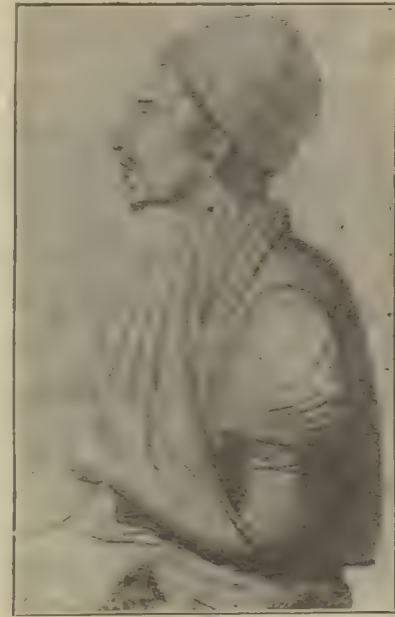
فهم ناصيف باشا بالقرار فتبعوه فدخل بيتاً لبعض ذويه واختفى . فأمر كلاير أن ينادى في الناس « وما النصر الا من عند الله وهو سبحانه وتعالى قد أمر الظافرين بالرفق وعليه فان الصاري عسكر يعفو عن أهل القاهرة وسائر البلاد المصرية عموماً ولو انحذوا مع الاتراك فليرجع كل الى شأنه » فكف الناس عن القتال وهدأت الاحوال فبعث كلاير أن تنظف الاسواق وترفع الجثث وأمر أن تنور المدينة ثلاثة أيام احتفالاً بالنصر ودعا اليه العلماء والمشايخ وأعد لهم وليمة حافلة وبعد يومين جمعهم في مجلسه وأخذ يعنفهم على ما أتوه من الخيانة فأجابه الشيخ المهدي « اتنا لم نأت خيانة أما اتحادنا مع

العثمانيين فكان بأمر منك » وحجر كلابر على خمسة عشر شيخاً لم يتركهم حتى أخذ منهم غرامة مقدارها ١٢ مليوناً من الفرنكات . وسكنت بعد ذلك الأحوال واطمأنت القلوب

ثم علم مراد بك بما حل بالمدينة وما كان من نصرة الفرنسيين فأحب الانحياز الى الجانب الاقوى فجاء الى ضواحي القاهرة وكتب الى كلابر ثم اجتمع معه وتفاوضا فتعاهدا على الاتحاد وتهاديا هدايا فاخرة فولاه مصر العليا مكافأة لصداقته

مقتل كلابر

فاطمان كلابر من قبيل مصر بعد اتحاده مع المالك وعظم في عيون الاهلين



ش ٤٧ : سليمان الحلبي قاتل الجنرال كلابر

وسكن في بيت مراد بك في الحيزة وأمر بترميم الاماكن التي هدمت بسبب تلك الثورة وفي جملتها ديوان الجيش غربي الازبكية في اول شارع بولاق الى اليمين . وفي ١٤ يونيو (حزيران) سنة ١٨٠٠ م دعي كلابر الى غداء عند اركان حربه الجنرال داماس في منزله قرب ديوان الجيش . فبعد مناولة الطعام خرج كلابر والمسيو بروتين مهندس الحملة يتمشيان في رواق (ممشى) موصل بين بيت الجنرال داماس والديوان

نحو الساعة الثانية بعد الظهر . فبينما كانا يتحادثان ومب رجل من آخر الرواق عليه ثوب خلق وفي يده خنجر طعن به صدر الجنرال كلابر فنادى الحرس وهجم بروتين على الرجل فقال منه مثلما نال من كلابر فسقط بروتين على الارض فتركه ذلك الشقي



ش ٤٨ : مقتل كلابر

وعاد الى كلابر وطعنه ثانية وثالثة حتى أجهز عليه ثم سمع ضجة ففر الى حديقة بالقرب من ذلك المكان واختبأ وراء الحائط . فلما أتى الحفر لم يروا الا ذينك

الرجلين مخبطان بدمهما خملهما الى البيت وأتوا لها بالطبيب فأت كلاهما حالا اما بروتين فبقي تحت المعالجة

ونودي في المدينة بالقبض على ذلك الفاعل حيثما وجد وكان بروتين قد أفهمهم شيئاً عن ملابسه وشكله . وبعد يسير جيء برجل عليه لباس رث وأوقفوه أمام بروتين فعرفه وقال هذا هو الجاني . ثم قرر آخرون أنهم رأوه منذ بضعة أيام يتردد بين البيوت ويختلط بخدمة الديوان

وبعد استطاقه بسبل مختلفة وجد ان اسمه سليمان الحلبي التقي به أحد أغوات الانكشارية في بيت المقدس وكان قد ذهب الانكشاري اليها للتفتيش عن رجل يقدم على قتل كلاير . فخطب سليمان الحلبي بذلك فاجاب على شرط أن ينجي أباه في حلب من ضرائب قاذحة يطلبها منه والي تلك الولاية . فجاء به الى غزة وهناك أتاه بكتب توصية من آغا غزة لعلماء الازهر . فبرح ساجان غزة في ٨ مايو فوصل القاهرة في ١٤ فنزل في بيت مصطفى أفندي ليله ثم تمشى الى بعض العلماء قابو مشاركته بالجناية

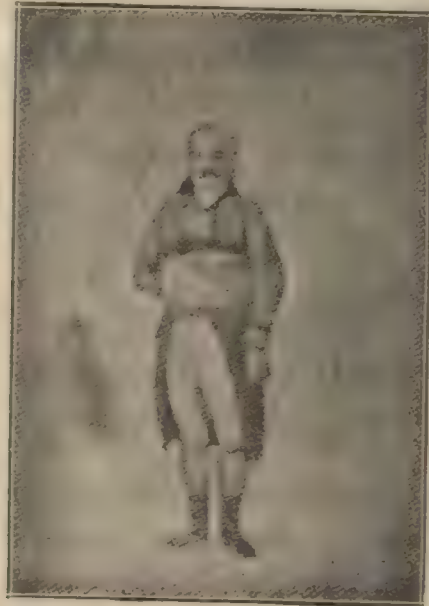
اما هو فلم ينفك حتى اغتم تلك الفرصة وفعل ما فعل فاستدعي المشايخ المتهمون وهم ثلاثة وبلاستفهام منهم أجابوا أنهم لم يروا الرجل ولم يعرفوه قبل تلك الساعة . ثم عين الجزال مينو لجنة لفحص القضية فحكمت باعدام المشايخ الثلاثة لانهم عرفوا عزم القتل على القاتل ولم يخبروا عنه . اما القاتل فحكم عليه بالاعدام على الحازوق لكنهم أوقفوا تنفيذ الحكم لبعد دفن الفقيد . فشيّعوا جنازته باحترام واحتفال ولما واروه التراب جاثوا بالجائين وأعدموهم

الجزال مينو

وأقاموا على القيادة العامة بدلا من كلاير الجزال مينو وكان ممن يرغبون في البقاء بمصر فاسلم ودعى نفسه عبد الله وولد له غلام دعاه سليمان . ثم ظهر من تصرفه بالاحكام انه ليس على شيء من الهمة والدراية فسخر به الفرنسيون وكرهوه وكان ديوان القاهرة مؤلفاً من طائفتي المسلمين والمسيحيين فجعله من المسلمين فقط وهذه أسماء المشايخ الذين تألف منهم الديوان بأمر الجزال مينو وهم تسعة مع من يلحقهم :

الشيخ الشرقاوي رئيس الديوان والشيخ المهدي كاتب السر والشيخ الامير والشيخ الصاوي وكاتبه والشيخ موسى السرمسي والشيخ خليل البكري . والسيد علي الرشدي نسيب صاري عسكر والشيخ الفيومي والفاضي الشيخ اسماعيل الزرقاوي .

وكاتب سجنلة التاريخ السيد اسماعيل الخشاب . والشيخ علي كاتب عربي . وقاسم أفندي كاتب افرنجي . وترجمان كبير القس رفائيل . وترجمان صغير الياس فخر الشامي . والوكيل الكساري فوريه ويقال له مدير سياسة الاحكام الشرعية . ومقدم وخمسة قواسة وأخذ ميو جانب المسلمين فعهد اليهم جباية الخراج بعد أن كانت في ايدي الاقباط . على ان ذلك كله لم يغير شيئاً من كره الوطنيين لتلك الامة الاعجمية التي جاءت لامتلاك بلادهم ومن جهة ما جرهم الى ذلك انه أعلن حماية فرنسا على مصر .



ش ٤٩ : الجزال مينو

وان مصر قد أصبحت مستعمرة فرنساوية . وشق ذلك على قواد الحملة فجاءوا اليه بصفه رسمية وبلغوه ان الجيش الفرنسي غير راض عن هذه البدع وان الجمهورية الفرنسية لا تقصد بحملتها على مصر ما قد صرح به هو فلم يجيبهم بشيء وانما وعدمه انه سينظر في ما قالوا

وكانت انكسرت لا تتفك عن السعي في اخراج الفرنسيين من مصر صيانة لمصالحها في الهند على الخصوص . فاعدت عمارة بحرية مؤلفة من ١٧٥ مركباً وخمسة عشر الفاً من الرجال وارسلتها الى مصر بقيادة السير رلف ابر كرومي فسار اليها

ودخل جون ابي قير في ٢ مارس (اذار) سنة ١٧٠١ م فشهد آثار العمارات الفرنسية التي حطمها عمارة نيلسون . وفي ٧ منه نزل السير راف المذكور في قارب لاستكشاف الشاطئ ليختار محلاً ينزل فيه الجيش . وفي ٩ منه شرعت الجنود الانكليزية بالنزول الى البر فاطلق عليهم من الرمل عدة قنابل من طاية تحصن فيها متسلم الاسكندرية بالقب وخمسية رجل اما الانكليز . فلم يكثرثوا بذلك بل استمروا على النزول بسرعة والقنابل تنساقط حول قواربهم حتى امتلكوا البر ولم يلحقهم الا ضرر يسير

ثم شخصوا الاسكندرية فلاقاهم الفرنسيون باربعة آلاف وخمسمائة مقاتل وفيهم حامية الرحمانية . وانتشبت الحرب بين الطرفين طول ذلك النهار ولم يظهر أحد منهما . وكانت خسائر الفرنسيين خمسية رجل والانكليز ألفاً ومائة . وما أعاق الانكليز قلة فرسانهم فمكروا بجوار الاسكندرية وبنوا الطواني والحدائق وحفروا آباراً لاستخراج الماء . اما القاهرة فكانت على عهدك بها لفساد سياسة مينو . وفي ٤ مارس وصلته الاخبار بوصول العمار الانكليزية الى ابي قير فبدلاً من الاسراع في التجدة جعل يتوهم أوهاماً لا طائل تحتها . وبعد التليا والتي بعث فرقة الى بليس وأخرى الى دمياط وأخرى الى ابي قير برأ وأخرى في النيل

يجيء الانكليز الى مصر

وفي ١١ منه جاءته الاخبار باحتلال الانكليز ابا قير وهجومهم على الاسكندرية فارتبك في امره فجمع اليه مشايخ الديوان وقال انه ذاهب الى السواحل وقد استخلف الجنرال يليارد مكانه وزعم ان سبب ذهابه قدوم بعض المالطية والايطالين الى ابي قير ثم استقدم الفرقة التي أرسلها الى بليس وأمر من بقي من الجيش في مصر أن يسيروا الى الرحمانية . فبرح مينو القاهرة في ١٢ منه لكنه لم يصل الاسكندرية الا في ١٩ منه وقد تحصن الانكليز محصناً لا يقوى هو على مقاومته فاستشار قواده فأشاروا عليه بالهجوم على ذلك الحصن الايمن لانه أقوى حصونهم لكنه لم يجسر على ذلك نهراً فهجم ليلاً فلم ينجح

وفي اليوم التالي ٢١ مارس (اذار) أمر أن تهجم الحيوش كلها دفعة واحدة باكرأ بلا ضرب النفي وكان الانكليز في بقطة تامة ففي الساعة الثالثة بعد نصف الليل سمعوا دوي المدافع عن يسارهم فوجهوا نيرانهم نحوها ثم سمعوا مثلها عن يمينهم فأجابوا بمثلاً وبعد معركة كبيرة تقهقر الفرنسيون مجانة ففهم ابر كرومي غرضهم من ذلك فعزز

مينة معسكره واتخذ قيادتها بنفسه فأصيب بجرح قتال ألقاه على الصعيد فقدم السير سدي سميت وانفضه وما زالت الحرب قاعة حتى الساعة الحادية عشرة قبل الظهر وقد قتل كثير من الضباط الفرنسيين . فأمر الجنرال مينو بالراحة فعادت رجاله وعدد قتلاهم وجرحاهم نحو ألفين اما خسائر الانكليز فكانت ٢٤٠ قتيلاً و ١٢٥٠ جريحاً من حملتهم السير راف ابر كرومي فنقلوه الى احدى الدوارع فعاش بضعة أيام وتوفي فتحولت قيادة العمار الى الجنرال هتشنسون

نجدة العثمانيين للانكليز

وفي ٢٥ مارس (اذار) جاءت الانكليز بنجدة عثمانية بقيادة حسين قبطان باشا . فرأى الجنرال هتشنسون أن يبعث اربعة آلاف من الجنود العثمانيين وفرقتين من الانكليز وثمانية مدافع بقيادة الكولونل سبنسر لاحتلال رشيد . فاتصل ذلك بالجنرال مينو فأرسل اركان حربه لاستطلاع قوة تلك التجريدة فقدرها أقل مما هي كثيراً فاستخف بها فلم ينجد رشيداً

أما الكولونل سبنسر فزال ساراً حتى أتى رشيداً فدخلها بسلام ولما استقر بها بعث الطوبجية بمدافعهم لضرب حصن جوليان وفيه حامية من الفرنسيين فضيقوا عليهم حتى سلموا فأنوهم ثم أخرجوهم من الحصن . فاتصل ذلك بحامية الرحمانية فاستمدت الجنرال يليارد في القاهرة فاجاب معتذراً بعدم امكانه الاستغناء عن لديه من الجنود فبعث الى مينو في الاسكندرية فامدها بما استطاع

فاصبحت الحيوش الفرنسية بذلك أقساماً متفرقة لا تقوى على دفاع : الجنرال يليارد بالقاهرة في خمسة آلاف يتأهب لدفع الحيوش العثمانية القادمة بطريق الصحراء بقيادة الصدر الاعظم يوسف باشا . وحامية الرحمانية لما بلغها سقوط رشيد خارت قواها والجنرال مينو كان محاصراً في الاسكندرية لا يبيدي حراكاً وقد ضايقه الانكليز بقطع الجسر الفاصل بين الملاحة وبحيرة مريوط وزد على ذلك أنهم قطعوا المياه عن الاسكندرية فلم يبق عنده الا مياه الصحاريح

أما الجنود العثمانية والانكليزية فبعد أن احتلوا رشيداً صعدوا في النيل في ٨ مايو (ايار) حتى أتوا العطف فاستلموها ثم ساروا الى الرحمانية واستولوا عليها أيضاً ففرت الجنود الفرنسية الى القاهرة وأعلموا يليارد بما كان فأمر بعقد مجلس حربي للمفاوضة بالدفاع النهائي لان العدو تكاثر عليهم : هتشنسون من الجهة الواحدة والصدر الاعظم

يوسف باشا من الجهة الاخرى وكان قد استولى على دمياط وسار قاصداً للقاهرة في ثلاثين ألف مقاتل حتى عسكر في بليس في ١١ مايو (ايار). أما مراد بك فبعد محالفته الفرنسيين على ما تقدم توفي وتولى مكانه على الصعيد عثمان بك البرديسي فلما علم هذا بقدم العثمانيين والانكليز تقض الحالفة

فلما اجتمع المجلس الحربي تفاوضوا في جميع ذلك فأرأوا ان الجيوش الفرنسية الموجودة في القاهرة وفي جملتها حامية الرحمانية لا يزيد على اثني عشر ألفاً نصفهم جرحى ومرضى وليس لديهم من المال الا اليسير. فلم ير بيلارد حل هذا المشكل الا وجهين اما أن يسير بما لديه من الجند في النيل لملاقاة مينو فيتكاتفان على الدفاع أو ان يسير الى دمياط. ولم يربداً على الحالين من اخلاء القاهرة وكان يفضل المسير الى دمياط لأنها تصلح للحصار اذا طال. وفيها من الحاصلات ما يقوم باحتياجات جيشه وهو في الحالين عالم بعجزه عن مناهضة عدوه

ثم حدثته نفسه أن يلاقي الجنود العثمانية والانكليزية جميعاً عند اقترابهم من القاهرة. فخرج في خمسة آلاف في ١٦ مايو (ايار) متمثلاً بكلاير وعسكر في نقاب فوصلت اليه مقدمة جيوش يوسف باشا فلم يستطع الوقوف أمامها فعاد الى القاهرة

انسحاب الفرنسيين من مصر

وفي ٢٣ مايو وصل هتشنسون الى طرامة فقطع رعة منوف وسار بنفسه الى معسكر يوسف باشا وفأوضه في الطريقة التي يجب اتخاذها لاتمام مشروعهم فأقروا على طريقة. ثم عاد هتشنسون الى طريقه وسار في رجاله على فرع النيل الغربي حتى أتى الحيزة في ٣٠ منه وواصل يوسف باشا سيره من الجهة الاخرى فاحصر بيلارد في القاهرة لا يستطيع حراً كافتقد مجلساً حربياً أقر فيه على تسليم المدينة والانسحاب نحو الاسكندرية أو دمياط فبعث الى معسكر الانكليز مندوباً بشأن ذلك وبعد الخاطرة تقرر أن تنسحب الجيوش الفرنسية الموجودة في القاهرة انسحاباً قانونياً بما لديهم من المهمات والاسلحة الى فرنسا وأن يكون ذلك على ثقة الانكليز وكتب بذلك معاهدة أمضيت في ٢٥ يونيو (حزيران) سنة ١٨٠١. وثبتت في ٢٦ منه على أن تفقد بعد ١٥ يوماً

ففي ١٠ يوليو (تموز) (٤ ربيع اول سنة ١٢١٦ هـ) برح بيلارد القاهرة ومعه ١٣٧٣٤ من العساكر والضباط قاصدين رشيداً على أن يسافروا منها الى فرنسا

فاندهل هتشنسون لما أوتيه من الفوز العظيم وكاد لا يصدق به حتى ٧ اغسطس (آب) عند ما علم بركوب الجيوش الفرنسية واجعين الى بلادهم

أما مينو فكان في الاسكندرية ومعه عشرة آلاف مقاتل تفاوض مع من كان باقياً لديه من القواد فأصروا على الخسارة وفي ٢ نوفمبر من تلك السنة عقدوا معاهدة الانسحاب وانسحبوا في أتماء ذلك الشهر مثل انسحاب بيلارد. واذا أمعنت النظر رأيت هذه المعاهدة ومعاهدة العريش التي عقدت في ٢٤ يناير (ك) سنة ١٨٠٠ م شيئاً واحداً ولم تكن نتيجة ذلك التأخير الاسفك الدماء

وكانت الحكومة الانكليزية قد أمرت الجزال برد أن يقدم من الهند في ٦ آلاف من الجنود الهندية المنتظمة الى مصر امداداً لابركرومي في البر فجاء إلى القصير على سواحل البحر الاحمر ومنها سار في الصحراء إلى قنا ثم زل إلى القاهرة فوصلها بعد التوقيع على الانسحاب فنزل إلى الاسكندرية وحضر انسحاب مينو وجماعته

هذه هي الحملة الفرنسية فتأمل كيف كانت نهايتها وكيف أنها بعد قضاء ثلاث سنوات ونيف كلها حروب ومقاومات عادت بخني خزين. وقد ذكر الجبرتي في حوادث سنة ١٢١٥ هـ ما أحدثه الفرنسيون من العار وغيرها وما غبروه أو أخبروه فليراجعها من شاء

من انسحاب الفرنسيين الى ولاية محمد علي باشا

من سنة ١٢١٦ — ١٢٢٠ هـ أو من سنة ١٨٠١ — ١٨٠٥ م

بعد انسحاب الفرنسيين استلم يوسف باشا الصدر الاعظم زمام الاحكام في القاهرة باسم جلالة السلطان بمساعدة الجزال هتشنسون وكان حسين قبطان باشا أميرال البحارة العثمانية لا يزال في أبي قير والاسكندرية بعد سفر مينو. أما الانكليز فلم يكن غرضهم الا تثبيت سلطة الباب العالي والانسحاب فجلسوا معسكرهم في مصر القديمة. وكان بالماليك لا يزالون يحاولون التسلط ولم زل بقية منهم بقيادة اثنين من كبارهم وهما عثمان بك البرديسي ومحمد بك الالفي وكان معسكرهم في الحيزة

الكيد بالماليك ولم ينجح

فأخذ القائدان العثمانيان يوسف باشا وحسين قبطان باشا يدبران مكيدة تذهب

بمن بقي من المالك فاتفقا على أن يدعوا قبطان باشا بعض أمراءهم إلى حفلة يعدها لهم في أبي قير وإن يهجم يوسف باشا على من بقي منهم في الجزيرة فيأتين على أهلاكهم. فبحث قبطان باشا إلى بعض أمراء المالك يدعوم إلى وليمة وقال أنه أعد لها لهم في معسكره بأبي قير ثم إن غرضه من ذلك الاجتماع المفاوضة معهم فيما يجب اتخاذه من الوسائل لإصلاح البلاد. فأجابوا دعوته وهم في ريب من مقاصده على أنهم لم يكونوا يستطيعون رفض الدعوة خيفة أن يجعلوا للقوتين العثمانية والانكليزية باباً للارتباب بمقاصدهم

فلما وصلوا أبا قير رحب بهم حسين باشا ودعاهم إلى النزول معه في قاربه الخصوصي ليسيروا معاً إلى القومندان الانكليزي على إحدى الدوارع للمفاوضة معه بعض الشؤون فركبوا حتى صاروا على مسافة من البر فالتقوا بقارب آت من الدوارع قال من فيه أن لديهم كتاباً باسم قبطان باشا ومخابرات أخرى مهمة. فوثب القبطان عند ذلك إلى القارب الآخر وأمره أن يسير فصاروا بقي المالك وحدهم فأوجسوا خيفة ثم سمعوا إطلاق المدافع عليهم من قارب العثمانيين فتأكدوا أنها مكيدة فحاولوا الرجوع إلى البر ولم يصلوه حتى قتل عثمان بك الطمبورجي وثلاثة آخرون وجرح عثمان بك البرديسي واثنتان آخران. وفي نحو ذلك الوقت أرسل يوسف باشا في القاهرة فرقة من رجاله يهاجمون المالك في الجزيرة فوثبوا عليهم وأحرقوا بيوتهم قاتلجاً كبارهم إلى الانكليز فحومهم رغم إصرار يوسف باشا على طلبهم

ثم انسحبت الحيوش الانكليزية من مصر بأمر الاميرال كيث وبقيت مصر يتنازعها الجنود العثمانية والمالك. وكان يوسف باشا في القاهرة نائباً عن الباب العالي. ولم يكن بد من تولية والٍ عثماني يقوم بأعباء الولاية فسعى يوسف باشا بمساعدة حسين قبطان باشا في تولية خسرو باشا نكحاً حسين قبطان باشا فكتبنا بذلك إلى الاستانة فأجاب الباب العالي طلبهما وبعث لهما الفرمان المؤذن بذلك

ولاية خسرو باشا

فتولى خسرو باشا على مصر في ١٢ جمادى الأولى سنة ١٢١٦ هـ ولم يكن ينقصه لاستتباب الراحة إلا إبادة من بقي من المالك. وكانوا مع ما ألم بهم منذ قديم الفرنسيين لا يزالون قادرين على المقاومة نظراً لمعرفتهم بأحوال البلاد

وأحزابها. وبعد وفاة مراد بك واعتزال ابراهيم بك عن الاعمال أصبحوا تحت قيادة عثمان بك البرديسي ومحمد بك الالفي كما تقدم وقد دانت لهم مصر العليا. فهاضهم خسرو باشا فلم ينجح ولم يكن إذ ذاك في سلطة الباب العالي إلا القاهرة والاسكندرية وما بينهما

ولم يستطع خسرو باشا تحصيل ما يقوم بدفع مرتبات العساكر فثاروا في ٢ مايو سنة ١٨٠٣ م وأحاطوا بالجزندار وحبسوه في بيته. فأمر خسرو باشا أن تطلق عليهم المدافع حتى علت الضوضاء واشتد الخصام فتوسط طاهر باشا أركان حرب خسرو باشا في صرف ذلك المشكل فلم يوافقهم خسرو على قصده وأتهمه باتحاده مع العصاة. فاحتفظ طاهر باشا وأخذ جانب العصاة وأمرهم أن يهدموا الاسوار تخاف الباشا ولم ير إلا الفرار بحرمته وحاشيته على ضفة النيل الشرقية نحو المنصورة. ثم سار منها إلى دمياط وحاصر هناك. فاغتم طاهر باشا تلك الفرصة وجمع اليه القضاة وأرباب الديوان فأقروه على مصر بصفة قائم مقام مؤقتاً لينما ترد الارادة السنية بتولية من يتولى عوضاً من خسرو باشا

ففي ٢٥ مايو (أيار) سنة ١٨٠٣ م لاقى طاهر باشا من القوة العسكرية ما لاقاه خسرو باشا. وذلك أن اثنين من الاغوات وهما موسى واسماعيل تشكيا اليه من تأخر الرواتب فاتهمهم فأغلظوا له فاشتد الخصام فخردا السيف وقطعا رأسه ورمياه من الشباك وانتهى الخصام باحترق القصر

فأصبحت مصر بغير والٍ يدير أعمالها. وفي هذه الفرصة تأتى لذلك الرجل العظيم محمد علي باشا ارومة العائلة الحديوية اظهار ما اختص به من البسالة وعلو الهمة وما جعله الله فيه من الفضائل التي قدّر له أن يبنيها في هذا القطر السعيد

الأسرة المحمدية العلوية

من سنة ١٨٠٥ ولا تزال

ش ٥٠ : محمد علي باشا
مؤسس الأسرة الخديوية بمصر

محمد علي باشا

من سنة ١٨٠٥ — ١٨٤٨ م

أولاد - صبوت وشبهين

انظر إلى خارطة بلاد الرومي في سواحلها الجنوبية على مسافة ٣٢٠ كيلو متراً من الاسنة غرباً تر قرية اسمها قواله لا يزيد عدد سكانها على الثمانية آلاف نفس . وكان في تلك القرية في أواسط القرن الماضي رجل اسمه ابراهيم آغا كان متولياً خفارة الطرق ولده سبعة عشر ولداً لم يعيش منهم الا واحد . وفي سنة ١٧٧٣ توفي هذا الرجل وامراته عن ذلك الولد وسنه اربع سنوات واسمه محمد علي

فاصبح الغلام يتيماً ليس له من يعوله الا عمّا اسمه طوسون آغا وكان متسلماً على قواله وجاء به الى بيته شفقة عليه . غير ان المنية عاجلت طوسون فقتل بأمر الباب العالي بعد ذلك يسير فاصبح الغلام يتيماً قاصراً وليس من ينظر اليه

وكان لوالده صديق يعرف بمجربتي بر اوسطه فشفق على الغلام وجاء به اليه وعني بتربيته مع اولاده . غير ان ذلك لم يدوم حاله من اليم فكان يشعر بالذل وضعة النفس . ويروى عنه بعد ان ارتقى ذروة المجد واعتلى منصة الاحكام انه كان يحدث عما قاساه في صبوته من الذل الى ان يقول :

« ولدت لابي سبعة عشر ولداً لم يعيش منهم سواي فكان يحبني كثيراً ولا تغفل عنه عن حراستي كيفما توجهت ثم توفاه الله . فاصبحت يتيماً قاصراً وأبدل عزي بذل وكثيراً ما كنت اسمع عشرائي يكررون هذه العبارة التي لا انساها عمري وهي (ماذا عسى ان يكون مصير هذا الولد التعس بعد ان فقد والديه) فكنت اذا سمعهم يقولون ذلك اتعافل عنه ولكنني اشعر باحساس غريب يحركني الى النهوض من تحت هذا الذل . فكنت اجهد نفسي بكل عمل استطيع معاناته بهمة غريبة حتى كان يمر عليّ أحياناً يومان ساعياً لا آكل ولا انام الا شيئاً يسيراً . وفي جملة ما قاسيته اني كنت مسافراً مرة في مركب فتعاطم النوة حتى كسره . وكنت صغيراً فتركني رفاقي وحدي وطلعوا الى جزيرة هناك على قارب كان معنا فجعلت أجاهد في الماء وسعي تقاذفني الامواج وتستقبلني الصخور حتى تهشمت يداي وكأنا لا تزالان يانعتين ومازلت حتى أراد الله ووصلت الجزيرة سالماً وقد اصبحت هذه الجزيرة الآن قسماً من مملكتي »

ومما يحكى عنه في أيام صباه انه كان يتردد على رجل فرنساوي مقيم في قواله اسمه الميسوليون وكان من كبار التجار محباً للفضيلة . وحالما رأى محمد علي للمرة الاولى أشفق عليه وأحب مساعدته لما توسم فيه من الفطنة والنباهة فكان يقدم له كثيراً من حاجياته ويسعفه بكل ما في وسعه حتى ألفه محمد علي كثيراً . وهذا هو سبب وثوقه بالامة الفرنسية بعد توليه الاحكام في مصر واستخدامه أفراداً منهم في مصلحة البلاد . ويقال انه رحمه الله بعث سنة ١٨٢٠ الى الموسيوليون المشار اليه يدعوهم الى مصر يقضي فيها زمناً في ضيافته فاجاب دعوته ولكنه مات قبل قدومه فأسف عليه محمد علي كثيراً وبعث الى شقيقته هدية تساوي عشرة آلاف فرنك

قلنا انه ربي في صباه بيت جربتي براوسطه وتعلم في صغره ما يتعلمه أبناء تلك البلاد من ألعاب السيف والجريد والحكم وما شاكل قنبغ فيها حتى اذا بلغ أشده انتظم في سلك الجهادية تحت ادارة مريه فأظهر في جباية الضرائب مهارة وبسالة عجيبتين فرقاه الى رتبة بلوك باشي وزوجه احدى أزواج قرابته وكانت مطلقة ولها مال وعقار فترك الجهادية وتعالى التجارة وعلى الخصوص في صنف التبغ لانه اكثر أصناف التجارة في بلاده . وقد برع في تلك التجارة حتى اكتسب شهرة واسعة وثقة عظمى لدى عملائه . وكان قد ذاق لذة التجارة وأحبها مذ كان يتردد على الميسوليون المتقدم ذكره ولذلك رأيناه بعد أن تولى مصر يوجه انتباهه بنوع خاص لتنشيط التجارة وما زال يتعالى التجارة الى سنة ١٨٠١ حينما عزم الباب العالي على اخراج الفرنسية من مصر بمساعدة انكلترا . فبعثت الحكومة العثمانية اليهم عمارة قوية تحت قيادة حسين قبطان باشا وفيها قوات انكليزية وبعث الصدر الاعظم في حملة من جهة البر كما تقدم

ثانياً - ارتقاءه من صفته الامام

وكان محمد علي في جند القوة البحرية وقد تجند اليها في حملة من تجند في برواسطة بصفة معاون لعللي آغا بن مريه على ثلاثمائة جندي الباني (ارناؤوط) فجاءت العارة الى ابي قبر وكانت الغلبة هناك للفرنساويين ثم عاد علي آغا الى بلاده تاركاً رجاله تحت قيادة محمد علي وكان هذا قد ترقى الى رتبة يكباشي ثم تغلب العثمانيون بمساعدة العمارة الانكليزية وحملة الصدر الاعظم ودخلوا البلاد وأخرجوا الفرنسيين وجعلوا يهتمون في تأييد سلطة الباب العالي فيها

وكان في الجنود العثمانية جماعات من الارناؤوط والانكشارية والغليونجية فتفرقت هذه الجنود لحماية مصر السفلى وبعض مدن الصعيد . اما الانكليز فكانوا تحت قيادة الجنرال هتشنسون فزلوا الاسكندرية ريثما يقيمون في القطر المصري والياً عثمانياً يؤيد سلطة الباب العالي ويكبح جماع المماليك الذين كانوا لا يزالون يحاولون الاستقلال فأقاموا محمد خسرو باشا المتقدم ذكره وكان في الاصل من ممالك حسين قبطان باشا وهو الذي سعى له في هذه الولاية . فجاء القاهرة وعاقب الذين كانوا فيها من محالفي الفرنسية . وكان في يده أوامر سرية باعدام المماليك باي وسيلة كانت فبعث الى محاربتهم وكانوا في الصعيد قضايقوا ولم يروا وسيلة الا الالتجاء الى فرنسا فكتبوا اليها يستجدونها متعهدين باجراء كل ما تطلبه منهم فلم يسعدهم الحظ بمساعدتها

محمد علي وخسرو باشا

أما الحملة التي بعثها خسرو باشا الى الصعيد قتها عادت ولم تأت بفائدة ثم حاربهم مراراً في أماكن مختلفة . وفي جملتها واقعة بعث اليها حملة من جنده وكان محمد علي قد ترقى الى رتبة سر ششمه وصار قائداً لاربعة آلاف من الابانيين فأمره أن يسير في رجاله مدداً لتلك الحملة فسارت الحملة وحاربت المماليك وانكسرت قبل وصول محمد علي ورجاله . فنسب قائدها انكساره الى تأخر محمد علي عن الانجيء وابلغ ذلك لخسرو باشا . وكان هذا حافداً على محمد علي فاستقبل ذلك البلاغ بالصدق وأقر على اتمامه سرّاً . وكتب اليه أن يوانيه في منتصف الليل للمخاطبة ببعض الشؤون فأدرك محمد علي مراده ولم يجب الدعوة

ولم ير وسيلة لنجاته من مكيدته وعدوانه إلا بالالتجاء إلى المماليك فأنحاز اليهم واخذ في مخاطبتهم سرّاً وجهراً فتسكنوا بذلك التحالف من اخراج خسرو باشا من القاهرة قهراً . ففر إلى دمياط وأقاموا مكانه طاهر باشا . ولما قتل طاهر احتل محمد علي القلعة برجاله فقام احمد باشا والي الشرطة إذ ذاك يطلب الولاية فأخرجه المماليك من القاهرة ذليلاً ثم اتحد الجميع وساروا لمحاربة خسرو باشا في دمياط فأسروه وجؤأ به إلى القاهرة وحجروا عليه في القلعة

أما الباب العالي فلما بلغه ما حصل في مصر بعث اليهم والياً اسمه علي باشا الجزائري فلم يصل القاهرة إلا بعد شق الانفس ولما وصلها عمد إلى السكيد بالمماليك ومحمد علي فعادت العائدة عليه

الالفي والبرديسي

وكان الالفي والبرديسي زعما المماليك يتنازعان السلطة . وكان الالفي قد سار الى انكلترا يطلب مساعدتها على رفيقه للاستئثار بالسيادة . فلما عاد من سفرته اغتتم محمد علي تلك الفرصة وأوغر صدر مناظره البرديسي عليه نصب له مكيدة لم يقع فيها ولكنه فرّ إلى الصعيد . فظن البرديسي ان جو القاهرة قد خلا له ولكن محمد علي كان له بالمرصاد فحرك الالبانيين عليه وأوعز اليهم أن يشيروا ويطلبوا بمرتباتهم فقاموا وهددوا البرديسي بالاذى إذا لم يدفع اليهم المتأخرات . فضرب على اهل القاهرة أموالاً واستبد في تحصيلها بقساوة فتاروا جميعاً عليه فاضطر إلى مغادرة القاهرة ولم يعد يرجع اليها . وكان ذلك سنة ١٨٠٤

فلما فرّ الاميران لم يبق في القاهرة من رجال السلطة إلا محمد علي وقد فرغت حاجته إلى المماليك بعد ان كاد لم كيداً وشتت شملهم فرأى ان يستعين بالاهلين في نيل ما تنوق اليه نفسه من المطالب فجمع اليه العلماء والمشايخ وتفاوضوا في اخلاء سبيل خسرو باشا فأقروا على ذلك وان يعود إلى منصبه فأعادوه ولكنه لم يمكث فيه إلا يوماً واحداً ثم أخرجوه من القاهرة إلى رشيد ومنها إلى الاسكندرية . وكل ذلك بمساعي محمد علي وحسن درايته واتقان سياسته

خورشيد باشا

ثم تظاهر ان الامور لا تستقيم في مصر إلا بتصيب وال عثمانى حر وأشار بتصيب خورشيد باشا وكان في الاسكندرية . فوافق العلماء والمشايخ في ذلك على ان يكون هو نائباً عنه في الاحكام بصفة قائمقام وبعثوا الى الباب العالي يخبرونه بذلك ويسترحمونه بتثبيت انتخابهم فاجيب طلبهم بفرمان مؤرخ في مارس سنة ١٨٠٤ هذا نصه :

« اتنا كنا صفحنا ورضينا عن الامراء المصرية (المماليك) على موجب الشروط التي شرطناها عليهم بشفاعة علي باشا والصدر الاعظم فخانوا اليهود ونقضوا الشروط وطفوا وبنوا وظلموا وقتلوا الحجاج وغدروا علي باشا المولى عليهم (يريد علي باشا الجزائري) وقتلوه وهبوا أمواله ومتاعه فوجهنا عليهم العساكر في ثمانين مركباً حربية وكذلك احمد باشا الجزائر بعساكر برية للانتقام منهم ومن العسكر الموالين لهم فورد الخبر بقيام العساكر عليهم ومحاربتهم لهم وقتلهم واخراجهم فعند ذلك رضينا عن العسكر لجبرهم ما وقع منهم من الخلل الاول وصفحنا عنهم صفحاً كلياً وأطلقنا لهم السفر والاقامة متى شاؤوا وأبنا أرادوا من غير حرج عليهم وولينا حضرة احمد باشا خورشيد كامل

الديار المصرية لما علمنا فيه من حسن التدبير والسياسة ووفور العقل الخ » ثم جرت بعد ذلك وقائع كثيرة بين محمد علي والمماليك في اما كن مختلفة من القطر فأصبحوا بعد ما قلبوه من الحروب المتوارة مدة سنين على غير ما كانوا عليه من النفوذ قبلاً واصبحت قوتهم لا تزيد عن خمسة او ستة آلاف من الفرسان وكانت مآلتهم آخذة في الانحطاط



ش ٥١ : أرنأوط محمد علي

وكانت العساكر مؤلفة من الالبانيين (الارناؤوط) وهؤلاء قضوا تحت قيادة محمد علي مدة طويلة وكانوا يحبونه فشق ذلك على خورشيد باشا وصار يخاف هؤلاء الالبانيين فاستقدم اليه جنداً من الدلاة (المغاربة) فوصلوا مصر في أول سنة ١٢٢٠ هـ وكان محمد علي يوم وصولهم في جهات الصعيد يحارب المماليك فبلغه ان احمد باشا خورشيد استقدم هؤلاء الدلاة يستعين بهم على الارناؤوط فعاد الى القاهرة برجاله مظهرأ طلب العلوقة ولولا ذلك لمتعه الدلاة من الدخول اليها . أما خورشيد فأوجس خيفة من قدومه فجعل يراقب حركاته . أما الدلاء فانتشروا في البلاد ينهبون ويقتلون ويصادرون الناس ويأخذون أموالهم فاشتكوا الى خورشيد باشا أولاً وثانياً وثالثاً وهو يعدم يكف هؤلاء ثم يخلف ولا تزيد الاحوال الا اضطراباً فشق ذلك خصوصاً على علماء البلاد ومشايخها وكرهوا خورشيد باشا كرهاً شديداً وصاروا يتوقعون تخلصهم منه وعلم هو بذلك فلم يزد الا خجوراً

الاجماع على تولية محمد علي

وفي ٢ صفر سنة ١٢٢٠ ورد لمحمد علي باشا خط شريف بولاية جدة فألبسه خورشيد باشا الفروة والقاووق المخصين بهذه الرتبة وقد توسم قرب تخلصه منه فخرج محمد علي باشا يريد الذهاب الى جدة وفي نفسه أن لا يخرج من مصر فقامت العساكر وطالبوه بالعلوفة فقال « هذا هو الباشا طالبوه بها » وسار الى منزله في الارضية (قرب أوتيل شبرد) وهو ينثر الذهب على الناس فازدادوا له حباً ولخورشيد باشا كرهاً وبعد ثلاثة أيام (لا ندري ما دار في أثنائها بينه وبين علماء البلاد ومشايخها) سار المشايخ والعلماء جميعاً الى محمد علي في منزله ينادون بصوت واحد « لا تقبل خورشيد باشا والياً علينا » فقال « ومن يريدون اذاً » قالوا « لا يريد أحداً سواك » فامتنع أولاً وجعل يرغبهم في خورشيد ويحملهم على الاذعان والسكينة وهم لا يزدادون الا اصراراً على طلبهم فوافقهم فاحضروا له السكر والقفطان واليسوء اياها وبشوا الى خورشيد أن ينزل من القلعة فأبى فاحصروه فيها وكتبوا الى الباب العالي بذلك فورد فرمان بولاية محمد علي في ١١ ربيع آخر سنة ١٢٢٠ هـ ٩ يوليو (تموز) ١٨٠٥ وعزل خورشيد باشا فخرج هذا من القلعة بأمر من الاستانة وغادر البلاد وفي نفسه من الغيظ على محمد علي ما ليس وراءه غاية

الالفي ومحمد علي

وكان المماليك لا يزالون منتشرين في جهات القطر يحكون ويستبدون وكان الالفي مقيماً في الصعيد وقد اتف حوله جمهور من المماليك وحالما علم بتولية محمد علي باشا نزل بفرسانه طالباً خلعه وتخبر مع خورشيد باشا ليساعده في غرضه وتعهده انه اذا فعل ذلك يعيد الاحكام ليدته ويكون بعد ذلك خاضعاً لاوامر الدولة العثمانية ضارباً بسيفها هذا اذا كانت تخلع محمد علي باشا. وخبر من الجهة الثانية دولة انكلترا ووعدها أنها اذا عضدت مشروعه هذا يكون مستعداً أن يسلمها أبواب القطر المصري حالاً. فلم بذلك فنصل فرنسا ففرقل مسعاء فكف على مصالحة محمد علي باشا على شيء يرضى به الاثنان فحصلت التخابرات فلم يتفقا فعاد الالفي الى مسعاء ثانية بواسطة سفير انكلترا في مصر فطلب هذا الى الباب العالي بالتيابة عن دولته ارجاع سلطة المماليك الى البلاد وتعهده بأمانة الالفي وخضوعه لاوامر الدولة. فقبل الباب العالي بذلك فأصدر عفواً عاماً عن المماليك باسم أميرهم الكبير الالفي فوصله في غرة ربيع

آخر سنة ١٢٢١ هـ وفي ١٤ الشهر المذكور وصل القاهرة خبر قدوم عمارة عثمانية تقتل موسى باشا برسلاً من قبل الباب العالي والياً على مصر ومعه عدة من العساكر المنظمة على النظام الجديد وخط شريف الى محمد علي باشا أن ينتقل الى ولاية سلاطيك وأن يرجع المماليك المصرية الى مراكزهم في الامارات والاحكام

سمي محمد علي وحزمه

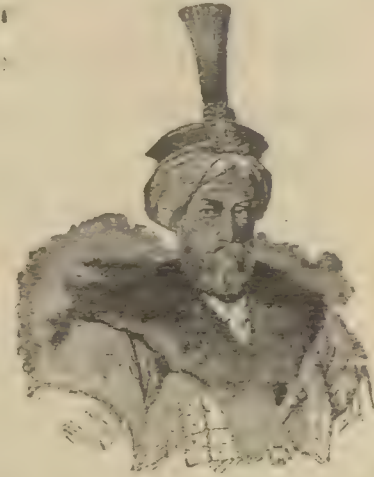
خاف محمد علي من حبوط المسمى فاخذ الامر بالحزم والحكمة فرأى أن احزاب المشايخ والعلماء جميعها معه وانضم اليهم بعض المماليك الذين كانوا في الاصل من الجيش الفرنسي وظلوا في مصر بعد سفر الحملة لعدم امكانهم مرافقتها واعتقدوا الديانة الاسلامية وانضموا الى المماليك فاستكتبهم كتاباً الى الباب العالي يطلبون فيه استبقاء محمد علي باشا وارجاع موسى باشا ويبينون الاسباب الموجبة لذلك. فكتبوه وامضوه وارسلوا منه نسخة الى الاستانة وأخرى الى قبطان باشا قائد العمارة التي أتت بموسى باشا. فاجابهم القبطان أن ما قدموه من الاعذار غير مقبول ولا بد من خروج محمد علي باشا من مصر حالاً. وكان اسفير فرنسا في الاستانة رغبة شديدة في بقاء محمد علي باشا على مصر لما علم من عزم الالفي على تسليم البلاد للدولة الانكليزية فسمى جهده مع قبطان باشا في بقاء محمد علي باشا وعلم بعد ذلك أن المماليك لم ينفكوا منذ وجودهم في مصر عثرة في سبيل حقوق الدولة وأهم منقسمون فيما بينهم لا يتفقون على أمر

فرأى طلب أهل البلاد أقرب الى الصواب فكتب اليهم ان يعيدوا طلبهم وأن يعثوا الطلب مع ابن محمد علي باشا. فكتبوه وأرسلوه مع ابنه ابراهيم بك على يد قبطان باشا. وفي ٥ شعبان سنة ١٢٢١ برحت العمارة العثمانية الاسكندرية وعليها قبطان باشا وموسى باشا وابراهيم بك

وفي أواخر شعبان (نوفمبر) سنة ١٨٠٦ م) وردت الاوامر الشاهانية بتثبيت محمد علي باشا على ولاية مصر مع الايعاز اليه أن لا يتعرض للمماليك بعد ذلك لصدور العفو عنهم قبلاً. وفي الشهر التالي مات عثمان البرديسي. وفي ١٩ ذي القعدة سنة ١٢٢١ هـ (يناير) سنة ١٨٠٧ م) توفي محمد الالفي وهما زعيما احزاب المماليك فولوا عليهم شاهين بك رئيساً الا أنهم مع ذلك لم تعد تقوم لهم قاعة وقد خلا الجو لمحمد علي باشا

مقاومة الانكليز لمحمد علي

ثم ان الحكومة الانكليزية اعتبرت تثبيت محمد علي محلاً بنفوذها ومضراً بمصالحها فجدت حملة من ثمانية آلاف مقاتل تحت قيادة الجنرال فرازر لارجاع سلطة الممالك وكانوا قد تبعثوا في البلاد فوصل الانكليز الاسكندرية في ٩ محرم سنة ١٢٢٢ هـ (١٢ مارس (اذار) سنة ١٨٠٧ م) مظهرين بحماية القطر من الفرنسيات فاستولوا على المدينة في ٢١ محرم وظلوا فيها ستة أشهر لا يستطيعون انتقالاً الى ما وراءها . وكانوا قد أرسلوا فرقة منهم الى رشيد فزقتها سيوف الارناؤوط كل ممزق . وفي يوم الخميس ٥ جمادى الآخرة سنة ١٢٢٣ هـ استقال السلطان مصطفى وسنه ٢٣ سنة فبويع السلطان محمود بن عبد الحميد (محمود الثاني)



ش ٥٢ : السلطان محمود الثاني

وفي ١٣ رجب سنة ١٢٢٢ هـ (١٤ سبتمبر (ايلول) سنة ١٨٠٧) انسحبت الجيوش الانكليزية باتفاق صلح مع القطر فاستقبلت القوة لمحمد علي باشا وقد وضي جلالة السلطان عنه ودخلت الاسكندرية في ولايته . ثم سعى بعضهم في المصالحة بينه وبين الممالك فتمت بقدم شاهين بك الى مصر بالهدايا الثمينة فآكرمه محمد علي وى له قصرأ نفيساً لمكانه في الجزيرة ثم تبادلوا الزيارات وكل علائق المودة وهكذا فعل سائر الممالك

ثانياً - أعماله الحربية

١ - الحملة على الوهابيين

فلما رسخت قدم محمد علي باشا في مصر أخذ في تسليم مصالح حكومته الى من يثق بهم من ذوي قرباه لانه كان شديد الحجة لعائلته ولا شك أن ازده اشتد بهم . ثم استفحل أمر الوهابيين في شبه جزيرة العرب فارسل السلطان محمود يعهد الى محمد علي باشا أمر اخضاعهم وتخليص البلاد من أيديهم



ش ٥٣ : زعيم الوهابيين

والوهابيون طائفة من المسلمين تذهب الى اغفال الكتب الدينية الاسلامية الا القرآن والحديث . زعيمها الاول محمد بن عبد الوهاب وُلد في العينة من اقليم العارض من نجد سنة ١١٠٦ هـ (١٦٩٦) وكان أبوه شيخاً فقيهاً فوري في حجره على المذهب الحنبلي ثم انتقل لاتمام دروسه في البصرة وهم بزيارة مكة والمدينة وعاد الى بلده . ثم تزوج في الحرمل بالعارض وأقام فيها واشتهر بين قومه بالتقوى وصدق الدين . وأحى عليهم باللامعة لتقاعدهم عن الفروض الدينية واهلهم قواعد الدين الاساسية وبالغ في تعنيفهم حتى تأمر بعضهم على قتله وتربصوا له في مكن فادرك غرضهم ففر

الى بلده العينة وأخذ يجتذب الاحزاب اليه من أهله وأبناء قبيلته بالوعظ والمراسلة والاقناع فالتف حوله جماعة من الانصار في بلده وما يحيط بها من البلاد وجاءته امرأة عاهرة تلمس التوبة على يده فردها أولاً وثانياً . فجاءته ثالثة فاستغرب أمرها وسأل القوم اذا كانت مجنونة فقالوا انها في كمال عقلها لكنها شردت عن طريق التقوى وتريد الرجوع اليها . فحكم عليها بالاعدام لان ضميرها لم يوحها يوم ارتكبت تلك الرذائل . وعلم بهذا الحكم الجار أمير الحسا فبعث الى شيخ العينة أن يقتل محمد بن عبد الوهاب أو ينفية . فامر باخراجه من بلده على أن يدس له من يقتله

وبلغ نفيه مسامع بعض اتباعه في الدرعية من اقليم العارض المذكور وأميرهم يدعى محمد بن سعود فتقدموا اليه أن يأذن باستقدامه اليهم فاذن لهم بذلك فبعثوا الى شيخ العينة أن يوجهه اليهم . فبعثه في خفارة فارس أسر اليه أن يقتله غيلة في أثناء الطريق . فهم الفارس أن ينفذ ذلك الامر مراراً وهو يؤجله واتفق أنه هم بالعمل اخيراً وهو على مقربة من الوفد الذي أرسله ابن سعود لاستقبال ذلك المنفي . ولم يكد الفارس يطعنه حتى جاء أولئك للدفاع عنه وقد كاد يقتل

فدخل محمد بن عبد الوهاب الدرعية فاحسن ابن سعود وفادته اكراماً لاتباعه ووعد بحمايته ممن يناوئه واذن له في نشر تعاليمه . ففعل ونهوضه يزداد وانصاره يتكاثرون وشهرته تتسع . فاخذ يكتب مشايخ القبائل يدعوهم الى نبذ الرذائل والرجوع الى الكتاب والسنة وانهم اذا لم يفعلوا حمل عليهم باهل درعية جهاداً في سبيل الحق . فاذعن له كثيرون وقاومه آخرون فمن وافقه انتقل اليه في درعية . فزاد انصاره فيها وفي غيرها من اقليم العارض واكثرهم في العينة وحريلة ودرعية والعمارة والمنفوحة

تعاليم الوهابية

وأساس مذهب ابن عبد الوهاب أنه لا يعرف الا الله ولا يتوسل الى سواه — وأهم تعاليمه :

- ١ الصلاة خمس مرات في اليوم
- ٢ الصوم في رمضان
- ٣ الامتناع عن المسكرات
- ٤ منع البغاء

- ٥ منع اليسر والنحر
- ٦ تفريق جزء من مئة من الاموال زكاة على الفقراء
- ٧ التشديد في عقاب شهادة الزور
- ٨ ابطال الربا
- ٩ الحج مرة على الاقل
- ١٠ منع التدخين
- ١١ منع الرجال من لبس الحرير أو التزين لانه من شأن النساء
- ١٢ هدم المزارات وقباب الاولياء لانها من ظواهر الوثنية وتشغل الناس عن مخاطبة الله راساً

هذه خلاصة تعاليم محمد بن عبد الوهاب أخذ ينشرها بالاقناع والموعظة ومحمد ابن سعود ينشر معها نفوذه وسلطانه في نجد . فعارضه أهل الرياض من ذلك الاقليم بقيادة أميرهم ادم بن دواس وحمل برجاله على المنفوحة فعادوا خائبين . فتشدد ابن سعود وشيخه ابن عبد الوهاب وتمكنا من الثبات في الدعوة . فزوج ابن سعود ابنة محمد بن عبد الوهاب فولدت عبد العزيز خلف ابيه عند موته سنة ١٧٦٥ وكان الوهابيون قد تكاثروا وصاروا جنداً كبيراً فحمل بهم على أطراف جزيرة العرب وكان عبد العزيز شجاعاً حازماً شديد البطش مع تقوى وورع فعدده رجل من فارس بطعنة خنجر وهو يصلي فقتله سنة ١٨٠٣ خلفه ابنه سعود وكان قد تعود الحرب من صغره فقاد بعض رجال ابيه وهو لا يزال في الثانية عشرة من عمره . ثم ما زال يقود الجند في الحروب حتى هدد الدولة العثمانية في الشام والعراق . وكان جميل الخلقة عاقلاً حكيماً وقد قام في اعتقاد العرب انه لا يلبث ان ينشر هذا المذهب في العالم كله فاموا حوله . فخافت الدولة العثمانية بطشه فجدت اليه حملة بقيادة سليمان باشا فقهرها ثم حمل بعشرين الف مقاتل على كربلاء وفيها قبور أئمة الشيعة وصاح برجاله « اقلوا هؤلاء الكفار الذين يشركون بالله » فاخذوا في هدم المزارات كلها من قبر الحسين الى أقل الابنية . فلم يتركوا حجراً على حجر واستولوا على ما كان هناك من التحف والاموال واستعانوا بها على أمورهم

وفي السنة التالية فتحوا مكة ودخل سعود الكعبة رسمياً في ٢٧ ابريل سنة ١٨٠٣ واستولى على ما فيها من التحف وشد في نشر تعاليمه هناك . فبطل التدخين وكف الناس عن تعاطي المسكرات وعكفوا على الصلوات . وبادر سعود فكتب الى السلطان

سليم الثالث وهو يومئذ على العرش العثماني كتاباً هذا معناه :

« من سعادتي إلى سليم : أما بعد فقد دخلت مكة في الرابع من المحرم سنة ١٢١٨ هـ وأمنت أهلها على أرواحهم وأموالهم بعد أن هدئت ما هناك من أشباه الوثنية والقيت الضرائب إلا ما كان منها حقاً وثبت القاضي الذي وليته أنت طبقاً للشرع الاسلامي فعليك أن تمنع والي دمشق ووالي القاهرة من إغتياب إلى هذا البلد المقدس بأحمال والطبول والزمر فإن ذلك ليس من الدين في شيء وعليك رحمة الله وبركاته »

ولم تمض تلك السنة حتى دخلت المدينة في حوزة الوهابيين وأجرى سعود فيها إصلاحه الديني فهدم قبة القبر النبوي وزرع الستائر التي كانت هناك . وأخذ في نشر سيادته على بلاد العرب فأصبحت حدود مملكته سنة ١٨٠٩ من الشمال صحراء سوريا ومن الجنوب بحر العرب ومن الشرق خليج العجم ومن الغرب البحر الأحمر وقد استفحل أمرهم ولم ير الباب العالي بداً من تكليف بطل مصر وحبي معاليها رحمه الله فاجاب محمد علي مطيعاً وجعل يجمع القوات اللازمة لتلك الحملة لكنه فكر في أمر المماليك فحشي إذا سارت الحملة أن لا تكون البلاد في مأمن منهم فيجمعوا كلهم ويعودوا إلى ما كانوا عليه من القلاقل فعمد إلى إهلاكم قبل سير الحملة . لكنه في الوقت نفسه أخذ في إعداد المهات فجدد أربعة آلاف مقاتل تحت قيادة ابنه طوسون باشا ثم طلب إلى الباب العالي أن يبعث إلى السويس بالأخشاب لبناء المراكب اللازمة لنقل الجند ومعدات الحرب فأرسل إليه ما طلب فابتنى ثمانية عشر مركباً وأعدّها عند السويس في انتظار الحملة

مذبحة المماليك

أما المماليك فكانوا قد يتسوا من الاستقلال بالاحكام بعد أن رأوا ما حل بسلفائهم وما عليه محمد علي باشا من العزيمة فكفوا عن مطامعهم واكتفوا بالتمتع بأرزاقهم وممتلكاتهم في حالة سلمية . فقطن بعضهم الصعيد وبعضهم القاهرة وتشتوا في أنحاء القطر . وكان شاهين بك وهو الذي تولى رياستهم بعد وفاة الألفي قد اذعن ل محمد علي باشا كما تقدم . فأقطعه أرضاً بين الجزيرة وبني سويف والقيوم فأوى إليها . وفي محرم سنة ١٢٢٦ هـ فبراير (شباط) سنة ١٨١١ م) سار قواد الحملة من القاهرة وعسكروا في قبة العزب في الصحراء ينتظرون سائر الحملة ومعها طوسون باشا . وتعين يوم الجمعة لوداع طوسون والاحتفال بمخروجه ورجاله إلى قبة العزب فأعلن ذلك في المدينة ودعي كل الاعيان لحضور ذلك الاحتفال وفي جملة المماليك وطلب اليهم أن يكونوا بالملابس الرسمية

ففي يوم الجمعة ٥ صفر سنة ١٢٢٦ هـ (أول مارس) سنة ١٨١١ م) احتشد الناس إلى القلعة وجاء شاهين بك في رجاله فاستقبلهم الباشا في قصره بكل ترحاب . ثم قدمت لهم القهوة وغيرها ولما تكامل الجمع وجاءت الساعة أمر محمد علي بالسير فصار الموكب وكل في مكانه منه جاعلين المماليك إلى الوراء يكتشفهم الفرسان والمشاة . حتى إذا اقتربوا من باب العزب من أبواب القلعة في مضيق بين هذا الباب والحوش العالي أمر محمد علي فأغلقت الابواب وأشار إلى الالبانيين (الارناؤوط)



ش ٥٤ : أمين بك (الملوك الشارد)

فهمجوا على المماليك بغتة فاندعر أولئك وحاولوا الفرار تسلقاً على الصخور ولكنهم لم يفوزوا لأن الالبانيين كانوا أكثر تعوداً على تسلقها . واقتحم المشاة المماليك من رؤسهم بالرصاص فطلب هؤلاء الفرار بخيولهم من طرق أخرى فلم يستطيعوا لصعوبة المسلك على الخيول ولما ضيق عليهم ترجل بعضهم وفروا سعيّاً على أقدامهم

والسيوف في أيديهم فتداركتهم الجنود بالبنادق من الشبابيك فقتل شاهين بك أمام ديوان صلاح الدين . وحاول بعضهم الاتجاه إلى الحرم أو إلى طوسون باشا بدون فائدة . ثم نودي في المدينة أن كل من يظفر بأحد المماليك في أي محل كان يأتي به إلى نكاح بك فكانوا يقبضون عليهم ويأتون بهم إليه أفواجاً وهو يقتلهم

وكان عدد المماليك المدعويين إلى الوليمة أربع مئة فلم ينج منهم إلا اثنان أحدهما أحمد بك زوج عديلة هانم بنت إبراهيم بك الكبير كان غائباً بناحية موش والثاني أمين بك أتى القلعة متأخراً فرأى الموكب سائراً نحو باب العزب فوقف خارج الباب ينتظر خروج الموكب . ثم لما أقفلت الأبواب بقتة وسمع إطلاق النار أدرك المكيدة فمز جواده وطلب الصحراء قاصداً سوريا . والمتأمل على اللسنة أن أمين بك هذا كان داخل القلعة فعندما حصلت المعركة همز جواده فوثب به من فوق السور لجهة الميدان فقتل جواده وسلم هو وقد صوروا تلك الأشاعة في الرسم (ش ٥٤) والأقرب للحقيقة أن هذه الأشاعة مختلفة أو مبالغ فيها . ثم نودي في الأسواق أن شاهين بك زعيم المماليك قتل تخافت الناس ثم طافت العساكر في المدينة ينهبون بيوت المماليك ويأخذون حريمهم وجوارهم وعلا الصياح

وفي اليوم التالي نزل الباشا من القلعة وطوسون معه وطاف المدينة يأمر الناس بإيقاف النهب وقتل كل من حاول ذلك ولكنه حرص على قبض من يظفرون به من المماليك في سائر أنحاء القطر فكانوا يأتون بهم أفواجاً يسوقونهم كالغنم إلى الذبح . فبلغ عدد من قتل من البكوات ٢٣ يكا . وفي اليوم التالي نزل طوسون باشا إلى الأسواق في فرقة من الجنود لتسكين القلوب وإيقاف النهب . أما الجثث التي كانت في القلعة فاحتفروا لها حفراً جعلوا فوقها التراب وصرح محمد علي باشا بحماية نساء المماليك ولم يسمح بترؤيجهن إلا إلى رجاله

عود إلى الوهابيين

ولما خلت البلاد من المماليك عكف محمد علي على المهام الأخرى وأخصها مسألة الوهابيين فكتب إلى غالب شريف مكة يخبره بأعداد حملة تقذه من الوهابيين فيفتح طريق الحرمين لجميع المسلمين وطلب إليه أن يمهّد له السبيل . فاجابه شاكرًا ووعد بالمساعدة

أما سعود أمير الوهابيين فأنبأته الجوابيس بما نواه محمد علي فأمر فاجتمع حوله خمسة عشر ألفاً ليدفع بهم جنود مصر . أما حملة طوسون فركبت البحر من السويس

حتى أتت ينبع على الساحل الشرقي من البحر الأحمر ومنها يتصل إلى المدينة فتملكوا ينبع وساروا منها إلى صفر وفيها معسكر الوهابيين وقد تأهبوا للدفاع فهجم طوسون باشا فتهقّر سعود ورجاله أولاً ثم ارتدوا على الحيوش المصرية فانهزموا وتركوا مؤنهم وذخائرهم وجمالهم وعادوا إلى ينبع . فلم محمد علي بلشا بذلك فجدد جنداً كبيراً مدداً لابنه فاشتد أزّر طوسون وجمع إليه القوتين وسار حتى أتى المدينة فاطلق عليها القنابل فهدم بعض السور ثم دخلها وأنخن في حاصيتها حتى سلمت فكشف السيف عنها . فانتشر خبر اختناح المدينة في سائر الحجاز تخاف الوهابيون وفرح أعداؤهم ولا سيما الشريف غالب . وقد كان في جدة لا يدري ماذا يكون من أمر تلك الحملة فلما علم بانتصارها كاد يطير من الفرح

وأجلى الوهابيون عن مكة خوفاً من أهلها فجاءها طوسون واحتلها وكتب إلى أبيه ففرح فرحاً لا مزيد عليه لما أناه الله من النصر على يد ابنه نصرًا لم يتأت لغيره من القواد العثمانيين وحيي إليه بقائد حامية المدينة من الوهابيين فأرسله في خضر إلى الاستانة فقتلوه حل وصوله إليها . أما من بقي من دعاة الوهابيين فكانوا لا يزالون في مأمن خارج مكة تحت قيادة كبيرهم سعود

فلما جاء صيف سنة ١٨١٣ (سنة ١٢٢٨ هـ) علموا أن جنود طوسون لا يحتملون حر تلك البلاد وأنهم إذا ناهضوهم إذ ذاك ربما تغلبوا عليهم فجددوا وساروا إلى تربة شرقي مكة فحاربوها واستولوا عليها ثم ساروا إلى المدينة وهددوها بعد أن استولوا على كل ما بين هاتين المدينتين من القرى والمدن . فاتصل الخبر بمحمد علي فلم يرد أن يذهب بنفسه فنصرة الجنود المصرية وقد أصبحت مصر في مأمن من المماليك وغيرهم فسار في جند عظيم حتى أتى جدة فزّلها في ٣٠ شعبان سنة ١٢٢٨ هـ (٢٨ أغسطس (آب) سنة ١٨١٣ م) فلاقاه الشيخ غالب شريف مكة ورحب به . وبعد أن أفي فروض الحج رأى أن الشريف ليس بمن يعول عليهم في الدفوع فصد إلى خلعه بطريقة تضمن حقن الدماء ففاز ثم وضع يده على ممتلكاته وبعث به وبمائلته إلى القاهرة ومنها إلى سالونيك فعاث فيها أوبع سنوات ومات

أما الوهابيون فمات قائدهم سعود في درعية في ٢٦ ربيع آخر سنة ١٢٢٩ هـ (١٧ أبريل (نيسان) سنة ١٨١٤ م) فانحطت سطوتهم فقاموا عليهم ابنه عبد الله ولم يكن كفؤاً فحصلت بينه وبين الجنود المصرية مناوشات كثيرة لم تأت بنتيجة . وفي ٢٨ محرم سنة ١٢٣٠ هـ (١٠ يناير (كانون الثاني) سنة ١٨١٥ م) حصلت معركة كبيرة

بين جنود محمد علي والوهابيين تحت قيادة فيصل أخى عبد الله شفت عن انتصار المصريين فتقدم طوسون الى نجد الا أنه اضطر أخيراً الى التوقف لقلّة المؤن وهو لم يبلغ درعية

ثم اقتضت الاحوال عود محمد علي الى مصر فعاد وقد فتح طريق الحرمين ولكنه لم يبد جميع الوهابيين؛ فوصل القاهرة في ٤ رجب سنة ١٢٣٠ هـ فاهتم بتدريب الجند على نظام جند أوربا وهو أول من فعل ذلك في مصر فاصدر أمراً طالياً في شعبان سنة ١٢٣٠ هـ مؤداه أن الجنود المصرية ستدرب على النظام الحديث وهو النظام الفرنسي فاعظم على الجهادية ولا سيما الارناؤوط الامثال الى هذه الاوامر فرأى أن يدخل هذا النظام أولاً بين الجنود الوطنية لأنهم أقرب الى الطاعة من هؤلاء الالبانيين ومن كان على شاكلتهم - وسنعود الى ذلك

وفي أثناء ذلك عاد طوسون باشا من الحجاز فخرج الناس لملاقاته بالاحتفال والاكرام ثم نزل الاسكندرية حيث كان أبوه مقبلاً فوجد امرأته قد وضعت في أثناء غيابه غلاماً دعتة عباساً . وبعد سير أصيب طوسون بألم شديد في رأسه وحمى لم يعبس بعدها الا قليلاً واختلفت الروايات في أسباب موته وكيفيته ومكانه ولكنهم اتفقوا أن موته كان شديد الوطأة على أبيه . ونقلت جثة طوسون باشا الى القاهرة ودفنت قرب متجد الامام الشافعي وراء جبل المقطم حيث مدفن العائلة الخديوية اليوم وبعد قليل عاد محمد علي الى روعه فاخذ يهتم في أمر الوهابيين خشية أن يعودوا الى ما كانوا عليه فكتب الى عبد الله بن سعود أن يأتي اليه بالاموال التي استخرجها الوهابيون من الكعبة وأن يتأهب متى قدم للسير الى الاستانة . فأجابه يعتذر عن الشخصوس وقال « ان تلك الاموال قد تفرقت على عهد أبيه » وأرسل له هدايا فاخرة فأرجع اليه محمد علي تلك الهدايا وأوسعته تهديداً . ثم جرد اليه حملة عهد قيادتها الى ابنه ابراهيم باشا وكان باسلاً مقدماً وقائداً مجرباً لا يهاب الموت شديد الغضب سريعه . ولكنه كان سليم القلب حرّ الضمير ولذلك كانت احكامه عادة صارمة

وفي ١٠ شوال سنة ١٢٣١ هـ سار ابراهيم باشا بحملته من القاهرة في النيل الى قنا ومنها في الصحراء الى القصير على شاطئ البحر الاحمر ومنها بجزراً الى ينبع ثم الى المدينة وترى هناك بجميع قواته يستعد لهجوم شديد امتثالاً لمشورة أبيه . فالتف حوله عصبة جديدة من القبائل المتحابة ولما تكاملت قواته أقام الحرب سجالات وما زال بين هجوم ودفاع حتى فاز وقبض على زعيم الوهابيين عبد الله فاوصله الى أبيه فوصل

القاهرة في ١٨ محرم سنة ١٢٣٣ هـ فاذن له بالمتول بين يدي الباشا وتقييل يديه فرحب به كثيراً لانه كان يعجب بشجاعة الوهابيين . ثم سأله ما ظنه بابراهيم فأجابه قائلاً « انه قد قام بما عليه ونحن قنا بما علينا وهكذا أراد الله » . وفي ٢٠ محرم أرسل الى الاستانة وطاقوا به في أسواقها ثلاثة أيام ثم قتلوه . وخلع السلطان على ابراهيم باشا خلعاً شرف مكافأة له وسماه والياً على مكة . فاتصلت هذه الاخبار



ش ٥٥ ابراهيم باشا بلباسه العسكري

بدرعية فخاف أهلها فهدموا المدينة وفروا من وجه الموت فاحتلتها الجنود الظافرة وانتهى أمر الوهابيين . أما محمد علي باشا فانه نال من انعام السلطان لقب خان مكافأة لاختلاصه وبسالته وهو لقب لم يمنح لاحد من وزراء الدولة الا حاكم القرم

٢ - فتح السودان

ولما انتهى هذا الرجل الخطير من حروبه في بلاد العرب فكر في فتح السودان على أمل ان يلاقي فيها الكنوز الثمينة من مناجم الذهب بجوار البحر الازرق ناهيك بما هناك من المحصولات والواردات العجيبة من الصنع والریش والعاج والرقيق وغير ذلك . فجدد خمسة آلاف من الجند النظامي وبعض العربان وثمانية مدافع وجعل

الجميع تحت قيادة اسماعيل باشا أحد أولاده . فسارت الحملة من القاهرة في شعبان عام ١٢٣٥ هـ (يونيو (حزيران) ١٨٢٠ م) في النيل فقطعت الشلال الاول فالتاني فالثالث حتى السادس فأتت شندي والمنية وقد أخضعت كل ما مرت به من القرى والبلدان بدون مقاومة . ومن شندي سارت إلى سنار على البحر الأزرق وراء الخرطوم . ولم يكن كمن القبائل التي يعتد بها هناك الا الشائقية فقاوموا قليلاً ثم سلموا ودخلت سنار وكردوفان في أملاك مصر . فسار اسماعيل باشا في جنوده إلى فزغل وهناك ظن نفسه اكتشف معادن الذهب . ثم فشا في رجاله الوباء فأت منهم كثيرون وأتته نجدة من ثلاثة آلاف رجل بقيادة صهره احمد بك الدفتردار فاشتد أزره فأقام صهره هذا على كردوفان وسار في جيش إلى المنية على البر الغربي من النيل ثم عدى إلى شندي في البر الشرقي لجباية المال وجمع الرجال . فاستدعى إليه ملكها واسمه النمر وقال له « أريد منك ان تأتي إلي قبل خمسة أيام ببلد قاربي هذا من الذهب والفين من العساكر » فجعل ذلك الملك يستعطف اسماعيل باشا ليتنازل عن ذلك القدر فقبل منه أخيراً عوضاً عن الذهب مبلغ عشرين ألف ريال من الفضة

فاجابه إلى ما أراد ولكنه لم يكن يستطيع جمعها في تلك المدة فطلب إليه تطويل الاجل فضربه اسماعيل بالشبك (الغليون) على وجهه قائلاً « لا . ان كنت لا تدفع المال فوراً ليس لك غير الخازوق جزاء » . فسكت الملك النمر وقد أضمر له الشر وصمم على الانتقام فطيب خاطره ووعدته بأنما ما يريد . وفي تلك الليلة جعل يرسل التين الجاف احمالاً إلى معسكر اسماعيل علفاً للجمال ولكنه اقامه حول المعسكر كأنه يريد إشعاله . وفي المساء أتى إلى اسماعيل في سر من الالهين ينفخون بالمزمار ويرقصون رقصة خاصة بهم . فطرب اسماعيل وضباطه لذلك ثم أخذ عدد المتفرجين من الوطنيين يزايده شيئاً فشيئاً حتى أصبح كل أهل المدينة هناك . فلما تكامل العدد أمرهم ملكهم بالهجوم فمجموا بغتة على اسماعيل ورجاله ثم داروا بالنيران على التين فاشتعلوه فأت اسماعيل باشا وكثيرون ممن كانوا معه بين قتل وحرق . وفي اليوم التالي أتموا على الباقيين وساقوا سلمهم إلى المدينة

فاتصل الخبر باحمد بك الدفتردار فاشتعل غيظاً وأقسم انه لا يقبل أقل من عشرين ألف رأس انتقاماً لاسماعيل فزّل بجيشه القليل حتى أخذ قسمه فقتل ذلك العدد من الرجال متفتناً في طرق قتلهم على أساليب مختلفة . فهدأت الاحوال بعد ذلك وهكذا

ثم افتتح السودان . وما زال احمد بك الدفتردار على حكومة سنار وكردوفان إلى عام ١٢٤٠ هـ (عام ١٨٢٤ م) ثم أبدل برسم بك

٣ — حرب المورا

وفي عام ١٢٣٩ هـ أرسل محمد علي باشا بأمر الباب العالي حملة مصرية تحت قيادة ابنه ابراهيم باشا لمحاربة المورا في بلاد اليونان فسار وحارب وأظهرت العماره المصرية في تلك الحروب شجاعة الأبطال ولولا اتحاد الدول مثنى وثلاث على الجنود العثمانية والمصرية لما قامت لليونان قائمة في تلك الحرب ولكنتا نقول ان ابراهيم باشا عاد عود الظافرين بعد أن بذل في سبيل ذلك عشرين مليون فرنك وملايين ألف مقاتل

٤ — فتح سوريا

ثم كانت حملة ابراهيم باشا على سوريا لافتتاح عكا لأسباب ترجع إلى مطامع محمد علي في توسيع مملكته وإنشاء دولة مستقلة . وأما البواعث الظاهرة لتلك الحملة فهي أن الأمير بشيراً الشهابي الكبير أمير لبنان جاء مصر سنة ١٨٢١ يلتمس من محمد علي التوسط لدى الباب العالي في العفو عن عبد الله باشا والي عكا لأن الدولة كانت تحب محمد علي باشا وتعد خطره على أمر ما أوتيه من النصر في حرب الوهابيين بعد أن تعبت هي في قهرهم

وكان محمد علي باشا إذ ذاك في شاغل من أمر الحرب في المورا وكانت الدولة قد بعثت إليه ان يجند جنداً لمحاربتها فلما جاءه الأمير بشير مستجداً طيب خاطره ووعدته بالمساعدة وكتب إلى الباب العالي بذلك واسكن الأمير في بني سويف ريثما يرد الجواب وشدد في طلب العفو تشديداً كبيراً لانه كان راغباً في امتلاك قلب الأمير ولسانه ليكون له عوناً في ما نواه من فتح الشام

ولبت الأمير في مصر حتى وزدت الأوامر بالعفو عن عبد الله باشا فحملها شا كراً بعد ان تداول مع محمد علي باشا سرّاً بشؤون كثيرة تعود إلى مقاصد الباشا في بر الشام . وسار الأمير من مصر إلى عكا بكل اكرام مصحوباً بسلاحدار الباشا حاملاً الفرمان بالعفو فوصلوا عكا فسر عبد الله باشا بفوزه . ولكن الجنود العثمانية في الشام طلبت التفقات المعينة في مثل هذا الصلح ولم يكن عند عبد الله باشا تقود وكان الأمير قد جاء بنحو نصف القدر اللازم من محمد علي فضرب عبد الله باشا الباقي على المقاطعات وأخذ بعضها من الأمير

وجرت حوادث كثيرة انتهت بالتباعد بين الأمير وعبد الله باشا . وكان محمد علي

لما جاءه الامير بشير بواسطة العفو عن عبد الله باشا اسر اليه عزمه على فتح الشام وطلب نصرته فوعده سرّاً ولث ينتظر فرصة أو حجة . وكان يظن ان صنعه الخيل مع عبد الله باشا والامير يكفي لبلوغ امانه ولكنه رأى من عبد الله باشا اعوجاجاً عن غرضه . والغالب ان عبد الله كان طامعاً بمثل مطامع محمد علي فلما علم بما نواه هذا صار يحاذره



ش ٥٦ : الامير بشير الشهابي الكبير

وادرك محمد علي ذلك فعزم على اختباره والتعويل على تنفيذ مقاصده بالقوة فبعث الى الامير بشير ان يبعث اليه بجانب من الاخشاب التي يحتاج اليها في بناء المراكب . فباشر الامير اجابة طلبه فنعى عبد الله باشا فشق ذلك على محمد علي واعتبره بظاهر الامر مخالفاً لاوامر الدولة العلية لأن تلك المراكب انما هي للحكومة السنية فجرد لمقاصته حملة بقيادة ولده ابراهيم باشا

جرد محمد علي باشا عام ١٢٤٧ هـ (١٨٣١ م) حملة في البر والبحر فأرسل القيادة والطبجية عن طريق العريش برّاً وسار ابراهيم باشا في رجاله بحراً . أما حملة البر فاستولت على غزة ويافا بغير شديد مقاومة . ثم وصل ابراهيم باشا الى يافا وسار في جيشه الى عكا فوصلها في ٢١ جمادى الأولى سنة ١٢٤٧ هـ فحاصرها برّاً وبحراً الى ٢٦ ذي القعدة منها فهجم عليها هجمة نهائية شفت عن تسليمها . ثم سار قاصداً دمشق فاقضى فيها ولم تدافع الا يسيراً وبرحها الى حمص حيث كانت تنتظره الجنود العثمانية

تحت قيادة محمد باشا والي طرابلس فوصلها في ٨ يوليو (تموز) سنة ١٨٣٢ م وبعد الاخذ والرد استولى ابراهيم باشا على حمص فخافت سوريا سطوة هذا القائد العظيم فسلمت له حلب وغيرها من مدن سوريا . فتغير وجه المسألة باعتبار الباب العالي فبعث حسين باشا السر عسكر بجيش عثماني لايقاف ابراهيم باشا عند حده فجاء وعسكر في اسكندرونة فلاقاه ابراهيم باشا وحاربه واتصر عليه ولم يعد يلتقي بعد ذلك مقاومة تستحق الذكر . ثم تقدم في آسيا الصغرى تاركاً طورس وراءه وكان الباب العالي قد أرسل رشيد باشا في جيش لملاقاة جند ابراهيم باشا جنداً كبيراً من البلاد التي اقتسحها وسار نحو الاسفانة لملاقاة رشيد باشا فالتقى الجيشان في ديسمبر (ك ١) سنة ١٨٣٢ م في قونية جنوبي آسيا الصغرى فتقهقر رشيد باشا برجاله واخترق ابراهيم باشا آسيا الصغرى حتى هدد الاسفانة

فتوسطت الدول وفي مقدمتهن الدولة الروسية فانفذت الى مصر البرنس مورافيف لحاطبة محمد علي باشا بذلك وتهديده فبعث الى ابراهيم باشا ان يتوقف عن المسير . ثم عقدت بمساعي الدول معاهدة من مقتضاها ان تكون سوريا قسماً من مملكة مصر وابراهيم باشا حاكماً عليها وجاياً لخراج ادنه . وقد تم ذلك الوفاق في ٢٤ ذي القعدة سنة ١٢٤٨ (١٤ مايو (ايار) سنة ١٨٣٣ م) وهو المدعو وفاق كوتاهيا . فساد ابراهيم باشا الى سوريا واهتم بتدبير أحكامها وجعل مقامه أولاً في انطاكية وابنتي فيها قسراً وقشلاقات وولى اسماعيل بك على حلب واحمد منكلي باشا على ادنه وطرسوس . أما الاجراءات العسكرية فلم يكن يسوغ لأحد سواء ان يتولاها

وكان ابراهيم باشا ساراً بالاحكام بكل دراية وحكمة خشية سوء العقبى الا انه مع ذلك لم ينجح من ثورة ظهرت في ضواحي السلط والكرك في أواخر سنة ١٢٤٩ هـ (منتصف عام ١٨٣٤ م) وامتدت الى اورشليم وبعد الاخذ والرد اضطر ابراهيم باشا الى المحاصرة في اورشليم لانها ذات أسوار منيعة ثم امتدت الثورة الى السامرة وجبال نابلس

وفي ١٦ يونيو (حزيران) منها هجم المسلمون على صفد وفيها جماعير من اليهود فهدموا منازلهم وقتلوا رجالهم وقتكوا بنسائهم وأصبحت تلك المدينة في حوزتهم ثم أجروا مثل هذه التعديات على المسيحيين في الناصرة وبيت لحم واورشليم ولكنهم لم يتمكنوا مما تمكنوه بصفد . ويقال بالجملة ان سوريا أصبحت بسبب ذلك شعلة ثورية فاقصّل الخبر بمحمد علي باشا فبرح الاسكندرية الى يافا فتقرب منه وجهاء البلاد وسراةاها

ثم عمدت الجيوش المصرية الى قمع الثائرين فتشتت العصاة الا البلبسين فانهم قاوموا طويلا لكنهم اذعنوا أخيراً. ثم هاجم المصريون السلط والسكر وهدموها. وبعد قليل عادت الثورة الى جبال النصيرية فاعترض أهلها فرقة من الجند كانت سائرة من اللاذقية الى حلب واعادوها الى حيث أتت. فأرسل المصريون سبعة آلاف مقاتل اتحدوا بثمانية آلاف من الدروز والمارونيين بقيادة الامير خليل بن الامير بشير أمير لبنان وسار الجميع الى النصيرية وأخضعوهم. ثم سعى ابراهيم باشا في تجريد السوريين من السلاح خوفاً من عودهم الى الثورة ففعل لكنه لم يستطع تجريد اللبنانيين. وكان الامير بشير و ابراهيم باشا على وفاق تام كانهما خلفا ليتحدا

وبعد ان أم ابراهيم باشا جمع سلاح السوريين بمساعدة الامير بشير هجم برجاله على أهالي الشوف والمن من لبنان وجمعوا ما استطاعوا من الاسلحة وحملوا كل ما جمعوه منها الى عكا وكانوا يصطدمون منها نعالا لحيوهم. فاستبقت الراحة في سوريا وأذعن البلاء. الا ان محمد علي باشا لم يقف عند هذا الحد فاحب استخدامها لتوسيع دائرة حكمه فجعل يجمع منها الرجال والحيل بطرق قهرية فغضب الباب العالي فعقد مجلساً في يناير سنة ١٨٣٩ للتظرف في مقاصد المصريين فأقر المجلس على تجريد حملة من ثمانين ألف مقاتل منهم خمسة وعشرون ألفاً من الباشبوزق طبقاً لأرادة السلطان محمود وان تسير تحت قيادة حافظ باشا لمحاربة المصريين

وكان محمد علي باشا قد سار الى السودان تاركاً القاهرة بقيادة حفيده عباس باشا. فلما عاد علم باعدادات الباب العالي فاندعر لها فكتب الى ابنه يستحثه فأخذ ابراهيم في الاستعداد للدفاع فحشد جيوشه في حلب لدفع الجنود العثمانية القادمة برّاً. ثم علم ان معظم الاهلين راغبون في دولتهم الاصلية ومستعدون للتسليم وعلى الخصوص الدروز تحت قيادة شبلي العريان أحد أبطالهم الممدودين. فحصلت مواقع شديدة بين الجيوش العثمانية والجيوش المصرية في زيب انتهت بنهزام الاولى الى مرعش. وكان السلطان محمود قد أرسل عمارة بحرية لمحاربة المصريين فجاءت الاسكندرية فأصابها ما أصاب الحملة البرية ولكنه توفي قبل بلوغه خبر تلك الوقائع خلفه السلطان عبد المجيد سنة ١٨٣٩

ثم توالى الحوادث الى ١٥ يوليو (تموز) سنة ١٨٤٠ م فانعقدت معاهدة لتدرا تقضي باعتبار محمد علي باشا من تابعي الدولة العثمانية. الا ان ذلك لم يكن ليوافقه عن مقاصده ولديه اذ ذاك نحو ١٤٦ ألفاً من الجنود النظامية و ٢٢ ألفاً من الباشبوزق

منها ١٣٠ تحت قيادة ابنه ابراهيم في سوريا والباقيون متفرقون في الحجاز وسنار وكريد ومصر. لكنه علم بعد ذلك ان هذه القوات قليلة في جانب ما



يلزمه لأعام مشروعه فجعل يضم اليها تلامذة المدارس حتى استخدم المرضى والجرحى. ثم عمد الى انشاء خفر وطني احتياطاً ولكنه لم ينجح به كل النجاح على

انه مع ذلك لما عرضت عليه معاهدة لتدرا لم ش ٥٧ : قود السلطان محمود الثاني يصادق عليها فعرض عليه ان يأخذ ولاية عكا ترضية له ويضمها الى مصر وينسحب من سوريا فرفض أيضاً

خروج ابراهيم باشا من سوريا

وبعد ذلك يسير جاءت الجيوش الانكليزية الى صيدا وفرّ ابراهيم الى الجبل. وكان الكومودور نايف قد سار في عمارة بحرية انكليزية لحاصرة بيروت وكانت تحت قيادة سليمان باشا الفرنسي وقد حصنها تحصيناً منيعاً ومعه فرقان من الجند. ولكن لسوء الحظ جاءته الانباء ان ابراهيم قتل وتشتت رجاله فخاف سليمان ورأى ان لا بد له من تأكيد حقيقة ذلك الخبر حتى اذا تحقق موت ابراهيم يضم آليه ما بقي من الجيوش للمدافعة فبرح بيروت بعد ان جعل عليها صادق بك احد اميرالايات الفرقين. اما هذا فلما رأى نفسه منفرداً في بيروت خاف وترك المدينة وفرّ فاستولى عليها الانكليز ثم اتصل به من سليمان ان ابراهيم باشا لا يزال حياً ويأمره بالثبات أمام العدو ربما يحضر. فخاف صادق بك الوقوع في شر أعماله فانضم الى الانكليز هو ورجاله. ثم سار نايف من بيروت الى عكا وحاصرها فقر اسماعيل بك ومن فيها من الرجال وسلمت المدينة

ثم سار نايف الى الاسكندرية بست سفن وعرض على محمد علي باشا الصلح فقبل وعقدوا معاهدة وقع عليها الطرفان ولما أرادوا تبيتها مانعت الدول في ذلك وبقيت الامور على حالها حتى دارت الخبرات بين الباب العالي ومحمد علي باشا فأراد السلطان ارضاء محمد علي فاعطاه ان تكون ولاية مصر وراثية لنسله بشرط ان يكون للجلالة السلطان الحق المطلق ان يختار من عائلة محمد علي من يريد توليتها. فتردد محمد علي في بادىء الرأي. ثم أمر جيوشه ان تنسحب من سوريا وكان عددها عند ذهابها اليها مئة وثلاثين ألفاً فلم يرجع منها الا خمسون ألفاً وقد اخذ التعب منهم مأخذاً عظيماً

فلم يبدأ من قبول انعام السلطان . فبعث إلى الباب العالي بذلك فأرسل إليه خطاً شريفاً بتاريخ ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ م بتبنيته على مصر مع حقوق الوراثة لاعتقابه وان يكون لجلالة السلطان ان يختار منهم من يريد لهذا المنصب هذا نصه :

فرمان ولاية محمد علي عني مصر

« رأينا بسرور ما عرضتموه من البراهين على خضوعكم وتأكيدها بامتكم وصدق عبوديتكم لذاتنا الشاهانية ولمصلحة بابنا العالي . فطول اختباركم وما لكم من الدراية بأحوال البلاد المسلمة ادارتها لكم من مدة مديدة لا يتركان لنا ريباً بانكم قادرون بما تبدونه من الغيرة والحكمة في ادارة شؤون ولايتكم على الحصول من لدنا الشاهاني على حقوق جديدة من تعطفاتنا الملوكية وثقتنا بكم فتقدرون في الوقت نفسه احساناتنا اليكم قدرها ومجتهدون ببيت هذه المزايا التي امتزج بها في أولادكم . وبمناسبة ذلك صممنا على تثبيتكم في الحكومة المصرية المينة حدودها في الخريطة المرسومة لكم من لدن صدرنا الاعظم ومنحناكم فضلاً عن ذلك ولاية مصر بطريق التوارث بالشروط الآتي يانها :

« متى خلا منصب الولاية المصرية تعهد الولاية إلى من تنتخبه سدتنا الملوكية من أولادكم الذكور وتجري هذه الطريقة نفسها بحق أولاده وهم جراً . وإذا انقرضت ذريعتكم الذكور لا يكون لأولاد نساء عائلتكم الذكور حق أياً كان في الولاية وارثها . ومن وقع عليه من أولادكم الانتخاب لولاية مصر بالارث بعدكم يجب عليه الحضور إلى الاستانة لتقليده الولاية المذكورة . على ان حق التوارث الممنوح لوالي مصر لا يمنحه رتبة ولا لقباً أعلى من رتبة سائر الوزراء ولقبهم ولا حقاً في التقدم عليهم بل يعامل بذات معاملة زملائه . وجميع أحكام خطنا الشريف الهايوني الصادر عن كليخانة وكافة القوانين الادارية الجاري العمل بها أو تلك التي سيجري العمل بموجبها في ممالكنا العثمانية وجميع العهود المعقودة أو التي ستعقد في مستقبل الايام بين الباب العالي والدول المتحابية يتبع الاجراء على مقتضاها جميعها في ولاية مصر أيضاً . وكلما هو مفروض على المصريين من الأموال والضرائب يجري تحصيله باسمنا الملوكي . ولكي لا يكون أهالي مصر وهم من بعض رعايا بابنا العالي معرضين للمضار والاموال والضرائب غير القانونية يجب ان تنظم تلك الاموال والضرائب المذكورة بما يوافق حالة ترتيبها في سائر الممالك العثمانية وربيع الايرادات الناتجة من الرسوم الجمركية ومن باقي الضرائب التي تحصل في الديار المصرية يتحصل تمامه

ولا ينحصر منه شيء ويؤدي إلى خزينة بانسا العالي العامرة والثلاث الارباع الباقية تبقى لولايتكم لتقوم بنفقات التحصيل والادارة المدنية والجهادية وبنفقات الوالي وبأمان الغلال الملزمة مصر بتقديمها سنوياً إلى البلاد المقدسة مكة والمدينة . ويبقى هذا الخراج مستمراً دفعه من الحكومة المصرية بطريقة تأديته المشروحة مدة خمس سنوات بتبدىء من عام ١٢٥٢ هـ أي من يوم ١٢ فبراير سنة ١٨٤١ ومن الممكن ترتيب حالة أخرى بشأنهم في مستقبل الايام تكون أكثر موافقة لحالة مصر المستقبلية ونوع الظروف التي ربما يجد عليها . ولما كان من واجبات بابنا العالي الوقوف على مقدار الايرادات السنوية والطرق المستعملة في تحصيل العشور وباقي الضرائب وكان الوقوف على هذه الاحوال يستلزم تعيين لجنة مراقبة وملاحظة في تلك الولاية فينظر في ذلك فيما بعد ويجري ما يوافق ارادتنا السلطانية . ولما كان من الزوم ان يعين بابنا العالي ترتيباً لسك النقود لما في ذلك من الاهمية بحيث لا يعود يحدث فيها خلاف لا من جهة العيار ولا من جهة القيمة اقتضت ارادتي السنية ان تكون النقود الذهبية والفضية الجازر لحكومة مصر ضربها باسمنا الشاهاني معادلة للنقود المضروبة في ضربنا لجاننا العامرة بالاستانة سواء كان من قبيل عيارها أو من قبيل هيئتها وطرزها « ويكفي ان يكون لمصر في اوقات السلم ثمانية عشر الف نفر من الجند للمحافظة في داخلية مصر ولا يجوز ان تتعدى ولايتكم هذا العدد . ولكن حيث ان قوات مصر العسكرية معدة لخدمة الباب العالي كسائر قوات المملكة العثمانية فيسوغ ان يزداد هذا العدد في زمن الحرب بما يرى موافقاً في ذلك الحين . على انه بحسب القاعدة الجديدة المتبعة في كافة ممالكنا بشأن الخدمة العسكرية بعد ان نخدم الجند مدة خمس سنوات يستبدلون بسواهم من العساكر الجديدة . فهذه القاعدة يجب اتباعها ايضاً في مصر بحيث ينتخب من العساكر الجديدة الموجودة في الخدمة حالا عشرون الف رجل ليتدثوا الخدمة فيحفظ منها ثمانية عشر الفا في مصر وترسل الالفان لها لاداء مدة خدمتهم . وحيث ان خمس العشر من الف رجل واجب استبدالهم سنوياً فيؤخذ سنوياً من مصر أربعة آلاف رجل حسب القاعدة المقررة من نظام العسكرية حين سحب القرعة بشرط ان تستعمل في ذلك مواجب الانسانية والزاهة والسرعة اللازمة فيبقى في مصر ثلاثة آلاف وسبعمائة من الجنود الجديدة والاربعمائة يرسلون الى هنا ومن اتم مدة خدمته من الجنود المرسلة الى هذا الطرف ومن الجنود الباقية في مصر يرجعون الى مساكنهم ولا يسوغ طلبهم لخدمة مرة ثانية . ومع كون مناخ مصر

ربما يستلزم أقمشة خلاف الاقمشة المستعملة للمبوسات العساكر فلا بأس من ذلك فقط يجب أن لا تختلف هيئة الملابس والعلامات التمييزية ورايات الجنود المصرية عن مثلها من ملابس ورايات باقي الجنود العثمانية . وكذا ملابس الضباط وعلامات امتيازهم وملابس الملاحين وعساكر البحرية المصرية ورايات سفنها يجب أن تكون مماثلة لملابس ورايات وعلامات رجالنا وسفنتنا . وللحكومة المصرية أن تعين ضباطاً برية وبحرية حتى رتبة الملازم اما ما كان أعلى من هذه الرتبة فالتعيين اليها راجع الى ارادتنا الشاهانية . ولا يسوغ لوالي مصر ان ينشئ من الآن فصاعداً سفناً حربية الا بذاتنا الخصوصي . وحيث ان الامتياز المعطى بوراة ولاية مصر خاضع للشروط الموضحة أعلاه ففي عدم تنفيذ احد هذه الشروط موجب لابطال هذا الامتياز والغائه للحال . وبناء على ذلك قد اصدرنا خطنا هذا الشريف المملوكي كي تقدروا انتم وأولادكم قدر احساننا الشاهاني فتعتوا كل الاعتناء باتمام الشروط المقررة فيه وتحملوا أهالي مصر من كل فعل اكرامهم وتسكفولوا أمنيتهم وسعادتهم مع التحذر من مخالفة أوامرنا المملوكية واخبار بابنا العالي عن كل المسائل المهمة المتعلقة بالبلاد المعهودة ولايتها لكم اه

فرمان ولايته على السودان

ثم صدر فرمان آخر ثبت ولايته على النوبة ودارفور وكردوفان وسنار هذا نصه : « ان سدتنا المملوكية كما توضح في فرماتنا السلطاني السابق قد ثبتكم على ولاية مصر بطريق التوارث بشروط معلومة وحدود معينة . وقد قلدتم فضلاً عن ولاية مصر ولاية مقاطعات النوبة والدارفور وكردوفان وجميع توابعها وملحقاتها الخارجة عن حدود مصر ولكن بغير حق التوارث . فبقوة الاختيار والحكمة التي امتزجتم بها تقومون بادارة هاته المقاطعات وترتيب شؤونها بما يوافق عدالتنا وتوفير الاسباب الآيلة اسعادة الاهلين وترسلون في كل سنة قائمة الى بابنا العالي حاوية بيان الايرادات السنوية جميعها . وحيث انه يحدث من وقت لآخر أن تهجم الجنود على قرايا المقاطعات المذكورة فيأسرون القتيلين من ذكور وأنات ويقتولهم في قبضة يدهم لقاء رواتبهم وحيث ان هذه الامور مما تقضي معها الحال ليس فقط لانقراض أهالي تلك البلاد وخرابها بل انها أمور مخالفة للشريعة الحقبة المقدسة وكلاهما تين الحالتين ليست أقل فظاعة من أمر آخر كثير الوقوع وهو تشويه الرجال ليقوموا بحراسة الحرم ذلك مما ليس ينطبق على ارادتنا السنية مع مناقضته كل المناقضة لمبادئ العدل والانسانية المنتشرة من يوم جلوسنا المائوس على عرش السلطنة السنية . فعليكم مداركة هذه

الامور بما ينبغي من الاعتناء على حدوثها في المستقبل ولا يبرح عن بالكم ان فيما عدا بعض اشخاص توجهوا الى مصر على أسطولنا المملوكي قد عفوت عن جميع الضباط والعساكر وسائر المأمورين الموجودين في مصر . نعم بموجب فرماتنا السلطاني السابق ان تسمية الضباط المصريين لما فوق رتبة المعاونة تستلزم العرض عنها لاعتابنا المملوكية الا انه لا بأس من ارسال بيان باسماء من رقيتم من ضباط جنوكم الى بابنا العالي كي ترسل لهم الفرمانات المؤذنة بتثبيتهم في رتبهم . هذا ما نطق به ارادتنا السامية فعليكم الاسراع في الاجراء على مقتضاها اه

فاصبحت حكومته بعد ذينك الفرمانين محصورة في مصر والسودان . وبمقتضى ذلك تنازل محمد علي باشا عن عشرة آلاف من جنود سوريا فلم يبق عنده الا ثمانية عشر الفا بين مشاة وفرسان وغيرهم . فاضطر اذ ذاك الى الاقتصاد لاصلاح مالية البلاد فاوقف كثيراً من المدارس العمومية التي كان قد خصص مبالغ معلومة للتفقه عليها ومن ضمنها مدرسة شبرا الزراعية وأبدل الاساندة الاورباويين لما بقي من المدارس باساندة أراك أو وطنيين وسار من ذلك الحين في خطة الاصلاح قانعاً بما قسم له من البلدان فعمل على ارضاء جلاله السلطان فانفذ الى جلالته ابنه سعيد باشا لتقديم فروض العبودية

أواخر أيامه

ثم أصيب ابراهيم باشا بانحراف في صحته فسار الى أوروبا لقضاء فصل الصيف سنة ١٨٤٥ فاصاب ترحاباً عظيماً في سائر الممالك الاوربية ولا سيما في فرنسا وانكلترا وعاد الى مصر في أواخر صيف عام ١٨٤٦ م وكان والده قد توجه قبل وصوله يسير الى الاستانة بدعوة رسمية ليقدم عبوديته لجلالة السلطان فوصلها في ١٩ يوليو (تموز) عام ١٨٤٦ م ونزل في سراي رضا باشا ثم تشرف بالثول بين يدي جلاله السلطان فرحب به . ولما أراد تقبيل الاعتاب الشاهانية أمسكه جلالته وأجلسه بجانبه ومكثا ساعة يتحادثان . ثم انصرف شاكرًا وزار عدوّه القديم خسرو باشا وتصافيا . وفي ١٧ أغسطس من تلك السنة برح الاستانة قاصداً قواله مسقط رأسه فاقام فيها عدة امنية لتعليم الفقراء واعانة الضعفاء والمساكين ثم برحها الى الاسكندرية فقبول بالانوار وسار منها الى القاهرة تتقاطر اليه المهنتون من الاصدقاء أفواجا فكان يستقبلهم وعلى صدره الطغراء الشاهانية تلالا كالشمس

وفي منتصف عام ١٨٤٨ توعدك مزاج محمد علي باشا وازدادت فيه ظواهر

الخرف فلم يعد ثم بد من تولية إبراهيم باشا توجه هذا الى الاستانة في أوغسطس من تلك السنة لاجل تثبيتته على ولاية مصر خلفاً لايه قبته السلطان بنفسه فعاد لمعاطاة الاحكام . ثم راجعه العياء واشتد عليه بقتة ففارق هذا العالم في ١٠ نوفمبر عام ١٨٤٨ م وبعد وفاته باحدى عشر ساعة دفن في مدفن العائلة الخديوية بجوار الامام الشافعي بالقاهرة

وكان عباس باشا غائباً في مكة فاستقدم حالاً لاستلام زمام الاحكام فوصل القاهرة في ٢٤ ديسمبر بعد أن قضى فروض الحج ولم يكن ثم اعتراض على توليته فجاء الفرمان الشاهاني من الاستانة مؤذناً بذلك فتولى الامور

كل ذلك ومحمد علي باشا في الاسكندرية وقد أخذ منه المرض مأخذاً عظيماً وما زال يهزل جسداً وعقلاً الى ٢ اغسطس عام ١٨٤٩ م فتوفي ولم يستغرب الناس وفاته لانه مك في حالة النزاع مدة طويلة . وفي ٣ منه تقاطر الناس من الاعيان والقناصل الى سراي رأس التين في الاسكندرية لحضور مشهد ذلك الرجل العظيم . فاذا هو في قاعة الاستقبال في تابوت تغطيه شيلان الكشمير وعلى صدره سيفه والقرآن الكريم وعلى رأسه طربوشه الجهادي أحمر تونسي وحوله العلماء في الملابس الرسمية يتلون القرآن بانغام التجويد . وكان سعيد باشا أكبر من وجد في الاسكندرية من عائلة الفقيد فكانت توجه نحوه خطابات التعزية . ونقلت جثة الفقيد ودقنت في جامعته في القلعة ولا تزال هناك الى الآن

اصلاحات

استولى محمد علي على مصر وهي في معظم الخراب والفساد سياسياً وتجاريّاً وزراعياً وأديباً فاخذ على نفسه اصلاح شؤونها وبذل في ذلك من الجهد والعناية ما ليس وراءه غاية وقد فاز بما أراد فاحيا الديار المصرية وأنشأ وأتمها من سائر الوجوه حتى أصبحت تجاري ممالك اوربا ولذلك لقبه كتاب عصره بموجد الديار المصرية يريدون أنه أوجدها من العدم وهذه أهم اصلاحاته :

١ - الاصلاح الاداري

واول شيء باشره من الاصلاح مسح الارضين والارتفاع بزرعها وتوزيعها . وتفصيل ذلك ان الديار المصرية كانت منقسمة من حيث ملكها الى قسمين أحدهما الارضون التي كاد يكون لواقع اليد عليها الحق في ملكها ملكاً مطلقاً وكانت معفاة من

الضرائب . والقسم الثاني التي لم يكن لزارعها الا حق التمتع بربيعها وهي الارض التي كانت عليها الضريبة الخراجية . أما نفس العقار في هذين القسمين فكان ملك بيت المال او الحكومة او السلطان

هذا كان شأن الارضين المصرية قبل الفتح العثماني وبعده الى القرن السابع عشر حينما استأثر الامراء المالكين بالقوة والسلطة واحتل نظام الارضين وعاد الناس يهاجرون فأهملت الاشغال العمومية وقل ربيع الارض فأصبحت الحكومة في عجز كلي عن استحصال النفود فالتجأت الى تلزيم الخراج - وذلك ان الحكام كانوا يضمنون خراج النواحي والبلاد لاناس وكان ذلك الضمان أو الالتزام يقرر اما بالزيادة أو بالاتفاق بين الملتزم من جهة والرزنامة بالنيابة عن الحكومة من جهة أخرى . حتى اذا تم الأمر أعطت الرزنامة للملتزم تقييماً أي عقد تلزيم يصدق عليه شيخ البلد وهو كبير أمراء المالك

فاذا دفع الملتزم الضريبة يعطى له حق التصرف في تحصيل المال الذي عجله وعلى فوائده التي كان يقرر سعرها هو بنفسه كما يريد . وكانت الحكومة تتعهد بمساعدته في التحصيل وتجعل له في مقابل ما يتفق ويكافئه في ذلك التحصيل بقاعاً غير التي التزمها معفاة من كل ضريبة تعرف بالاواشي . أما الفلاحون فلم يكونوا يملكون أرضاً قط على ان الملتزمين أنفسهم كانت تنزع منهم الالتزامات اذا تصدى لهم من كان أكثر صولة منهم وأشد بطشاً . ولا يخفى ما كان ينجم عن هذا التصرف من الاختلال وضياح الحقوق والاعتاب

فلما استقام الامر لمحمد علي باشا أمر بفتح كل أرض مصر المزروعة ثم قسمها الى مديريات والمديريات الى مراكز أو أقسام وهذه الى نواحي وعين فيها من يقوم بإدارة أمورها وآخرين لحياية الضرائب وابطل الالتزامات جملة ووزع أرض كل ناحية بين أهل تلك الناحية نفسها بحيث يصيب كل فلاح قادر على الشغل جانب من الارض بقدر جانب الآخر فبلغ نصيب كل فلاح ثلاثة أفدنة وبعضهم أربعة أو خمسة وجعل لمشايخ البلاد جانباً من الأرض أعفاه من الضريبة في مقابل نفقات ضيافة حياة الاموال الاميرية الذين كانوا يعمرون في بلادهم وما كانت الحكومة تكلفهم به من المهام ودعا تلك العطايا مسموح المشايخ أو مسموح المبسطة وهي تقابل الاواشي المتقدم ذكرها

ثم رأى رحمه الله ان الفلاح لا يستطيع من نفسه أمراً يكفل إخراجه مما هو

فيه من الضيق الذي تراكم عليه بمرور الاجيال وكان قد انتهى من أعماله الحربية ولم يعد ثم حاجة الى بقاء ضباط الجهادية منقطعين الى وظائفهم العسكرية مع رواتبهم جارية عليهم في حالة السلم وان ليس من التدبير والحكمة ان يتناولوا معيشتهم وهم عطل من الاعمال. ورأى من الجهة الثانية ان الفلاح يحتاج الى مرشدين يهديه الى الطرق اللازمة لاستقامة أمره ووازع يدفعه الى النهوض بواجباته. وعلم أيضاً أن المرء مهما كان صادقاً في خدمة الحكومة يشتمل لنفسه أكثر مما يشتمل لغيره فارتأى ان يعهد بأمر البلاد من حيث الزراعة الى أولئك الضباط ففوض اليهم تعليمها واصلاحها بأنفسهم ولم يحرم الفلاح مع ذلك من ثمرة اتعابه بل جعل لهذه الطريقة التي اعتمدها أصولاً وقوانين تقضي بأن لا تعطى الاطيان للمتعهد ما دامت رائجة ومقتدرة على اداء ما عليها من الاموال في أوقاتها. أما الاطيان غير الرائجة فتحال الى عهده باختيار اربابها وهو يتعهد باداء المال المطلوب للحكومة وبهذه الوساطة نشطت الزراعة ومحسنت تحسناً عظيماً وما زالت تلك الارضين في يد المتعهدين الى أيام المغفور له عباس باشا وهو الذي استردها

مساحة الارض الزراعية في أيامه

كانت الارض الزراعية في عهد المماليك لا تزيد على مليون فدان وبعض المليون فلما تولى محمد علي مسحها سنة ١٨١٣ وأعطاها الى الفلاحين كما تقدم وأخذت مساحة ما يزرع منها يزداد حتى بلغت سنة ١٨٢١ نحو مليوني فدان متفرقة في المديرية على هذه الصورة نقلاً عن فيلكس منجن في كتابه المنشور سنة ١٨٢٣

فدان	
١٩٤١٥٠	منوف
٢٢٥٩٦٠	غربية
١٠٠٧٩٢	البحيرة
١٦١٢٠٤	الشرقية
١٥٥٨٦٠	المنصورة (الدقهلية)
٨٠٠٠٠	القليوبية
٨٥٩٠٠	الجيزة
٧٠٢٠٠	الفيوم
٥٥٠٠٠	الاطفيحية
١٦٦٤٦٠	بني سويف
١٤٨٣٤٠	المنيا
١٧٨٥٨٤	اسيوط
١٩٠٤٠٠	جرجا
١٤٣٩٩٠	اسنا
١٩٦٦٨٤٠	الجملة

ثم أخذت مساحة الارض الزراعية تنسج تدريجاً بالاسباب التي اتخذها محمد علي

من تحريض الناس على الزراعة وتسهيل الري حتى بلغ ما احتفروه من الترع نحو اربعين ترعة بين كبيرة وصغيرة مجموع مكعبها جميعاً ٦٦٧ ٣٦٦ ١٠٤ متراً مكعباً ناهيك بما بذله من العناية في انشاء الجسور والقناطر والسدود وغيرها. فلا عجب اذا بلغت مساحة الاطيان المزروعة التي كانت تأخذ عليها الحكومة الاموال حوالي سنة ١٨٤٠ ضعف ما كانت عليه قبل بضع عشرة سنة. واليك تفصيل ذلك عن كتاب الدكتور كلوت بك:

فدان	فدان
٣٠٠٠٠٠	منوف
٤٥٠٠٠٠	الغربية
٢٤٥٠٠٠	البحيرة
٣٦٠٠٠٠	الشرقية
٣٢٠٠٠٠	المنصورة
٢٩٠٠٠٠	القليوبية
٢٥٤٠٠٠	الجيزة
١٢٤٠٠٠	الفيوم
١٤٨٢٠٠	بني مزار
١٣٩٤٠٠	بني سويف
١٥٢٨٠٠	المنيا
١٦١٠٠٠	الفشن
٨٤٦٨٢٦	اسيوط وجرجا واسنا
٣٧٩١٢٢٦	(الجملة)

وبمقابلة مساحة اطيان كل مديرية على حدة بين ما كانت عليه سنة ١٨٢١ وما صارت اليه سنة ١٨٤٠ يتضح لك مقدار ذلك النجاح

ومن أعماله الادارية انشاء الدواوين ومنها ديوان المعاونة وقائده النظر في ما يعرض من الدواوين الأخرى والمديريات وسائر الجهات. ثم الديوان الخديوي وكان يقوم بأشغال ديواني الداخلية والخارجية والضابطة. ثم ديوان الاشغال وديوان المبيعات وديوان الفردة. ثم أنشأ بعد ذلك ديوان الخارجية خاصة وديوان العسكرية ثم الخزانة المالية وما يتعلق بها وديوان الاوقاف وديوان المعامل وديوان التفيتش والحقانية والترسختة والابنية وديوان المدارس. وجميع ذلك أو معظمه عهد بإدارة أعماله إلى مديرين ورؤساء من أبناء هذا القطر وكلها ترجع بأحكامها إلى ديوان المعاونة

ثم أنشأ مجالس للقضاء وما يقتضي لها من القوانين والاحكام ورتب البريد يحمل على يد السعاة برّاً وبالسفن بحراً. وأنشأ ما يقوم مقام التلغراف الآن من الاشارات بواسطة ابنية مرتفعة ممتدة على خط واحد بين المدن الكبيرة بين النساء والآخر مسافة تكفي لفهم الاشارة لا يزال بعضها منها قائماً أثراً لهمة ذلك الرجل

وأنشأ لتأييد العلم وتوطيد الأمن فرقة الضابطة وفرقهم في أنحاء البلاد فأمن الناس غائلات السبل ولا سيما الأوروبيون فانهم كانوا يقاسون في أثناء تجوالهم في القطر أهانات ومشاق جسيمة فأصبحت السبل في مأمن وتسهلت الصلات التجارية على الخصوص بين أنكلترا والهند على طريق البحر الأحمر فاستعاضوا بها عن طريق رأس الرجاء الصالح في أمور كثيرة

٢ - الإصلاح الزراعي

ولم تقف إصلاحاته عند هذا الحد ولكنه رأى خصب التربة المصرية وامكان استخدامها لغير أنواع المزروعات المعروفة بمصر فجاء إليها بالقطن البذار (التقاوي) الأميركي وجاء بنبات النيلة من جهات الهند ونبات الاقنون من آسيا الصغرى . وجاء بغير ذلك من أنواع المغروسات المفيدة وجاء باناس عالمين بكيفية زراعتها واستغلالها . وأكثر من غرس الحدائق والاشجار في القاهرة وضواحيها لتلطيفاً لحرارة الهواء واستزادة للغيث - من جملة ذلك مغارس الليمون في شبرا والحدائق في الروضة وحديقة الازبكية فقد كان في مكانها قبل أيامه بركة كبيرة يتصل إليها الماء من النيل أيام فيضانه وكان الناس يأتون إليها في المواسم والاعیاد في قوارب عليها الانوار وسائر الزخارف فاحفر محمد علي حولها ترعة ينصرف إليها الماء فظهرت أرض البركة فجعل حول هذه التربة صفوفاً من الاشجار تحيط ببقعة كلها غرس طيب . أما الحديقة التي تراها الآن فهي من آثار الخديوي الاسبق اسماعيل باشا



ش ٥٨ : القناطر الخيرية

ومن آثاره الزراعية السدود التي أقامها في ابي قير وترعة الفرعونية واشتوم الدية واشتوم الجليل وغيرها . وأنشأ كثيراً من الجسور والترع ونظر في تطهيرها

وأنشأ الترعة الصيفية لانماء الزراعة الصيفية وأبدل الخول بالمهندسين في أعمال الري وبعث كثيراً من أبناء البلاد إلى أوروبا لدرس فن الزراعة واتقانه لخدموا بلادهم به

ومن مشروعاته الخطيرة من هذا القليل القناطر الخيرية القائمة عند رأس الدلتا والسبب في بنائها انه رأى النيل لما يصل إلى رأس الدلتا ينقسم إلى فرعين هما فرعا رشيد ودمياط أو الفرع الغربي والشرقي ورأى ان الغربي اكبرهما ويمر في بقاع معظمها لا يصلح للزراعة فيذهب كثير من مائه هدراً والشرقي يخرق ارضين واسعة



ش ٥٩ : إيمان باشا مهندس القناطر الخيرية

الارعاء حسنة التربة فاذا كانت أيام التحاريق لا يبقى من مائه ما يكفي للري فأراد اتحاد وسيلة ينتفع بها بما يزيد من ماء الفرع الغربي بإضافته إلى الشرقي . ورأى الصعيد في زمن التحاريق يشح فيه الماء لارتفاع أرضه وقد لا يرتوي جيداً إلا في زمن الفيضان فأقر على بناء قناطر على عرض الفرعين عند أول تفرعها عند رأس الدلتا وأن يجعل لهذه القناطر أبواباً من الحديد تفتح وتغلق عند الاقتضاء فاذا أقل قناطر هذا الفرع انصرف جانب من الماء المنحدر اليه إلى الفرع الآخر فيستطيع صرف المياه كيف شاء وإذا كان الفيضان قليلاً يقلل قناطر الفرعين جملة فيرتفع الماء في الصعيد فيروي أرضه ثم لا ينصرف منه إلا ما يلزم لري الوجه البحري فاذا كانت أيام التحاريق تفتح القناطر فتفيض المياه والارض في حاجة اليها

فباشر هذا العمل الخطير ولم يضع الحجر الاول منه إلا عام ١٢٥١ هـ (١٨٣٥م) ولم ينتن عن عزمه حتى أتم بناء بدارية لبنان باشا المهندس الفرنسي . غير ان ذلك المشروع لم يأت بالفائدة المطلوبة تماماً بما يتعلق بارتفاع الماء في الصعيد ولكن الحكومة جمعت همها في السنين الأخيرة اصلاح ما هو فاسد منها وسد ما فيه من الخلل

٣ - الاصلاح العسكري

كانت القوة العسكرية في مصر لما تولاها محمد علي اخلاطاً من الالبانيين (الاناووط) والدلاة (المغاربة) والانكشارية ومن جرى مجراهم ونظامهم الحربي النظام القديم الذي كان متبعاً في الازمنة السالفة عند الدولة العلية قبل القرن الماضي . فرأى رحمه الله أن يدرّبهم على النظام الفرنسي الذي اتبعه بونابرت في غزواته وأخذته عنه دول اوربا . فحاول ذلك مراراً فعظم على رجاله ولا سيما الاناووط وعصوا أوامره فيه لأنهم اعتبروا ذلك بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار . ولما ألحّ عليهم ثاروا وتجهّروا إلى القلعة يطلبون الرفق بهم فرأى من الدراية والحزم أن يعاملهم بالحسنى فأجابهم إلى ما ارادوا وأخذ يدخل ذلك النظام رويداً رويداً بالحيلة فاتّخب قتياناً كان قد قبض عليهم في جملة ما قبضه من اموال المالك الذين ذبحهم وكان قد جعل أولئك القتيان من حراسه واستبقى صفارهم في القلعة يتربون فيها على جاري العادة من تربية الغلمان المالك في ذلك العهد استعداداً للخدمة العسكرية أو غيرها . فكانوا يحفظونهم القرآن ويعلمونهم الخط واللغة التركية والرياضة البدنية

فلما عزم على تنظيم الجند انتخب أكبر أولئك المالك وأرسلهم إلى الصعيد يعلمون النظام العسكري الحديث على أساندة من الافرنج . وعلم ان هؤلاء التلاميذ لا يلبثون أن يصيروا جنداً فتفرغ أماكنهم من تلك المدرسة فأنشأ في قصر العيني بمصر القديمة سنة ١٨٢٥ مدرسة اعدادية سماها المدرسة التجهيزية الحربية أدخل فيها نحو ٥٠٠ غلام . بعضهم من صفار المالك والبعض الآخر من أبناء الاتراك والاكراة والالبانيين والارمن واليونان وغيرهم ممن كانوا في خدمته وليس فيهم وطني . فكانوا يعلمونهم القرآن والنحو وآداب اللغة التركية والفارسية والعربية واما لغة التعليم فهي التركية . ونظراً لأنهم ينوون ادخالهم المدرسة الحربية فكانوا يعلمونهم مبادئ الحساب والهندسة والجبر والرسم واللغة الايطالية لان أكثر أساندة المدرسة الحربية كانوا يومئذ من الالبانيين

واستبقاً محمد علي ثمار هذه المدرسة لرغبته في سرعة تنظيم الجند فأوفد جماعة من أولئك المالك الى ليفورن وميلان وفلورنسا ورومية لدرس الحركات العسكرية وبناء السفن والطباعة والهندسة وغيرها من الفنون الحربية . أشار عليه بذلك الاساندة الايطاليان . ثم أرسل غملاًناً آخرين الى انكلترا لدرس الميكانيكات وسلك الابحر ونواميس السائلات . ولما تحقق فوزه بتنظيم الجند احس بحاجته الى مدرسة طبية تخرج الاطباء لمعالجة الجند فأنشأها سنة ١٨٢٥ واختار تلامذتها من الوطنيين أبناء الارياك أو تلامذة الازهر خلافاً للمدرستين التجهيزية والحربية وسيأتي ذكرها



ش ٦٠ : سلمان باشا الفرنسي

وتعجيلاً لثمار سعيه في اعداد الجند المنظم وأطبائه أوفد سنة ١٨٢٦ أربعين من تلامذة المدرستين التجهيزية والطبية الى فرنسا لاتقان الفنون الحربية والطب والادارة الملكية والعسكرية وغير ذلك مما يحتاج اليه في ادارة حكومته ويقتفر فيه الى استخدام الافرنج لاقتصار الوطنيين الى ذلك الحين على درس العلوم الازهرية وهي يومئذ قاصرة على العلوم الدينية واللسانية وأنشأ مدرسة للطبجية وجعل في القاهرة معامل لسكب المدافع واصطناع سائر حاجيات الجند

والفضل في تدريب الجند على النظام الجديد راجع لفائد من قواد فرنساوين اسمه الجزال « سيف » ولكنه أسلم ودعى نفسه سليمان باشا وقد خدم الحكومة المصرية خدمات صادقة في حروبها ببر الشام وغيرها

وأصله من ليون في فرنسا وُلد سنة ١٧٨٧ وسمي يوسف سيف ولكن أبوه متوسط الحال يتعاطى الصناعة فلما بلغ يوسف أشده أراد والده ان يستعين به في أعماله ولكن الغلام كان يشعر بأنه أرفع من ذلك المكان فضلاً عن ميله الفطري الى التقليل فلم يستطع المواظبة فشق ذلك على أبيه فتوعدده اذا لم يثابر على العمل بأن يدخله في سلك الملاحة عقاباً له فكان ذلك موجباً لسروره فأدخله في مهنة البحرية سنة ١٧٩٩ وهو لم يتم السنة الثالثة عشرة من عمره فأعجبه جوب البحار وركوب الاخطار في سفن كانت الى ذلك العهد تسير بلا بخار . حتى كانت حروب ترافلغار سنة ١٨٠٥ بين الاسطول الانكليزي بقيادة الاميرال نلسون والشهير والاساطيل المتحدة لدول فرنسا واسبانيا تحت قيادة الاميرال فيلنوف واميرالين إسبانيين وكان الفوز للانكليز لكن صاحب الترجمة أظهر على صغر سنه أعمالاً تدل على استعدادده للشؤون الحربية . وكان المنتظر ان ينال في مقابل ذلك مكافأة تستحق الذكر فاتفق انه تخاصم وأحد رؤسائه وكان سيف عنيماً خشناً فجرتها المعاناة الى المضاربة فبدأ بالضابط فضرب سيف ضربة جرحته فلم يستطع صبراً على ذلك فهم بالضابط وما زال يضربه حتى قيل كفى فقبض عليه خوفاً فحكم عليه بالاعدام وهو حكم عسكري لا مرد له

ولكن العناية سخرت له رجلاً من الاشراف اسمه الكونت بول دي سيغور يقال ان سيف كان قد أنقذه من الموت مرة فذكر له هذا الجليل فلما علم بالحكم عليه توسط في أمره فأنقذه وأرسله الى الجيش الفرنسي الذي كان إذ ذاك في ايطاليا

ولما شبت الحرب بين فرنسا والنمسا كان سيف في جملة الاسرى عند النمساويين وبقي مغترباً عامين حتى اذا كانت حملة نابليون الشهيرة على روسيا سنة ١٨٠٢ فكان سيف في جملة جندها وأظهر في أثناء وقائعها الماثلة بمسالة أوجبت الثقات نابليون الخصوصي حتى أراد ان يقلده نشان اللجيون دونور فدعاه اليه بهذا الشأن فأنس منه استخفافاً فحنق عليه وحرمه من ذلك الشرف . على انه ما لبث ان رقي في الرتب العسكرية حتى بلغ رتبة كولونيل (أميرالي) بعد رجوع تلك الحملة السيئة الحظ

ثم كانت الوقائع المشهورة التي قضت على رجل فرنسا (نابليون) بالاسر والتقي فقضى على الكولونيل سيف بالخروج من الجندية والانتطاع الى التجارة النمسا لتعيش

ولكن اتى للجندي المحارب ان يساوم امرأة أو غلاماً على مبيع سلعة فيسح صوته قبل انتمام المبيعة وخصوصاً صاحب الترجمة فقد كان قليل الصبر على مثل ذلك فأنت نفسه التجارة ولم يفلح فيها . وسمع في أثناء ذلك ان شاء العجم في حاجة الى ضباط حاذقين في تدريب الجند فكتب الى صديقه الكونت دي سيغور المتقدم ذكره بيلمس كتاب توصية منه الى الشاه فصح له الكونت ان يتوجه الى محمد علي باشا بمصر

فجاء مصر سنة ١٨١٩ ومعه كتاب توصية فأحسن محمد علي باشا مقابله وكلفه بالبحث في جهات السودان عن معادن فحم الحجر ولكنه لم يعثر على شيء منه فعاد الى القاهرة واتفق وصوله اليها يوم الاحتفال بغلبة الجنود المصرية على الوهابية

وكان محمد علي قد شاهد الجنود الفرنسية بمصر وأعجبه نظامها وكانت الجنود المصرية عبارة عن فرق أو وجقات وفيها الارناؤوط والانكشارية والمغاربة ونحوهم ولكن من هذه الفرق قائد فاذا زلوا ساحة الوغى ركب كل جواده واستل حمامه أو خديقه أو رمحاً وهجم على ما يترأى له

فقاوض محمد علي الكولونيل سيف في تنظيم الجند فرغبه فيه فعهد اليه تأليف الجند على هذه الصورة وتدريبه على الحركات العسكرية . وقد حارب سليمان باشا تحت علم الحكومة المصرية في المورة وسوريا وغيرها وتوفي بمصر سنة ١٨٦٠

وبنى محمد علي في الاسكندرية ترسانة آتى اليها بالسفن والدوارع من مرسيليا والبندقية وأقام فيها مدرسة جاء اليها بالاساتذة من فرنسا وانكلترا وبني حوله الاسكندرية حصناً منيعاً وحصوناً أخرى في أماكن أخرى

٤ - الاصلاح التجاري

ولما أصلح الزراعة وكثرت حاصلات البلاد وجه التفاته الى تنشيط التجارة فأراد انشاء ميناء أمين تأوي اليه السفن التجارية فلم تعجبه رشيد ولا دمياط لحشونة مرساها فاختار الاسكندرية فاحتفر ترعتها الموصلة بينها وبين النيل ودعاها ترعة المحمودية نسبة الى السلطان محمود الثاني فسكّر نقل البضائع فيها بين الاسكندرية وداخل القطر فاكتملت الاسكندرية بذلك أهمية كبرى وتقاطر اليها التجار من أماكن مختلفة من أوروبا وغيرها وأقيمت فيها البنايات الكبيرة على النمط الافرنجي ووجدت فيها الفنادق والمزل للغرباء . وأصلح مرفأً بولاق وغيره ووسع للاجانب في الاستيطان والاتجار فانتعشت التجارة وكثرت العلائق وعاد كل ذلك بالنفع الجزيل . ونوطيداً لأعماله هذه أنشأ مجلساً تجارياً مؤلفاً من الوطنيين والاجانب للحكم في القضايا التجارية

حصلات البلاد

قد رأيت أن محمد علي عهد بالاطيان المهمة الى رجاله ليزرعوها ويستغلوها فاشتغل هو في تصريف حاصلاتها فاحتكر غلات هذا القطر ومصنوعاته وتولى بيعها رأساً للتجار السوريين والافريق واليونان والارمن . وكان يلاحظ سعر السوق ويهتم به مثل اهتمام سائر التجار في الاسعار . وكثيراً ما كان يربح الارباح الفاحشة وقد يخسر تبعاً لحال السوق وكان يبيع البضاعة تسليماً الاسكندرية فينقلها هو على نفقته في أثناء الفيضان على السفن . وكان له في بولاق وكالات لحزن الاقطان والسكر والكتان والحناء التي ترد من الارياض وعلى تلك المخازن وكلاء لا يسلّمون منها شيئاً الا بأمر الباشا . وكان يتجر أيضاً بالتبر والعاج وغيرها من واردات السودان وأصناف اخرى كثيرة . فاهلك بارباح الجمارك وما يرد على مصر من تجارات أخرى . وكان يدون ارباحه من هذه التجارة في دفاتر حكومته . واليك ميزانية الحكومة المصرية لسنة ١٨٢١ وفيها أصناف التجارات ومقدار ارباحها وكيفية الاتفاق منها وغير ذلك :

ميزانية الحكومة المصرية لسنة ١٨٢١

الدخل	كيس	قرش
مال الميري	١٣٢٣٠٠	١٣١
ارباح الاتجار بالقطن والشمع والسكر والكتان والتبلة والعسل والحناء وماء الورد وبزر الكتان والسمن والقرطم وغيره	٢١٠٠٠	
أرباح المنسوجات الحريرية والقطنية	٢١٠٠٠	
» من مبيع الجلود	٨٠٠٠	
» » » الحصر	١٢٠٠	
» » » الرز	١٣٢١٢	٢٥٠
» » » النظرون	٦٠٠	
» » » الصودا	٩٠٠	
» » » ملح النشادر	٢٨٠	
» » » القصب (خيوط الذهب)	٤٥٠	
» جمر ك السويس	٥٠٠٠	

١٨	ارباح جمر ك القصير
٢٠٠	عوائد بضائع سنار
٢٦٠	» تجارة دارفور في اسيوط
٥٠٠	» » » في مصر القديمة
٣٠٠٠	» » » في بولاق
٣٦٠٠	» » » في دمياط
٥٠٠	» » » في ترعة المحمودية
٢٥٠٠	» » » في الاسكندرية
٣٥٠٠	» » » على النقود
٥٠٠٠	ضمان الملح والمشروبات
٣٧٠	» المذبح
٧٥٠	» عوائد الخمة
١٢٠	» السناء
٨٠٠	أثمان الاسماك في المنزلة
١٥٠	ضرائب بيع الاسماك بمصر وبولاق
٥٠	» » الحيوانات في امبابه والرميلة
٣٠٠	» على الرقاصات والمشعوذين وغيرهم
٤٠٠	عوائد التوارث
٦٠٠	» المعديات
٤٠٠	أجرة نقل البضائع
٣٥٠	قبالة المشروبات بالصعيد
١٤٠٠	عوائد الاسواق والوكالات في الصعيد وغيرها
١٠٠٠٠	» التخييل
٧٢٠	» ادخال الحبوب للقاهرة
٢٣٩٩٢٠	(جملة الدخل)
كيس	الخارج
١٠٠٠٠٠	نققات الجند

١٢٠٠٠	المرسل الى الاستانة
١٥٠٠٠	على المعامل وأجرة العمال
١٦٠٠٠	اجرة الموظفين الملكيين
٦٠٠٠	نققات على الملزمين
١٨٠٠	» الجوامع والمدارس الخ
١٢٠٠	مرتبات الملزمين
٢٤٠٠٠	نققات بيت محمد علي باشا وأولاده
١٠٠٠٠	هدايا من المشايخ للعربان الخ
١٧٠٠	نققات الحج
٣٠٠	» الكسوة
١٤٠٠	» على وادي الطملات للغرس وغيره
١٨٩٤٠٠	(جملة الخارج)

وكان ينفق الباقي في بناء الشكنات والمعامل والمنازل وغيرها . ولمعرفة حقيقة قيمة هذه المبالغ ينبغي تحويلها الى الفرنكات والسكيس بومئذ عبارة عن ١٥٠ فرنكا فيكون دخل الحكومة المصرية سنة ١٨٢١ نحو ٣٦٠٠٠٠٠٠ فرنك نحو ثلثها من الارباح التجارية . ونشر الدكتور كلوت بك ميزانية كهذه عن سنة ١٨٣٣ كان مجموع الدخل فيها ٦٢٧٧٨٧٥٠ فرنكا منها نحو ١٥٠٠٠٠٠ فرنك من التجارة . وبلغ الخارج ٤٩٩٥١٥٠٠ فرنك ثلثها لنققات الجيش ومن أعوان محمد علي في المسائل المالية والتجارية بوغوص بك الارمني المتوفى سنة ١٨٤٤ وقد ترجمناه في الجزء الاول من تراجم مشاهير الشرق الطبعة الثانية

٥ - الاصلاحات الصناعية

أما الاصلاحات الصناعية فكثيرة ولكن لم يبق منها الى الآن الا آثاراً بالية مع ما توخاه رحمه الله من انشاء المعامل واستجلاب الصناع من أقطار أوربا فانه أنشأ في هذا القطر معامل عديدة لمعالجة القطن والتيلة واصطناع الطرايش التونسية والورق والغزل وأنواع الاقمشة من الحرير والشكتان والقطن والصوف في سائر جهات القطر ومعامل الاسلحة على أنواعها وغيرها . أما سبب جبوط معظم تلك المعامل فعائد الى عدم وجود معادن الفحم الحجري في القطر المصري

٦ - الاصلاحات الصحية

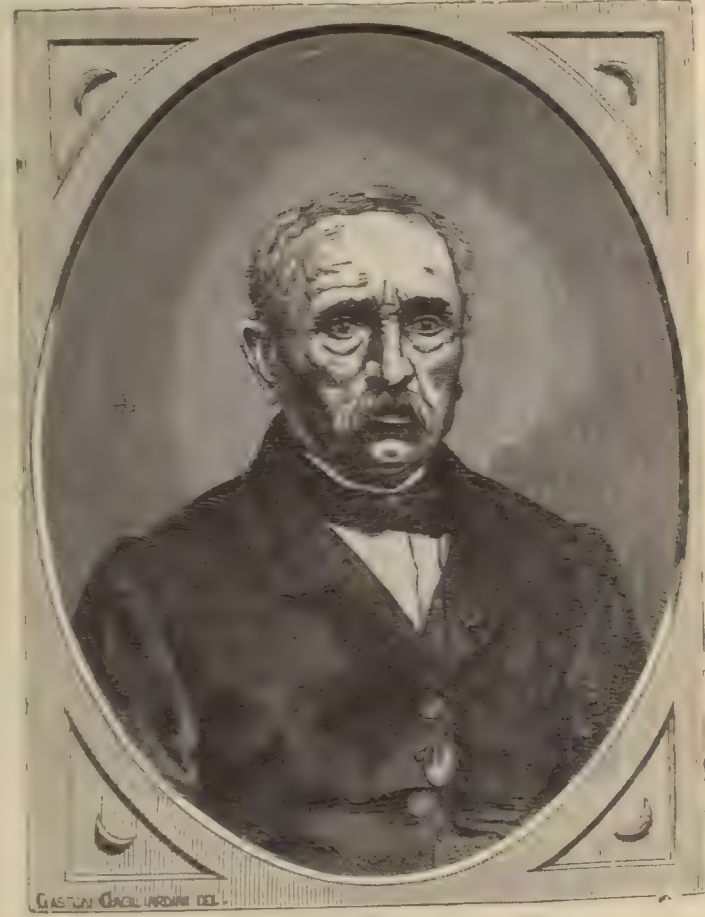
رأى ذلك الرجل العظيم أن البلاد في احتياج كلي لهذه الاصلاحات لانتشار التدجيل والتطبيب بالكتابة والحجاجة وما شاكل فاستقدم أحد مشاهير الاطباء الفرنسيين واسمه الدكتور كلوت (ثم صار كلوت بك) واليه ينسب شارع كلوت بك في القاهرة . فأنشأ المدارس الطبية والمستشفيات وفي مقدمتها المدرسة الطبية في قصر العيني (وكان هذا القصر قبلاً مسكناً لابراهيم بك الكبير من أمراء المماليك)



٦١ : بوغوص بك أحد أعوان محمد علي في المسائل المالية

يدرس فيها الطب والجراحة ومدرسة أخرى في فن القوابل ومستشفى كبيراً في أبي زعبل (قرب المطرية) وأنشأ مجلساً صحياً ومدرسة بيطرية ورتب مستشفيات وأطباء للعساكر وأخرى للاهالي وعين أطباء لمراقبة الاحوال الصحية في المديرية وكان معموله في تلك الاصلاحات على الدكتور كلوت بك وهو فرنساوي الاصل واسمه الاصلي انطون برطلي كلوت وُلد في غرينوبل

بفرنسا سنة ١٧٩٣ م من أبوين فقيرين وربي في شطف من العيش وضيق ذات اليد وكان على صغره ولعاً بتشريح الجشرات ودرس طبائعها . وتوفي والده سنة ١٨١١ م بعد أن نزع إلى برينول وكان له صديق اسمه الدكتور سايبه فلما عين ما في الغلام من المواهب على حاله من الفقر جعله مساعداً له يرافقه في أعماله الطبية ويتمرن في الجراحة وكان كلوت يطالع ذلك العلم بنفسه ساعات الفراغ حتى قرأ كتاب الجراحة



ش ٦٢ : كلوت بك مؤسس الإصلاحات الطبية بمصر

تأليف (لافه) ثم رأى أن برينول لصغرها لا تنفي بما تجبج إليه نفسه ولا زوي مطامعه فزح إلى مرسيليا رغم ارادة والدته التي كانت كثيرة التعلق بولدها هذا لانه كان وحيداً لها ولكنه أصر على عزمه ووظف على عواطفه طلباً للعلی وسعياً وراء العلم

وهو لا يملك الا بعض الدرهمات وشيئاً من الثياب على أنه لم يلاق في مرسيليا الا الحية فحدثته نفسه أن يسافر في سفينة جراحاً لبحارتها ويتحمل مشاق الاسفار وأخطارها سداً لموزة وهو في التاسعة عشرة من سنه فلم يقبله ربانها وكان ذلك لحسن حظ المترجم لان السفينة غرقت في ذلك السفر

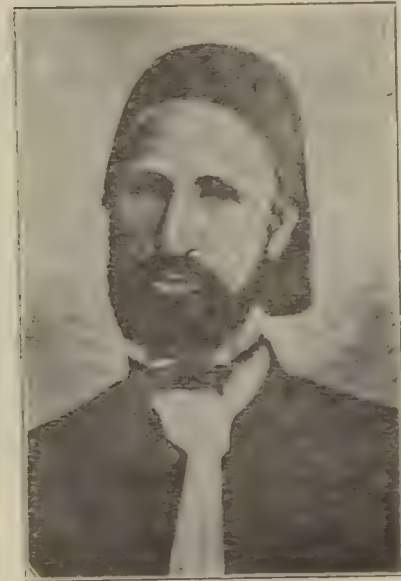
فاضطره العوز لتعاطي مهنة الحلاقة فصار يختلف الى حلاق يعالج بالفصد والجراحة الصغرى . ثم عاد الى بلده ودخل المستشفى بعد عناء وتكرار الالتماس واكب على الدرس والمطالعة حتى نبغ بين أقرانه . وفي سنة ١٨٢٠ نال شهادة الدكتورية فعاد الى مرسيليا وعين طبيباً ثانياً بمستشفى الصدقة ومستشاراً جراحياً بمستشفى الايتام فم به بعض ذوي الحسد فاقيل من منصبه ولكنه لم يسع في الانتقام بل تضاعفت همته في العمل

وفي سنة ١٨٢٥ اجتمع به المسيو تورنو وكان تاجراً فرنسواً من نزالة مصر بحث به المنفور له محمد علي باشا لاختيار من يليق بمنصب طبيب لجيشه فحبب اليه المسير الى مصر في ذلك المنصب فقدم عن طبيب خاطر فرأى أمامه باباً واسعاً للعمل لما علمت من حاجة البلاد الى الاصلاح الطبي فاخذ يعمل ليله ونهاره مفكراً في الوسائل المؤدية الى المراد . وكان محمد علي باشا يركن اليه ويثق برأيه ويحب مطالئيه فأسس أولاً مجلساً صحياً ليستعين بأعضائه على الاجراء والتنفيذ وبث الوصايا الصحية فرتبه على مثال المجالس الصحية الفرنسية ولا تمام النظام العسكري أنشأ المستشفيات العسكرية ومصلحة الصحة البحرية . ولا يخفى ان المستشفيات محتاج الى عملة من الاطباء والتومرجية وغيرهم ولم يكن في مصر شيء من ذلك فاضطر ان يعلم كلا من هؤلاء واجباته من التطبيب وملاحظة المرضى وغير ذلك . وأشهر المستشفيات التي بنيت بناء على اشارته مستشفى ابي زعبل وأنشأ في المستشفى مستشفى إستانا للتيات

وفي نحو ١٨٢٦ م أسس المدرسة الطبية في تلك القرية أيضاً أراد بذلك ان لا يقتصر الطب على الجيش بل يتعلمه أبناء البلاد حتى يفيدوا أبناء جلدتهم بتطبيبهم وتعليمهم . وكان في البنتين الاولى من تأسيس هذه المدرسة هو وحده يلقي الدروس بواسطة المترجمين تسهيلاً لفهمها فترجمت كتب عديدة إذ ذلك وفي جملتها قاموس نستين الطبي وغيره من كتب الطب والجراحة والعلوم الطبيعية . وبما كان عقبة في طريق التشريح العملي ان تشريح جثث الموتى كان أمراً منكراً في عيون المشاركة فبذل كلوت جهده حتى أيسح له التشريح سرّاً على ان ذلك لم ينجه من غضب الاهالي

عليه حتى ان احدهم جاءه يريد قتله خلسة فنجح ولم يقتله
وفي سنة ١٨٣٢ سار الدكتور كلوت بك في ١٢ تلميذاً من تلاميذ مدرسته هذه
لامتحانهم في باريس فامتحنتهم الجمعية الطبية العلمية فجازوا استحسانها وأظهروا كل
نجابة وذكاء وبراعة . وهالك أسماء هؤلاء التلاميذ :

احمد الرشيدى	حسين المهياوي
حسن الرشيدى	عيسوي النحراوي
محمد منصور	مصطفى السبكى
ابراهيم النبراوي	محمد الشباسبى
محمد السكري	محمد علي البقلي
محمد الشافعي	احمد نجيت



ش ٦٣ : محمد علي باشا البقلي الجراح الشهير احد تلامذة الارسالية

وقد كان نجاح هؤلاء المصريين في امتحانهم موجياً لسرور استاذهم كلوت بك
سروراً زائداً لانهم سيكونون له عوناً في نشر الفوائد الطبية والصايا الصحية في
هذه الديار وقد نبغ منهم غير واحد بالتأليف والتطبيب والجراحة وغيرها وترجمت
بعضهم في الهلال أو مشاهير الشرق

وفي سنة ١٨٣٧ نقلت المدرسة الطبية من أبي زعبل الى القاهرة وهي المعروفة
بمدرسة قصر العيني . ثم أنشأ فيها فرعاً لدرس فن القبالة يتعلمها النساء لان عوائد
المشاركة لا تسمح بولادة النساء على أيدي أطباء من الرجال وأنشأ لمن مستشفى خاصاً
بهن وكان لهذه الخدمة فائدة عظيمة خصوصاً لان النساء المبالغتين في التحجب لا يؤذن
للطبيب بمساعدتهن في الولادة ولا الكشف عليهن في تشخيص بعض الامراض .
فكم كان يموت منهن لنقص المعالجة

٧ - الاصلاحات العلمية

أما الاصلاحات العلمية فلا تقل أهمية عما تقدم لانه ألف مجلداً للمعارف العمومية
قصد به تعليم خدمة الحكومة المالكين والجهاديين ما يؤهلهم للقيام بمهام أعمالهم وفتح
مدارس كثيرة لتعليم الشبان من أهل البلاد وبعث بعضاً منهم الى أوروبا لاتقان الدروس
على مثال الارساليات العلمية بعد ذلك . وبلغ عدد التلامذة الذين أرسلوا الى أوروبا
في زمن محمد علي ٣١٩ تلميذاً أنفق عليهم ٢٢٤ ٠٠٠ جنيه

وكان غرضه من الارساليات على الغالب تخريج شبان في الفنون العسكرية
والاقتصاد والميكانيكات والطب والتعدين والترجمة . وقد نشرنا أسماء تلامذة احدى
الارساليات ومواطنهم والغرض من تعليمهم في السنة ١٥ من الهلال (صحيفة ٢٢٠) .
وكانت المدارس المصرية في أول أمرها تابعة للعسكرية فاعتمد رجوع جماعة من
طلبة احدى الارساليات من أوروبا سنة ١٨٣٦ وأنشأ مجلداً خاصاً بالمدارس سباه ديوان
المدارس برئاسة مختار بك أحد الطلبة القادمين من أوروبا وهالك أسماء أعضاء ذلك المجلس .

كلوت بك	رفاعة بك
كياي بك	يومي اقدي
ارتين بك (والد يعقوب باشا ارتين)	لامبر
هيكيان بك	هامون
وارين بك	دوزولد (سكرتير)

فترى أن بعض هؤلاء الاعضاء من أبناء المصريين والارمن ممن تخرجوا في
مدرسة باريس والبعض الآخر من الفرنسيين . فلاغرو اذا ساروا في التعليم على
طرق فرنساوية ونشطوا اللغة فرنساوية . وكان من جملة ما حملوه معهم من أوروبا أو
تولد فيهم بعد الاطلاع على تواريخ الأمم أن ينشئوا في مصر دولة اسلامية عربية
تقابل الدولة الاسلامية التركية وكانت الحرب قائمة بينهما في الشام وما وراءها

فلما تألف ديوان المدارس وتحقق أعضاؤه حاجة الجيش الى ضباط لم يروا مندوحة عن الاستعانة بالوطنيين فاستأذنوا محمد علي في الاكثار من المصريين في المدارس وكانوا الى ذلك الحين لم يدخلوا منهم الا عدداً قليلاً فذن لهم . فأنشأوا مدارس ابتدائية وثانوية في أنحاء القطر المصري على نمط المدارس الفرنسية . وهذه العلوم التي كانوا يعلمونها فيها :



ش ٦٤ : مختار بث أول نظر لعماد مصر

القرآن	مبادئ الحساب
الخط	» التاريخ
اللغة العربية	» الجغرافيا
» التركية	الرسم
» الفرنسية	

ونظراً لتغلب العنصر العربي في هذه المدارس جعلوا التعليم كله في اللغة العربية واستقدموا لها الاساتذة في بادىء الرأي من تلامذة الازهر لتعليم القرآن واللغة واستعانوا بالمتقاعدين من ضباط الجيش القديم المتخرجين في أوروبا لتعليم مبادئ

العلوم ثم نشأت طائفة من الاساتذة المبرزين في العلم - على أن روح الازهر ظلت سائدة عليها كلها مدة طويلة

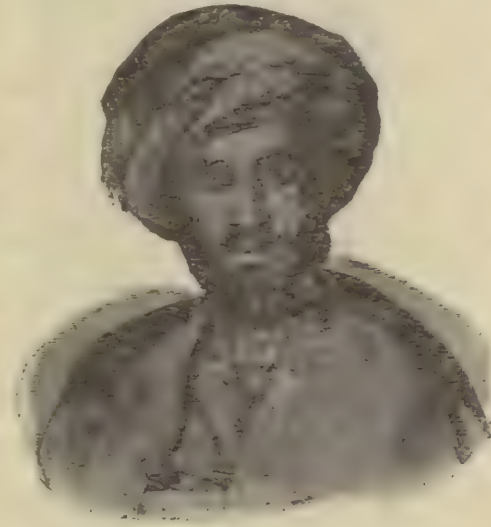
ولم تمض بضع سنوات حتى أصبحت المدارس التابعة لديوان المذكور سبعين مدرسة منها ١٦ مدرسة كبرى وهي :

مدرسة الموسيقى العسكرية	تأسست	سنة	١٨٢٤
المدرسة الحربية في قصر العيني	»	»	١٨٢٥
مدرسة الطب والصيدلة	»	»	١٨٢٧
» الكيمياء العملية	»	»	١٨٢٩
» المشاة	»	»	١٨٣١
» الفرسان	»	»	١٨٣١
» الطبجية	»	»	١٨٣١
» البحرية	»	»	١٨٣١
» طب الحيوان	»	»	١٨٣١
» التعدين	»	»	١٨٣٤
» الهندسة	»	»	١٨٣٤
» الزراعة	»	»	١٨٣٧
» الولادة	»	»	١٨٣٧
» الادارة الملكية والحسابات	»	»	١٨٣٧
» اللسن والترجمة	»	»	١٨٣٧
» الصنائع والفنون	»	»	١٨٣٩

وبلغ عدد التلامذة في المدارس كلها نحو ٩٠٠٠ تلميذ تنفق الحكومة على تعليمهم ولبسهم وطعامهم وسكنهم . والسبب في مكابحتها الاتفاق عليهم ان معظمهم في الاصل من غلمان الممالك فهم ملك الحكومة وهي بالطبع مكلفة باعالتهم . فلما استكثر التعليم من التلامذة الوطنيين عاملتهم تلك المعاملة فجعلت تعليمهم مجانياً . ولم يكن لها بد من ذلك لانهم كانوا يدخلون تلك المدارس رغم ارادتهم وهم يكرهون التعليم فيها كما كانوا يكرهون الجندية . وظل ذلك شأن التعليم بمصر الى آخر أيام محمد علي سنة ١٨٤٨

المدرسة المصرية في باريس

ولما افضت ولاية مصر الى ابنه ابراهيم توقع اناس تغييراً في التعليم لانه كان قد أعدّ اصلاحاً مهماً على أثر رحلته في أوروبا ولكن الاجل عاجله قبل مباشرة العمل . وكان ديوان المدارس قد نظر منذ تأسيسه سنة ١٨٣٦ في التعليم العالي وقرر عجز مصر عن القيام به لسببين : الاول خلوها من أساتذة قادرين على تدريس العلوم العالية . والثاني خلو اللغة العربية من الكتب اللازمة لهذه العلوم - ولهذين السببين قررت الحكومة الاستمرار على ارسال التلامذة الى أوروبا للتخرج بالعلوم العالية . ولكنها أصبحت لا ترسل غير النجباء المتخرجين من المدارس الكبرى . ولم يكن بد



ش ٦٥ : رفاعة بك اول ناظر لمدرسة اللسان والترجمة

للتلامذة المشار اليهم من معرفة لغة البلاد التي سيتمون علمهم في مدرستها فأنشأوا هذه الغاية مدرسة مصرية في باريس يديرها رجل مصري اسمه اسطفان بك معه وكيل ارمني اسمه خليل اقدي جراكيان . واما الاساتذة فيعنتهم نظارة الحرية الفرنسية من ضباط جندها

فأرسلت الحكومة المصرية الى هذه المدرسة نحو اربعين طالباً فيهم جماعة من أمراء العائلة الخديوية وفي جملتهم البرنسان حليم وحسين ابناء محمد علي والبرنسان احمد واسماعيل (الخديوي) ابناء ابراهيم . واتفق ان ابراهيم باشا مرّ بتلك المدرسة في أتماء سياحته بأوروبا ومعه سكرتيره نوبار باشا فأعجب بنجاحها من حيث التعليم

ولكنه اتقد تقصيرها في الترية لان التلامذة كانوا يرسلون اليها وهم في حدود الشباب فارتأى ان يأتوها وهم صغار بين الثامنة والتاسعة من العمر ليتعلموا ويتقنوا معاً . وعزم انه حالما يرجع الى مصر يأمر رجاله جميعاً بأرسال أولادهم الى هذه المدرسة وهم احدث . ولكن المية عاجلته والثورة الفرنسية آلت الى اقفال المدرسة سنة ١٨٤٨

المطبعة الاهلية

وانشأ محمد علي المطبعة الاهلية في بولاق على انقاض مطبعة أتى بها بونايرت معه لما أتى لفتح مصر كما تقدم فلما خرجوا منها سنة ١٨٠١ أهملت تلك المطبعة ولم يلتفت أحد اليها حتى تولى عرش الحكومة المصرية سنة ١٨٠٥ المفضول له محمد علي باشا مؤسس العائلة الخديوية وعمل على اصلاح هذا القطر وكان في جملة مساعيه العلمية احياء هذه المطبعة وتجديدها . فاستحضر لها العدد والحروف واستخدم العمال من أوروبا وسوريا فأداروها واصطنعوا حروفاً جديدة تشبه حروفها الاصلية من وجه وتختلف عنها من وجه آخر . وهي قاعدة حروف بولاق المشهورة وقد طبعت بها كتب حجة طيبة وتاريخية ودينية ما لا يحصى ولا يعد . وفي شهرة مطبعة بولاق ما يغني عن تعداد فضائلها

واما الذي اصطنع قاعدة تلك الحروف فجاعة من عمالها يومئذ لم نطلع الا على اسم واحد منهم وهو الياس مسابكي من أهل دمشق الشام . وكان في جملة حروف بولاق قاعدة فارسية جميلة أهملت الآن وأمر بترجمة كثير من الكتب المفيدة في التركية والعربية والفارسية وانشأ الجريدة المصرية الرسمية (الوقائع المصرية) وديوان المهندسخانة وغير ذلك

صفاته ومناقبه

كان محمد علي متوسط القامة عالي الجبهة اصابعها بارز القوس الحاجبي أسود العينين غايرها صغير الفم باسمه كير الانف متناسب الملامح مع هية ووداعة . أبيض اللحية كثيفها مع استدارة وسعة . جميل الالوين منتصب القامة جميل الهيئة ثابت الخطوات منتظمها سريع الحركة . اذا مشى يجعل يديه متصالبين وراء ظهره غالباً وعلى الخصوص اذا مشى في داره مفكراً في أمر وكذلك كان يفعل بونايرت . وقلما كان يفاخر باللباس فكان لباسه غالباً على زي المالك يلبس العامة أو الطربوش . وأبدل

اللباس العسكري في أواخر أيامه لباس واسع بسيط لا يمتاز به عن بعض أتباعه وكان يكره التفاخر بالحاشية فلم يكن على بابته إلا رجل واحد يخفّره . وإذا استوى في مجلسه لا يتخذ السلاح بل يجلس وفي يده حقة العطوس والمسبحة يتلاها بها وكان يحب ألعاب البليارد والداما ولا يألف من مجالسة صفار الضباط . وأما جلسائه العاديون فالقناصل وكبار السياح وكانوا يحبونه ويحترمونه ويقبونه بمزيد الممالك أو مصلح الديار المصرية . وكان سليم القلب مع دهاء وسياسة سريع التأثر لا يعرف الكظم فكثيراً ما كان ينفذ بدسائس المتعدين . وكان كريم النفس سخّي العطاء وفي



ش ٦٦ : محمد علي باشا بالطربوش

بعض الأحوال مسرفاً . وكان يتفاخر بعصاميته ويرتاح للتكلم عن سابق أحياته . وكان محباً للإطلاع ولا سيما على الأخبار السياسية وكان يجلب الجرائد ويعتقد تأثيرها في الهيئة الاجتماعية فكانوا يرجونها له فيطالعها بتمعن أما هواجسه السياسية فكانت تقلق راحته فلا ينام إلا يسيراً وقلما يرتاح في نومه ولا ينفك متقبلاً من جانب إلى آخر فكان يجعل عند فراشه اثنين من خدمته يتناوبان اليقظة لتغطيته إذا انكشف عنه الغطاء من القلب . ويقال إن من جملة دواعي أرقه الشهقة المرعبة التي كانت تتردد إليه كثيراً وكان قد أصيب بها في حملته على الوهابيين على أثر رعب شديد . على أن ذلك الأرق لم يكن يضعف شيئاً من سرعة حركته فكان

يستيقظ نحو الساعة الرابعة من الصباح ويقضي نهاره في المشاغل المختلفة بين مفاوضة مع ذوي شؤره أو مراقبة استعراضات العساكر أو استطلاع أمور أخرى تتعلق بمصالح الأمة . وكان بارعاً في الحساب بغير تعلم لأنه شرع بتعلم القراءة والكتابة وهو في الخامسة والأربعين من عمره . ويقال إنه ابتداءً يتعلم أحرف الهجاء على أحد خدمة حريمه والكتابة على أحد المشايخ وهذا ما يزيد شرفاً وغروراً ويبرهن على ما فطر عليه من قوة الإدراك والحدائق والمقدرة على المهام السياسية . وكان صارم المعاملة مع لين ورقة وحسن أسلوب . وكان متمسكاً بالاسلام مع احترام التعاليم الأخرى ولا سيما التعاليم المسيحية فكان يقرب أصحابها منه ويعهد إليهم أهم أعماله

ويقال إنه كان بالاجمال أباً حنوناً لرعيته وصديقاً مخلصاً ونصيراً مسعفاً لذوي قرباه وأباً حقيقياً لأولاده ولذلك تراه بعد أن أصيب بفقد أكثرهم غلب عليه الحزن حتى أثر في صحته تأثيراً رافقه إلى اللحد . أما حبه للرعية فلا يحتاج إلى دليل فهذه الديار المصرية عموماً إذا قصرت السنة أهلها عن تعداد ما تراه ينطق جمادها بمزيد فضله . هذه الترع والجسور والبنات والشوارع والجنان . هذه المطابع والمدارس . هذه المنظمات الجهادية والملكية والقضائية . هذه الزراعة والفلاحة . هذه شبه جزيرة العرب تردد ما لاقته من نجاته . وقد كان موضع احترام رعيته وذويه حتى الأجانب البعيدين منه وطناً ودينياً ومشرباً وكثيراً ما تقربوا إليه بالنياشين والهدايا اقراراً بفضلته على العالم عموماً بتمهيد سبل التجارة بين أوروبا والهند على الخصوص.

ابراهيم باشا بن محمد علي

ولد سنة ١٢٠٤ هـ وتولى سنة ١٢٦٥ هـ



ش ٦٧ : ابراهيم باشا في أوخر أيامه

هو نجل محمد علي باشا وقد تقدم في سيرة أبيه معظم سيرة حياته لأنها عملاً معاً في مصر وكان ابراهيم ساعد أبيه الأيمن في فتوحه وسائر أعماله العسكرية . ولد في قواله عام ١٢٠٤ هـ ومال من صغر سنه للأعمال الحربية وفيه مواهب أعظم القواد يشهد بذلك ما أتاه من الأعمال العظمى في مصر والشام والمورة والسودان وغيرها مما فصلناه في ترجمة أبيه . وكان يعرف الفارسية والتركية والعربية وله اطلاع واسع في تاريخ البلاد الشرقية تولى الامارة المصرية بعد تنازل أبيه عام ١٢٦٥ فسار على خطواته سيراً حسناً وإن كان في الحقيقة يختلف عنه بمواهبه الاصلية . فقد كان ابراهيم صارم المعاملة صعب المراس شديد الوطأة كما يغلب ان يكون رجال العسكرية . وكان أبوه لين العريكة بحسن السياسة ذا دهاء وحكمة . ولم يبق حكم ابراهيم الا ١١ شهراً وتوفي قبل والده وكان ربع القامة متمتعاً الجسم قوي البنية مستطيل الوجه والاقف أشقر الشعر في وجهه أثر الجدري وكان كثير اليقظة قليل النوم . وكان نقش خاتمه «سلام على ابراهيم»

عباس باشا الاول

ولد سنة ١٢٢٨ هـ وتولى سنة ١٢٦٥ هـ وتوفي سنة ١٢٧٠ هـ



ش ٦٨ : عباس باشا الاول

هو عباس باشا بن طوسون باشا بن محمد علي باشا ولد عام ١٢٢٨ هـ أو ١٨١٣ م وربي أحسن تربية وكان محباً لركوب الخيل فرافق عمه ابراهيم باشا في حملته الى الديار الشامية وشهد أكثر الوقائع الحربية وفي سنة ١٢٦٥ هـ تولى زمام الاحكام على الديار المصرية بعد وفاة عمه ابراهيم وكان على جانب من العلم والمعرفة لأن المرحوم جده كان يحبه كثيراً فاعتنى بتعليمه في مدرسة الخانكاه ومن مشروعاته المهمة الشروع في انشاء الخط الحديدي بين مصر والاسكندرية وتأسيس المدارس الحربية في العباسية ومد الخطوط التلغرافية لتسهيل سبل التجارة وغير ذلك

وكان له غلام يدعى البرلس ابراهيم الهامي كان على جانب عظيم من الجمال والذكاء

واللطف والمعرفة والعلم زار الاستانة سنة ١٢٧٠ هـ وتشرف بمقابلة السلطان عبد المجيد فأحبه وزوجه بابنته وعمره بنعمه . فرجع الى مصر حامداً شاكراً والمرحوم الهامي باشا هو والد ذات العفاف والعصمة حرم المغفور له توفيق باشا الحديوي السابق ووالدة مولانا الحديوي عباس الثاني

وعباس باشا هو الذي وضع الحجر الاول لمسجد السيدة زينب بيده وقد كان لذلك احتفال عظيم حضره كثير من الاعيان ورجال الدولة وذبحت فيه الذبايح وقرئت الصدقات على الفقراء كميات كبيرة

وفي أيامه كانت بين الدولة العلية والروسين حروب فبعثت لتجدة الدولة حملة كبيرة سارت عن طريق بولاق في البحر وسار هو بنفسه لوداعها هناك وقبل ركوبها النيل نهض لوداعها فألقى في الجمهور خطاباً بليغاً منشطاً

وتوفي عباس باشا في شوال سنة ١٢٧٠ او يوليو سنة ١٨٥٤ م في قصره بمدينة بنها العسل ثم نقل ودفن في مدفن العائلة الحديوية في القاهرة

سعيد باشا

ولد سنة ١٢٢٤ هـ وتولى سنة ١٢٧٠ هـ وتوفي سنة ١٢٧٩ هـ

هو ابن محمد علي باشا وُلد في الاسكندرية عام ١٢٣٢ هـ (١٨٢٢ م) وكان محباً للعلم بارعاً فيه وعلى الخصوص في اللغات الشرقية والعلوم الرياضية وسلك الابحر والرسم وكان يتكلم الفرنسية جيداً . تولى زمام الاحكام عام ١٢٧٠ هـ او ١٨٥٤ م بعد وفاة عباس باشا ابن أخيه وكان مؤثراً للعدل والفضيلة مهتماً بالاصلاح الاداري . ومن أعماله المبرورة اتمام الخطوط الحديدية والتلغرافية بين اسكندرية ومصر والشروع في مد غيرها وتنظيم لوائح الاطيان واسترجاعها من المتعدين الى اربابها . وقد عدل الضرائب فجعلها عادلة ورنع كثيراً من الضرائب التي كان يتظلم منها الرعايا وزح ترعة المحمودية وفي أيامه تمت معاهدة ترعة السويس وقد نشطها تنشيطاً كبيراً واقام على طرفها الشمالي مدينة حديثة دعيت باسمه وهي بورت سعيد وغرس الاشجار في طريق المذنية

وفي السنة الثانية من توليه على مصر وضع الحجر الاول لأساس القلعة السعيدية عند رأس الدلتا فيما بين القناطر الخيرية تداعت أركانها الآن وقد عثرنا على قطعة فضية مستديرة قطرها قيراطان ونصف على أحد وجهيها رسم النيل عند تفرغه والقناطر

الخيرية يليها على الجانبين برج القناطر وبينهما عند رأس الدلتا القلعة السعيدية وكل ذلك في أجل ما يكون من الرسم . وعلى الوجه الآخر كتابة تركية تفيد « ان المغفور له سعيد باشا بن محمد علي باشا المشهور قد وضع أساس القلعة السعيدية وما يليها من الاستحكامات بيده في يوم الأحد ٢٣ جمادى الآخرة عام ١٢٧١ هـ لأجل حماية الديار المصرية » هذا نصها التركي :



ش ٦٩ : سعيد باشا

« قوله لي مشهور محمد علي صلبندن بيك ايكيوز اوتوز يدي سنه هجريه سنه اسكندريه ده دنايه كلوب يتمش سنه سي شوال المكرمده خطه جسيمه مصره حكى جارى اولان محمد سعيد محافظه ام دنيا ايمون اشبو استحكامات قويه به بيك ايكيوز يتمش بر سنه سي جمادى الثانى بيكرمي اوجنبي دوشنبه كوني ومولودينك اوتوز درنجى سنه سي كندى يديله وضع اساس ايتشدر »

وفي أيامه ثارت مديرية الفيوم على الحكومة فبعث اليها واتخذ الثورة فهدأت الاحوال . ولما اختلقت نجله طوسون اطلق كل من كان في السجون من المجرمين حتى

القاتلين . وفي أيامه اعطيت بلاد السودان بعض الامتيازات وتولى عليها البرنس حلیم باشا حكمداراً . وفي عام ١٢٧٦ هـ او ١٨٥٩ م توجه لزيارة سوريا فمكث في بيروت ثلاثة ايام ونزل ضيفاً كريماً على وجهاء المدينة وكان في اثناء مروره في الطرقات ينثر الذهب على الناس

وفي عام ١٢٧٨ هـ او ١٨٦١ م توفي المغفور له السلطان عبد المجيد وتولى السلطان عبد العزيز . وفي يوم السبت ٢٦ رجب عام ١٢٧٩ هـ او ١٧ يناير ١٨٦٣ م توفي سعيد باشا في الاسكندرية ودفن فيها

اسماعيل باشا

ولد سنة ١٨٣٠ وتولى سنة ١٨٦٣ وخلع سنة ١٨٧٩ وتوفي سنة ١٨٩٥



ش ٧٠ : اسماعيل باشا

(ترجمة حاله) هو اسماعيل باشا بن ابراهيم باشا بن محمد علي باشا الكبير . وكان لوالده ثلاثة اولاد ذكور اكبرهم البرنس احمد (وُلد عام ١٨٢٥) ثم البرنس اسماعيل

(وُلد عام ١٨٣٠) ثم البرنس مصطفى (وُلد عام ١٨٣٢) وكان البرنس احمد من نوابغ الزمان ذكاه وفطنة كثير الشبه بوالده شكلاً وأخلاقاً ولكنه توفي في اثنى سني حياته بين الشباب والكهولة فاصبح صاحب الترجمة كبير أبناء ابراهيم

وربى اسماعيل باشا في حجر والده وتعلم وتثقف بحياطة جده لان جده رحمه الله كان قد أنشأ لاولاده الصغار واولاد اولاده الكبار مدرسة خصوصية في القصر العالي فيها نخبة من مهرة الاساتذة فتلقى صاحب الترجمة فيها مبادئ العلوم واللغات العربية والتركية والفارسية ونذراً يسيراً من الرياضيات والطبيعات . فلما بلغ السادسة عشرة من عمره بعث به جده مع ولديه المرحومين البرنسين حلیم باشا وحسين بك والمرحوم البرنس احمد باشا مع ارسالية فيها نخبة من شبان مصر الاذكياء الى مدرسة باريس يتولى رياستهم وجيه ارمي اسمه اصطقان بك . فقصوا في تلك المدرسة بضع سنوات تلقوا بها العلوم العالية ثم عادوا الى مصر الاحسين بك فان المنية أدركته هناك . ومن العلوم التي تلقاها اسماعيل اللغة الفرنسية والطبيعات والرياضيات وخصوصاً الهندسة وعلى الاخص فن التخطيط والرسم . وهذا هو سبب شغفه بعد ذلك بتنظيم الشوارع وزخرفة البناء

ولما عادت الارسالية كان عباس باشا الاول والياً على مصر فمكث اسماعيل معه على صفاء ومودة حتى وقع بين عباس باشا وسعيد باشا نقور متبني على اختلاف في اقتسام التركة وانحاز سائر افراد العائلة الخديوية الى سعيد وفي جملتهم اسماعيل . فساروا كافة الى الاستانة ورفعوا دعواهم الى جلالة السلطان فصدرت الارادة الشاهانية بانفاذ المرحوم فؤاد باشا الصدر الاعظم وكان يومئذ فؤاد افندي وجودت افندي وهو جودت باشا المؤلف الشهير الى مصر . فأتيا وسوياً الخلاف وتصلح افراد هذه العائلة الكريمة فعادوا الى مصر الا اسماعيل فانه بقي في الاستانة وتعين عضواً في مجلس أحكام الدولة العلية

وفي سنة ١٨٥٤ توفي عباس باشا الاول وتولى عمه سعيد باشا فعاد صاحب الترجمة الى مصر فولاه عمه المشار اليه رئاسة مجلس الاحكام فاهتم بشأنه أعظم اهتمام ونظمه على مثال مجلس أحكام الدولة العلية

وفي عام ١٨٦٣ توفي المغفور له سعيد باشا فأفضت ولاية مصر الى اسماعيل باشا وهو خامس ولايتها من السلالة الحميدية العلوية فأخذ منذ تبوئه الاحكام في رفع شأن هذه الديار واعادة رونقها الذي كان لها في عهد محمد علي باشا فأطلق يده في النفقة

لتنظيم الشوارع وتشديد الابنية وانشاء المشروعات النافعة على أنواعها مما سيأتي تفصيله غير مبال بما قد يجري اليه ذلك من الضيق وكانت ولاية مصر تنتقل في الاسرة الخديوية الى من يختاره جلالة السلطان الاعظم بقطع النظر عن علاقته بالوالي السابق . وكان ولاية مصر يلقبون بالعزيز أو الوالي أو الباشا وإذا لقبوا أحياناً بالخديوي فأنما يكون ذلك على سبيل التجميل والتفخيم أما اسماعيل باشا فهو أول من نال رتبة الخديوية ولقب الخديوي فأصبحت ولاية مصر أرنأ صريحاً في نسله ينتقل منه الى أكبر أولاده ومنه الى أكبر أولاده وهكذا على التعاقب . وهاك أهم نصوص الفرمان المؤذن بذلك الصادر في ١٢ جمادى الاولى سنة ١٢٩٠ هـ الموافق ٨ يوليو عام ١٨٧٣

الفرمان الخديوي

« ان كيفية وراثه الحكومة المصرية المقررة في فرماننا الصادر ثاني ربيع الآخر عام ١٢٨٥ هـ قد غيرت على وجه ان تنتقل الخديوية من متبوني كرسيا الى بكر أبنائه ومن هذا الى بكر أبنائه أيضاً وهلم جراً علماً بأن ذلك أدنى الى المصلحة واشد ملاءمة لاحوال البلاد المصرية . واختصاصاً لك بانعطافي الذي صرت له أهلاً بحسن سعيك واستقامتك واجتهادك وأمانتك وأماناً لذلك اجعل قانون الوراثة الخديوية مصر ومتعلقاتها وما يتبعها من البلاد وقائماتية سواكن ومصوع وتوابعها كما تقدم بيان . بحيث تكون الولاية لبكر أبنائك ثم لبكر أبنائه من بعده . فإذا لم يرزق من تولى الخديوية ولداً ذكر آكانت الولاية من بعده لا كبر اخوته أو لا كبر بني أخيه الا كبر كما تقرر . ولا تكون هذه الوراثة لابناء البنات . ولاجل تأييد هذه الاحكام ينبغي أن تكون الوصاية في حال كون الوارث قاصراً على الصورة الآتية وهي :

« اذا توفي الخديوي وكان كبير ولده قاصراً أي غير بالغ من العمر ثماني عشرة سنة يكون هذا القاصر بالحقيقة خديوياً بحق الوراثة فيصدر اليه فرماناً بوجه السرعة . واذا كان الخديوي المتوفي قد نظم قبل وفاته أسلوباً للوصاية وعين كيفيتها وذوي ادارتها بصك مثبت بشهادة اثنين من رؤساء حكومته فأولئك الاوصياء يقبضون اذ ذاك على أزمة الاعمال عقب وفاة الخديوي . ثم ينهون بذلك الى الباب العالي فيثبتهم في مناصبهم . ولكن اذا توفي الخديوي بغير وصية وكان ابنه قاصراً فجلس الوصاية عند ذلك يؤلف من متولي ادارة الداخلية والحرية والمالية والخارجية والحقانية وقائد العسكر ومفتش المديرية . فيجتمع هؤلاء الذوات وينتخبون

للخديوي وصياً باجماع الرأي أو بأغليته فإذا تساوت الآراء لاثنتين من المنتخبين كانت الوصاية لارفعهما رتبة باعتبار الترتيب السابق من الداخلية فما بعدها . ويشكل مجلس الوصاية من الباقيين فيباشرون جميعاً أمور الخديوية ويعرضون ذلك لسلطنتنا السنية لصدق عليه بالفرمان الشريف . وكما انه لا يجوز تبديل الوصي وتغيير هيئة الوصايا قبل انتهاء مدتها في الصورة الاولى أي فيما اذا كان تنظيمها بحكم وصية الخديوي المتوفي فكذلك لا تغير في الصورة الثانية . وأما اذا توفي الوصي أو أحد اعضاء مجلس الوصاية في خلال تلك المدة فينتخب بدل الاول احد اعضاء المجلس وبديل الثاني احد ذوات المملكة . وبمجرد بلوغ الخديوي القاصر ثماني عشرة سنة يكون راشداً فيباشر ادارة أمور الخديوية وذلك مما تقرر لدينا واقضته ارادتنا السنية

« ولما كان تزايد عمارة الخديوية المصرية وسعادة حالها ورفاهة سكانها من أهم الامور لدينا وكانت ادارة المملكة المالية ومنافعها المادية المتوقف عليها تكامل وسائل الراحة وتوفر أسباب السعادة عائدة على الحكومة المصرية رأينا أن نذكر كيفية تعديل الامتيازات وتوضيحها على شرط بقاء جميع الامتيازات الممنوحة سابقاً للحكومة المصرية . وذلك أنه لما كانت ادارة المملكة الملكية والمالية بجميع فروعها وأحوالها ومنافعها عائدة بالحصص على الحكومة ومتعلقة بها وكان من المعلوم أن ادارة أي مملكة وحسن انتظامها وتزايد عمراتها وسعادة سكانها مما لا يتم الا بالتوقيق والتطبيق بين الادارة العمومية والاحوال والموقع وأمزجة السكان وطبائهم فقد منحناكم الرخصة المطلقة في وضع القوانين والنظامات الداخلية حسب الحاجة وال لزوم . ولاجل تسهيل تسوية المعاملات سواء كانت من قبل الرعية أو من قبل الحكومة مع الاجانب وتوسيع نطاق الصناعة والحرف وتوفير أسباب التجارة منحناكم أيضاً الرخصة التامة في عقد المشاركات وتجديد المفاوضات مع مأموري الدول الاجنبية في أمور المملكة الداخلية وغيرها على شرط أن لا يكون ذلك موجباً للاخلال بمعاهدات الدول السياسية

« ولكن خديوي مصر حازراً لحق التصرف المطلق في الامور المالية قد أعطيت له الرخصة في عقد القروض من الخارج بغير استئذان عندما يجد لذلك لزوماً على شرط أن يكون القرض باسم الحكومة المصرية . وبما أن أمر المحافظة على المملكة وصياتها من الطوارق (وهو أهم الامور وأحوجها الى العناية) من أقدم الوظائف المختصة بخديوي مصر قد منحناه الاذن المطلق بتدارك أسباب المحافظة وتنفيذها على

مقتضى ضرورات الزمان والحال وبتكثير أو تقليل عدد العساكر المصرية الشاهانية حسب اللزوم بغير تقييد ولا تحديد . وأبقينا كذلك لخدوي مصر امتيازها القديم بمنح الرتب العسكرية الى رتبة ميرالاي والملكية الى الرتبة الثانية على شرط أن تكون المسكوكات المضروبة في مصر باسمنا الشاهاني وتكون أعلام العساكر البرية والبحرية في القطر المصري كأعلام عساكرنا السلطانية بلا فرق أو تميز . ولا يجوز لخدوي مصر أن ينشئ البوارج المدرعة بغير استئذان أما سائر السفن والبوارج في استطاعته أن ينشئها متى شاء انتهى

وقد امتاز اسماعيل باشا عن سائر ولاة مصر قبله أنه حجب سكنى الديار المصرية الى الاجانب من جالية أوروبا وأميركا وغيرها بما مهده من وسائل الراحة والطمأنينة مع الاخذ بناصرهم وتأييد مشاريعهم وتنشيطهم وتوسيع نطاق التجارة فتقاطروا اليها أفواجا وأقاموا فيها على الرحب والسعة لما آتسوه من الكسب الحسن والعيش السهل وفي عام ١٨٦٩ احتفل اسماعيل باشا بافتتاح ترعة السويس وكان قد بوشر بحفرها على عهد عمه سعيد باشا فحضر ذلك الاحتفال ملوك أوروبا أو من يقوم مقامهم . وكان له رنة بلغ صداها أربعة أقطار المسكونة ما أعده فيه اسماعيل من وسائل الزينة مما قد تقصر عنه هم الملوك العظام . وفي جملة ذلك أنه بنى الاوبرا الخديوية بالقاهرة لتكون مسرحاً يشاهد فيه ضيوفه صنوف التمثيل وكانت المدة غير كافية لتشيد ذلك البناء فبذل الدرهم والدينار فلم تمض خمسة أشهر حتى تم البناء وسائر معدات التمثيل على ما نشاهده الآن وهو من المسارح التي لا مثيل لها الا في عواصم أوروبا العظمى

قناة السويس

ويجدر بنا في هذا المقام أن نأتي على تاريخ هذه القناة من أقدم أزمانها فنقول : لا يخفى أن الفاصل بين البحرين الأبيض والأحمر برزخ السويس وما برح ملوك مصر من عهد الفراعنة يسعون في الوصل بينهما لتسهيل طرق التجارة بين الشرق والغرب ولم يكن الناس اكتشفوا رأس الرجاء الصالح فكان برزخ السويس فاصلاً بين الشرق والغرب فاهتم رجال السياسة من الملوك وغيرهم في الوصل بينهما بحيث تجري السفن من الواحد الى الآخر ولو بقناة صغيرة . ولكن القدماء كانوا يعتقدون أن البحر الأحمر أعلى من البحر الأبيض المتوسط فخافوا اذا فتحوا ما بينهما أن تطوف الماء وتغرق البلاد فوجهوا عنايتهم الى الوصل بين البحرين بطرق أخرى . ويقال

بالاجمال أن مساعيهم كانت ترمي الى احدى ثلاث طرق وهي (١) الوصل بينهما بواسطة النيل والصحراء (٢) بواسطة النيل وفروعه (٣) بواسطة ترعة مألحة - واليك خلاصة السعي في كل منهما :

١ - الوصل بين البحرين بالنيل والصحراء

هذه أقدم طرق الاتصال بينهما وأول من شرع بها مريرج أحد ملوك العائلة السادسة الفرعونية في القرن السابع والثلاثين من قبل الميلاد وأمه حنو من العائلة الحادية عشرة . وبعض المؤرخين يذهب الى أن بطليموس فيلادلفوس هو أول من أوجد هذا الاتصال في القرن الثالث قبل الميلاد ولعل الصواب انه أعاده بعد إهماله وكان الاتصال المذكور يتم بطريق الصحراء بين برنيس على البحر الأحمر وقط على النيل بقرب قوص بمصر العليا . فكانت المنقولات تحمل على الجمال أو نحوها من برنيس الى فقط ومن هناك تنقل على مراكب نيلية الى البحر المتوسط عن طريق دمياط أو رشيد . وما زالت هذه الطريق عظيمة الأهمية حتى اكتشفوا رأس الرجاء الصالح جنوبي أفريقيا سنة ١٤٩٧ م فأنحطت أهميتها ولما فتح خليج السويس كادت تهمل بالكلية لكنها لا تزال تستعمل في بعض الاحوال . وقد أصبح الاتصال الآن بين القصير على البحر الأحمر وقنا على النيل عوضاً عن برنيس وقط وقد يكون الى فقط ولا تستعمل الا اذا كان المقصود المواصلة بين البحر الأحمر ومصر العليا رأساً

٢ - الوصل بواسطة النيل فقط

لا بد قبل الكلام في ذلك من كلمة نقولها في تاريخ فروع النيل لأنها الآن غير ما كانت عليه في عصر الفراعنة والبطالسة والرومان . فالنيل الآن ينقسم بقرب القاهرة الى فرعيه الكبيرين فيسيران شمالاً يمر الشرقي منهما بينها فبت غمر فسمنود فالتصورة وينتهي الى البحر المتوسط بالقرب من دمياط . والغربي يمر بمنوف فكفر الزيات ففسوق الى أن يصب في ذلك البحر بالقرب من رشيد . وهذان الفرعان هما الفرعان الوحيدان للنيل الآن ولما يتفرع منهما غير الترع الاصطناعية

أما في الأزمنة الحالية فكانت لها فروع أخرى كبيرة أكبرها منشعب من الفرع الشرقي . وكيفية ذلك ان هذا الفرع بعد أن يصل الى قرب بنها يسير منه فرع غربى ينقسم الى عدة فروع تنتهي الى البحر المتوسط بثلاثة تصب عند بحيري المنزلة والبرلس أهمها فرع كبير شرقي يقال له فرع بلوسيوم كان يخرج من الفرع الشرقي قرب بنها ويسير نحو الشمال الشرقي فيمر ببواسيس (تل بسطة) فالصالحية فدقنة الى أن يصب

في البحر المتوسط بالقرب من بلوسيوم (طينة) شمالي القرما . أما بحر القلزم أو البحر الاحمر فكان متصلاً بالبحيرة المرة الكبرى بمضيق صالح لسير السفن وكانت هذه البحيرة خليجاً يدعى خليج هيروبوليس نسبة الى مدينة كانت قائمة على مسافة قصيرة من رأسه بالقرب من فيثوم (تل المسخوطة)

والوصل بين البحرين بواسطة النيل يتم بحفر ترعة موصلة بين النيل والبحر الاحمر أما البحر المتوسط فان النيل يصب فيه . وأول من فكر في ذلك سبتي الاول من ملوك العائلة التاسعة عشرة فاراد ان يصل النيل بالبحيرة المرة بترعة . ويظن ارستوتل وسترايو وبلينيوس ان سيزوستريس (رعمسيس الثاني أو الاكبر) هو أول من فعل ذلك في الجيل الرابع عشر قبل الميلاد . وربما كان ظنهم هذا مبنيّاً على ان هذا الملك هو الذي أسس مدينة فيثوم المتقدم ذكرها فرجحوا انه احتفر اليها ترعة من النيل ليربها . وهذه التربة توصل بين النيل وخليج هيروبوليس فيم الاتصال المطلوب . أما المعول عليه بالاسناد الى المصادر التاريخية الوثيقة ان أول من أخرج ذلك الى حيز الفعل انما هو الملك نخاو الثاني من العائلة السادسة والعشرين (سنة ٦١٠ ق م) فاحتفر ترعة تنشأ من فرع بلوسيوم عند بوباستس بالقرب من الزقازيق وتسير فيما يدعى الآن وادي القتال حتى هيروبوليس ويقال ان امتداد هذه التربة كان ٦١ ميلاً من الاميال الرومانية (نحو ٥٢ ميلاً انكليزياً)

فلما استولى الفرس على مصر أممها الملك داريوس (دارا) بن هستاسيس سنة ٥٢٠ ق م وكان المضيق بين هيروبوليس والبحر الاحمر كاد يتلىء من الرواسب فامر بحفره وتوسيعه وكان طوله نحو عشرة أميال . ولا تزال آثاره باقية الى هذا العهد بالقرب من شالوف عند الطرف الجنوبي للبحيرة الكبرى وترعة الاسماعيلية . ويشاهد هناك بعض الآثار الفارسية الدالة على صحة ذلك . وكان المعروف اذ ذاك ان البحر الاحمر أعلى من النيل كما تقدم فلم يجسر نخاو ولا داريوس على ايصال ترعتهما هذه الى الخليج تماماً خشية ان يختلط الماء ان أو يطوف المالح على العذب . فتمت المواصلة اذ ذاك على هذه الصورة : تسير السفن من البحر المتوسط في فرع بلوسيوم الى بوباستس ومنها في تلك التربة الى هيروبوليس ومن هذه كانوا ينقلون المحمولات الى مراكب البحر الاحمر على الدواب أو غيرها فكانوا يقاسون في ذلك بعض المشقة . فلما تولى بطليموس فيلاذفوس وجه اهتمامه الى اصلاح ذلك الخلل سنة ٢٨٥ ق م فاحتفر ترعة موصلة بين هيروبوليس ورأس البحر الاحمر وترعة

أخرى من هيروبوليس الى خليج هيروبوليس ووسع المضيق . فاصبح هناك ترعتان كلتاهما متصلة بالبحر الاحمر وأخذ حواجز واحتياطات أخرى لمنع طفو المياه المالحة على العذبة بحيث يمكن للسفن ان تمر الى الخليج وإلى البحر الاحمر مع توقي الطغيان . وابتنى عند مصب الخليج في البحر الاحمر مدينة دعاها ارسينوا جعلها محطة بحرية تنتهي اليها المراكب القادمة عن طريق النيل وتقلع منها السائرة في البحر الاحمر

ثم أخذ ماء النيل يتحول عن فرع بلوسيوم شيئاً فشيئاً حتى جف ماؤه فبطلت تلك التربة . حتى اذا كان الاسلام وفتحت مصر على يد عمرو بن العاص أمره الخليفة بانشاء ترعة يسهل نقل المؤن عليها الى الحجاز فاحتفر قناة دعاها خليج امير المؤمنين فابتدأ بها عند مصر القديمة حيث يبتدىء خليج مصر اليوم فسار بها في ظاهر القسطنط حتى القاهرة ومنها الى المطرية ومنها الى بوباستس حيث تبتدىء التربة القديمة ومن بوباستس الى البحر الاحمر . وما زالت تسير السفن في خليج امير المؤمنين الى أيام الخليفة المنصور فأمر بردمه منعاً لامتداد العلوين الذين ثاروا في المدينة . وما زال مردوماً الى الآن . ويقال ان الحاكم بأمر الله الفاطمي أمر بحفره سنة ١٠٠٠ للميلاد لتسير فيه السفن الصغيرة ثم أعمل فطمرته الرمال . وظل من آثاره الى عهد غير بعيد الخليج الذي كان يقطع القاهرة من الجنوب الغربي الى الشمال الشرقي وهو المعروف بخليج مصر . كان ينشأ من ثم الخليج عند مصر القديمة ويسير نحو الشمال الشرقي وقبل ان يبلغ نظارة المالية ينعطف نحو الشرق الجنوبي حتى جامع السيدة زينب فيعود الى سيره نحو الشمال الشرقي فيمر بجانب بركة الفيل ثم سراي درب الجواميز فتكية الجبانية ثم يقطع شارع محمد علي فيمر بجانب سراي منصور باشا الى ان يقطع السكة الجديدة قرب اتصالها بشارع الموسكي فيمر تاركاً كنيسة اللاتينيين وكنيسة السريان الى يساره وكنيسة الارمن وكنيسة القبط الى يمينه الى ان يصل الى بداية سكة مرجوش فيتركها الى يمينه ثم يقطع سور القاهرة عند باب الشرية ويسير خارج القاهرة الى شارع الظاهر فيمر تاركاً جامع الظاهر الى يمينه حتى يلتقي بترعة الاسماعيلية وهناك ينتهي

وكانت قائمة هذا الخليج قاصرة على وي المدينة وبعض ضواحيها وكانوا يحتفلون بفتحته سنوياً عند وفاء النيل فلما توزعت المياه في القاهرة بالانابيب الى المنازل لم تبق له قائمة فأذنت الحكومة لشركة ترمواي القاهرة بردمه ومد خط الترمواي فوقه وهو الفرع المعروف بترماوي الخليج الآن

٣ - الوصل بينهما بقناة مالحة

وهي الباقية الى الآن نعتي قناة السويس . وقد فكر في حفرها الفراغة ولكنهم خافوا طغيان الماء كما تقدم . وفكر فيه أيضاً المسلمون منذ فتحوا مصر - فذكروا ان عمرو بن العاص أراد فتح قناة توصل بين البحرين فتعه عمر بن الخطاب لئلا يتخذها الروم طريقاً الى الحجاز . وأراد ذلك الرشيد بعده على ان يحفر ترعة مما يلي بلاد الفرمانحو بلاد تيس بحيث يكون مصب البحر الاحمر في البحر المتوسط كما هو حاله اليوم فشاو وزيره يحيى بن خالد فقال له « اذا مخطف الروم الناس من المسجد الحرام والطواف وذلك ان مراكبهم تنهي من بحر القلزم (الاحمر) الى بحر الحجاز فطرح سراياها مما يلي جدة فيخطف الناس من المسجد الحرام ومكة والمدينة » فامتنع عن ذلك . وربما فكر فيه غيره من ملوك المسلمين ولم يخرجوه الى حيز الفعل

ثم ذهبت دولة العرب وأخذ الافرنج يهون من سباتهم وسعوا في اكتشاف الطرق التجارية - وكانت التجارة بين اوربا والمشرق في الاجيال الاخيرة محصورة على نوع ما في فينيسيا (البندقية) وكان الفينيسيون ابرع الناس فيها وأكثرهم اشتغالا بالاسفار بين البحرين عن طريق مصر . فلما اكتشف رأس الرجاء الصالح تحولت تلك التجارة الى يد البرتغاليين فشق ذلك على الفينيسيين فاهتموا بانشاء ترعة توصل بين البحرين فخابروا سلطان مصر إذ ذاك (قنسو الغوري) وما زالت الاخبارات بهذا الشأن دائرة حتى الفتوح العثماني سنة ١٥١٧ م فبطلت وأعمل المشروع . فلما كانت الحملة الفرنسية اهتم نابليون بونابرت بذلك الاتصال بواسطة برزخ السويس فاستكشف البرزخ ومعه المهندس الشهير موسيو لابر سنة ١٢١٣ هـ او ١٧٩٨ م وتفحصاه تفحصاً مدقّقاً فزعم لابر ان البحر الاحمر يعلو المتوسط ٣٠ قدماً فعدل عن فتح ترعة موصلة بين البحرين رأساً وقدم التقرير الآتي ويتضمن أفضل ما رآه من الطرق :

(١) الاتصال بواسطة النيل وفروعه وذلك بترعة من الاسكندرية الى الرحمانية على فرع رشيد . وفي النيل من هناك الى القاهرة وبحلج امير المؤمنين من القاهرة الى البحيرة المرة حيث يقام حواجز . ومن هناك الى السويس بترعة مالحة

(٢) الوصل بين البحرين رأساً بان يحفر ترعة بين السويس والبحيرة المرة وترعة اخرى بين البحيرة المرة وبلوسيوم . الا ان هذا التقرير لم يباشر تنفيذه قبل ان قضى على تلك الحملة بالانسحاب من مصر

وفي سنة ١٢٥٥ هـ او ١٨٣٧ م أنشأت شركة البواخر الشرقية خطاً تجارياً بين الهند وانكلترا عن طريق برزخ السويس بأن تأتي المنقولات في البحر المتوسط الى أول البرزخ فتنتقل في البر الى السويس ومنها في البحر الاحمر الى الهند وغيرها

وفي سنة ١٢٦٤ هـ او ١٨٤٦ م تعينت لجنة مختلطة للنظر في تقرير لابر فقروا أن الفرق بالارتفاع بين البحرين لا يعابه الا أنها انحلت ولم تصل الى نتيجة وترك ذلك الى أحد أعضائها الموسيو تالابوت فكان من رأيه تتبع التربة القديمة من السويس الى تل بسطة (قرب الزقازيق) رأساً واحتقار ترعة من هناك الى رأس الدلتا حيث القناطر الحيرة الآن فتقام لها قناطر تسير عليها مياه تلك التربة الى البر الغربي ومن هناك تم التربة الى الاسكندرية . فكانه يريد ايصال البحرين بترعة تمر بين السويس والاسكندرية وتقطع رأس الدلتا فلم يصادف مشروعه استحساناً لما كان يحول دون ذلك من المشاق . ثم قدم الحواجز بارولت تقريراً من مقتضاه أن يوصل البحر الاحمر ببحيرة المنزلة الى دمياط ثم يقطع النيل وتم التربة الى رشيد فيقطع فرع رشيد أيضاً وتوصل التربة الى الاسكندرية فلم يصادف هذا مجاحاً أيضاً لمشابهته بمشروع تالابوت

وفي سنة ١٢٧١ هـ او ١٨٥٥ م اهتم لبنان بك وموجل بك تحت ادارة الموسيو دلسبس في أمر هذه المواصلة بعد أن حصل هذا الاخير على البراءة في ذلك من سعيد باشا والي مصر إذ ذاك فأقروا على وجوب فتح ترعة في خط مستقيم بين السويس وبلوسيوم مارة في البحيرات المرة فبحيرة التماسح فالمنزلة . وأن تصل هذه التربة من طرفيها بحواجز عند التقائها بالبحرين . وأقر أيضاً على احتقار ترعة عذبة من بولاق مصر توصل المياه الى بلوسيوم . فعمل الموسيو دلسبس تقريراً في ذلك وعرضه سنة ١٨٥٦ على لجنة دولية مؤلفة من نواب دول أستراليا وانكلترا وفرنسا وإيطاليا وهولندا وبروسيا واسبانيا فدخلت فيه تعديلات من مقتضاها أن تنتهي تلك التربة من طرفها الشمالي في نقطة على مسافة ١٧ ميلاً ونصف الى الغرب من بلوسيوم حيث بورت سعيد الآن وسبب ذلك أن مياه البحر المتوسط هناك عمقها بين ٢٥ و ٣٠ قدماً على مسافة ميلين من الشاطئ أما عند بلوسيوم فلا تبلغ هذا العمق الا على مسافة خمسة أميال . وأن تغفل الحواجز عند طرفي التربة . وتم الاتفاق على ذلك وأخذوا في العمل وانتهى حفرها في ١٩ نوفمبر سنة ١٨٦٩ في زمن الخديوي اسماعيل فاحتفل

فتحتها احتفالاً عظيماً حضره ملوك أوروبا أو مندوبوهم كلف مصر نحو مليون جنيه القناة والحكومة المصرية

تم إنشاء هذه القناة بعقود مبرمة بين الحكومة المصرية والشركة التي أنشأتها. فأول عقد أبرم في ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٥٤ بين سعيد باشا والي مصر وبين فردينان دلبس صاحب المشروع وأذن له بمصادقة السلطان عبد المجيد بتشكيل شركة من متبولي العالم لجمع المال اللازم لحفر القناة الموصلة بين البحرين ويكون لها حق الاتقاع بربعها ٩٩ سنة من يوم فتحها. وأنه بعد انقضاء المدة المذكورة تحل الحكومة محل الشركة فيأول إليها جميع حقوقها وتصير التبعة وما يتبعها من الابنية ملكاً لها الا الادوات والاثاث فانها تدفع أثمانها. وتعهد سعيد باشا في ذلك العقد أن يشارك الشركة هو وحكومته لاجراج هذا المشروع لحيز الوجود. وتعهد في لائحة صدرت بعد سنتين أن يكون أربعة أخماس القفلة الذين يشتغلون في حفر القناة من المصريين واشترطت أشياء أخرى لمصلحة الشركة

وتعهدت الشركة من الجهة الاخرى أن تجز العمل في ست سنوات وأن تسكفل هي بالنفقات اللازمة وان القناة تكون طريقاً حراً لكل طارق بلا تفريق بين الدول أو الامم وأن يكون للحكومة المصرية ١٥ في المئة من صافي الربح ولها أن تشتري من أسهم الشركة المقدار الذي تريده

واضطرت الحكومة سنة ١٨٦٦ الى عقد وفاق ثالث مع الشركة يقضي على الحكومة بغرامة - وذلك ان السلطان عبد العزيز اعترض على تعهد سعيد باشا بتشغيل المصريين في القناة رغم ارادتهم واعتبر ذلك من قبيل السخرة الجبرية وهي تخالف الحرية الشخصية فاضطر اسماعيل باشا وهو الخديوي يومئذ أن يدفع للشركة غرامة مقدارها مليون ونصف من الجنيهات

ابتدأت الشركة بالحفر سنة ١٨٥٩ واعلنت الاكتساب باسمها فاشتريت الحكومة المصرية على عهد سعيد باشا ١٧٧ ٦٤٢ سهماً وذلك بعدد نحو ٤٤ في المئة من رأس مال الشركة واشترت فرنسا ٢٠٧ ١٦٠ سهماً أي نحو ٥٢ في المئة ولم تشتتر انكلترا الا ٨٥ سهماً

فتفتحت القناة للملاحة سنة ١٨٦٩ ويبد الحكومة المصرية ٤٤ في المئة من أسهمها ثم كان ما سيأتي ذكره من تهور اسماعيل في النفقات على البلاد وعلى نفسه واضطر للاموال فجعل يبذل مما في يديه من الاسهم. واحتاج أخيراً الى مبلغ كبير وكان لا يزال

عنده من الاسهم ١٧٦٠٠٠ فتقدمت فرنسا لاقتباها فانتهت انكلترا لما يترتب على ذلك من تغلب نفوذ فرنسا في ذلك الطريق. فما زالت تسعى حتى ابتاعت تلك الاسهم بمبلغ ٤ ٠٠٠ ٠٠٠ جنيه وهي لو بقيت الى اليوم لبيعت بثلاثين مليوناً أو أكثر وتورط اسماعيل في السخاء فاحتاج الى مال آخر فاقترض مليون جنيه من شركة السديكات الكبرى ورهن عندها حصة مصر من ارباح القناة أي ١٥ في المئة. فلما اقتضى اسرافه بداخل أوروبا في الشؤون المالية المصرية ظهر المولحين بالبحث والتفتيش ثقل ما تحمته مصر من الديون فوضعوا قانون التصفية وعجزت مصر عن دفع المليون المذكور فتنازلت عن الرهن وتألفت شركة فرنساوية دفعت الدين وقامت مقام مصر في الاستيلاء على حصتها المشار إليها. ويقدررون جملة ما وصلها من ذلك بأربعين مليون جنيه

وكان اسماعيل قبل بيع أسهم القناة قد باع ارباحها لعشرين سنة فلما باع الاسهم لانكلترا سوت مسألة تلك الارباح بأن تسدها الحكومة المصرية بأقساط مقدارها ٢٠٠ ٠٠٠ جنيه كل سنة الى سنة ١٨٩٦

وأرادت الشركة أن تمد أجل امتيازها فعرض المستشار المالي ذلك بصفة مشروع يقضي بأن تزيد الحكومة مدة امتياز الشركة ٤٠ سنة فضلاً عن السنين الباقية بحيث يصير آخرها سنة ٢٠٠٨ وتقضى مصر في مقابل ذلك أربعة ملايين جنيه تستولي عليها في أتماء أربع سنوات (من سنة ١٩١٠ — ١٩١٣) ويكون لها من سنة ١٩٢١ حصة من الربح تبدأ بأربعة في المئة وتزداد الى ستة فثمانية ف عشرة ف اثني عشر في المائة الى سنة ١٩٦٩ وهي نهاية مدة الامتياز الاصلية. ومتى دخلت مدة الامتياز الجديد تستولي الحكومة المصرية فيه على خمسين في المئة من أرباح الشركة الصافية. ومتى انتهت هذه المدة سنة ٢٠٠٨ تصير القناة وأبنيتها ملكاً لها الا الادوات والاثاث فتدفع قيمتها ولما نشر المستشار مشروعه طلب الاهلون عقد الجمعية العمومية لاخذ رأيها فيه وفوضت الحكومة إليها الحكم القضائي بشأنه فقررت رفضه

عود الى اسماعيل

وفي السنة الاولى من ولاية اسماعيل حلت ركاب السلطان عبد العزيز في القطر المصري فلاقي ترحاباً جديراً به

وفي عام ١٨٧٢ تعدى الاجباش على حدود مصر مما يلي بلادهم وأمروا بعضاً

من رعايا مصر فبعثت الحكومة المصرية تطلب ردم فجرت الخبايا قال ذلك الى حرب جرد فيها اسماعيل حمله لم تقل غرضاً فانتهدت الحرب بالصلح . وفي عام ١٨٧٣ شخص رحمه الله الى دار السعادة فاحتفل بقدمه فداد وقد حاز رضى الحضرة الشاهانية ورجال المايين المايوني . وفي تلك السنة احتفل بزواج أمجاله الثلاثة وهم المغفور لها توفيق باشا الحديوي السابق والبرنس حسن باشا والبرنس حسين باشا احتفالاً واحداً تحدث به الناس زمناً طويلاً وما زاد ذلك الاحتفال بهجة انهم نالوا عندئذ رتبة الوزارة الرفيعة معاً

الديون المصرية

ولثأت الآن الى امر هو أهم الامور المتعلقة بصاحب الترجمة وعليها مدار ما آل اليه أمره - نريد به أمر الديون التي تعاظمت على مصر في أيامه . وايضاحاً لذلك نذكر ملخص تاريخ الدين المصري . فأول من وضع جرثومة الدين المصري المغفور له سعيد باشا عام ١٨٦٢ وقدره الاسمي ٣ ٢٩٢ ٨٠٠ جنيه بفائدة ٧ بالمائة وفي السنة التالية تولى صاحب الترجمة تحت الحكومة المصرية فأخذ في البذل والانفاق في التشييد والبناء وغير ذلك حتى زادت النفقات على الدخل . فكان اذا أراد عملاً جنح الى الاستقراض لا يبالي بعاقبة ذلك حتى بلغت ديون مصر نحو مئة مليون جنيه فأصبحت حملاً ثقيلاً على الخزينة المصرية وعلى أهالي البلاد لانه كان يضرب الضرائب الفادحة ليني منها فائدة تلك الديون ويستخدم العنف في تحصيلها من الاهالي حتى آل الامر الى مداخلة الدول الاجنبية للمحافظة على أموال رعاياها أصحاب الديون

فتخايرت الدول وتشاورت في أحسن الوسائل لضمان تلك الاموال واستهلاكها فألفت لجنة دولية مشتركة سموها صندوق الدين العمومي صدر الامر العالي بتشكيله في ٢ مايو عام ١٨٧٦ وورد في ذلك الامر ان هذا الصندوق قد انشئ لتأمين أرباب الديون على ديونهم واستلام ما يستحق لهم من الفوائد وغيرها وان الحكومة لا يجوز لها تجديد قرض الا بالاتفاق مع صندوق الدين وان الدعاوي التي يترأى لصندوق الدين رفعها على الحكومة تنظر في المجالس المختلطة

وكانت الديون المصرية قسمين دين الحكومة ودين الدائرة السنية فضموها في ٧ مايو من تلك السنة الى دين واحد فبلغ قدره ٩١ مليون جنيه وسموه الدين الموحد بفائدة ٧ بالمائة ويتم استهلاكه في ٦٥ عاماً . ثم رأى اسماعيل باشا ان توحيد الدين على هذه الصورة لا يتيسر له اتعلمه فأصدر في ١٨ نوفمبر منها أمراً يقول فيه ان

تصدر الحكومة المصرية عليها سندات بمبلغ ٧٧ مليون جنيه تكون ممتازة برهن خصوصي هو السكة الحديدية المصرية وميناء الاسكندرية وفائده ٥ بالمائة وسماء الدين المماثل على ان كل هذه الوسائل لم تكن كافية لاقناع الدول لان الحكومة لم تكن تقوم باستهلاك الديون حسب الشروط فبذلت الدول عام ١٨٧٨ لجنة مالية مختلطة لمراقبة حسابات الحكومة المصرية فرأت فيها عجزاً مقداره مليون ومائتا ألف جنيه فتنازل اسماعيل باشا عن املاكه الخاصة واملاك عائلته للحكومة وهي التي تعرف باملاك الدومين وتقرر في تلك السنة استقراض ثمانية ملايين جنيه ونصف وجعلوا املاك الدومين رهناً لها وهذا هو الدين المعروف بدين روتشيلد

اقلته

وكانت اعمال الحكومة المصرية تجري بمقتضى ارادة الحديوي رأساً اما بعد مداخلة الاجانب باحوال المالية فلم ير اسماعيل بدءاً من جعل حكومته شورية فشكل مجلس النظار برئاسة نوبار باشا وصادق على تعيين ناظرين احدهما انكليزي وهو المستر ولسن للمالية والاخر فرانسواي وهو المسيو بلنير للاشغال العمومية . فرأى مجلس النظار ان يقتصد شيئاً من نفقات الجند فرفت جانباً منهم قنار المرفوتون وجاء جماعة منه وفيهم ٤٠٠ ضابط الى نظارة المالية وامسكوا بنوبار باشا والمستر ولسن وطلبوا اليها دفع ما تأخر لهم من رواتبهم وخاطبوهم بعنف وشدة حتى علت الضوضاء وكادت تأول الى ثورة لولا ان اقبل اسماعيل باشا وخاطب الجند ووعدهم وأمر بانصرافهم اما هم فخلفوا رأوه ذعروا وكانه جاءهم برقبة أو سحر فانكفأوا راجعين . والمظنون ان ذلك حصل بالتواطؤ من قبل وهي اول ثورة عسكرية حدثت في هذا العهد

ثم استقال الوزيران نوبار ورياض تخلصاً من حبه التبعة لما آانسوه في اعمال الحديوي من الخطر فشكل مجلساً آخر برئاسة ابنه توفيق باشا (الحديوي الاسبق) على ان ذلك لم يقلل شيئاً من القلاقل لان الداء لم يكن في المجلس ولكنه كان في مقصد اسماعيل لانه استعظم اغلال يديه بمجلس فيه ناظران اجنيان فقلب هيئة ذلك المجلس في ٧ ابريل عام ١٨٧٩ وأخرج الناظرين الاجنيين وعهد برئاسة المجلس الى المرحوم شريف باشا فعظم ذلك على دولتي انكلترا وفرنسا لانها اعتبرتا تلك المعاملة اهاناً لها فعمدتا الى الانتقام فسمتا في ذلك لدى الباب العالي مبراً وجهراً . وفي ٢٦ يونيو عام ١٨٧٩ صدر الامر الشاهاني بأقالته وتولية المغفور له توفيق باشا

وفي ٣٠ منه سافر اسماعيل باشا من القاهرة الى الاسكندرية ومنها الى اوربا ويقال انه خاطب ابنه توفيق باشا عند سفره قائلاً :

« لقد اقتضت ارادة سلطتنا المعظم ان تكون يا أعز البنين خديوي مصر فأوصيك باخوتك وسائر الآل برّاً واعلم اني مسافر وبودي لو استطعت قبل ذلك ان ازيل بعض المصاعب التي أخاف ان توجب لك الارتباك على اني واثق بحزمك وعزمك فاتبع رأي ذوي شورك وكن أسعد حالاً من أيك »

وما زال بعد سفره مقيماً في أوربا حتى افضت به الحال الى الإقامة في الاسكندرية العلية فأقام فيها الى ان توفاه الله فيها في ٦ مارس عام ١٨٩٥ وله من العمر ٦٥ سنة فحملت جثته الى مصر ودفنت فيها

أعماله وآثاره

قلنا ان اسماعيل باشا كان شديد الشغف بتنظيم المدن حتى قيل انه يريد ان يجعل القاهرة تضاهي باريس بالنظام والترتيب فنظم طرقها ووسع واكثر من فتح الشوارع الجديدة وابتداء الابنية الفاخرة كالأوبرا الملكية والقصور الباذخة في القاهرة والاسكندرية وأعظم تلك الابنية سراي الجزيرة وهي مما تقصر عنه هم الملوك حتى ضربت بها الامثال وانشأ المتحف المصري في بولاق ودار الكتب المصرية وهما من اجل الآثار وأقعهما . اما المتحف فقد انشأه بأمره مارييت باشا وقبره فيه . وكان المتحف أولاً في بولاق ثم نقل على عهد الخديوي توفيق الى سراي الجزيرة ثم نقل في عهد الخديوي عباس الى بناية بنوها له خاصة بجوار قصر النيل

ومارييت باشا فرنساوي الاصل وُلد في بولون سيرمير سنة ١٨٢١ وانشأ على حب الآثار المصرية ودرسها . ثم اتفق سنة ١٨٥٠ ان الانكليز اخذوا الى مصر وفداً لغوياً يبحث في مكاتب الديور المصرية عن الكتابات القبطية القديمة فعثروا في دير بوادي التطرون على أوراق كثيرة أرسلوها الى لندن فاقصدى الفرنسيون بهم وكانوا انما يرجون بالمجانهم هذه العثور على حقائق جديدة تتعلق بتاريخ اليونان . وكان مارييت قد اشتهر بينهم بمعرفة هذه اللغة فعينوه في هذه المهمة براتب مقداره ثمانية آلاف فرنك فسافر في ٤ سبتمبر سنة ١٨٥٠ حتى جاء القاهرة فرأى انه لا يستطيع الذهاب الى ذلك الدير أو غيره الا بوصية من بطريرك القبط وكان البطريرك قد غضب من تصرف الوفد الانكليزي لانهم حملوا ما حملوه من الكتب جبراً . وبعد السعي والالتماس رضي أن يكتب الى مارييت كتاب توصية باسم رئيس دير الانبا مقار . على ان مارييت لم

يكن يرجو الحصول على ذلك الكتاب قبل مضي ١٥ يوماً . فلكي لا يضيع فرصة أخذ يتعهد مشاهد القاهرة فسار الى القلعة . وكان ذهابه اليها سبباً لتغير عظيم في مستقبل حياته لانه أشرف من سورها على ضواحي العاصمة فرأى اهرام الجزيرة واهرام سقارة فتأقت نفسه الى زيارتها وقد نسي ما جاء من أجله فركب الى سقارة وتوغل في صحرائها يتوقع العثور على آثار مهمة لقربها من ايقاض منقذ العظمى فوقب يتفريس في تلك الرمال القاحلة فرأى فيها حجراً نائماً يشبه رأس الانسان فتأمله فاذا هو رأس



ش ٢١ مارييت باشا مؤسس المتحف المصري

أبي الهول . وكان قد شاهد أمثال هذا التمثال قبلاً فلم يهجمه ذلك الا اكتشاف لغزائه ولكنه توسم منه خيراً لما سبق الى ذهنه مما قرأه في استرابون عن آثار منف وما زال حتى وفق الى اكتشاف السراييون في تاريخ طويل فصلناه في ترجمته في مشاهير الشرق الجزء الثاني ولما تولى اسماعيل هم بإنشاء متحف للآثار المصرية فلم يجد أولى منه . وتوفي مارييت سنة ١٨٨٠

أما دار الكتب المصرية فما زالت في درب الجماميز حتى نقلت الى بناية بنوها لها وللمتحف العربي ياب الخلق تفتخر بها مصر على سائر الامصار الشرقية لما حوته

من الآثار العلمية ويمنها جانب كبير من الكتب الخطية التي عجز وجودها
ومن أعمال اسماعيل انه جرّ الماء بالانابيب الى بيوت العاصمة وكان الناس يستقون
قبلاً بالقرب والصهاريج وعم زرع الاشجار في المدن وضواحيها وانار القاهرة بالغاز
وتدارك ما ينجم عن الحريق باستجلاب آلات الاطفاء
وهو الذي نظم معظم فروع الادارة على ما هي عليه الآن فقسم القطر المصري



ش ٧٢ : نوبار باشا أمين الخديوي اسماعيل في انشاء المجالس المختلطة

الى ١٤ مديرية وعين لها المراكز وأسس مجلس النواب ونظمه . ونظم مجالس القضاء
الاھلي والقضاء الشرعي وجعل لكل روابط وحدوداً . ووضع نظام المجالس الحسبية
وانشأ مجلس حسي القاهرة . وعلى عهده أنشئت المجالس المختلطة بمساعي وزيره نوبار
باشا فانفذ سنة ١٨٦٧ الى أوروبا مندوباً مفوضاً لخبرة الدول العظمى في انشاء محاكم
مختلطة تقوم مقام المحاكم القنصلية التي كانت مرجع محاكمة الاجانب في ذلك الحين
ففضى في سعيه هذا سبع سنوات يتردد في أمتائها بين ممالك أوروبا ويفاوض عظماءها

وملوكها والخزينة المصرية مفتوحة بين يديه فاتفق أموالا طائلة ولكنه عاد ظافراً
غافلاً . وقد أراد اسماعيل بتلك المجالس تقليل نفوذ القناصل وحصر التوسط الاجنبي
ولكنها كانت سبباً لزيادة النفوذ واتساع دائرته . وكانت مصلحة البريد قبلاً شركات
أجنبية فانشأ مصلحة البوسطة المصرية وجعلها من المصالح الاميرية كما هي الآن

البريد المصري

كان البريد المصري في زمن محمد علي ينقل على الخيل أو على أيدي السعاة بين
القاهرة والاسكندرية ودمياط ورشيد . ولما تكرر الاجانب شعروا بالحاجة اليه فانشأوا



ش ٧٣ : موتسي بك - أول مديري البريد المصري

بريداً أفرنجياً تولاه رجل ايطالي سنة ١٨٤٠ وتولاه غيره حتى دخل في خدمته ايطالي
آخر اسمه جاكو موتسي وكان نشيطاً درياً فعمل على توسيع نطاقه فانشأ له نحو
سنة ١٨٥٤ فروعاً في دمياط والمنصورة وزققي ودمهور ورشيد وطنطا وغيرها
فقامت المناظرة بين البريد الاوربي وبيد الحكومة المصرية ولم تكن الحكومة
تستطيع الغاء ذلك البريد احتراماً للامتيازات الاجنبية فسعت في ضم البريدين وجعلت
فاتحة ذلك الاتفاق رخصة وقتية أعطاها لصاحبي البريد الاوربي تيتوكين وموتسي

تحويلها إدارة البريد بمصر الى عشر سنوات على أن تقل المراسلات بالسكة الحديدية المصرية مجانياً فكان ذلك فاتحة تنظيم البريد

وتوفي تيتوكين بعد سنتين واستقل موتسي بالعمل وخطر له الرجوع الى بلده فأراد أن يبيع الرخصة لبعض البنوك الافرنجية فاعتصمت الحكومة هذه الفرصة وعرضت على موتسي المذكور أن يعيد البريد للحكومة قبل انتهاء مدة الرخصة ويتولى ادارته بنفسه على شروط رضاها وانضم البريدان سنة ١٨٦٥ وسميا معاً «البوسطة الحديدية» وسمي جاكو موتسي مديراً عاماً عليها وأنعم عليه بالرتبة الثانية مع لقب بك فصار اسمه موتسي بك وهو أول مديري البريد المصري

وتكاثر قدوم الاجانب الى مصر في عصر اسماعيل وزادت الحركة التجارية زيادة كثيرة وزادت الحاجة الى البريد فأنشأ موتسي بك فروعاً له في البلاد والقرى الكبرى في مصر السفلى والعليا وعلى شواطئ البحرين الابيض والاحمر وجعل ديوانه المركزي في الاسكندرية وسن له لائحة وقوانين رسمية وجعل لمراسلاته تعريفة عمومية . وكانت المراسلات تنقل في أول عهد البريد بلا طوابع . فاصطاع موتسي بك طوابع البريد المصري لأول مرة سنة ١٨٦٦ وجعل رسمها في وسطه صورة أبي الهول والاهرام بشكل يضي ويحول اسم البريد وقيمة الطابع

وما زال البريد المصري مستقلاً عن البرد الافرنجية الى سنة ١٨٦٨ ففقد أول معاهدة في هذا السبيل مع بريد النمسا ثم عقد معاهدة أخرى مع بريد ايطاليا وفي سنة ١٨٧٣ عقد معاهدة ثالثة مع بريد انكلترا وفي السنة التالية (١٨٧٤) دخل البريد المصري في اتحاد البوسطة العام

﴿المطابع والجرائد﴾ وحسن اسماعيل مطبعة بولاق وزاد فيها وأمر بترجمة الكتب المفيدة وطبعها ونشرها وأسس معملًا للورق ونشط المطبوعات فلم يكن في القاهرة إلا جريدة الوقائع المصرية تصدر على غير نظام فجعل لها إدارة خاصة بها . وتكاثرت على عهده المطابع والجرائد العربية كجريدة التجارة ومصر والوطن والاهرام والكوكب الاسكندري وروضة الاسكندرية وروضة المدارس واليسوب ونزهة الافكار وحديقة الابصار وبالجملة فقد كانت العالم في أيامه نهضة مرجع الفضل بها اليه لأنه كان يحب العلماء ويحيز المجيدين منهم ويأخذ بتأصيرهم مادياً وأدياً وكان يشهد الاحتفال بامتحان التلامذة بنفسه ويسلم الجوائز لمستحقها يده وقد ينهض عند تقديمها تذهيلاً لهم

﴿المواصلات﴾ ولم يكن في القطر المصري يوم توليه الا خط حديدي ممتد بين القاهرة والاسكندرية فأنشأ كثيراً من الخطوط الأخرى الممتدة الى سائر أنحاء القطر شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً ومد أسلاك التلغراف حتى أوصلها الى السودان وقد بلغت نفقات الخطوط الحديدية والآلات التجارية والعربات والآلات التلغرافية التي أحدثها بين عام ١٢٨١ و ١٢٩٠ ٥ ٩٦٥٨٣٢٧ جنباً على تقدير المرحوم صالح مجدي بك

﴿الابنية﴾ ومن آثاره مدينة الاسماعيلية بناها على قنال السويس وسماها باسمه وجعل فيها الحدائق والقصور وأنشأ المنارات في البحرين الابيض والاحمر وزين حديقة الازبكية بغرس أشجارها وتسورها ورتب فيها الموسيقى وبني بنايات كثيرة



ش ٧٤ : سوق الرقيق في الخرطوم - تاجر يساوم على جارية

بالقرب من طره على طريق حلوان لمعامل البارود والاسلحة الصغيرة أنفق على بنائها مبالغ كبيرة ولكنه لم يستعملها . وبني ليمان الاسكندرية والحمامات المعدنية في حلوان ولولاها لم تعمّر حلوان وبني المرصد بالعباسية وكثيراً من معامل السكر في سائر أنحاء القطر هذا فضلاً عن الترع الكثيرة والجسور الماثلة . ومن أشهر تلك الترع الابراهيمية بالصعيد والاسماعيلية بين القاهرة والسويس . ومن أعظم الجسور كبرى

قصر النيل الموصل بين القاهرة والجزيرة وبنى حوضاً لترميم السفن في السويس ومما تم على يده من الأعمال العظيمة ابطال تجارة الرقيق واتمام فتح السودان واخضاعها فافتتح مملكة دارفور عام ١٢٩١ هـ وما بعدها حتى بلغت جنوده الدرجة الرابعة من العرض وراء خط الاستواء . وعني في تحسين أحوال السودان فهد شلال عيكه . وفتح سككاً كبيراً جنوبي مديرية فشوده طوله ستون ميلاً كان يعيق مسير السفن في النيل الايض فتسهلت طرق التجارة كثيراً . ومن مآثره تسهيل اكتشاف ما غرض من قارة أفريقيا بمد اصحاب الخبرة كما سيأتي في مقدمة الكلام عن الحوادث السودانية

النهضة العلمية في أيامه

وقد علمت ما كان من رواج العلم في زمن محمد علي ثم أصابته صدمة في زمن عباس وسعيد . والاول حالما تولى اقل المدارس كلها إلا واحدة سهاها المدرسة المفروزة لتخريج الضباط البرية والبحرية - حتى مدرسة الطب فانه أبدلها بمدرسة بسيطة لاجراج الاطباء للجيش فقط . وكان يختار من تلامذة هاتين المدرستين جماعة يرسلهم الى اوربا لاتمام دروسهم كما كان يفعل جده محمد علي

وجاء بعده سعيد باشا ولم يكن أكثر رغبة من سلفه في التعليم وكان مع ذلك متقبلاً بنشئ المدارس ثم يأمر باقفاها ثم يفتحها ويقفلها على ما يبدو له أو تمس الحاجة اليه أو تبث الحالة عليه . وكان عباس الاول لما أقفل المدارس استبقى ديوانها فأجهز سعيد باشا على ما بقي وحل ذلك الديوان وما زال محلولاً حتى أعاده اسماعيل

تولى اسماعيل باشا سنة ١٨٦٣ وليس في مصر الا مدرسة ابتدائية ومدرسة ثانوية ومدرسة حرية ومدرسة طبية صيدلية . وكانت هذه المدارس في حالة يرثى لها من الاختلال والتضعف فأمر بتنظيمها وعهد بذلك الى آدم باشا وكان قد تولى ديوان المدارس بعد مختار بك سنة ١٨٣٩ الى سنة ١٨٤٩ فقوض اليه احياء التعليم معها كلفه احياءه . فأنشأ في ناحية العباسية مدرسة ابتدائية ومدرسة تجهيزية ومدرسة حرية للفرسان والمشاة ومدرسة هندسية ومدرسة للطب . واستقدم للمدرسة الحرية مديراً وأساتذة من اوربا وعهد بالمدارس الاخرى الى أساتذة من الوطنيين المتخرجين في فرنسا . ولو أمعنت النظر في الاحوال السياسية التي كانت محيطة باسماعيل لرأيت انشأ هذه المدارس لمثل الغرض الذي أنشأها له جده محمد علي منذ اربعين سنة . لأن غنايته الكبرى كانت متجهة على الخصوص الى المدارس الحرية والى ما يعيها رجالا

يخدمون حكومته . واقتدى بحجده أيضاً في ارسال الشبان الى اوربا لاتمام علومهم وسهل اسماعيل قدوم الاجانب الى مصر ورغهم فيها فأنشأوا المدارس على ما يلائم أغراضهم ولكنها عادت بالنفع على الشبيبة المصرية وكثيراً ما كانت الحكومة تنشط هذه المدارس بالرواتب السنوية . وحدث في أيام اسماعيل نهضة أدبية بمن وفد على مصر من رجال الادب من كل الطوائف وأنشئت الصحف وتآلفت الجمعيات . فرأى الحال ماسة الى زيادة العناية في التعليم فأنشأ نظارة المعارف العمومية وعهد اليها بتنظيم المدارس



ش ٧٥ : علي باشا مبارك - وزير المعارف المصرية

على نمط جديد . فالحقوا مدرسة الحرية بنظارة الحرية وسموا ما بقي من المدارس المدارس « الملكية » تحت نظارة المعارف العمومية وقسموها الى ثلاث طبقات باعتبار درجة التعليم : ابتدائية وثانوية وعليا وأنشأوا مدارس لم تكن من قبل كمدرسة الادارة ثم صارت مدرسة الحقوق ومدرسة دار العلوم ومدرسة الصنائع والفنون في

بولاق ومدرسة المعلمين وأعادوا مدرسة اللسن لتخريج شبان يتولون الترجمة والتحرير في الدواوين. أما التعليم العالي فظل محصوراً في المدرسة التجهيزية وأكثروا
اسماعيل عملاً في ذلك المرحوم علي باشا مبارك

ولم تـمض عشر سنوات من حكم اسماعيل حتى كمل نظام هذه المدارس وعينت الحكومة بإنشاء الكتاتيب في سائر أنحاء القطر فبلغ عددها بضعة آلاف وزاد عدد التلامذة على مئة ألف وفي جملتها مدارس للبنات. غير ما أنشأ الأجانب من المدارس الخصوصية وأكثرها جماعة المرسلين من الطوائف النصرانية



ش ٧٦ : السيد جمال الدين الافغاني في موقف الخطابة

وفي عهده تأسست الحانل الماسونية الوطنية وبجانيته تعزز شأن الجمعية الماسونية في مصر وانتشرت مبادئها حتى انتظم في سلكها نجله المنفور له الحديوي السابق وجماعة كبيرة من أمراء البلاد ووجهائها
وحدثت في أواخر أيام اسماعيل حركة فكرية وافقت قدوم السيد جمال الدين

الافغاني الى مصر فزادت الحركة. وجمال الدين من كبار الرجال كان له مطمح في الإصلاح السياسي فأتى مصر سنة ١٨٧١ على قصد التفرج بما يراه من مناظرها ومظاهرها ولم تكن له عزيمته على الإقامة بها حتى لاقى صاحب الدولة رياض باشا فاستأذنه مساعيه الى المقام واجرت عليه الحكومة راتباً مقداره ألف قرش مصري كل شهر نزلاً أكرمه به لا في مقابلة عمل. واعتدى اليه بعد الإقامة كثير من طلبة العلم واستوروا زنده قاوري واستفاضوا بحره ففاض. وحملوه على التدريس فقرأ من الكتب العالية في قنن الكلام الاعلى والحكمة النظرية من طبيعية وعقلية وفي علم الهيئة الفلكية وعلم التصوف وعلم اصول الفقه الاسلامي. وكانت مدرسته ينته فـعظم أمره في نفوس طلاب العلوم واستجزلوا فوائد الاخذ عنه وأعجبوا بعلمه وأدبه وانطلقت اللسن بالثناء عليه وانتشر صيته في الديار المصرية. ثم وجه عنايته لتزويق حجب الاوهام عن أنوار العقول فذشطت لذلك الباب واستضاءت بصائر وحمل تلامذته على العمل في الكتابة وانشاء الفصول الادبية والحكيمة والدينية فاشتغلوا على نظره وبرعوا وتقدم فن الكتابة في مصر بسعيه. وكان القادرون على الاجادة في المواضيع المختلفة قليلين

فتبع من تلامذته في القطر المصري كنية لا يشق غبارهم ولا يوطأ مضارهم وأغلبهم أحداث في السن شيوخ في الصناعة وما منهم الا من أخذ عنه أو عن أحد تلامذته أو قد اتصلين به وقد ترجمناه مطولاً في الجزء الثاني من تراجم مشاهير الشرق وخلاصة القول ان مصر كانت في أيام اسماعيل زاهرة والناس في رغد ورخاء وخصوصاً بعد ارتفاع أمان الاقطان في أثناء حرب أميركا فان ثمن الفنطار الواحد بلغ ١٦ جنياً فكان سكان هذا القطر السعيد وفيهم الكاتب والشاعر والتاجر والصانع يتحدثون بما ترونه وانامه وتنشيطه. على ان العقول منهم كانوا لا يغفلون عن ذكر ما كان من اسرافه فوق ما يحتمله حال البلاد وتنبأ بعضهم بـتقلب تلك الحال ووقوع مصر في وهدة الدين وتعرضها لمطامع الدول الاجنبية. والواقع انه لم يترك هذه الديار الا وقد بلغت ديونها زهاء مئة مليون جنيه كما رأيت. وهي لا تزال تن من وطأتها الى الآن وكان ذلك من أعظم الاسباب لمداخلة الأجانب في ادارة البلاد ومراقبة أعمالها

على انه لا تـكر ان الاصلاحات التي أجراها ببعض تلك الاموال قد عادت على البلاد بالنفع الجزيل. ولـكننا لا نرى انها تعوض الخسارة كلها وزد على ذلك انه لو

أحسن التصرف في النفقات وسار بها سيراً قانونياً لكانت العواقب أحسن كثيراً ولا أصبحت مصر في غنى عن كل هذه التقلبات . ويقال ان مقدار الاموال التي دفعت من خزينة الحكومة المصرية بأمره بتبرع تسمية المدفوع اليه - بمعنى انه كان يرسل الى المالية تذكرة بمضائه يقول فيها ادفعوا الى رافعه المبالغ الفلاني فيدفعونه وهم لا يعلمون مصيره - فقد جمعت هذه المبالغ فبلغت ٨٤ مليوناً من الجنيهات . فاذا صحت هذه الرواية كان هذا المبلغ وحده كافياً لوفاء دين مصر

صفاته

كان اسماعيل باشا ربة متملىء الجسم قوي البنية عريض الحية كثيث اللحية مع ميل الى الشقرة أما عيناه فكانتا تتقدان حدة وذكاء مع ميل قليل نحو الحول أو ان احداها أكبر من الاخرى قليلاً

وكان جريئاً مقداماً ذا قوة غريزية على اقامة المشروعات كثير العمل لا يعرف التعب ولا الملل ولا مستحيل عنده . وكان ساهراً على ماجريات حكومته لا تقوته فائتة وأما أعمال الدائرة السنية فقد كان يطلع على جزئيات أعمالها وكتباتها فلا يباع قطار من الفحم الا بمصادقته

وكان عظيم الهية جليل المنام لا يستطيع مخاطبه الا الانبياء الى رايه حتى قيل على سبيل المبالغة ان الذين يخاطبونه يندفعون الى طاعته بالاستهواء أو التوم المنطيسي وكان حسن الفراسة قل أن ينظر في أمر الا استطلع كنهه فاذا نظر الى رجل عرف سره أو تنبأ بمستقبل أمره . ومما يتناقلونه عنه انه ادرك مستقبل احمد عرابي وهو لا يزال ضابطاً صغيراً فأوصى المغفور له الخديوي السابق أن لا يرقيه لثلاث يمكن من بث روحه الثورية فتقود الى ما لا محمد عقباه

وكان يتكلم الفرنسية جيداً وهي اللغة التي يخاطب بها الاجانب ويحسن العربية والتركية والفارسية ويحب الفخر والبذخ والابهة وكان منعمساً في الترف مكثراً من السراري والحظايا شديد الوطأة على العامة

ولكنه مع ذلك كان كثير الميل الى تنشيط المعارف ورفع منار العلم . ويؤيد ذلك ان مصر بليت عام ١٨٧٤ م بطغيان النيل فاصابها جهد عظيم فوجه التفاه الى حال المزارعين والتجار فاراد جماعة من تجار الاسكندرية أن يقيموا له تمثالا تذكاراً لفضله فأمر أن يقام بدل ذلك التمثال مدرسة للتعليم

تركته ووصيته

يصير تقدير تركه اسماعيل تقديراً مدققاً لكثرة فروعها واختلاف جزئياتها وتفرقها في البلاد ولكن المعروف من تركته انه استبدل معاشه قبل مماته بأثنين وعشرين الف فدان من الاطيان باع الفين منها للاوقاف العمومية و ١٥٠٠ للجناح العالي فبقي له ١٨٥٠٠ فدان منها ١٢ الف فدان في تفتيش ايتاي البارود وقفها على زوجاته الثلاث في حياتهن ثم يرثها ورثته بعدهن . والباقي وقدره ٦٥٠٠ فدان يقسم على الورثة . وترك غير ذلك مما ورثه عن والده وهو ٥٠٠٠ فدان وهبها لها المرحوم عباس باشا الاول وهي مرهونة و ٩٠٠ فدان وقصراً في حلوان وسراي القصر العالي و ٣٤ فداناً تابعة لها . وما ورثه عن ابنه المرحوم البرنس علي باشا جمالي الذي توفي منذ بضع عشرة سنة وهو ٦٠٠ فدان . وترك في العباسية قصر الزعفران وفي الاستانة قصر ميركون وهو يحتوي على قصرين كبيرين وقصرين صغيرين . وترك فيها أيضاً قناق بازيد وتقدر قيمة أرضه بثلاثين الف جنيه وأصله للمرحوم البرنس حليم باشا ورثه عن اخته زينب هانم فاخذته جلالة السلطان منه ووهبه للفقيد . فهذه التركة كلها ما عدا سراي الزعفران تقسم على الورثة بعد ايفاء ديونه التي تقدر بنحو ١٨٠ الف جنيه

أما وصيته فانه كان قد أضاف ٤٧٠٠ أو ٤٨٠٠ فدان من أطيانه في أيام ولايته الى الاطيان الموقوفة على أهل قواله وقدرها ١٠ آلاف فدان في كفر الشيخ وجعل لنفسه الشروط العشرة في هذا الوقف بما فيها من حق التغيير والابدال . ثم آلت نظارة هذا الوقف اليه ففصل ٤٧٠٠ فدان التي اضافها اليه عملاً بحقه ووقفها على حاشيته كلها ولم يستثن أحداً منهم فرنساوياً كان مثل سكرتيره أو انجليزياً مثل طبيبه أو غيرهما من الاتباع والجواري التي يبلغ عددهن ٤٥٠ جارية عدا ٤٠٠ يضاء كان قد زوجهن باعيان مصر قبل مفارقتها هذه البلاد

وقد أقام صديقه الحميم راتب باشا وكيلاً لحرمه وأوصى أن يعطى ١٥٠ جنيهاً شهرياً وأن تعطى حرمه ٥٠ جنيهاً شهرياً وان يضاف راتبها الى راتبه اذا توفيت في حياته ويؤخذ راتبها كليهما من تفتيش ايتاي البارود

وتأول نظارة وقف قواله بعده الى البرنس زبيدة هانم بنت محمد علي باشا الصغير ابن محمد علي باشا الكبير . وتأول نظارة وقف القصر العالي الى البرنس عثمان باشا فاضل ولهذا الوقف بيوت ونحو ١٢٠٠ فدان من الاطيان ويبلغ دخله نحو ٥ آلاف

جنيه سنوياً . وقد ترك سراي الزعفران لحرمه الثلاث . وكذلك كل منقولاته وقيمتها غير معلومة

محمد توفيق باشا الخديوي السابق

وُلد سنة ١٨٥٢ وتولى سنة ١٨٧٩ وتوفي سنة ١٨٩٢

هو أكبر أنجال المرحوم اسماعيل باشا الخديوي وُلد سنة ١٨٥٢ وأدخله والده مدرسة النيل وسنه تسع سنوات فدرس فيها اللغة والجغرافيا والتاريخ والطبيعات والرياضيات واللغات العربية والتركية والفرنساوية والانكليزية وكان ميالا للعلم



ش ٧٧ : محمد توفيق باشا الخديوي السابق

من صغر سنه فاحرز منه جانباً أهله لرئاسة المجلس الخصوصي في حياة والده وسنه ١٩ سنة . ثم تقلد نظارة الداخلية ونظارة الاشغال العمومية ورئاسة مجلس النظار ولما بلغ الحادية والعشرين من عمره تزوج بكريمة المرحوم الهادي باشا وهي مشهورة بالجمال والعقل والكمال . وفي السنة التالية (١٨٧٤) وُلد له بكره (الخديوي السابق)

فسماه عباس حلمي . ثم وُلد البرنس محمد علي سنة ١٨٧٦ والبرنس خديجة هانم سنة ١٨٧٧ والبرنس نعمت هانم سنة ١٨٨١

وما زال يتقلد المناصب في عهد المرحوم أبيه حتى قضت الاحوال باقالته كما تقدم في ترجمته . فاستلم رحمه الله أزمة الاحكام في ٢٦ يونيو سنة ١٨٧٩ وجاءه التفgraf من الصدر الاعظم يؤذن بذلك هذا نصه :

« بناء على ان الحطة المصرية هي من الاجزاء المتمة لجسم ممالك السلطنة السنية وان غاية حضرة صاحب الشوكة والاقدار انما هي تأمين أسباب الترقى وحفظ الامن والعمارة في الممالك وبناء على ان الامتيازات والشرائط المخصوصة الممنوحة للخديوية المصرية مبنية على ما للحضرة الشاهانية من المفاصد المذكورة الحيرية . وبناء على تزايد اعمية ما حصل في القطر المصري ناشئاً عما وقع فيه من المشكلات الداخلية والخارجية الفائقة العادة وجب تنازل والد جنابكم العالي اسماعيل باشا . ثم انه بناء على ما اتصفت به ذاتكم السنية الآصفية من الرشد . وحسن الروية على ما ثبت لدى ملجأ الخلافة الاسمي من ان جنابكم الداوري ستوفقون الى استحصال أسباب الامنية والرفاهية لصنوف الاهالي والى ادارة امور المملكة على وفق ارادة الحضرة الشاهانية الملوكانية توجهت الارادة العلية بتوجيه الخديوية الجليلة الى عهدة استئصال آصفانيتكم وبناء على فرمان العالي الشأن الذي سيندر حسب العادة على مقتضى الارادة السنية السلطانية التي صار شرف صدورهما . وبناء على ما كتب في التفgraf الى حضرة المشار اليه اسماعيل باشا من تخليه عن النظر في امور الحكومة وتفرغه منها بصورة وقوع انفصاله . وقد محرر تفgraf هذا العاجز لكي يعان حال وصوله للعلماء والامراء والاعيان وأهل المملكة جميعاً وتباشر من بعده امور الحكومة . وهذا من التوجيهات الوجية الى اثر استحقاق آصفانيتكم لتجري التنظيمات والترقيات مبدأً ومقدمة ويصير تكرير الدعاء بتوفيق الذات الجليلة الفخيمة السلطانية ولذلك صارت المبادرة الى ايفاء لوازم التهنئة لحضرتكم أيها الخديوي المعظم والامر والفرمان على كل حال لمن له الامر اقدم »

الامضاء

خير الدين

فصدرت الاوامر باعداد ما يلزم للاحتفال بذلك وجلس سموه في القلعة يستقبل المهنيين من الوزراء والعلماء يتقدمهم نقيب الاشراف ثم القاضي ثم شيخ الجامع الازهر ثم جاء القناصل وبعد ذلك دخل الذوات وامراء العسكرية والملكية ثم رجال الحفانية

ثم التواب ووجهاء البلاد ثم أرباب الجرائد ثم الموظفون والمستخدمون وغيرهم. ومن جملة من وفد للتهنئة وفد ماسوني جاء بالنيابة عن الشرق الأعظم المصري فقدم ببوديته فقال من سموه عواطف الرضاء عنهم وعن أعمالهم ووعدهم رعاية محافلهم وحمايتهم فانصرفوا شاكرين. وبعد ذلك أرسل الجناب الخديوي تلغرافاً إلى الباب العالي جواباً على التلغراف المؤذن بارتقائه إلى كرسي الخديوية

كيف كانت حالة مصر

لما تولاه توفيق باشا

أقبل اسماعيل ومصر تحت المراقبة المالية وقد فرغت خزينتها من المال وأفسدت قلوب جندها على أمرائهم حتى كسروا قيد الحرمة بالثورة التي أحدثها اسماعيل. وقد توافرت قلوب سكان هذا القطر بسياسة خديويها المعزول فانه أغضب العامة بشدة وطأته عليهم وجعل الاعتناء في خطر على أموالهم وبعث الأجانب على سوء الظن بالحكومة لتأخرها عن دفع ديونهم ولم يتفق الدول على العمل في حفظ حقوقها. وقد اشتد كره العرب للأتراك وخوف الأتراك من الإفراج فلم يكن ثمة مندوحة عن الاستعانة بأوروبا لتسوية الأحوال واستمرارها

وكان في جملة المشاكل التي خلفها اسماعيل بمصر اضطراب العلائق بينها وبين الباب العالي. وكان الباب العالي قد منح اسماعيل امتيازات أهمها أربعة (١) جعل ولاية العهد في الأبناء (٢) حق عقد المعاهدات التجارية مع الدول (٣) عقد القروض المالية (٤) زيادة عدد الجند حسب الحاجة. فلما أقبل اسماعيل أراد السلطان إلغاء هذه الامتيازات وتصدت للدفاع عنها انكلترا وفرنسا صاحبتا المراقبة على أحوال مصر. وكانت فرنسا تحب قطع علاقة مصر مع الباب العالي أو حلها على الأقل. وأما انكلترا فكانت لا ترى خروج مصر من سيادة الدولة العثمانية. واتفقت الدولتان على بقاء الارث في البكر من الأبناء لانه ادعى إلى منع الفتن والدسائس ودافعتا عن تفويض مصر في عقد المعاهدات التجارية وعقد القروض. لكن السلطان أفلح في تحديد عدد الجند فجعله لا يزيد على ١٨٠٠٠ جندي وصدر الفرمان بذلك في ١٤ أغسطس سنة ١٨٨٩ وهذا نصه :

الفرمان بولاية توفيق باشا

« الدستور الاكرم والمعظم الخديوي الانخم المحترم نظام العالم وناظم منازم الامم مدير أمور الجمهور بالفكر الثاقب متم مهام الانام بالرأي الصائب مهدي ببيان الدولة

والاقبال مشيد أركان السعادة والاجلال مرتب مراتب الخلافة الكبرى مكمل ناهوس السلطنة العظمى المحفوف بصنوف عواطف الملك الاعلى خديوي مصر الحائز لرتبة الصدارة الجليلة فعلاً الحامل لثبثاتنا الهايوني المرصع العثماني ولثبثاتنا المرصع المجيدي وزيري سفير المعالي توفيق باشا أدام الله تعالى اجلاله وضاعف بالتأييد اقتداره واقباله

« انه لدى وصول توقيعنا الهايوني الرفيع يكون معلوماً لكم انه بناء على انفصال اسماعيل باشا خديوي مصر في اليوم السادس من شهر رجب سنة ١٢٩٦ هـ وحسن خدماتكم وصداقتكم واستقامتكم لذاتنا الشاهانية ولمنافع دولتنا العلية ولما هو معلوم لدينا ان لكم وقوفاً ومعلومات نامة بخصوص الاحوال المصرية وانكم كفؤ لتسوية بعض الاحوال للغير المرضية التي ظهرت بمصر منذ مدة واصلاحها وجهنا إلى عهدتكم الخديوية المصرية المحدودة بالحدود القديمة المعلومة مع الاراضي المنضمة اليها المعطاة الى ادارة مصر توفيقاً للقاعدة المتخذة بالفرمان العالي الصادر في ١٢ محرم سنة ١٢٨٣ هـ المتضمن توجيه الخديوية المصرية الى أكبر الاولاد وحيث انكم أكبر اولاد الباشا المشار اليه قد وجهت إلى عهدتكم الخديوية المصرية. ولما كان تزايد عمران الخديوية وسعادتها وتأمين راحة كافة أهاليها وسكانها ورفاهيتهم هي من المواد المهمة لدينا ومن أجل مرغوبنا ومطلوبنا وقد ظهر ان بعض احكام الفرمان العالي الشأن المبني على تسهيل هذه المقاصد الخيرية المدين فيه الامتيازات الحائزة لها الخديوية المصرية قديماً نشأت عنها الاحوال المشكلة الحاضرة المعلومة فلذلك صار تثبيت المواد التي لا يلزم تعديلها من هذه الامتيازات وتأكيدا وصار تعديل المواد المقضي بتعديلها وتعديلها واصلاحها فما تقرر اجراؤه الآن هو المواد الآتية وهي :

« ان كافة واردات الخطة المذكورة يكون محصيلها واستيفائها باسمنا الشاهاني. وحيث ان أهالي مصر أيضاً من تبة دولتنا العلية وان الخديوية المصرية ملزمة بإدارة أمور المملكة والمالية والعادلة بشرط ان لا يقع في حقهم أدنى ظلم ولا تعد في وقت من الاوقات خديوي مصر يكون مأذوناً بوضع النظمات اللازمة للداخلية المتعلقة بهم وتأسيسها بصورة عادلة. وأيضاً يكون خديوي مصر مأذوناً بعقد وتحديد المشاركات مع مأموري الدول الأجنبية بخصوص الجمر والتجارة وكافة أمور المملكة الداخلية لأجل ترقى الحرف والصنائع والتجارة واتساعها ولأجل تسوية المعاملات السائرة التي بين الحكومة والاجانب أو بين الاهالي والاجانب بشرط عدم وقوع خلل

بمعاهدات دولتنا العلية البولوتيقية وفي حقوق متبوعية مصر اليها . وانما قبل اعلان الخديوية المشارطات التي تعقد مع الاجانب بهذه الصورة يصير تقديمها الى بابنا العالي . وايضاً يكون حائزاً للتصرفات الكاملة في أمور المالية لكنه لا يكون مأذوناً بعقد استقراض من الآن وصاعداً بوجه من الوجود وانما يكون مأذوناً بعقد استقراض بالاتفاق مع المدائين الحاضرين أو وكلائهم الذين يتعينون رسمياً . وهذا الاستقراض يكون منحصراً في تسوية أحوال المالية الحاضرة ومخصوصاً بها . وحيث ان الامتيازات التي أعطيت الى مصر هي جزء من حقوق دولتنا العلية الطبيعية التي خصت بها الخديوية وأودعت لديها لا يجوز لأي سبب أو وسيلة ترك هذه الامتيازات جميعها أو بعضها أو ترك قطعة أرض من الاراضي المصرية الى الغير مطلقاً . ويلزم تأدية مبلغ ٧٥٠ الف ليرة عثمانية وهو الورك المقرر دفعه في كل سنة في أوانه . وكذلك جميع النقود التي تضرب في مصر تكون باسمنا الشاهاني . ولا يجوز جمع عساكر زيادة عن ثمانية عشر الفا لأن هذا القدر كاف لحفظ أمانة إمالة مصر الداخلية في وقت الصلح . وانما حيث ان قوة مصر البرية والبحرية مرتبة من أجل دولتنا يجوز ان يزداد مقدار العساكر بالصورة التي تستتب فيها حالة دولتنا العلية محاربة . وتكون رايات العساكر البرية والبحرية والعلامات المميزة لرتب ضباطهم كرايات عساكرنا الشاهانية ونياشينهم . ويباح لخديوي مصر ان يعطي الضباط البرية والبحرية الى غاية رتبة أميرالاي والملكية الى الرتبة الثانية . ولا يرخص لخديوي مصر ان ينشئ سقناً مدرعة الا بعد الاذن وحصول رخصة صريحة قطعية اليه من دولتنا العلية . ومن الواجب وقاية كافة الشروط السالفة الذكر واجتناب وقوع حركة تخالفها . وحيث صدرت ارادتنا السنية باجراء المواد السابق ذكرها قد أصدرنا أمراً هذا الجليل القدر الموشح أعلاه بخطنا الهايوني وهو مرسل بحجة اقتضار الاعالي والاعاظم ومختار الاكابر والافاخم علي فؤاد بك باشكاتب المايين الهايوني ومن أعظم دولتنا العلية الحائز والحامل للنياشين العثمانية والحجيدية ذات الشأن والشرف »

« حرر في ١٩ شهر شعبان المعظم سنة ١٢٩٦ من هجرة صاحب العزة والشرف »
وكان توفيق باشا من أشد الخديويين غيرة على الوطن المصري ولم يكن له بد من تشكيل وزارة يثق بها تعيينه على الحكومة مع تحديد سلطته وسلطانها وعلاقة البلاد بالدولة العثمانية . فانتدب المرحوم شريف باشا لتشكيل وزارة فلي الدعوة لكنه عرض عليه لأخذه في انشاء الدستور فلم يوافق الخديوي عليها فقدم استقفاه في ١٨ اغسطس

سنة ١٨٧٩ فقبل . فعزم الخديوي رحمه الله ان يتولى رئاسة الوزارة بنفسه . ولم يطل ذلك فانتدب رياض باشا لتشكيل الوزارة فشكلها في ٢٢ سبتمبر تحت رياسته وفي أثناء ذلك وافق الخديوي على تعيين المفتشين الماليين لمراقبة مالية مصر وهما المسيو بارنج (المورد كرومر) عن انكلترا والمسيو بلييار عن فرنسا . وكانت الحكومة الخديوية قد أصدرت أمراً عالياً بحدود سيادة هذين المفتشين فجعلت لها حق الحضور في مجلس النظار على ان يكون لها رأي استشاري . فلم تمض بضعة أشهر حتى استقرت أحوال الحكومة وتشكلت الوزارة وتقررت العلائق بين مصر والسلطان وبينها وبين المراقبين أو المفتشين الماليين . ولم يتم حسن التفاهم بينهما وبين الوزارة الا بعد حين وكان في جملة العراقيل في سبيل الازمة المالية مسألة تصفية الديون وتقدير الميزانية الجديدة

تصفية الديون

أما تصفية الديون فتعينت لها لجنة في ٥ ابريل سنة ١٨٨٠ من خمسة أعضاء أورباويين وعضو وطني هو المرحوم بطرس باشا غالي لينوب عن الحكومة المصرية . وأخذت اللجنة في عقد جلساتها والعمل مع المفتشين الماليين وفرغت من ذلك في ١١ يوليو من تلك السنة ووضعت قانوناً صادق عليه الجنب الخديوي هذه خلاصته :

(١) ان صافي إيرادات السكك الحديدية والتلغرافات ومينا الاسكندرية يكون مخصصاً لتسديد فوائد واستهلاك الدين الممتاز دون غيره أما قائده فتنق ٥ بالمائة على القيمة الاسمية . والقيمة التي تدفع سنوياً لفائدة واستهلاك هذا الدين تكون ١١٥٧٧٦٨ جنباً سنوياً

(٢) ان صافي إيرادات الجمارك وعوائد الدخان الوارد ومديريات الغريبة والمتوفية والبحيرة وأسيوط بما فيه جميع الرسوم المقررة إلا ايراد الملح والدخان البلدي . جميع صافي هذه الإيرادات تبقى مخصصة لتسديد الدين الموحد والفائدة باعتبار أربعة بالمائة

(٣) ان املاك الدائرة السنية واملاك الدائرة الخاصة المذكورة في الكشف والرهون العقارية المسجلة وغيرها تكون ملكاً للحكومة وهي تكون مخصصة لضمان دين الدائرة السنية العمومي

(٤) تسوية الدين السائر تكون من البواقي من سلفة الاملاك الاميرية ومن النقود الباقية لغاية سنة ١٨٧٩ في خزينة النظارات والمديريات والمصالح التي لم تخصص للدين

المنتظم ومن الزائد من دفعات المخابلة وموجود نقدية في صندوق الدين العمومي ومن المبالغ التي يمكن تحصيلها من الأخرات لغاية ١٨٧٩ م ومن العوائد والرسوم والاموال من أي نوع كانت . ومن المقارنات الجائز للحكومة التصرف بها ولم تكن مخصصة . وما ينتج من تغير الثبوتات أو السندات . ومن سندات الدين الممتاز التي توجد على مقتضى المدون في البند السادس من قانون التصفية . ومن الجزء المخصص لاستهلاك الدين المنتظم حسب المدون في البند ١٥ من القانون . ومن الزيادات التي تظهر في الموازين كما هو مبين في البند السابع من قانون التصفية

هذه شذرة صغيرة من قانون التصفية ومن أحب التفصيل فليراجع القانون نفسه فإنه مؤلف من ٩٩ بندا ومعه كشفان عن التسويات التي حصلت وغيرها

وبذلك الحكومة جهدها بآثاء ذلك في تخفيف ائمال الاهلين وفي نشر الامن فأصدرت أمراً بالغاء الضرائب الدينية والشخصية وابطلت بون حليم باشا . ثم دأمتها الثورة العسكرية المعروفة بالحوادث العراية فأحدثت فيها انقلاباً سياسياً لا يزال باقياً الى الآن واليك تفصيلها :

الثورة العسكرية أو الحوادث العراية

تمهيد في العرب والترك

ما زالت مصر منذ دخلت في حوزة الاتراك قبل العثمانيين وبعدم وهي ترى للتركي حقاً في السيادة تهابه وتخشى بأسه وتتوقع منه الاستبداد - رغم قلة الاتراك وكثرة العرب . وقد ظهر نفوذهم على الخصوص في الجندية فقد كانت المناصب العالية والرواتب الفادحة والكلمة النافذة للتركي وما على العربي الا الطاعة . ويندر فيهم من يجسر على الشكوى أو التظلم جهاراً ولعل أول من فعل ذلك منهم أحمد عرابي وهو جندي صغير . وقد جراه على ذلك سعيد باشا بما كان له من الرغبة في رفع شأن أبناء العرب . وهالك ما رواه احمد عرابي نفسه في اثناء كلامه عن سيرة حياته قال :

« وكان المرحوم سعيد باشا عليه سحائب الرزحة والرطوان قد تولى الحكومة الحديوية في ١٥ شوال سنة ١٢٧٠ وأمر بدخول أولاد مشايخ البلاد وأقاربهم في العسكرية فدخلت من ضمنهم وانتظمت في سلك الاورطة السعيدية المصرية بقطار قم البحر في شهر ربيع أول عام ١٢٧١ وجعلت فيها وكيل بلوك أمين من أول يوم صار انتظامي في سلك العسكرية بعد امتحاني بحضور إبراهيم بك أمير الالاي وحسن

أقدي الالاي حكيم الالاي . ثم ترقيت الى رتبة بلوك أمين في شهر رجب من السنة المذكورة . بعد اعادة الامتحان مع الطالبين لذلك من غير واسطة أحد غير الحد والاجتهاد . وبعد عام نظرت فبرأت بعض الباشجاويشية المصريين رقي الى رتبة الملازم الثاني وعلمت أن البلوك أمين لا يترقى الا الى رتبة الصول قول اغاسي وفيها يقضي عمره . فجزعت من ذلك وذهبت الى أمير الالاي وطلبت منه ترقيتي في رتبة جاويش في اورطة كانت أفرزت لارسالها الى مدينة المنصورة . فسألني الميرالاي المذكور عن سبب ذلك حيث ان راتب الجاويش أقل ١٠ قروش من راتب البلوك أمين وإن كانت الرتبتان متساويتين . فافصحت له عما خالج فكري واني اذا صرت جاويشاً سهل علي الحصول على رتبة الباشجاويش ثم الانتقال الى رتبة ضابط . فحجب لذلك الحاضر وأمر في الحال بحلي جاويشاً . فكنت في هذه الرتبة سنتين وفي تلك المدة حبس الي الاعزال عن الناس والاشتغال بدراسة قوانين العسكرية مع التدبر في معانيها حتى أتقنت قانون الداخلية وقوانين تعليم النفر والبلوك والاورطة وبعض فصول من تعليم الالاي . وفي أوائل عام ١٢٧٤ أمر سعادة راتب باشا بجمع الصف ضباط فاجتمعنا حوله في فسحة قصر النيل وبلغنا ارادة المرحوم سعيد باشا وقال :

إن أقدينا بلغه انكم تقولون فيما بينكم كيف يصير ترقى الصف ضباط الجدد وتأخير من هو أقدم منهم في الرتب وانه أمر أن لا يترقى أحد بعد الآن الا بعد الامتحان علماً وعملاً فمن فاق أقرانه في الامتحان ترقى الى الرتبة التي يستحقها ولو لم يلبث في رتبته الاولى غير شهر واحد فمن أراد منكم الامتحان فليقدم الى الامام . فعند ذلك تقدمت أمام سعادته وأحجم الآخرون خوفاً وعلماً ظناً منهم أنه يريد عاقبة من يتظاهر بذلك . ولما كرر عليهم الطلب خرج آخر وآخر حتى بلغ عدد الراغبين في الامتحان نحو ٣٠ شخصاً فصار امتحانهم بحضوره تحت رئاسة المرحوم اسماعيل باشا الفريق فكنت أول قارئ في الامتحان اه

وخوفى ذلك أن الوطنيين يشكون من ترقية سوام وتأخيرهم . فلم يكن ذلك إلا ليزيد الضغائن في صدور الاتراك والشراكة من كبار الضباط . وخصوصاً في زمن اسماعيل فإنه لم يكن يرى دفع شأن الوطنيين فكانت الضغائن تتزايد بينهم وبين الاتراك والشراكة ولكن اسماعيل كان شديد الوطأة بخافه العرب والابراك فلم يحدث في أيامه ما يخشى عاقبته وان يكن هو أول من جرأ الجند على التمرد وطلب الحقوق كما تقدم في سيرة حياته

فلما أفضت الحديوية الى المرحوم توفيق باشا وكان محباً للوطنين رقيقاً بهم راغباً في رفع شأنهم تنفسوا الصعداء . وأنعم على الضباط بالرتب وفي جملتهم أحمد عرابي أول نشأة عرابي

هو في الاصل من أبناء الفلاحين ويرجع بنسبه الى الامام الحسين وقد قص بركة حياته للهلاك في بضع وعشرين صفحة نشرت في راجم مشاهير الشرق الجزء الاول تقتطف منها قوله في نشأته الاولى قال :

« ومولدي بقرية هرية رزنة بمديرية الشرقية على ميلين من شرقي الزقازيق وهي بلدة قديمة جداً من ضواحي مدينة بوابسة كرسي مملكة العائلة ٢٢ في زمن شيشاق ابن عمرو التي يقال لها الان (تل بسطة) . وعشيرتي فيها نحو ربع تعدادها وكان والدي رحمه الله تعالى شيخاً عليها الى أن توفي في شهر شعبان سنة ١٢٦٤ هـ في زمن الهواء الاصفر عن ثلاث نسوة وأربعة أولاد وست بنات . وكنت ثاني أولاده الذكور وسني ٨ سنوات وترك لنا ٧٤ فداناً ولو شاء لاستكثر من الاطيان الزراعية ولكنه كان رحمه الله يراعي مصلحة أبناء عمومته حيث ان اطيان القرية كغيرها كانت مكلفة بأسماء المشايخ يوزعونها بمقرتهم على أهل بلادهم بحسب الاحتياج وظلت كذلك الى عهد المغفور له عباس باشا الاول وهو أول من كلف الاطيان بأسماء الافراد وألزمهم بدفع خراجها ومازاد عنهم يترك للبري ويسمونه المتروك . وكان والدي عليه سحائب الرحمة والرضوان علماً فاضلاً تقياً نقياً أقام بالجامع الازهر ٢٠ سنة تلقى فيها الفقه والحديث والتفسير وبرع في كثير من العلوم الثقيلة والعقلية على كثير من المشايخ كشيخ الاسلام القويسني رحمه الله تعالى وغيره من العلماء الاطهار — ولما آلت اليه وظيفة الشياخة على عشيرته جدد عمارة المسجد المنسوب الى عشيرته بالقرية وفيه أربعة أعمدة من الحجر الصوان القديم ومنبر من الخشب عجيب الصنعة . وأنشأ بجوار المسجد مكتباً لتعليم القرآن الشريف وجعل له فقيهاً صالحاً علماً يسمى الشيخ نجم من سلالة السيد العزاوي وألزم الاهالي بتعليم أولادهم . وكان رحمه الله يشدد عليهم في ذلك حتى صار نحو نصف تعداد الناحية المذكورة يحسنون القراءة والكتابة وكل منهم يعرف واجباته الدينية . ومنهم نحو مائة وخمسين فقيهاً علماً ومنهم المرحوم الشيخ محمد حسين الهراوي من علماء الجامع الازهر والشيخ العارف بالله ابراهيم المصليقي نعم الله به المسلمين . فلما بلغ سني ٥ سنوات أرسلني والدي الى المكتب المذكور . فاقف فيه ثلاثة أعوام حتمت فيها القرآن الشريف وعمرني إذ ذاك ثمانين سنين وبضعة شهور . فلما توفي

الثورة العرابية

والدي كفني أخي الاكبر المرحوم السيد محمد عرابي الذي توفي في ٢٥ شعبان سنة ١٣١٨ رحمه الله تعالى وأخذت عنه مبادئ علم الحساب وتحسين الخط مع ملاحظة بعض أشغال الزراعة . ثم بدا لي المجاورة في الازهر حين بلغت اثني عشر عاماً فكنت أجود القرآن على أقاربي وأهل بلدي نهاراً وأتوجه الى بيت عمي ليلاً وتلقيت قليلاً من الفقه والنحو وبعد سنتين رجعت الى بلدي اهـ



ش ٧٨ : أحمد عرابي بلباسه العسكري

وقد تقدم ما قاله عن نفسه في زمن سعيد باشا وقد ارتقي في أيامه الى رتبة قائمقام وظل في هذه الرتبة كل أيام اسماعيل . فلما تولى توفيق باشا أحسن اليه برتبة أميرالاي على الالاي الرابع . ولما تشكلت الوزارة الرياضية التي تقدم ذكرها كانت ناظر الجهادية فيها عثمان رفقي باشا وهو شركي متعصب على العرب وفي جملة مساعيه أن يمنع ترقية المصريين من العسكر العامل في الالايات والاكتفاء بما يستخرج من المدارس الحربية وصدرت أوامر بذلك . ثم أوقفها بإحالة عبد العال حلمي بك أميرالاي السودان على ديوان الجهادية ليكون معاوناً وكان عمره اذ ذاك أربعين سنة . ورتب بدله خورشيد نعمان بك من جنسه على الالاي المذكور وكان سنه فوق الستين وهو ضعيف لا يقدر على الحركة العسكرية وأمر برفق أحمد بك عبد الغفار

قامقام السنوازي وترتيب شاكر بك طائفة من جنسه بدله وهو طاعن في السن ثم حتمت تلك الاوامر وقيدت بدقاتر الجهادية

وكان احمد عرابي قد نال منزلة بين اقاربه لما فطر عليه من الجرأة والغيرة فلما زاد الضباط أبناء العرب الاجتماع للاحتجاج على هذه المعاملة فاختاروا ليله اقيمت فيها وليمة يتلى فيها القرآن بمنزل نجم الدين باشا بمناسبة عودته من الحج في ١٤ صفر سنة ١٢٩٨ قال احمد عرابي يروي الواقع بنفسه وهو من جملة المدعوين

« ولما وصلت الى منزل الداعي وجدته غاصاً بالدوات العسكرية وغيرهم جلست بجوار المرحوم نجيب بك وهو رجل كردي الاصل وبجانبه المرحوم اسماعيل كامل باشا الفريق وهو شركسي الاصل ولكنه يتظاهر بحب العدل والانصاف فاخبرني نجيب بك بما صار وانه نصح لناظر الجهادية بالاعراض عن هذا الاجحاف فلم يصغ لقوله ولذا فهو ساخط ومضطرب ثم اوعز اليه ان يخبرني بما سمع منه . فاخبرني نجيب بك بحقيقة الحال ممساً في اذني فقلت لاسماعيل باشا كامل « أحق هذا ؟ » فقال « نعم وأعطيت الاوامر الى الكتبة للاجراء على مقتضاها » فقلت له « ان تلك لقمة كبيرة لا يقوى ناظر الجهادية عثمان رفاقي على هضمها » وبعد تناول طعام الوليمة حضر لي احد الضباط واخبرني بأن كثيراً من الضباط ينتظرونني بمنزلي وفيهم عبيد العال بك حلمي وعلي بك فهمي . فاسرعت اليهم وهم في هياج عظيم وقد بلغهم صدور اوامر ناظر الجهادية قبل ارسالها اليهم . فلما رأوني اخبروني بما سمعته من المرحوم اسماعيل باشا كامل . فقلت لهم « قد سمعت من غيركم فاذا تريدون » فقالوا « انه ليس ذلك فقط بل انه قد كثر اجتماع الشراكة بمنزل خسرو باشا الفريق صغيراً وكبيراً وهم يتناكرون كل ليلة في تاريخ دولة المماليك بحضور عثمان رفاقي باشا ويلغنون حزبك ويقولون قد حان الوقت لرد بضاعتنا وانهم لا يغلبون من قلة وظنوا أنهم قادرون على استخلاص مصر وامتلاكها كما فعل اولئك المماليك » . وقد تحققت ذلك ممن يوثق بخبره . فقلت لهم « وماذا تريدون اذا ؟ » فقالوا انما جئناك لاختار رأيك فيما دعنا من الخطب العظيم » . فقلت لهم « أرى ان تطيخوا نفوسكم وتهدثوا روعكم وتعتدوا على رؤسائكم وتفوضوا لهم النظر في مصالحكم وهم ينتخبون لكم رئيساً منهم يتقنون به كل الوثوق ويطيعون أمره ويحفظونه بمعاضدتكم » فقالوا كلهم « قد فوضنا الامر اليك وليس فينا من هو أحق به واقدر عليه منك » . فقلت لهم « لا . انظروا غيري وانا اجمع

له واطيع وانصح له جهدي » فقالوا « لا نبغي غيرك ولا تثق الا بك » فقلت « فارجعوا لا تقسمكم فان هذا أمر عصيب لا يسع الحكومة الاقتل من يقوم به أو يدعو اليه » . فقالوا « نحن نقديك ونفدي الوطن بأرواحنا » . فقلت لهم « اقسموا لي على ذلك »



ش ٧٩ : رياض باشا

فأقسموا . وفي الحال كتبت عريضة الى دولة رئيس النظار رياض باشا مقتضاها الشكوى من تعصب عثمان رفاقي لجنسه والاجحاف بحقوقي الوطنيين والتست فيها

أولاً تشكيل مجلس نواب من نبيه الأئمة المصرية تنفيذاً للأمر الخديوي الصادر بالإنابة توليته . ثانياً إبلاغ الجيش إلى ثمانية عشر ألفاً تطبيقاً لتطويق القرمان السلطاني . ثالثاً تعديل القوانين العسكرية بحيث تكون كافية للسواة بين جميع اصناف الموظفين بصرف النظر عن الاجناس والاديان والمذاهب . رابعاً تعيين ناظر الجهادية من أبناء البلاد على حسب القوانين العسكرية التي بأيدينا . ثم تلوت العرضة هذه على مسامع الجميع فوافقوا كلهم عليها فأضيتها بامضائي وختمتها بختمتي وختم عليها أيضاً علي فهمي بك أميرالاي الحرس الخديوي وعبد العال بك أميرالاي السودان « اهـ

ويظن اللورد كرومر ان الحرك الاصلية لهذه الحركة الاميرالاي علي فهمي قومندان الالاي الاول وعليه حراسة القصر الخديوي . وكان قد استاء من معاملة الخديوي فاراد ان ينتقم لنفسه فدبر هذه المظاهرة

فوز المراهين الاول

ولما وصلت العرضة الى رياض باشا استخف بها وأهمل الرد عليها أياماً وهو يحرض أنحائها على سحبها وعم يرفضون . ثم بلغهم أن عريضتهم كان لها وقع سيء عند الخديوي وحاشيته الآراء . ثم أرسل الخديوي يلح على الوزارة بسرعة الرد فقررت سرّاً محاكمة المعارضين في مجلس عسكري بعد أن يقبض عليهم ويسجنوا . لكن ذلك السر وصلهم فاستعدوا للدفاع . فلما جاء أمر النظر بدعوتهم إلى قصر النيل دبروا شأنهم مع الالايات وذهبوا إلى القصر فجددوم من السلاح وأوقفوهم تحت الحماكة وإذا برجال آلياتهم قد دخلوا بالقوة وأتقدوم وساروا بهم إلى سراي عابدين وألجوا في طلب عزل ناظر الجهادية . فلم يجد الحكومة بدءاً من اجابة الطلب لان القوة في غير أيديها . فاجابهم الخديوي بعزل رفيقي باشا وتعيين محمود باشا سامي البارودي مكانه وهو من حزبهم ويقال انه هو الذي أبلغهم قرار مجلس النظر بالقبض عليهم

وأثر خضوع الحكومة لمطالب الوطنيين هذه المرة تأثيراً شديداً اذ تحقق لديهم انهم اذا اتحدوا وثبتوا لا بد من نيل ما يطلبونه . وقام في نفوسهم حقد على رياض باشا والخديوي وقوى هذا الاحساس فيهم فنصل فرنسا يومئذ البارون دوين لانه كان يحسن أعمال رجال العسكرية في أعينهم فيزدادون تمرداً وبلغ ذلك إلى الجنب الخديوي فشكاه إلى حكومته فأقالته . وبعث الخديوي إلى كبار الضباط وطيب خاطرهم وأكد لهم ثقته في رياض باشا وانه سيزيد الرواتب ويساوي بينهم على اختلاف أجناسهم

أما زعماء الثورة فلم يزالوا خائفين من نجاحهم السريع واعتبروا تلك الحاسنة مكيدة من الحكومة لتسكين جأشهم ثم تحتال للاغتيال بهم فأكثروا من التحفظ وشرعوا في عقد مجالس سرية ليلية في منزل أحمد عرابي يدعون إليها خواصهم ويتفاوضون في أمر اجتماع كلتهم والوقاية من الاغتيال . فاقترحوا على ديوان الجهادية اقتراحات عديدة تعزز جانبهم فتضمن عرابي بذلك من استمالة قوم العسكرية فطفق يمث أفكاره بين الاهلين من مشايخ العريان وعمد البلاد وأعيانها وعلماؤها ونجارها استجلاباً لمساعدتهم في مشروعه العائد إلى تفهم على ما زعم وكتب اليهم في ذلك منشورات ثورية ايضاً بالوزارة الرياضية



ش ٨٠ : محمود باشا سامي البارودي

وفي ٢١ جمادى الاولى سنة ١٢٩٨ هـ أو ٢٠ أبريل سنة ١٨٨١ م أصدر الجنب الخديوي باقترح رياض باشا رئيس النظر أمراً عالياً بشأن زيادة مرتبات الضباط والعساكر وتعديل النظامات والقوانين العسكرية بناء على طلب محمود باشا سامي ناظر الجهادية فاحتفل هذا احتفالاً فاخراً في قصر النيل دعا اليه النظر والمفتشين احتفاء بصدور ذلك الأمر خطب فيه رياض باشا ومحمود سامي وأحمد عرابي ثناء طيباً على

المسكارم الحديوية لما منحه لجماعة الجهادية من الانعام

وفي ٢٨ شبان أو ٢٥ يوليو كان الجناب الحديوي في مصيفه في الاسكندرية فاتفق ان عربة أحد تجار الاسكندرية صدمت جندياً من الطبيعية صدمة قضت عليه فحمله رفقاؤه الى سراي رأس التين وطلبوا الى الحديوي النظر في أمره فوعدهم فسكن جاشهم. وبعد بضعة أيام تشكل مجلس حزبي أصدر حكمه على النفر الذي حمل رفقاؤه على المسير الى رأس التين بالاشغال الشاقة طول حياته. أما رفقاؤه وهم ثمانية فحكم عليهم بثلاث سنوات في السجن وبعد ذلك يرسلون الى السودان أنقاراً للجهادية. فبعث عبد العال أميرالاي الفرقة السودانية الى ناظر الجهادية محمود سامي يشكو من قسوة ذلك الحكم فرفع سامي تلك الشكوى الى الحديوي فتبكر واستدعى في الحال الوزراء تلغرافياً الى الاسكندرية فأتوها في ٧ رمضان أو ٢ أغسطس وعقدوا برئاسته مجلساً قدم فيه ناظر الجهادية استغفاه فقبل وعين بدلاً منه داود باشا يكن واستلم الاعمال وعاد النظار الى العاصمة وهدأت الاحوال بحسب الظاهر. والواقع أن الوطنيين ساء لهم قبول استغفاء محمود باشا سامي لانهم يعدونه من اكبر انصارهم

تغير القلوب بين الحديوي والعرايين

فأصبح العرايون ينظرون الى الحديوي ووزرائه بعين الارتياب والحذر وشاع يومئذ ان الحديوي استفتى شيخ الاسلام بقتلهم لانهم خانوا الدولة والامة وهي اشاعة كاذبة لكنها أخذت مأخذ الصدق وازداد العرايون بها حذراً وسوء ظن

وفي ١٥ شوال أو ٩ سبتمبر ١٨٨١ بعد عود الجناب الحديوي من الاسكندرية صدر أمر من نظارة الجهادية الى آلاي القلعة بالتوجه الى الاسكندرية وأمر آخر الى آلاي الاسكندرية بالحجى الى الحروسه فاعز عرابي الى آلاي القلعة ان تلك الاوامر لا يقصد بها الا تفريق كلمتهم فصرح ذلك الآلاي بعدم امثاله لما أمر به. وفي خلال ذلك كان عرابي يخاطب الآلايات بالاشارة أن يستعدوا للحضور الى ساحة عابدين في أول سبتمبر ثم أرسل كتابه الى الحديوي وإلى نظارة الحفانية يخبرهم فيها ان الجيش سيحضر الى سراي عابدين لبدء اقتراحات عادلة تتعلق باصلاح البلاد وكتب مثل ذلك الى قناصل الدول مبنياً أن لا خوف من هذه الحركات على أبناء تابعيتهم لانها متصلة الغاية بالاحوال الداخلية. فأرسل الجناب الحديوي وفداً الى زعماء الثوزة وهم عرابي وعبد العال واحمد عبد الغفار ينصحهم أن يكفوا عن اجرا آتهم وتوجه بنفسه ومعه السير اوكلن كلفن فنصل انكلترا والنظار الى آلاي عابدين وأخذ

ينصحهم فظاهروا بالاتصاح وتوزعوا في نوافذ السراي وقاية لها. ثم توجه الجناب الحديوي ورفقاؤه الى القلعة للغرض عينه. فأجابه الجيش هناك «نحن مطيعون لاوامر ولي نعمتنا غير اننا اخبرنا بان المقصود من تسفيرنا اغراقنا عند كوبري كفر الزيات» فقال سموه لمن معه «يظهر ان العساكر مغرورون» ثم تركهم وقصد العباسية لايكاف عرابي فلم يجدوه وقيل له انه سار في جنده الى عابدين فعاد سموه أيضاً اليها

مظاهرة ساحة عابدين

وأشار عليه كلفن أن يبقى في الساحة ويدعو عرابي اليه ويأمره بالترجل ففعل فسأله عن الغرض من هذا الاجتماع فأجابه انه جاء يطلب أموراً عادلة فقال ما هي: فأجاب «اسقاط الوزارة وتشكيل مجلس نواب وزيادة عدد الجيش والتصديق على قانون العسكرية الجديد وعزل شيخ الاسلام»

قال الحديوي «كل هذه الطلبات ليست من خصائص العسكرية»

فكف عرابي وأشارت القناصل على الحديوي ان ينقلب الى داخل

ثم قال فنصل انكلترا الى عرابي بالنيابة عن الجناب الحديوي «ان اسقاط الوزارة من خصائص الحديوي وطلب تشكيل مجلس النواب من متعلقات الامة ولا وجه لزيادة الجيش لأن البلاد في طمأنينة فضلاً عن ان مالية مصر لا تساعد على ذلك أما التصديق على القانون فينفذ بعد اطلاع الوزراء عليه. أما عزل شيخ الاسلام فلا بد من اسناده الى اسباب»

فأجاب عرابي «اعلم يا حضرة القنصل ان طلباتي المتعلقة بالاهلين لم أقدم عليها الا لانهم انابوني بتفويضها بواسطة هؤلاء العساكر لانهم اخوتهم وأولادهم فهم القوة التي ينفذ بها كل ما يعود على الوطن بالنفع. واعلم اننا لا نتنازل عن هذه الطلبات ولا نبرح هذا المكان ما لم تنفذ»

قال القنصل «إذا تريد تنفيذ اقتراحاتك بالقوة الامر الذي يخشى منه ضياع بلادكم»

فقال عرابي «ذلك لا يكون ومن ذا الذي ينازعنا في اصلاح داخلينا؟ فاعلم اننا نقاومه أشد المقاومة الى ان نفنى عن آخرنا»

القنصل - «وأي هذه القوة التي ستقاوم بها»

عرابي - «في وسعي أن احشد في زمن يسير مليوناً من العساكر طوع ارادتي»

القنصل - «وماذا تفعل اذا لم تل ما طلبت»

عراي - « أقول كلمة ثانية »

القنصل - « وما هي »

عراي - « لا أقولها الا عند القنوط »

ثم انقطعت الاخبار بين الفريقين نحواً من ثلاث ساعات تداول القناصل والحدوي في أثنائها داخل السراي واستقر الرأي على اجابة طلبات عراي وانقاذها تدريجياً لأن بعضها يحتاج لخبرة الباب العالي

فاصر عراي على تنزيل الوزارة قبل انصرافه فزلت واستدعي شريف باشا وبعد التيا والتي قبل بأن يشكل وزارة جديدة بشرط ان يتعهد له رؤساء الحزب العسكري بالامثال لاوامره وان يقدم عمد البلاد ضماناً على ذلك فحصل وتمكنت الوزارة وجعل محمود سامي ناظراً للجهادية



ش ٨١ : شريف باشا

فاوعز شريف باشا الى عراي ان يتوجه بالايه الى راس الوادي في مديرية الشرقية والى عبد العال ان يسير بالايه الى دمياط فامتلا وسارا الى حيث امرا باحتفال عظيم وخطب عبد الله نديم محرر جريدة الطائف وحسن الشمسي محرر جريدة المفيد في الحطة خطباً هناؤها الحزب الوطني على فوزه

هذه الثورة العسكرية الثالثة اذا اعتبرنا ثورة الضباط في أيام اسماعيل الاولى وكل

منها انتقضت باسقاط الوزارة أو بعزل وزير كبير

ولما استقر عراي في رأس الوادي جعل يتجول في أنحاء المديرية يبت مبادئه في نفوس عمد البلاد ومشايخ العربان فاستدعته الحكومة الى العاصمة وعرضت عليه رتبة لواء ومنصب وكيل نظارة الجهادية فقبل الثانية ورفض الاولى ليقى الا لاي في عهده ولما استوى على منصبه الجديد جعل يعقد الحافل في منزله علانية وتوسط بالغفو عن حسن موسى العقاد أحد تجار الحروسة وكان مبعداً في السودان . فأجابه الجبابر الحدوي الى ذلك ثم سعى في عزل الشيخ العباسي من مشيخة الاسلام واستبداله بالشيخ الامباني

وفي ٢٨ شوال سنة ١٢٩٨ هـ (٢٢ سبتمبر سنة ١٨٨١ م) صدقت الحكومة المصرية على القوانين العسكرية الجديدة وهي من ضمن طلبات الجهادية يوم حادثة عابدين تحتوي على قانون الاجازات العسكرية البرية والبحرية وقانون المستودعين وقانون معاشات الجهادية البرية والبحرية وفروعها وقانون القواعد الاساسية في النظمات العسكرية وقانون الترقى وقانون الضمان والامتيازات والاعانة العسكرية . وبعد التصديق عليها جاء الى شريف باشا وفد جهادي وقدموا له الشكر على اعتناهم بمطالبهم وبينوا ارياحهم الى وزارته وأكدوا له اخلاصهم

وفي ١١ ذي القعدة أو ١٤ كنوير من تلك السنة صدر الامر العالي باعتماد اللائحة في انتخاب مجلس النواب بناء على تقرير رفع الى شريف باشا مذيلاً بالف وسمائة توقيع يتضمن طلب تشكيل المجلس الثياني ومن مقتضى تلك اللائحة أن يكون النواب واحداً أو اثنين من كل مديرية و ٣ من مصر و ٢ من الاسكندرية وواحداً من دمياط على شروط مذكورة في اللائحة . ووزعت نظارة الداخلية منشورات بشأن ذلك الى المديرية

مصر والدولة العثمانية

لا يخفى ان مصر نالت امتيازها واستقلت بإدارتها رغم ارادة الباب العالي وما برحت الدولة منذ منحت ذلك الامتياز وهي تتحين الفرص لارجاع سيطرتها الى وادي النيل وكان من جملة مطالب العراقيين تشكيهم من النفوذ الاجنبي بمصر وامتياز الاجانب على الوطنيين من كل وجه وكتب عراي الى الاستانة يشكو ذلك الى السلطان وهو يومئذ السلطان عبد الحميد وكان قد اخذ في مطاردة الاحرار طلاب الدستور بعد ان قلب دستورهم وأصبح لفظ الدستور يرعبه

فلما جاءته شكوى العرايين من الاجانب وجد باباً للمداخلة يشؤون مصر لكنه يعلم ان من جملة مطالبهم الدستور ومجلس النواب وهو يكره الدستور واسمه فكيف يقبل ان يعلن في بعض ولاياته ؟ فضلا عن الاشاعات التي كانت تتناقل يومئذ عن رغبة العرب في احياء دولتهم وخلافتهم في مصر وسوريا . فأول خاطر بدا للسلطان أن يرسل جنداً عثمانياً يحتل وادي النيل بحجة اخراج الثورة . وأمر باعداد الحملة في سبتمبر سنة ١٢٨١



٨٢ : السلطان عبد الحميد

ولكن مصر تحت المراقبة الاجنبية فلا يسهل على السلطان احتلالها . وكانت سياسة فرنسا على الخصوص مقاومة كل توسط عثماني بشؤون مصر . أما انكلترا فلم تكن ترى بأساً من أن يرسل السلطان قائداً عثمانياً يتوسط في حل ذلك المشكل . فاحتجت فرنسا بان ذلك قد يقود الى احتلال عسكري . فرضت الدولة العثمانية حل هذه المعضلة ان يخضع الخديوي وينصب مكانه حليم باشا - وهو من طلاب العرش المصري وانما منعه منه فرمان اسماعيل القاضي بانتقال الارث الى الابناء - وكانت انكلترا من أشد المعارضين لهذا التبديل وفرنسا تعارض من الجهة الاخرى بإرسال جند عثماني . فاكفى الباب العالي بإرسال مندوب ينوب عنه بحجة حقه بالسيادة على

مصر فأرسل رجلين هما فؤاد بك وعلي نظامي باشا فوصلا الاسكندرية في ١٦ أكتوبر سنة ١٨٨١

فاحتجت انكلترا وفرنسا على ذلك وأمرتا المراقبين في مصر أن يستقبلوها بالترحاب ويتنعموا من كل مداخلة سياسية . ولما بلغ الخديوي وصول المندوبين استغربه وسأل وكيي انكلترا وفرنسا عن السبب فاجابا أنهما لا يعلمان . على ان الدولتين انكلترا وفرنسا ألحنا على الباب العالي ان يقصر زمن تلك الزيارة على قدر الامكان . وغاية ما أتاه المندوبان انهما استعرضا الجند وخطب علي نظامي باشا في الضباط يذكركم بأن الجانب العالي نائب جلالة السلطان بمصر وان من يعصى الخديوي يعصى أوامر الخليفة

وعادت الدولتان الى طلب خروج المندوبين حالا فصارا في ٢٠ اكتوبر . وعادت الدولتان الى التفكير في ملاقة ما يخشى وقوعه في مصر . وأظهر الخديوي بعد حادثة ٩ سبتمبر ريباً في الجند وضباطه وأنه لا يرى سبيلا الى الامن الا باخضاع الجيش . وبلغ ذلك العرايين فأتسع الحرق بين الطرفين مجلس النواب المصري

واراد شريف باشا رتق هذا الحرق بسياسة واسلوب فرأى ان يعقد مجلس النواب ويفوض اليه النظر في مطالب الامة وأعضاؤه نوابها فينتقل النفوذ من الجيش اليهم فتوازن القوى . فصدر الامر العالي في ٨ اكتوبر بعقد مجلس النواب في ٢٣ ديسمبر وتم انتخاب النواب علي لائحة اسماعيل باشا التي وضعها سنة ١٨٦٦ فكان مؤلفاً من اتمين وثمانين عضواً أقيم منهم المرحوم سلطان باشا رئيساً وعبد الله باشا فكري رئيساً للكتبة وأعدت قاعة المجلس في ديوان الاشغال لتكون مقر انعقاده . وحضر تلك الجلسة الجانب الخديوي وقال المقالة الافتتاحية بين فيها شدة رغبته في تأليف ذلك المجلس وتنشيطه . وقال انه يرجو ان يكون مساعداً له في نشر العلوم والمعارف بين أفراد الامة مخلصاً في خدمة مصالحها . وحضر تلك الجلسة أيضاً جميع الوزراء ورجال الدولة فتكلم كل منهم حسب مقتضى المقام . ثم نظر المجلس في بعض الامور الداخلية وارفضت الجلسة . وعكف مجلس شورى النواب على الاهتمام بشؤونه فرتب اقلامه وانتخب رؤساءها ثم وجه التفاته على الخصوص الى اللائحة الاساسية الجديدة التي كان قد وعده من مجلس انظار بارسالها اليه لينظر فيها لان مجلس النواب اقتتج بمقتضى لائحة اسماعيل

وما لبث شريف باشا أن رأى النواب والجند اتحداً وتكتافوا وانقضت سنة ١٨٨١
والامر والنهي بمصر لعراي وحزبه وصارت الجرائد اذا ذكرت لقبته باللقاب الامراء
وكبار الحكام الفاتحين مع ان الحكومة كانت قد أصدرت قانوناً للمطبوعات تقيد به
أقلام الكتاب



ش ٨٣ : عبد الله بن فكري رئيس كتبة مجلس النواب

انكلترا وفرنسا

وعادت الدولتان الى المباحثة في الطريقة المؤدية الى سلامة القطر وصيانة حقوق
الاجانب فيه اذا اتقدت شعلة الثورة . ووافق ذلك لإفضاء وزارة فرنسا الى غمنا
الشهير فوافق رأيه وأي انكلترا بوجوب نصرة الحديوي وتأييد منصبه ضد مناوئيه
وهم كثيرون غير الجيش المصري - فقد كان حليم باشا وأضاراه يذلون المال والسعي
في الرجوع الى التوارث الاصلي والسلطان من الجهة الاخرى يتحين الفرص ليعيد
سيادته الفعلية - فاعلنت الدولتان انهما لا تسمحان بحركة تؤدي الى تغيير حالة مصر
السياسية واتفقنا علي احتلال مختلط من الجندين الانكليزي والفرنساوي يؤتي به الى
مصر عند الحاجة وأعلتنا الحديوي بذلك بمذكرة مؤرخة في ٢ يناير سنة ١٨٨٢ بعته
بها الى وكيليهما

وصلت هذه المذكرة الى مصر في ٢٦ ديسمبر بعد أن فتح مجلس النواب بحضور
الجناب الحديوي وتلا خطابه الافتتاحي كما تقدم . فلما علم بعزم الدولتين على نصرة

أجاب شاكرًا في ٦ يناير . فأثرت هذه اللائحة في النفوس تأثيراً عظيماً واضطرب منها
الجند فاجتمعوا في سراي قصر النيل للمذكرة في مضمونها فراههم منها أمور كثيرة
وأيقنوا أن المراد منها مزيد المداخلة وجعل البلاد تحت حماية فرنسا وانكلترا . ثم
وفد عليهم ناظر الجهادية (محمود سامي) فقوضوا الرأي اليه فسكن جاشهم وطيب
أقشهم وتوجه بعد ذلك الى النظار وقاوضهم في الامر وأبلغهم افعال العساكر من
هذه اللائحة ثم سار معهم الى الحديوي فبسطوا لديه الامر والرأي واتمسوا المداركة
بما يذهب الآثار التي نشأت عن اللائحة المذكورة . فاستقر الرأي على اشعار الباب
العالي بها مع الملاحظة بأنه لا حاجة لقبول مضمونها فسكنت الخواطر بذلك واطمأن
النفوس . وأصبحت القوات العاملة في مصر حزينين : (١) الحكومة بعضها المراقبان
(٢) النواب بعضهم الجند

وكانت الميزانية التي لا بد من عرضها على مجلس النواب للمصادقة عليها مؤلفة
من قسمين الاول الايرادات التي تخصصت لوفاء الدين والثاني النظر في سائر الايرادات
فلما اجتمع مجلس النواب في ٢ يناير سنة ١٨٨١ وفد شريف باشا على المجلس لتقديم
اللائحة الاساسية الجديدة التي أعدها له فقدمها وخطب في ذلك خطاباً أثر في أذهان
النواب وقد جاءت هذه اللائحة مشتملة على أحكام حرية وحدود مطلقة يكون بمقتضاها
لنواب حق النظر في القوانين والنفقات العمومية وأن لا ينفذ قانون ولا يعتبر نظام
ما لم يصادق عليه في مجلسهم مع الحرية التامة لهم في ابداء آرائهم . فتعينت لجنة من
أعضاء المجلس لمراجعة هذه اللائحة . وبعد الاجتماع مرات عديدة قررت أكثر بنود
اللائحة ووقع الخلاف بين النواب والنظار في شأن ما يتعلق منها بالميزانية

وفي ٢٧ صفر من تلك السنة أعاد النواب اللائحة المذكورة الى النظار بعد أن
ينوا ما يريدون تعديله فيها . فرأى النظار أن يغيروا شيئاً من تعديلات النواب فلم
يقبل أولئك وأصرروا الا تنفيذ تعديل لجنهم . وفي ١١ ربيع أول سنة ١٢٩٩ هـ
(٣١ يناير سنة ١٨٨٢ م) أعاد النظار اللائحة الى النواب مرفوقة بإفادة مفادها ان
وكلي الدولتين فرنسا وانكلترا لا يريان حقاً لمجلس النواب في تقرير الميزانية ولكنها
مع ذلك يقبلان الحجة في هذا الشأن بشرط أن يستقر الاتفاق بين النواب والحكومة
على سائر بنود اللائحة . وبناء على ذلك تطلب الحكومة من النواب تصديقهم على
اللائحة مع اغفال ما يتعلق بالميزانية لينما يعطي النواب رأيهم النهائي فيه . فنظر النواب
في تلك الاقادة عدة ساعات فقرروا إحالتها الى اللجنة التي كانت مكلفة بتقحيح اللائحة

وطلبوا اليها إعادة النظر في التعديلات التي أدخلها مجلس النظار فصدقت على بعضها ورفضت البعض الآخر وأدخلت على البند المتعلق بالميزانية تعديلاً على مقتضى ما أرادت. وقررت في الوقت نفسه عدم قبول توسط القنصلين في ذلك الأمر وفي يوم الخميس ١٣ ربيع أول (٢ فبراير) سارت لجنة مؤلفة من ١٥ نائباً إلى الجنب الحديوي يطالبون تنفيذ ما قرروه أو استعفاء الوزارة. فوعدهم سموه إلى صباح السبت وانصرفوا فقابل مع شريف باشا بحضور القنصلين قاصر شريف باشا على رآيه واستغنى الحال. فاستدعى الجنب الحديوي لجنة النواب وكلفها أن تختار رئيساً للوزارة فقالوا أن ذلك من حقوق الجنب الحديوي فألح عليهم فامتنعوا. ولكنهم قالوا تريد وزارة تنفيذاً لأختنا فاختار لهم محمود باشا سامي وقده منصب الوزارة وعهد إليه تشكيل وزارة جديدة. فشكلها وجعل أحمد عرابي ناظرًا للجهادية. فسر الحزب الوطني كل السرور ووردت لهم التهاني من سائر أنحاء القطر من وطنيين وأجانب وأقام النواب احتفالاً لفوزهم. وفي ١٥ ربيع أول أو ٤ فبراير اجتمع ضباط الجهادية من رتبة الصاغفول أغامى فما فوق ومثلوا بين يدي الجنب الحديوي لاطهار الطاعة فشكروهم سموه وخاطبهم بما شاف عن حبه لاصلاح البلاد. وفي ١٩ ربيع أول حضر محمود سامي إلى مجلس النظار فقوئل بالتمظيم والتكريم وسر النواب بنفوذ رأيهم فخطب فيهم ونشطهم وأقر لهم على اللائحة كما عدلوا. فلما علم الناس بالتصديق على اللائحة النواب أقاموا الاحتفالات في مصر والاسكندرية سروراً بفوز الحزب الوطني وأصبح الجهاديون القوة المهيمنة في البلاد واليهام بوجه البناء لأن تلك الحقبة قد أدركت بمساعيهم

ولما جلس عرابي على مسند نظارة الحرية والبحرية احسن عليه وعلى عبد العال بمرتبة لواء « باشا » ثم سعى في ترقية كثيرين من رفقاءه الضباط وقرر قانون الضمان والمعاشات بصفة جمعت القلوب على ولائه. وعمد إلى التخلص من الحزب التركي الذي كان لا يزال متخالفاً للجهادية فشكل لجنة لفرز الضباط المستودعين فقررت نحو الستمائة أكثرهم من الأتراك والشراكسة فأصبحت الجهادية وطنية محضة. وذكرت جرائد أوروبا إذ ذاك أن الحزب الوطني وفي مقدمته عرابي كان يهدد مجلس النواب ويتوعدده بالسوء إذا لم يسر على غرضه. فأنشئ رئيس مجلس المذكور في الجريدة الرسمية ما ينفي تلك التهمة ثم تخصصت جريدة الطائف للنشر محاضر مجلس النواب والتكلم بأفكار أعضائه والدفاع عنهم. وفي أواسط ربيع آخر أو مارس استغنى بلينيار

أحد المراقبين الماليين فعين بدلاً منه المسيو بريدف. وفي ٦ جمادى الأولى سنة ١٢٩٩ هـ أو ٢٥ مارس سنة ١٨٨٢ م انفض مجلس النواب من أعماله لتلك السنة وقد قرر فيها (١) القانون الاساسي (٢) لائحة الداخلية (٣) لائحة الانتخاب (٤) أمور أخرى مهمة. وقد تقرر في لائحة الانتخاب ثبوت حق الانتخاب والنيابة معاً لأي من كان من رعايا الحكومة سواء كان مولوداً في القطر المصري أو مقيماً فيه منذ عشر سنين. ولما ودع النواب الجنب الحديوي سلم سموه كلا منهم امراً مؤذنًا بتعيينه عضواً في المجلس المشار إليه إلى خمس سنوات

استفحال الثورة

فتمكن الارتباط بذلك بين الجهادية والنواب وأضيف إليهما الوزارة لأنها وطنية أيضاً فازدادت مشاكل الحديوي والمراقبين وازدادوا اعتقاداً بوجود احتلال القطر يجند مختلط من الفرنسيين والانكليز. وانكأ تراعى في ذلك باعثاً على سوء ظن الدول الأخرى وتفضل صرف هذا المشكل باحتلال تركي بشروط لا تحشى معها رجوع النفوذ العثماني

على أن العثمانيين كانوا يرون في استفحال أمر الوطنيين على الحديوي قائدة لهم وربما ساعدوا على ذلك تحت طي الحفاء أملاً باسترجاع مصر إلى حوزتهم. فلا غرو إذا تمسك الوطنيون بمطالبهم وأخذ في ذلك العسكر والنواب والوزارة. وقد زادهم تمسكها بغراء بعض المنظرين من الأفرنج فقد كانت منهم جماعة يحسنون تلك الثورة ويطرون القامعين بها ويبدشرونهم باستقلال مجيد واشهر هؤلاء المغرورين الفريد بلانت الانكليزي

فلا غرو بعد ذلك إذا تهور الوطنيون في مطالبهم وتصوروا في أنفسهم القدرة على كل شيء فأغلوا أيدي المراقبين ونبذوا سلطة الحديوي واحتقروا الأفرنج فهم الحرف الحاء القطر وسادت القوضى وضاعت سلطة المديرين

وهم في ذلك نهض الباب العالي يقيم الحجبة على لائحة الدواوين القاضية باتحادها في مسألة مصر واحتلالها عند الاقتضاء وخاطب الدول الأخرى بذلك فاجابت روسيا والنمسا والمانيا وإيطاليا أنهم يرغبون في بقاء مصر على حالتها السياسية تحت رعاية السلطان وسمينه في هذا الجواب « Suzerain » ومعنى ذلك في اصطلاح السياسة أن يكون للسلطان السيادة الاسمية على مصر. وهو يريد أن يسمى سوفرين Sovereign أي صاحب السيادة الفعلية. وعند التحقيق يتضح أن سيادته على مصر

أقرب الى هذا اللقب مما الى ذلك . لانه صاحب الحق الرسمي في خلع الخديويين وتوليهم ولا يقدر صاحب اللقب الاول على ذلك فالسلطان « سوزرين » على بلغاريا لانه لا يقدر أن يولي أميرها أو يعزله ولكنه سوفرين على مصر وتغيرت وزارته فرنسا في أثناء ذلك وتولى حكومتها دي فريسينه بدلا من غمينا وهو يخالفه في سياسته بمصر فلا يرى احتلالها بجند مختلط وعرض على انكلترا رأيه في حل المسألة المصرية بخلع الخديوي وتولية حليم باشا بشرط أن لا يزداد نفوذ العثمانيين فرفضت انكلترا هذا الرأي

مشكل جديد

قد رأيت ان أحد عراقي رقي كثيرين من الضباط أبناء العرب واضطهد الآراء والشراكة وأمر بنقلهم الى السودان قبله أنهم يكيدون له ويتآمرون على قتله فأمر بالقبض على جماعة كبيرة منهم وفيهم عثمان باشا رقي ناظر الجرية السابق وحاكمهم بمجلس حربي فصدر الحكم على أربعين منهم بالثني المؤبد الى أقصى السودان . قتولت مشكلة جديدة لان رقي باشا حائز على رتبة فريق من السلطان وله وحده حق الحكم في هذا الشأن ووافق الخديوي على ذلك فأغضب وزرائه وطال الاخذ والرد في المسألة ثم تقرر تعديل ذلك الحكم بالثني بدون تعيين السودان أو غيرها . فغضب العراقيون والوزارة الآن منهم فبعثت تستقدم النواب لتشكو اليهم تصرف الخديوي وانه يضيع امتيازات مصر بدون أن يشاور وزرائه وقد أصروا عزمهم على خلع الخديوي واخراج أسرته وتولية محمود باشا سامي حاكما على مصر

فاجتمع النواب من أنحاء القطر وحاولوا تسوية الخلاف عبثا فتعينت لجنة في ٢٥ جمادى الآخرة سنة ١٢٩٩ هـ أو ١٤ مايو سنة ١٨٨٢ م تعرض على سموه قبول الاقتراح بشرط أن ينزل رئيس النظار فقط وأن يجعل مكانه مصطفى باشا فهمي . فتوجهوا وعرضوا ذلك على سموه فقبل بعد التردد . فساروا الى مصطفى باشا يسألونه اذا كان يقبل تلك الرئاسة فأبى . فعادت المسألة الى مركزها الاول بل زادت تحسبا فوقفت حركة الاعمال وباتت العيون شاخصة الى ما سيكون . واجتهد سلطان باشا في تسوية ذلك الخلاف بكل طريقة ممكنة وساعده ناظر المعارف فلم ينجح . وهم في ذلك ورد تلغراف من لندن ينيء بصدد الامر الى الاسطول الانكليزي الراسي في بحر المانش أن يتأهب ليسافر في ٢٨ مايو الى البحر المتوسط فأوجس الناس خيفة وكان الموسوي دي فريسينه قد عاد الى مخبأه انكلترا في أيهما أفضل لمصلحة مصر

الاحتلال الفرنسي الانكليزي أو التركي . وتقرر ارسال العاريتين الى مياه الاسكندرية وان يطلب من الباب العالي التوقف عن المداخلة الا اذا دعت الدولتان للتحدثان الى ارسال جند عثماني . وكان رأي فرنسا أن الدولتين اذا رأتا حاجة الى الاحتلال العسكري تطلبا الى السلطان أن يرسل جندا عثمانيا للاحتلال بشروط معينة ولما بلغ السلطان عزم الدولتين على ارسال أسطوليهما الى المياه المصرية غضب ورفض احتجاجه الى الدول ولكن ذلك لم يقف في طريق الاساطيل

ففي مساء الجمعة غرة رجب أو ١٩ مايو سنة ١٨٨٢ وردت على ميناء الاسكندرية دارعة انكليزية وفي الصباح التالي دارعتان أخريان وثلاث دوارع فرنسية فاطلقت للمدافع للسلام كالعادة . ثم جعلت البواخر ترد الى ذلك الثغر حتى تكامل الاسطولان ولم يكن معها أسطول عثماني . فكثر تقول الناس في سبب قدوم هذه العارات على هذه الصورة . ثم أشيع أن قدومها كان بوافق مع الباب العالي وبارتياح الدول عموما بشرط أن تسرع بعد انتهاء المشاكل الى الانسحاب

وفي ٧ رجب أو ٢٥ مايو من تلك السنة قدم قسلا انكلترا وفرنسا بلاغا نهائيا من دولتيهما تطلبان فيه سقوط الوزارة واخراج عراقي من القطر المصري بان تضمننا له حفظ رتبة ورواتبه ونياشيته وابعاد عبد العال حلي وعلي فهمي الى الارياض في جهات لا يخرجان منها مع حفظ رتبتهما ورواتبهما ونياشيتهما وأن الدولتين عازمتان على تنفيذ كل ذلك . وهما تكلفان الجناح الخديوي أن يصدر عفوا عاما عن الذين لهم دخل في المسألة . فرفض النظار هذا البلاغ ولم يجيبوا عليه بدعوى « أن لا علاقة للدول الأوروبية معنا فاذا شئ فليخارن الاستانة أما نحن فاما مستعدون للمقاومة » فأخذ سلطان باشا يسعى في التوفيق فخطب مسعاه . وفي ٨ رجب أو ٢٦ مايو استعفت الوزارة محتجة على بلاغ الدولتين وطلبتهما فكلف شريف باشا بتشكيل وزارة جديدة فأبى وأصر على الاباءة فأطلعه قنصل فرنسا على تلغراف وارد اليه من وزارة فرنسا هذا نصه :

« الامل أن يقبل شريف باشا رئاسة الوزارة وأكدوا له اتينا نعضده ونؤيده بكل جهدي » فلم يقنع ذلك وأصر على الرفض

ثم عقدت جلسة عند الجناح الخديوي حضرها بعض رؤساء الجهادية وفي مقدمتهم طلبة عصمت فقال شريف باشا انه يقبل أن يشكل وزارة جديدة بشرط أن تنفذ الجهادية ما لطلبات الدولتين فقال طلبة : « نحن مطيعون أما يستحيل علينا تنفيذها

ولا حق للدلتين بطلب ذلك لان هذه المسائل من اختصاص الباب العالي « قال ذلك وخرج قبة الضباط . وبتاريخه ورد تلغراف من راس التين بالاسكندرية ان العسكر هناك لا يقبلون غير عرابي ناظراً عليهم وانهم اذا مضت ١٢ ساعة ولم يرجع الى منصبه لا يكونون مسئولين عما يحدث مما لا يستحب وقوعه . فزاد الاشكال والاضطراب . فتمكن شريف باشا وغيره من اصرارهم على رفض تشكيل وزارة جديدة . وعند الغروب اجتمع النواب ورؤسهم وحضر عرابي وجعل يخطب فيهم وخطب أيضاً عبد العال وغيره يطلبون تنازل الحديوي فتقام الخطب فأرسل الجانب الحديوي يخبر الباب العالي ان الجند غير راضين عن استعفاء الوزارة وانهم أقاموا الحجة على طلب الدولتين . فأجابته ان الحضرة السلطانية أمرت بتشكيل لجنة عثمانية تأتي مصر بعد ثلاثة أيام للنظر في هذا الامر . فأمر الجانب الحديوي أن يرجع عرابي الى مركزه موقفاً للتأمين على الاجانب لينما يصل الوفد العثماني فسر الجند بذلك . وبعث عرابي مذشوراً الى قناصل الدول يضمن تأييد الامن لجميع سكان القطر المصري من وطنيين وأجانب مسلمين وغير مسلمين . وفي الوقت عينه اقترح ثلاثة أمور :

١ إعادة لائحة الدولتين وانسحاب أسطوليهما

٢ وضع قانون أساسي تين فيه حدود كل من الجانب الحديوي ووزرائه

٣ قطع المخابرات والعلاقات توتاً مع الدولتين ومع سائر الدول الا بواسطة الدولة العثمانية

ثم عمل العرايون على خلع الحديوي وتولية البرانس حليم باشا وكثيراً ما كانوا يصرحون بذلك في مجالسهم

وكان السلطان من الجهة الاخرى يسعى في اغتنام هذه الفرصة لاسترجاع نفوذه بمصر واعترف الدول ان السلطان اولاهن بحل هذا المشكل . وبعد ان كانت فرنسا من اكبر المقاومين للتدخل العثماني صرح دي فريسنيه ان كل الوسائل لحل المسألة المصرية يمكن اتخاذها الا الاحتلال العسكري الفرنسي . خلافاً لرأي غمينا سلفه . وكان الحديوي من الجهة الاخرى راغباً في توسيط الباب العالي لعله يؤيده . وعرض البرنس بسمارك عقد مؤتمر دولي للقرار على هذه المسألة فلم يرض السلطان بالمؤتمر لكنه اتدب رجلين من كبار رجاله أوفدهما الى مصر أحدهما درويش باشا والآخر أسعد أفندي وكانت مهمتهما القبض على الجبل من الطرفين لارضاء الحزبين فيكون السلطان مع الفائز منهما . فكانت مهمة درويش باشا توطيد علائق الولاء مع الحديوي

ضد عرابي وبعكس ذلك مهمة أسعد أفندي . وكان في جملة الاوامر المعطاة لدرويش باشا أن يقيض على عرابي ورفاقه ويرسلهم مغلولين الى الاسكندرية وأن يلقي مجلس النواب ويقوي نفوذ أمير المؤمنين وفرق الاوسمة في العرايين وفي حزب الحديوي فالت هذه السياسة طبعاً الى زيادة التفريق وتفاقم الفوضى وكره الاجانب فافضى ذلك الى حادثة الاسكندرية في ١١ يونيو

حادثة الاسكندرية

وسببها أن الفلق والاضطراب استوليا على سكان القطر وكثرت الاشاعات وزرع الزلازل الاجانب الى الجلاء خوفاً من أمر يأتي فاصبحت الاسكندرية ملجأ الوافدين من جنية الزيف على أمل أن يكونوا فيها آمنين من غوائل التعدي لكثرة من فيها من الاجانب أو بالحري للاحتباء بجوار الاسطولين الانكليزي والفرنساوي ثم أحس الاجانب فيها أن سفة الاهالي ومعظم الجهاديين قد أغلظوا في معاملاتهم واستبدوا في أمورهم فكانوا يخطرون في الأزقة تهاً يمتنون الرفيع ويستعبدون الوضع وقد لاح لهم أن أولئك الاجانب يريدون بهم شراً فجعلوا يتوقعون منهم ما يتدعون به الى الوقعة بهم توها منهم ان أولئك من الد الاعداء لوطنهم . فلم الاجانب بتلك المقاصد فجعلوا يتأهبون سراً للدفاع بما أمكنهم من اقتناء الاسلحة ورجال واخفائهم في منازلهم واستشاروا اميري الاسطولين فوافقاهم ثم عرضوا الامر على القناصل الجزالية في القاهرة بواسطة مندوب مخصوص فأنكروا عليهم ذلك فلبشوا يتوقعون المقدور

أما أهل الفتنة فادركوا تحذير الاجانب منهم فهموا بهم في ٢٤ رجب أو ١١ يونيو وابتدأوا الفتنة بخصام بين حمار ومالطي اتصلوا منها الى الاغارة على البيوت والمنازل والفتك بكل من مروا به في السبل . فلم تكن ترى الا اخلاطاً من السفلة بين صعيدي وسوداني وبدوي وفيهم الحمار والحالون وأمثالهم يهجمون جماعات على من لقوه في طريقهم فقلوا نحواً من ٣٠٠ نفس وقتل منهم نحو هذا العدد . كل ذلك والاسطولان لم يحركا ساكناً . وتعارض مأمور الضابطة المدعو السيد قنديل ولم ينزل يومئذ الى المدينة وجرح في هذه الواقعة عدد كبير من كبار الاجانب وفيهم قنصل اليونان والمستر كوكسن قنصل انكلترا في الاسكندرية وقنصل ايطاليا وفيس قنصلها وقنصل روسيا وكثيرون غيرهم . فأمر محافظ الاسكندرية (عمر باشا لطفي) الاميرالاي سليمان داود أن يبعث الجند لايقاف

الاهالي ومنهم من ارتكاب تلك الفظائع . فأجاب انه لا يستطيع ذلك الا بعد أن يأتيه أمر من عرابي . فجاءه الأمر نحو الساعة الخامسة بعد الظهر فصار الجند والحفاظ أمامهم ساعياً على قدميه يسكنون الجواطر وينادون بإعادة الراحة . فأروا المخازن قد نُهبت والارزاق قد تبعثرت على قارعة الطريق . وعند الغروب هدأت الغوغاء وكف الناس فدخل كل منزله وانقضى الليل ولم يحدث شيء . وفي اليوم التالي كثرت عدد المهاجرين بحرراً حتى خيل للناس انه لم يبق في المدينة أحد من الاجانب . فزل من المدينة في يوم واحد نحو عشرة آلاف تفرقوا في السفن . كل ذلك خوفاً مما كانوا يخشون حدوثه من مثل ما قاموه . واتصلت هذه الاخبار بالداخلية فانتشر الاضطراب وعمت البلوى وتقاطر الناس من سائر الاقطار الداخلية الى السواحل يطلبون الفرار كما فعل الاسكندريون واستمرت الحال على ذلك بضعة أيام حتى كاد يخلو القطر من الزلاء وقد قدر بعضهم عدد من هاجر في تلك المدة فبلغ زهاء مائة وخمسين ألفاً

ولما بلغ خبر حادثة الاسكندرية الى أهل العاصمة اضطربوا وفي صباح ٢٢ يونيو خاطب القناصل درويش باشا معتمد الحضرة السلطانية بكلام غنيف وسأله أن يتخذ التدابير الفعالة لصيانة الاوربيين وأموالهم في جميع أنحاء القطر فعقد مجلساً في عابدين حضره الجناب الحديوي ودرويش باشا ومن معه وشريف باشا ووكلاء الدول العظمى السياسيون وبعد المذاكرة اقروا أن تعطى للقناصل ضمانات أكيدة تكفل إعادة الامن والحفاظة على ارواح الاوربيين وأموالهم ومن أخص هذه الضمانات ان يمثل عرابي لاي الاوامر التي تصدر له من الحديوي فدعي وسئل فلجأ بالقبول وتعهد باجراء ما يضمن الراحة وأخذ درويش باشا على نفسه تبعه تنفيذ الاوامر الحديوية بمعنى ان يكون مشتركاً مع عرابي ومسئولاً معه في تنفيذ تلك الاوامر . فرضي وكلاء الدول بذلك وانصرفوا وأخذ عرابي يتم قياماً بتعهده فنشر المنشورات بمنع الاجتماعات وابطال كل ما يوجب الارتياح . وكانت قد تمكنت لجنة بامر الجناب الحديوي للنظر في أمر حادثة الاسكندرية تحت رئاسة عمر باشا لطفي محافظها وفيها مندوبو القناصل فاجتمعت اللجنة في الاسكندرية وباشرت أعمالها وقررت ما خيل لها أنها تدابير فعالة لإعادة الامن

وفي ٢٦ رجب أو ١٣ يونيو (حزيران) وصل سمو الحديوي الى الاسكندرية يصحبه درويش باشا مندوب الحضرة السلطانية فصفت لها الجنود من الحطة الى

سراي رأس التين وأطلقت المدافع تحية لها . ثم زاره قناصل الدول الاقتصلا انكلترا وفرنسا فانهما بقيا في مصر قابدي لهم أسفه الشديد لما حدث ووعدهم بصرف العناية الى اخراج الفتنة وخاطبهم درويش باشا أيضاً بمثل ذلك وزاد عليه انه واثق الثقة التامة باخلاص الجهادية . الا ان الحديوي أسر الى المستر كولفن المراقب العمومي الانكليزي انه غير واثق باستمرار الامن والراحة وانه يعتبر مهمة درويش باشا كأنها قد انتهت ولم تفلح وانه لا يرى بداً من مجيء جنود عثمانية لإعادة الراحة . وكان في ثكنات الاسكندرية نحو من ثمانية آلاف جندي بالاسلحة الكاملة ومعهم من المهمات ما يكفي خمسين ألفاً

ثم بلغت القناصل رعاياها أن يتخذوا اقرب السبل للتجاء مما ربما يحدث وأوعزت اليهم أن يهاجروا من المدينة فتناقلت الاسن هذه الاخبار فتأكد الناس أن الساعة آتية لا ريب فيها وعينت كل دولة من الدول الاجنبية سفناً لنقل رعاياها المهاجرين مجاناً فتسارع الفقراء من كل ناحية متقاطرين من مدن الداخلية والارياض الى الاسكندرية وبورت سعيد حيث كانت تلك السفن معدة لتقلهم الى بلادهم . وكان المستر مالت وكيل انكلترا السياسي لا يزال في العاصمة فجاءه أمر من لندن بأن يحضر الى الاسكندرية ويرافق الحديوي حيثما توجه فاتاها وأتى معه المسيو سنكوفيتش وكيل فرنسا تخلت العاصمة من رجال السياسة وخلا جوها لعرابي وجماعته واستفحل أمرهم ولا سيما لما بلغهم من انقسام دول اوربا في المسألة المصرية فظنوا أنهم في مأمن من الاغتيال . ثم حسب القناصل ان تغيير الوزارة يأتي بحل هذه المشكلة فأشاروا على الجناب الحديوي بذلك فشكل وزارة جديدة تحت رئاسة اسماعيل راغب باشا وبقي عرابي ناظراً للجهادية والبحرية فكان رأي هذه الوزارة ان الطريقة المثلى لملافاة الأمر ان يصدر عفو عمومي وأن يعلن في الجرائد الرسمية « أن كل من عليه مسئولية أو اشتراك بالحوادث الاخيرة فعليه العفو الا المشتركين في حادثة الاسكندرية وهم تحت الحاكمة » فوافقها الجناب الحديوي على ذلك . وفي ٥ شعبان سنة ١٢٩٩ هـ أو ٢١ يونيو سنة ١٨٨٢ م بعث الجناب الحديوي منشوراً الى راغب باشا يطلب اليه التحري الحسن في مسألة حادثة الاسكندرية فأجابه بتلبية الطلب

ثم جاءت الاخبار بعزم الدول على عقد مؤتمر في الاستانة لاجل البحث في المسألة المصرية وتمنع الباب العالي من ذلك بدعوى أن ليس في مصر ما يوجب الاضطراب اعتماداً على تقارير درويش باشا المرسلة منه . وكان ذلك مما شدد عزائم

الحزب الوطني ولا سيما لما رأوا الباب العالي واثقاً بهم يأتى عقد مؤتمر دولي . وكان عرابي يؤكد لاتباعه أن وجود هذه الاساطيل في ميناء الاسكندرية لا يخشى منه البتة لأنها إنما أتت هذا البحر لتتزه كما فعلت مرات عديدة قبل هذه . أما انكلترا فلم تفك ساعية في عقد المؤتمر بدعوى أنه يستحيل إعادة الأمن الى مصر بغير واسطة فعالة . وكان الباب العالي يحيب على ذلك بقوله انه بعد تشكيل الوزارة الجديدة صار يرجو استقرار السلام ووافقه على أنه هذا دول المانيا وأستراليا وإيطاليا والروسية . وهذه الموافقة كانت مبنية على خوف الدول من مطامع انكلترا في مصر . فلما علمت هذه بنياتهم أكدت لهم أنها تعهد متى عقد المؤتمر مع سائر الدول ألا تسعى البتة الى ضم أرض ما إليها أو الاستيلاء على مصر أو قسم منها أو الحصول على امتياز سياسي أو تجاري بدون أن يكون فيه نصيب لسائر الدول فوافقها الجميع على عقد المؤتمر أما الدولة العلية فأصرت على عدم لزومه

وفي ٧ شعبان أو ٢٤ يونيو عقد المؤتمر في الاستانة ولم يكن للدولة العلية معتمد فيه فقرر ما يأتي : « ان الحكومات التي وقع وكلاؤها بالنيابة عنها على ذيل هذا البروتوكول تعهد أنها لا تقصد البتة اغتنام أرض ما ولا الحصول على امتيازات ما ولا أن يكون لرعاياها من الامتيازات المتجربة ما لا يستطيع أن يناله غيرهم من رعايا أي الدول في مصر وذلك في أي مسألة حصل الاتفاق عليها بسعيها واشتركا في المحادثات لتنظيم أمور تلك البلاد » . وقد كانت انكلترا في أثناء سعيها الى عقد المؤتمر تجشد الجنود استعداداً للحرب وكانت في الوقت عينه تلح على سائر الدول أن تساعدوا في ذلك

وجاء في أثناء ذلك الى عرابي نيشان من لدن الحضرة السلطانية فاتخذته الناس دليلاً على رضا الباب العالي عن أعماله وكان هو يحاول اقناعهم ان جميع الدول تساعد على مقاومة انكلترا اذا مست الحاجة . وفي ٥ شعبان أو ٢٢ يونيو تمارض المستر مالت وكيل انكلترا فأنزل الى احدى السفن وبقي فيها بضعة أيام ثم سافر الى برنديزي . وفي ٢٥ منه تسعي المستر كوكسن قنصل انكلترا في الاسكندرية بدعوى مرضه بسبب الجراح التي كان قد أصيب بها في أثناء حادثة ١١ يونيو وهكذا فعل قنصل مصر . أما باقي القناصل فبقوا في الاسكندرية الى ٩ يوليو . وكان الحديوي ودرويش باشا مقيمين في سراي رأس التين وعرابي مقيماً في الترسخانة ومحت أمره في تعزيز الاسكندرية تسعة آلاف مقاتل

وفي جلسة المؤتمر السابعة أقرت الدول على كتابة لائحة مشتركة يقدمونها الى الباب العالي يطالبون منه ارسال جنود عثمانية الى مصر لاختاد الفتنة ففعلوا فأبى فأتخذت انكلترا ذلك ذريعة لتدخلها بالقوة

ضرب الاسكندرية

أما فرنسا فقد علمت ما كان من تغير سياستها بعد تغير وزارتها وأصبحت لا ترى الاشتراك مع انكلترا في أمور مصر وإنما هي تشاركها فقط في حماية قناة السويس ولم تشأ مشاركة الانكليز في تحمل تبعه الاحتلال العسكري . ولذلك فلما رسا الاسطولان في مياه الاسكندرية تفردت انكلترا بالعمل . فأخذ الاميرال سيمور قومندان العمارة الانكليزية يتربى الاسباب لمباشرة العدوان فادعى أن الجهادية يحصنون القلاع في الثغر وينقلون أحجاراً ضخمة يلقونها عند فم المضيق لسد مدخل الميناء فيمنع المدد ويحصر الاسطول وقال ان هذا التحصين مناف لحقوقه . فكلف الحكومة المصرية أن تكف عن التحصين حالا والا اضطر الى اطلاق مدافعه عليها فيدكها عن آخرها . فأجابه طلبة باشا عصمت أن لا صحة لما يقول وان الجهادية لم يهتموا قط بتحصين القلاع . وشاع ذلك تخافت الناس وأوعز الى الجنب الحديوي بواسطة المستر كوكسن أن يتنحى حيانه فاجابه « لا يليق بي أن أترك الكثيرين من رعيي الامناء في أوان الشدة ولا يليق بي ايضاً أن أترك البلاد في أوان الحرب » ثم توسطت قناصل الدول في الاسكندرية بين الاميرال سيمور وبين الجهادية المصرية فلم ينجحوا . فتقدم عرابي وسامي الى كاتب سر مجلس النظار أن يكتب تقريراً في المسألة مفاده « أن الاميرال تجاوز الحدود فيما يطلب وأنه لا بد من مقاومته وأن عرابي وقومه مفوضون في أمر الدفاع عن البلاد » وداروا به على منازل النظار وطلبوا التوقيع عليه فوق بعضهم اختياراً والبعض اضطراراً ويقال أن الحديوي نفسه صدق عليه أو الجبىء للتصديق ثم أرسلوه الى الاميرال سيمور . وأرسل عرابي منشوراً الى المديرين يطلب اليهم أن يكونوا مستعدين للامداد بالجند والمال

وفي مساء ٢٢ شعبان أو ٩ يوليو جاء المستر كارتر الى الحديوي وأعلنه رسمياً عزم الاميرال سيمور على مباشرة القتال صباح الثلاثاء في ١١ يوليو وألح عليه أن يترك سراي رأس التين ويلجأ الى سراي الرمل ففعل . ثم كتب رسمياً الى درويش باشا يطلب اليه أن يحافظ على حياة الجنب الحديوي والتي عليه التبعة اذا أصيب بسوء . وفي ٢٣ شعبان أو ١٠ يوليو كتب الاميرال سيمور رسمياً الى كل من درويش

باشا وراغب باشا رئيس الوزارة يعلمهما عن خروج رجال الوكالة الانكليزية من القطر المصري اشارة الى قطع العلائق الودية وأعلنت خارجية انكلترا سائر الدول بذلك « وانها لم تبدأ منه لكنها تصرح أن ليس لها ارب خفي أو نية غير يثقة وانما عملها هذا من قبيل الدفاع وحرصاً على مصلحة الجنب الشاهي » وفي مساء ذلك اليوم سافر الاسطول الفرنسي متجهراً تاركا سفيتين من سفنه فقط

وفي الساعة السابعة من صباح الثلاثاء ٢٢ شعبان سنة ١٢٩٩ هـ أو ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ م أطلقت العارة الانكليزية مدافعها على حصون الاسكندرية وما زالت الى الساعة واحدة ونصف بعد الظهر فهدمت معظمها واقعج مستودع البارود في قلعة اطه . فجاء راغب باشا الى الجنب الحديوي في الرمل وأخبره أن الحصون قاومت أشد مقاومة وأن كثيراً من سفن الانكليز قد غرقت وكان يقول ذلك مسروراً . ولكن قوله هذا ما لبث أن نقض بورود الخبر الصحيح . ثم جاء عرابي فوقف بين يدي سموه فسأله عن حالة الحصون فقال « لم يعد في وسعنا المقاومة ولا بد لنا من تدابير أخرى أو أن نتساحل مع الاميرال » وبعد المخاطبة تقرر ارسال طلبة عصمت الى الاميرال وعاد عرابي من حيث أتى . فعاد طلبة باشا من عند الاميرال وأخبر الجنب الحديوي أن الاميرال يطلب احتلال ثلاث قلاع والا فانه يستأقب القنال الساعة ٢ بعد الظهر ثم قال « ولكنني قلت له أن هذه المدة لا تكفي لاتمام المخاطبة بشأن ذلك فطلبت تطويلها فاني فأتيت لاعلم سموكم ملتصاً رأيكم » فعقد مجلس تقرر فيه أنه لا يحق للحكومة المصرية الترخيص في احتلال جنود أجنبية بدون مخاطبة الباب العالي الا أن الوقت لم يسمح بتبليغ ذلك القرار للاميرال

ولما رأى رجال الحصون المصرية عجزهم عن مقاومة السفن الانكليزية رفعوا العلم الايض اشارة الى ايقاف العدوان فانقطعت السفن عن قذف النار . وكانت الحصون قد تدمت فلم الثائرون ان ذلك التسليم يعقبه احتلال الجيوش الانكليزية المدينة فوزعوا في غلى ١٣ يوليو فرساناً في احياء المدينة يأمررون الوطنيين بالخروج من الاسكندرية حالا وكانت هذه الاوامر تصدر من الاميرالي سليمان داود وأمر أيضاً زمراً من الرعاع أن تطوف المدينة وتحرقها فابتدأوا من الساعة الاولى بعد الظهر فكانت الاسكندرية مساء الاربعاء مضطربة الجوانب منهوبة الخازن لا ترى فيها الا لهباً متصاعدة واناساً حاملين الامتعة والمصاغ فارين الى داخلية البلاد وكان الحديوي في سراي الرمل وبعيته عثمان باشا واسباعيل باشا الشركيان وزير

باشا السوداني والجنرال ستون باشا وفدريكو بك وطونينو بك وديمارتينو بك واباني بك وتيكران باشا وزهرا بك وغيرهم لا يزيد عدد الجميع على خمسين . وبعد ظهيرة ذلك اليوم جاء الى سراي الرمل نحو أربعمائة فارس وبعض المشاة واحتاطوا بها فسلخوا عن الغاية من محيئهم فقالوا « قد أتينا للمحافظة على السراي » والحقيقة أنهم جاءوا مأمورين باحراقها وقتل من يخرج منها . وفي الساعة ٧ مساء بعث عرابي يستدعيهم اليه فصاروا وتخلف منهم أحد البكباشية ومعه ٣٥٠ فارساً قتل بين يدي الجنب الحديوي وأقسم أنه يموت بين يديه واقضى رجاله به وأخبره أنهم كانوا قد أتوا يريدون شراً . وفي خلال ذلك أرسل الاميرال سيمور ثلاث دوارع من أسطوله لترسو بجوار سراي الرمل صيانة لحياة الحضرة الحديوية ويقال أنها هي التي كانت السبب في انسحاب الفرسان العرابيين . ثم جاء المحافظ الى الحديوي يخبره بما كان من النهب والحرق في احياء المدينة . فأرسل سموه كامل باشا الشركي وزير باشا لينعنا الناس من ذلك

الاسكندرية بعد الضرب

ونحو الساعة ٢ ١/٢ بعد ظهر ٢٦ شعبان أو ١٣ يوليو كانت جنود عرابي قد انجحت عن الاسكندرية . فجاء زهرا بك بهذا التبا الى الحديوي وأن الاميرال سيمور عازم على ائزال جنود بحرية الى رأس التين وأنه يدعو الحضرة الحديوية الى سفينة . حيث يكون آمناً . ففضل سموه التوجه الى سراي رأس التين فسار وبعيته درويش باشا حتى جاء السراي فوجد هناك الاميرال سيمور وبعضاً من جنوده ينتظرونه في ساحة القصر . وفي المساء نزل بعض وكلاء الدول وهناؤه بسلامته وكان في السراي ٣٠٠ من الحامية الانكليزية . وفي الصباح التالي أنزل الاميرال فرقاً أخرى من رجاله

يطوفون الشوارع ومعهم عدد من المدافع تسكيناً لحواطر الباقين فيها وقد قدوت الخسائر بسماتة من الوطنيين وخسة من الانكليز على الدوارع غير المذابح التي حصلت في أثناء ذلك في طنطا والحلة الكبرى وسمنود وجهات أخرى . وبعد انتقال العائلة الحديوية الى رأس التين استدعى الجنب الحديوي زهرا بك . وجعله ترجماناً بين السراي والضباط الانكليز وعهد اليهم أن يمنع أيّاً كان من دخول القصر لان العرابيين كانوا قد عينوا قراً من الجواسيس لتجسس حالة السراي . أمه عرابي وأتباعه ففروا الى كفر الديوار وعسكروا هناك على نية الدفاع ولما استتب المقام للانكليز في الاسكندرية أخذوا في تنظيف الاسواق ونقل

الجنث ودعوا المهاجرين ان يعودوا الى منازلهم لاعادة الراحة والطمأنينة واستدعي أثناء ذلك درويش باشا الى الاستانة فتوجه

وكتب راعب باشا الى الاميرال سيمور يخبره ان اجراءات عرابي من الآن فصاعدا مخالفة لاوامر الخديوي وانه هو وحده (عرابي) المسئول عنها

ثم كتب الجناب الخديوي الى احمد عرابي يأمره بالامساك عن جمع العساكر واعداد التجهيزات لان الحكومة الانكليزية لا خصومة بينها وبين الحكومة المصرية وانها مستعدة لتسليم المدينة متى رأت فيها قوة منتظمة والبلاد في أمن وأمره ان يأتي الى سراي رأس التين حالاً

فاجاب عرابي « ان مقاومة العارة الانكليزية حصلت باقرار مجلس النظار ودرويش باشا وان النظار هم الذين أعلنوا الحرب على الانكليز وهكذا حصل فاذا كان الاميرال الآن قد عدل عن المحاربة الى المسألة بعد وقوع الحرب فذلك يعد طلباً للصالح ولا يجوز ان يكون انكاراً للحرب » الى أن قال « انه يميل الى الصلح ولكن مع حفظ شرف البلاد والحكومة فاذا كان الاميرال يريد تسليم المدينة فليسلمها وتخرج مراكبه من الاسكندرية وانه للمحافظة على شرف الحكومة الوطنية ينبغي الاستمرار على الاستعداد العسكري حتى تفارق المراكب المياه المصرية وانه يعتبر قول الانكليز هذا مكيدة لان الانكليز لا يزالون في الاسكندرية ولذلك لا يمكنه الحضور اليها » ثم طلب التثام مجلس النظار في مركز الجيش للمداولة في الامر وبعد ذلك يصرف الجيش ويحضر

— عبي العرابين —

فيظهر ان اصرار عرابي هذا هو السبب في اتساع الخرق لان الحكومة الانكليزية لم تكن تطمع باحتلال هذه البلاد على ما يظهر من أقوالها . وكتب عرابي الى وكيل الجهادية يعقوب سامي في القاهرة ايقاعاً في الحضرة الخديوية واتهمب بالتعامل على الجهادية الوطنية وأنها هي التي جلبت كل هذه المتاعب الى القطر المصري وطلب اليه ان يتروى في الامر وينظر في صلاحية هذا الوالي للتولية عليها أو عدمه . فلما وصل كتاب عرابي هذا الى يعقوب سامي جمع اليه الذوات والاعيان والرؤساء الروحانيين في ديوان الحرية في غرة رمضان سنة ١٢٩٩ هـ (١٧ يوليو ١٨٨٢ م) وعقدوا جلسة تحت رئاسة وكيل الداخلية قام فيها عدة خطباء اتهموا الجناب الخديوي ببيع الوطن . واستقر الرأي أخيراً على لزوم الاستمرار على اعداد

التجهيزات الحربية وانت عين لجنة من ستة أشخاص يتوجهون الى الاسكندرية لاستدعاء النظار الى العاصمة للاستسلام منهم عن حقيقة ما حصل . وبناء على ذلك القرار سار الوفد فمر بكفر الدوار وتداول مع عرابي ورؤساء الجند فاختير منه اثنان هما علي باشا مبارك واحمد بك السيوفي للتوجه الى الاسكندرية للغرض المتقدم ذكره . فوصلا اليها وقابلها الجناب الخديوي صباح الاثنين في ٢٤ يوليو وعرضا له الحالة فأصدر أمراً عالياً يقضي بعزل عرابي عن نظارة الجهادية وأعلن ذلك في البلاد . ثم أرسل الى الباب العالي يخبره بعصيان عرابي وان الجند انحاز اليه وهو المسئول عنه أما عرابي فلم ينفك عن اعداد المعدات والتحصين بمساعدة رفقاؤه فحاول سد ترعة المحمودية بجهة كفر الدوار فلم يفلح وجعل يشيع في البلاد ان الخديوي مشترك مع الانكليز على اضاءة البلاد الى غير ذلك من اثاره خواطر الاهلين ولما وصل الامر بعزل عرابي الى العاصمة اجتمع المجلس المتقدم ذكره في نظارة الداخلية وقرروا بقاء عرابي للدفاع عن الوطن وايقاف أوامر الخديوي لانه خرج عن قواعد الشرع الشريف

واستولى العرابيون على الخطوط الحديدية والبرقية فنصب الاميرال سيمور سلكاً تلغرافياً بين الاسكندرية وبورت سعيد وأعلن الخديوي ثانية عصيان عرابي . غير ان هذه الاوامر والمنشورات كانت تذهب أدراج الرياح لان الاهلين أصبحوا منقادين للحزب الوطني انقياداً أمست البلاد به آلة بيد زعيم الثورة يدبرها كيف شاء

ثم نزل العرابيون نحو الاسكندرية وعسكروا في الرملة فخرجت اليهم فرقة من الانكليز في ٥ اغسطس فلم تقو عليهم فتقهقرت الى الاسكندرية ثم عادت اليهم ثانية وقد تشددت فتقهقر العرابيون ونحسوا بين أي يفر وخطوط الرملة ثم تقهقروا الى كفر الدوار فاعتبر الانكليز من ذلك الحين حالتهم في مصر حالة حرية يحتاجون فيها الى الامداد فاستمدوا انكلترا فأمدتهم بقوات كانت تتوارد اليهم عن طريق السويس . أما عرابي فكان في كفر الدوار في أربعة آلايات من المشاة والاي من الفرسان والاي من الطبجية وبطارية من مدافع الرش وكثير من العربان وقد قدرت الجنود الانكليزية التي سارت لمحاربة عرابي بأربعة عشر ألفاً من المشاة وأربع فرق من الفرسان والـ ألف من الطبجية معهم ٣٦ مدفعاً ونحو ست فرق من المهندسين . ثم انضم الى هذه القوة بعد ذلك قوة هندية مؤلفة من تسعة آلاف جندي ويقال بالاجمال ان جميع الحاميات الانكليزية التي كانت في مالطة وقبرص وجبل طارق انضمت الى حملة مصر

على ان هذه الاعدادات لم تكن لثني العرايين عن عزمهم فان عرابي كتب الى المديرين بتاريخ ١٢ أغسطس أن يجمعوا جنداً يبلغ مجموعه ٢٥ ألفاً . وطلب أن يكون فيهم الخفراء لانهم أقرب الناس الى الحركات العسكرية تلبية لما تدعوه اليه الحالة من السرعة في حشد الحيوش وفرض أيضاً على المديرين أموالاً يجمعونها من الاهالي امداداً للحرب فلا تسلب عن الطرق التي كانوا يجمعون بها تلك النقود . وأخذ في تقوية الاستحكامات وتشيد الطوابي فدها بين ما فوق الرملة بأربعة كيلو مترات الى كفر الدوار وأنشأ في كفر الدوار سداً عرضه ٣٠ متراً وخندقاً عرضه اربعة امتار جعله فاصلاً بين السد وارض أكثر فيها من مواقع الاستحكام . وكان الخط الدفاعي الاول ممتداً مما بعد المحلة بمسافة الف متر على طول الخط الممتد من الرملة الى البيضة وجعل ما وراء هذا الخط من المرتفعات والتلال مواقع محصنة الى كفر الدوار فكانت كلها نحو ٥٠٠ موقع . واتم مثل هذه الاعمال الدفاعية من كفر الدوار الى أبي حمص ويوجد بين أبي حمص ودمهور تل يفضل سائر التلال مساحة وارتفاعاً فاختره عرابي موقعاً يقيه من الانكليز اذا قضت عليه الحال بالتقهقر الى دمنهور وعزز دمنهور بالدفاع



ش ٨٤ : مؤتمر الاستانة سنة ١٨٨٢

كل ذلك والتجارب جارية مع السلطان بشأن اشتراكه في المؤتمر للنظر في مصلحة القطر المصري وهو يأتي الاشتراك حتى اوعز اليه البارون دي رينغ ان فرنسا تحب الاتفاق مع العرايين فرضي أن يشترك فيه فاتدب للنيابة عنه سعيد باشا الصدر الاعظم وعاصم باشا ناظر الخارجية في ٢٠ يوليو . واعلن سعيد باشا المؤتمر في ٢٦

منه ان جلالة السلطان يعد حملة عثمانية الى مصر ولا حاجة الى مداخلة الدول الاوربية في هذه المسألة . وأخذت الدولة في اعداد ٥٠٠٠ جندي لهذه الغاية . فقال اللورد دفرين وهو سفير انكلترا في الاستانة لا بد قبل كل شيء من اصدار منشور شاهاني يعلن عصيان عرابي . فوافقه واصدره فنشر في الجرائد فوجدوه لا يفي بالمرام . فترتب على ذلك تباعد بين الدولة العلية وانكلترا وزاد التباعد سعي السلطان في عرقلة مساعي الجند الانكليزي بمصر أو لوقوفه في سبيل ما يحتاجون اليه من الدواب وغيرها لحمل أثقالهم مما يطول شرحه . فقطع اللورد دفرين العلاقات السياسية مع الباب العالي . وانصرفت الغاية عن ارسال جند عثماني أو غيره أما في مصر فقد تركنا الجند الانكليزي في الاسكندرية وقد غادرها العرايون وتحصنوا في دمنهور وكفر الدوار وأدرك عقلاء الوطنيين عاقبة تلك المقاومة فقام جماعة منهم يخوفونهم العواقب بلا فائدة والظاهر أن عرابي كان معولاً في مساعيه على مساعدة الباب العالي . ثم ما لبث أن سمع بتصرف السلطان بعصيانته ثم جاءته صورة المنشور السلطاني بهذا الشأن وخواء تعنيف عرابي على عصيانته وأنه يجب عليه الرضوخ للجناب الحديوي

وفي أواسط أغسطس وصل الجنرال السير ولسلي الى الاسكندرية واستلم قيادة الجيش . ثم أخذت تنوارد القوات الانكليزية فبلغت في أواخر الشهر المذكور نحو ٢٥ ألفاً وكان قدوم هذا القائد العظيم داعياً لتيقن الناس بفوز الحملة الانكليزية نظراً لما اشتهر به من البسالة والدراية العسكرية . وبعد وصوله الى الاسكندرية نشر اعلاناً مآله أنه لم يأت الى مصر الا لتأييد سلطة الحديوي وهو لا يحارب الا الذين يخالفون أوامر ملك البلاد وتنبأ أنه سيدخل القاهرة في ١٥ سبتمبر من تلك السنة . ثم أخذت العساكر الانكليزية تستكشف مراكز العرايين في كل يوم فكانوا اذا ظفروا بشرذمة من العرايين ولقوا منها مقاومة قابلوها بقوة السلاح فتولي الادبار تاركة في ساحة القتال من جرح منها فينقلونه الى معسكره أما القتلى فكانوا يدقونهم وفي ٥ شوال سنة ١٢٩٩ هـ أو ٢٠ أغسطس ١٨٨٢ م حصلت بين الفريقين معركة في كفر الدوار استمرت ساعتين وعدد العرايين ضعفاً عدد الانكليز وانجلت عن انهزام قسم عظيم من العرايين وانقلابهم الى تل الوادي واحتل الانكليز بعض مواقع العصاة بعد أن قتلوا منهم ١٦٨ وأسروا ٦٢ . وجرت معركة أخرى في اليوم التالي لم يفر بها أحد الطرفين . وفي اليوم الثالث ٧ شوال اقتتل الفريقان في كفر

الدوار اقتتالا تعز في جانب الانكليز بنجدة جاءتهم على قطار مخصوص فتراجع
العرايون وترصبوا تحت امرة طلبة عصمت في مواقعهم يتوقعون فرصة . وكان
العرايون بعد كل واقعة يكتبون الى اخوانهم في العاصمة وغيرها انهم ظافرون .
أما عرابي فذهب لتحسين التل الكبير في مديرية الشرقية

وبعث سير الاحوال وزارة راغب باشا على الاستغناء فاستقدم الجناح الحديوي
رياض باشا من أوروبا وكان متغيباً فقدم في أواسط أغسطس وبعد قدومه دعا الحديوي
شريف باشا الى تشكيل وزارة جديدة فلبى الدعوة وتعين رياض باشا ناظراً للداخلية
وعمر باشا لطفي ناظراً للجهادية

وأرسل الانكليز فرقاً من جيوشهم تسير الى مصر عن طريق الاسماعيلية
فاشتبكوا في ٩ شوال سنة ١٢٩٩ هـ أو ٢٣ أغسطس سنة ١٨٨٢ م مع العرايين بين
المسخوطة والاسماعيلية وكان الفوز للانكليز . واستولى الانكليز أيضاً على الخمسة
فأصبحوا على عشرة أميال من التل الكبير . وفي ٢٨ أغسطس حصلت واقعة القصاصين
بين الخمسة والتل الكبير . وفي ٢٩ شوال أو ١٢ سبتمبر ورد للجناح الحديوي في
الاسكندرية تليفراف من سلطان باشا يني باستعداد الانكليز لمهاجمة التل الكبير
حيث تحصن العصاة ثم ورد تليفراف آخر من الاسماعيلية يعلن هجوم الانكليز على
التل من كل ناحية وصوب في الساعة الرابعة والدقيقة ٣٠ بعد منتصف الليل وان
العرايين لم يقفوا أمام الانكليز الا ٢٠ دقيقة استولى الانكليز بانقضائها على التل
فغنموا ٤٠ مدفعاً وقتلوا ألفي رجل وأسروا الفين واستولوا على المؤن والذخائر ثم
أخذوا يتعقبون الجند المنهزم

واقعة التل الكبير

وتفصيل ذلك أن عرابي كانت قد وصلت اليه نسخة من جريدة الجوائب وفيها
منشور السلطان باعتباره عاصياً فاعتاظ وكاد يقع في اليأس لان حجة الكبرى كانت
أنه مدافع عن حقوق الدولة العلية في مصر فتشاور مع عبد الله نديم وأقر على إخفاء
ذلك عن الجند . فلما كانوا في التل الكبير وقد تحصنوا فيه بقوة ٣٠ ألف مقاتل
و ٧٠ مدفعاً زحفت الجنود الانكليزية بقيادة الجنرال ولسلي بقوة ١٣ ألفاً و ٦٠
مدفعاً وقبل وصولهم الى معسكر العرايين ارسلوا جواسيس من المصريين ومعهم نسخ
من الجريدة المشار اليها ففرقوها في الضباط وكبار الجيش . فلما اطلع أولئك عليها
خارت قواهم ويئسوا من الفوز لان معظمهم كان يقاتل لاجل السلطان فلم عرابي

بذلك فجمع اليه الضباط وشاورهم فأقروا على استمرار الدفاع محاربة ورياء . وفيه
كتب علي بك يوسف أمير آلاي المقدمة الى عرابي أنه قد تحقق أن العدو لا يخرج
في هذه الليلة فأصدر عرابي أمره أن يرتاح الجيش . أما العساكر الانكليزية فسارت
من أول الليل لا تقتر لها عزيمة وفي مقدمتها بعض الضباط المصريين الذين كانوا من
حزب الجناح العالي وأمامهم عربان الهنادي يرشدونهم الى الطريق فبلغوا المقدمة



ش ٨٥ : عبد الله نديم خطيب العرايين

في آخر الليل فأخلى لهم علي بك يوسف الطريق ومروا بين العساكر لا راداً بردهم
فأطلقوا النار على الاستحكامات وأوقعوا بالجند الراقدة فألقت الاجناد أسلحتها وفرت
فاستيقظ عرابي من نومه على دوي المدافع وخرج من خيمته فارتاع لما علم أن العدو
قد استولى على الاستحكامات وانهزمت الجنود المصرية فأخذ يناديهم فلم يلبه بحجب
ثم رأى خيمته أصيبت بقبلة فطارت فعلم أنه لا ينجيه من الموت الا الفرار . فركب

جواداً كريماً وفراً وتبعه عبد الله نديم خاويل بعض خيالة الانكليز ادراكهما فما استطاعوا وما زالوا حتى وصلا محطة أبي حماد فنزلا في القطار وأمر السائق بالمسير فتعلل فهدداه فسار حتى وصل القاهرة

عراي في القاهرة

فتوجه عراي كواً الى قصر النيل وعقد مجلساً من أمراء العسكرية والملكية وأخبرهم بما كان واستشارهم فاختلقت الآراء فهض البرنس ابراهيم باشا وخطب في الناس محرضاً على الدفاع فوافقوه بحسب الظاهر . واستقر الرأي على انشاء خط دفاعي في ضواحي المحروسة . فسار عراي في فرقة من المهندسين نحو العباسية يستشيرهم عن انسب المواقع لبناء ذلك الخط فقال له أحد الضباط « انك تجهلك وسوء تدبيرك قد أحرقت الاسكندرية وتريد الآن ان تحرق مصر فإذا لم يكن لك فيها ما يهيك فاعلم ان لنا فيها نساءً وأطفالاً وأملاكاً لا نسلم بضيايعها تنفيذاً لأغراضك ألا تدري انك تعرض مصر للخطر بانشاء الاستحكامات وتجعل منازلها هدفاً لسكرات المدافع فنحن لا نوافقك على ذلك وأنا أقول لك ذلك بالاصالة عن نفسي وبالنيابة عن جميع الضباط الحاضرين فلا ترج منا مساعدة ويكفي ما قد جرى »

فانذهل عراي وارتابك في أمره لاسيما لما رأى الباقيين مستحسنين ما قاله رفيقهم ففكر راجعاً على عقبيه كثيراً فاجتمع بأصدقائه ودعاهم الى النظر في الأمر فلم يجدوا أفضل من رفع عريضة الى الجنب الخديوي يعتذرون بها عن أفعالهم ويقدمون له الخضوع فحرروا عريضة وأرسلوها مع وفد مؤلف من بطرس باشا غالي وعلي باشا الروبي ومحمد رؤوف باشا ثم أردفوها بعريضة أخرى أرسلوها مع عبد الله نديم في قطار مخصوص وكان ذلك في غرة ذي القعدة سنة ١٢٩٩ هـ أو ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢ م فأبى الخديوي قبول العريضة وأمر بالقبض على الروبي وسجنه . اما نديم فانه ركب القطار الذي قدم عليه وعاد من فورهم بعد ان وصل كفر الدوار ثم اختفى بعد ذلك ولم يتيسر للحكومة القبض عليه الا بعد عشر سنوات قضاه عتقاً في الارياض

دخول الانكليز القاهرة

أما الجنود الانكليزية فانها بعد استيلائها على التل الكبير سارت فرقت برابيس فالزقاويق واستولت عليها ثم سارت حتى أتت العباسية خارج القاهرة في مساء الخميس ١٤ هـ وعسكرت في سفح المنظم يخاف الناس ان يدخل الانكليز مصر محاربين

ولكن الامر جاء بخلاف ما كانوا يتوهمون لأن الحيوش الانكليزية دخلت العاصمة بحالة سلمية في يوم الجمعة ١٥ سبتمبر طبقاً لما تنبأ به الجزال ولسلي وألقيت القبض على عراي . وبعد وصول الجزال ولسلي الى القاهرة انفذ السير الجزال اقلن وود الى كفر الزيات فوصلها في ١٦ منه فسلمت فأمر بنفس الطاية التي كان قد بناها العرايون في قرية اصلان وسلمت باقي الحصون في بورت سعيد ورشيد وأخيراً دمياط فانها لم تسلم الا في ٢١ سبتمبر

وبعد وصول الجنود الانكليزية الى القاهرة احتلوا قشلاقات العباسية والقاهرة والمقطم وقصر النيل ونزل الجزال السير ولسلي في سراي عابدين وكان من جملة قواد هذه الحملة الدوق دي كوت ابن ملكة انكلترا . وأودع عراي ومحمود سامي في سجن العباسية والاسرى من الملكية في سجن الضبطية والجهادية في القلعة ثم صدرت أوامر الخديوية بتعيين حكام المديرات من أهل النزاهة والاخلاص وصدرت أوامر أخرى بتعيين لجنة مخصوصة في الاسكندرية لتحقيق مواد السرقة والقتل والحرق التي وقعت فيها في حادثتي ١١ يونيو و ١١ يوليو الى غاية ١٦ منه وتقديم التقارير بما تستطلعها . واوامر أخرى بتعيين مثل هذه اللجنة في طنطا لتحقيق مثل هذه الحوادث التي حدثت خارج الاسكندرية . وأرسلت نظارة الداخلية منشورات الى المديرين يستقدمون من وقت عليهم الشبهة بالاشتراك مع العرايين . ولا تسلم عن التهامي التلغرافية التي وردت للجناب الخديوي وللجنرال ولسلي بما اتاهما الله من النصر المبين

وفي ٢٣ سبتمبر الغيت جريداً الزمان والسفير وفي ٢٥ منه أقبل الجنب الخديوي الى العاصمة ومعه شريف باشا وسائر النظار فتواردت الجماهير ملاقة سموه في المحطة ثم ركب والى يساره ابن الملكة وأمامه الجزال ولسلي والمستمر مالت الى سراي الاسماعيلية وفي اليوم التالي سار الى سراي الجزيرة للتشريفات الاعتيادية واستمرت الزينة في القاهرة ثلاث ليال متوالية

محاكمة العرايين

وفي ١٥ ذي القعدة سنة ١٢٩٩ هـ أو ٢٨ سبتمبر سنة ١٨٨٢ م أمر سموه بتشكيل لجنة مخصوصة بالقاهرة تحت رئاسة اسماعيل باشا أبوب لتحقيق قضية من كان له يد في الحوادث الاخيرة وان تقدم ما تقرره لنظارة الداخلية لتنفيذه . وأصدر أمراً آخر بتشكيل محكمة شرعية في القاهرة تحت رئاسة محمد رؤوف باشا للحكم في الدعاوى التي

تقدم من اللجنة المخصصة وان تكون احكام هذه المحكمة قطعية لا تستأقف . وأصدر امراً آخر بتشكيل لجنة عسكرية بالاسكندرية للحكم في الدعاوى التي تقدم لها من اللجنتين المخصصتين اللتين تشكلتا في الاسكندرية وطنطا وان تكون احكامها قطعية تحت رئاسة عثمان نجيب باشا

فتمنع كل من هذه اللجان والمحاكم في اجراء ما عهد اليه . وفي ١٨ ذي القعدة سنة ١٢٩٩ هـ او ١٢ أكتوبر سنة ١٨٨٢ م تعين الشيخ محمد العباسي لمشيخة الجامع الازهر بدلاً من الشيخ الامباني . وكافاً الجناح الحديوي سلطان باشا بعشرة آلاف جنيه على صداقته التي أبداها أثناء الثورة . ثم أصدر الجناح العالي أمراً بإلغاء الجيش المصري لصرف العساكر التي جاهرت بالعصيان والاكتفاء بمحاكمة الضباط وكبار القادة كعراي وعبد العال وغيرها . ثم أمر بتنظيم جنود جديد . وفي ١١ ذي القعدة او ٢٤ أكتوبر صدر العفو عن الملازمين واليوزباشية الذين كانوا في جيش عراي مع بعض الاستثناء

وانعم الجناح الحديوي بالتيشان المجيدي والعماني من رتب مختلفة على ٥٢ ضابطاً من ضباط الجيش الانكليزي . وأخذت الحكومة المصرية بمشاركة قناصل الدول تسعى في تسكين البال وتوطيد الراحة والقبض على من اشترك بتلك الثورة ومكافأة الذين ساعدوا في اطفالها وبرهنوا على اخلاصهم للمليك البلاد . وعينت في الاسكندرية لجنة للنظر في تعويض الخسائر التي تكبدها أهلها بسبب الحرق والنهب

واخذت الحكومة في محاكمة زعماء الثورة العرابية على أيدي اللجان المتقدم ذكرها وفرغت من ذلك في ٣ ديسمبر سنة ١٨٨٢ ثم التأمّت اللجنة مراراً للنظر في تثبيت تلك الاحكام ثم عرضت على الجناح العالي فتكرم بالعفو عن حكم عليهم بالقتل فأصبحت الاحكام بعد ذلك العفو تقضي بتجريدكم من الرتب والالقب والنياشين وتقيهم وهاك ما صدر بشأن ذلك

(١) الحكم الصادر على كل من احمد عراي وطلبة عصمت وعبد العال حلبي ومحمود سامي وعلي فهمي ومحمود فهمي ويعقوب سامي المقتضى جزاؤهم بالقصاص وقع تبديله بالنفي الى الابد من الاقطار المصرية وملحقاتها

(٢) ان هذا العفو يطل ويقع اجراء الحكم على المذكورين بالقتل اذا رجعوا الى الاقطار المصرية او ملحقاتها
ثم ارتأى مجلس النظار ان تضبط أملاكهم المنقولة وغير المنقولة وان يعين لهم في مقابل ذلك راتب سنوي كاف لمعيشتهم فصدر بذلك أمر عال في ٢٠ شوال أو ١٤ ديسمبر من تلك السنة فعينت لجنة لاجراء ذلك . ثم صدرت الاحكام المختلفة على من بقي من اتباع عراي كل بحسب استحقاقه . وكان الامر بالنفي على ما تقدم يقضي بتسفيرهم حالاً وانما رأت الحضرة الحديوية امهالهم الى ١٦ صفر أو ٢٧ ديسمبر وعند ذلك



ش ٨٦ : احمد عراي في منفاه

ركبوا في قطار مخصوص مع من أرادوا استصحابه من ذويهم الى السويس ومنها الى جزيرة سيلان منفاهم

وما زالوا هناك الى سنة ١٩٠١ حتى اذن الجناح الحديوي لهم بالعودة الى مصر يقضون فيها بقية حياتهم بدلاً من منفاهم في سيلان . وقد توسط لهم بذلك الدوك اوف كورتول وبورك ولي عهد انكلترا يومئذ بعد زيارته سيلان ومشاهدة المنفيين في منفاهم مع ما يفشاهم من الذل والضعف . وقدم احمد عراي الى هذا القطر بعد غيابه عنه نحو ١٩ عاماً

ثم أصدر الجنب الخديوي امراً عالياً بتاريخ ٢٢ صفر سنة ١٣٠٠ هـ الموافق ٣ يناير سنة ١٨٨٣ م بالعفو عن أهالي القطر المصري الذين اشتركوا في الثورة العرابية ما عدا الذين سبق صدور الحكم عليهم لغاية تاريخه

ولاحظ رياض باشا ان نيات الانكليز منصرفة الى التساهل مع عرابي ورفقائه في أثناء محاکمتهم وهو يريد التشديد فأبت نفسه الكظم على ما في ضميره فقدم



ش ٨٧ : احمد عرابي عند رجوعه

استغفاه من نظارة الداخلية وخاضت الجرائد بهذا الشأن ولا سيما جريدة الديبا وأبانت ما لهذا الوزير الخطير من المآثر الفراء في التنظيمات الادارية وحرية التصرف بالاحكام . وقد اجمعت تلك الجرائد على استحسان فعله مؤثراً الاستغفاء على قبول خدمة لا يستطيع فيها التصرف بالحربة التي تقتضيها مصالح الامة التي هو اكثر الناس غيرة عليها . فلما قبل استغفاؤه عين بدلاً منه اسماعيل باشا أيوب ثم توفي هذا بعد يسير فعين بدلاً منه خيرى باشا

الثورة المهدوية او الحوادث السودانية

مع ما تقدمها وما انتهت اليه

ولم تكدمصر تفرغ من الحوادث العرابية أو الثورة العسكرية المصرية حتى ظهرت الثورة السودانية بظهور محمد احمد المهدي السوداني وكان لها تأثير شديد في تاريخ مصر الحديث فرأينا أن تأتي على تاريخها تباعاً من ظهور المهدي الى انقضاء تلك الحركة واسترجاع السودان وان تجاوزنا مدة الخديوي السابق ونعهد الكلام بفذلكة عن تاريخ السودان المصري منذ فتحه محمد علي الى الحوادث المهدوية

تاريخ السودان من فتح محمد علي الى ظهور المهدي

قد تقدم ما كان من فتح السودان في زمن محمد علي باشا على يد ابنه اسماعيل باشا سنة ١٨٢٠ وما بعدها حتى غدر به الملك النمر صاحب شندي وقتله وتآمر له الدفتردار . وأول وال عينته الحكومة المصرية على السودان بعد الفتح الاميرالاي عثمان بك سنة ١٨٢٥ ولم يبق فيها الا سنة تخلفه محو بك وغيره فغيره كما ترى في هذا الجدول :

١ - ولاية السودان في زمن محمد علي	٣ - في زمن سعيد باشا
عثمان بك من سنة ١٨٢٥ - ١٨٢٦	علي باشا شركس من سنة ١٨٥٥ - ١٨٥٧
محو بك » ١٨٢٦ - ١٨٢٦	أراكيل باشا من سنة ١٨٥٧ - ١٨٥٩
خورشيد باشا » ١٨٢٦ - ١٨٣٩	حسن باشا سلامة » ١٨٥٩ - ١٨٦٢
احمد باشا ابودان » ١٨٣٩ - ١٨٤٤	محمد باشا راسخ » ١٨٦٢ - ١٨٦٣
احمد باشا المنكلي » ١٨٤٤ - ١٨٤٥	
خالد باشا » ١٨٤٥ - ١٨٥٠	
٢ - في زمن عباس الاول	٤ - في زمن اسماعيل باشا
عبد اللطيف باشا من سنة ١٨٥٠ - ١٨٥١	موسى باشا حدي من سنة ١٨٦٣ - ١٨٦٥
رسم باشا » ١٨٥١ - ١٨٥٢	جعفر باشا سامي » ١٨٦٥ - ١٨٦٦
اسماعيل باشا » ١٨٥٢ - ١٨٥٣	» » مظهر » ١٨٦٦ - ١٨٧١
سليم باشا » ١٨٥٣ - ١٨٥٤	ممتاز باشا » ١٨٧١ - ١٨٧٣
علي باشا سري » ١٨٥٤ - ١٨٥٥	اسماعيل باشا ايوب » ١٨٧٣ - ١٨٧٧
	غوردون باشا » ١٨٧٧ - ١٨٧٩

٥ - في زمن توفيق باشا

علاء الدين باشا من سنة ١٨٨٣ - ١٨٨٤

غوردون باشا » ١٨٨٤ - ١٨٨٥

رؤوف باشا من سنة ١٨٧٩ - ١٨٨٢

عبدالقادر باشا حلي » ١٨٨٢ - ١٨٨٣

ولكل من هؤلاء الولاة تاريخ لا محل لذكره هنا وإنما نشير الى أهم الحوادث بوجه الاختصار - في أيام محمد باشا ابوودان ذهب محمد علي باشا بنفسه لزيارة السودان سنة ١٨٣٩ فتفقد مستعمرته الجديدة وعاد . وبعد سنتين حمل احمد باشا المذكور لفتح السودان الشرقي ففتح التكا وما زال الولاة يوسعون سيادة مصر على السودان الى أواخر أيام الحديوي اسماعيل . وفي أوائل أيامه بولاية موسى باشا على السودان سنة ١٨٦٣ قدم السير صموئيل باكر الانكليزي لاكتشاف منابع النيل ومعه امرأته فقاسى عذاباً شديداً

وفي ولاية جعفر باشا ثار الجهادية السود من كسلة لتأخر مرتباتهم وسوء معاملة قوادهم فعبت الحكومة في اخاد الثورة وقد سفك بسببها دماء غزيرة ومن أهم حوادث السودان في تلك الفترة سعي الحكومة في ابطال تجارة الرقيق ولم يصدر الامر رسمياً بابطالها الا في زمن اسماعيل باشا بولاية موسى باشا فأصدر أوامره المشددة اليه سنة ١٨٦٣ فتعقب تجار الرقيق وهم يومئذ رجال السطوة والثروة وأصحاب الكلمة العليا هناك . فقبض على سبعين مركباً مشحونة بالارقاء بين كاكافشودة وأتى بهم الى الخرطوم ولم يطلق التجار حتى أخذ عليهم الموائيق أن لا يعودوا الى هذه التجارة

ثم اتدب اسماعيل باشا السير صموئيل باكر سنة ١٨٦٩ لفتح خط الاستواء على ان يكون والياً عليه وعقد له على ١٧٠٠ رجل فسافر الى الخرطوم عن طريق سواكن ومنها خرج الى خط الاستواء والحكومة تعضده فأعلن ضم بعض بلاد خط الاستواء رسمياً الى الدولة المصرية أهمها بلاد يونيورو وخلع ملكها كباريقة وأقام مقامه رجلاً يوالي الحكومة وعقد شروطاً ودية مع ملكها وعاد الى مصر سنة ١٨٧٣ واستغنى من منصبه على خط الاستواء فعين اسماعيل الكولونل غوردون (غوردون باشا) مكانه فسافر الى ذلك المكان سنة ١٨٧٤ وبذل جهده في اصلاح تلك البلاد والسودان يومئذ بولاية اسماعيل باشا ايوب . ثم استقال غوردون سنة ١٨٧٦ وعاد الى بلاده

وظهر في اثناء ذلك الزير باشا وأنشأ دولة لنفسه في بحر الغزال ودارفور وقد

دون أعماله بنفسه ونشرت سيرته في تاريخ السودان لشقير بك . فلما تم له الفتح وعلم اسماعيل بأمره خافه وتمنى لو يقضى عليه وجرت حوادث اقتضت بحجي الزير الى مصر لعرض اختلاف جرى بينه وبين حكمدار السودان وهو حسن الظن في الدولة المصرية وكان يرجو أن يتفق مع الحديوي على تنظيم البلاد التي فتحها فأتى مصر ومعه الهدايا من العساكر وأعمال الريش والسن فأحسن الحديوي وفادته لكنه أمره أن يبقى بمصر

وما زال فيها وانضمت بلاده الى مملكة السودان المصرية



ش ٨٨ : كباريقة ميت يونيورو في خط الاستواء ذاهب الى معسكر صموئيل باكر

وفي سنة ١٨٧٧ عادت حكمدارية السودان الى غوردون باشا وأخذ في تنظيم الحكومة والادارة . وفي تلك السنة عقد اسماعيل باشا معاهدة ابطال تجارة الرقيق مع انكلترا وعهد الى غوردون بتنفيذ ذلك ونشره وهي مهمة شاقة كان لها تأثير شديد في الثورة السودانية التي بدأت في أيام خلفه رؤوف باشا كما سترى

أسباب الثورة السودانية

لا تتورأمة على حاكمها الا لامر هام تلجأ اليه عند فراغ الحيلة من نيل حقوقها . وأما الاسباب التي أعدت السودان للثورة فكثيرة أهمها :

١ — انتظار المسلمين للمهدي

المشهور بين المسلمين من أوائل الاسلام أنه سيظهر رجل منهم يؤيد الدين وينشر لواء العدل ويستولي على الممالك الاسلامية يسمى المهدي ويستندون ذلك الى احاديث نبوية بحث كثيرون من علماء الاسلام في صحتها وفسادها وفي مقدمتهم العلامة ابن خلدون وتتم للموضوع نذكر الذين ادعوا المهدي من اول الاسلام الى الآن :

١ : محمد بن عبد الله الملقب بالنفس الزكية ظهر في المدينة سنة ١٤٥ هـ فدعا الناس اليه وكان له أخ اسمه ابراهيم نصره وقام بدعوة ففتح البصرة والاهواز وفارس ومكة والمدينة وبعث عماله الى اليمن وغيرها وكان ذلك في زمن الامام مالك فافتي له وشد أزره فكثرت دعائه حتى كاد يذهب بالدولة العباسية لو لم يستدرك المتصور أمره ويتغلب عليه ويقتله

٢ : عبيد الله المهدي بن محمد الحبيب بن جعفر الصادق مؤسس الدولة الفاطمية في المغرب التي فتحت الديار المصرية في أواسط القرن الرابع للهجرة وبنت مدينة القاهرة على يد القائد جوهر . وقد اتسعت دولة الفاطميين وامتدت سلطتهم وطالت أيام حكمهم

٣ : محمد بن عبد الله بن تومرت المعروف بالمهدي الهرعي ويكنى أبا عبد الله . أصله من جبل السوس في أقصى بلاد الغرب رحل الى المشرق حتى انتهى الى العراق واجتمع بابي حامد الغزالي وغيره فأخذ العلم عنهم واشتهر بالنسك والتقوى وساح في الحجاز وجاء مصر ثم سار الى الغرب وأقام بمراكش وغيرها وتأسست على يده دولة عظيمة في أوائل القرن السادس للهجرة هي دولة عبد المؤمن

٤ : العباس الفاطمي ظهر بالمغرب في آخر المائة السابعة للهجرة وادعى المهدي فكتأف الناس حوله وعظمت شوكلته حتى دخل مدينة فاس عنوة وأحرق سوقها وبعث عماله الى الانحاء لكنه قتل غيلة فانقضى أجله وسقطت دعوة

٥ : السيد احمد ظهر في أوائل القرن التاسع عشر لليلا في جهات الهند وحارب الاشياخ على حدود بنجاب الشمالية الغربية سنة ١٨٢٦ ولم تقم له قائمة

٦ : محمد المهدي السنوسي بن الشيخ محمد السنوسي الذي ظهر في المغرب في أواسط القرن الماضي وأصله من جبل سوس بمجائر الغرب نبغ (والده) سنة ١٨٣٧ ولاقى من بعض اولي الامر الاسلامي رحاباً ونشر دعوته وأيدها وكان مقامه الرئيسي في جنوب على مقربة من واحة سيوا نحو الغرب ولكنه انشأ زوايا عديدة في

أما كن أخرى من بلاد الغرب يبلغ عددها ثلاثمائة كلها تعلم طريقته وتعاليمه

٧ : محمد احمد المهدي السوداني وقد نحا في دعواه منجى الشيعة فقال انه الامام الثاني عشر الذي ظهر مرة قبل هذه وفي تسمية اتباعه بالدرأويش تأييداً لرغبته في قول الشيعة لان لفظ درأويش فارسية

٢ — عنف الحكومة المصرية في معاملة السودانيين

ما برحت الحكومة المصرية منذ دخول السودان في حوزتها وهي تنظر الى السودانيين انهم أحط من سائر رعاياها وتستعمل العنف في معاملتهم يكني شاهداً على ذلك ما اتاه اسماعيل باشا بن محمد علي من التنكيل في الملك النمر صاحب شندي كما تقدم في فتح السودان فقد ظل كثيرون من اعقاب اولئك المظلومين يتحينون فرصة ينتقمون بها من الحكومة وكانوا اول القائمين بنصرة محمد احمد

٣ — جور الحكام في تحصيل الضرائب

كان تحصيل الضرائب في السودان منوطاً بمجاعة الباشوزوق فكانوا يسومون السودانيين في تحصيلها أنواع الخسف والذل وقد يقتضونها مراراً . وروى المسترفرنك باور قنصل انكلترا بالخرطوم اذ ذاك ان الضرائب كانت تضرب على أهل السودان بلا شفقة . فيضربون ضريبة على كل فرد منهم وعلى الاولاد والنساء يقتضونها ثلاث مرات في السنة مرة لصاحب القضاء واخرى للجابي واخرى للحكدار . وكان الزارع اذا زرع حنطة لا يؤذن له بزراعتها حتى يدفع ثلاثة جنيهات كل سنة ويدفع سبعة اخرى في مقابل التصريح له بريها من ماء النيل . فاذا تردد في الدفع سيق الى السجن واذا صح زرعه دفع ذلك المال مرتين مرة للحكومة ومرة لحبيب الباشا . واذا كان من أصحاب السفن التجارية التي تجري في النيل فرض عليه أربعة جنيهات عن كل سفينة فاذا لم يرفع العلم المصري على سفينه غرم باربعة اخرى . ومن تأخر عن تأدية تلك الضرائب اقتضتها الحكومة منه بالكرباج وقد يعاقب ذلك المسكين باحراق منزله أو سلب أمتعه . والحلاصة ان السوداني لم يكن يباشر امراً الا أدى عليه ضريبة

٤ — منع تجارة الرقيق

من المقرر المشهور ان التجارة السودانية محصورة في أصناف معدودة أهمها تجارة الرقيق . والنحاسون أو تجار الرقيق أشبه بالملوك والقواد منهم بالتجار في حاشية كل منهم مئات أو الوف من الرجال بين خدمة وعمال وعبيد يقومون لقيامه ويقعدون لقعوده . فالتحاسون عمد السودان وعيون أعيانه وقادة أعماله تهاجم الحكام وتخشي

سطوتهم الحكومة . وما زالت تجارتهم رابحة وأعمالهم سائرة حتى قام أهل العالم المتمدن لابطال تجارة العبيد فجاء السودان السير صموئيل باكر للقيام بتلك المهمة ثم انبط غوردون باشا فأخذ يطوف الاصقاع والمدن في أنحاء السودان يعلم الناس الحرية الشخصية ويأمر التجار بالكف عن الاسترقاق جملة . وهي صدمة قوية ارتجت لها اركان السودان لان منع النخاسة لم يقتصر على تقليل ارباح النخامين ولكنه عرضهم لاستبداد الحياة لانهم كانوا يؤدرون الجانب الاكبر من الضرائب عبيداً أو ماشية فأصبحوا بعد ابطال النخاسة لا يفرون على تأديتها . فاستبد بهم الحياة وساموهم الذل والعسف حتى خيف عصيانهم ولكن غوردون باشا لحسن سياسته ولين جنبه لم يحدث في أيامه اضطراب . فلما غادر السودان تولاه رجل لم يكن عالماً بحل الضعف ليتلافى خطره . فكان غوردون أوقد ناراً في بعض جهات البيت فجاء غيره لا يدري كيف يطفىء تلك النار فتعاظمت والتهمت المدينة برمتها . فلما قام المهدي يدعو الناس الى رفع المظالم آنس من اولئك التجار اصغاء وكانوا له عوناً في اضرار تلك الثورة

• - انتظار السودانيون ان يكون المهدي منهم .

من التداول بين شيوخ أهل السودان وفقهائهم ان المهدي سيظهر من بينهم استناداً الى أقوال يروونها عن بعض الأئمة منها قول الامام القرطبي في طبقاته الكبرى ونصه « وزير المهدي صاحب الخرطوم » وقول السيوطي وابن حجر « ان من علامات ظهور المهدي خروج السودان » ولذلك رأيتهم رحبوا بالشيخ السنوسي لما قام لكن النجاح قدر لمحمد احمد لاسباب أهمها :

١ استخفاف الحكومة به عند ظهوره وترددها في الضربة القاضية على تلك الثورة كما سيتضح لك من سيرة حياته

٢ قيام العرايين بالثورة بمصر فانه حاج خواطر الاهلين وجرائم على النهوض مع اشتغال الحكومة عنهم

٣ ضعف الحاميات المصرية في السودان فان مجموع الجند الذي كان في اصقاع السودان الواسعة من حلقا الى خط الاستواء لا يتجاوز ٤٠.٠٠٠ رجل موزعة في ١٥ مديرية وليس عندها معادل حصينة

نشأة محمد احمد المهدي

أصله ومولده



ش ٨٩ : محمد احمد المهدي

في جزيرة ضرار من اعمال دنقلة سنة ١٨٤٣ وهو من ذرية رجل اسمه حاج شريف واسم أبيه عبد الله وأمه زينب وكان أبوه نجاراً يصنع المراكب والسواقي وضاق به الرزق في دنقلة فرحل بأهله الى شندي ثم الخرطوم وابنه محمد احمد طفل ثم مات الوالد . وكان محمد احمد ميالاً الى الدين من صغره فأخذ في درس القرآن وتقيم قواعد الاسلام وانتهى في دروسه الى محمد الحير في الغبش تجاه بربر واشتهر بين أقرانه بالمبالغة في الزهد حتى قيل انه كان يمتنع عن أكل زاد استاذة لانه يجري

عليه من الحكومة وهو يعتقد أنه مال الظلم

وبعد أن أتم دروسه على محمد الخير مالت نفسه إلى التصوف فذهب إلى الشيخ محمد شريف حفيد الشيخ الطيب صاحب الطريقة السمانية وهو إذ ذاك مقيم عند قبر جده في أم مرّحي وسأله الدخول في مصاف تلامذته وذلك في سنة ١٢٧٧ هـ ١٨٦١ م فأجابه محمد شريف إلى طلبه فأقام عنده منقطاً إلى الصلاة والعبادة وما لبث أن أظهر من التقشف والزهد ما ميزه عن سائر التلامذة حتى أنه كان يشتغل في منزل سيده بما هو منوط بالعبيد والجواري من احتطاب واستقاء وطحن وطبخ وهو غير مكلف بشيء من ذلك وكان كلما وقف للصلاة يبكي حتى يبلل الأرض بدموعه وإذا جلس أمام شيخه نكس رأسه ولم يرفع طرفه إليه إلا إذا كلفه فيرفع طرفه بأدب واحترام وأقام على ذلك سبع سنين . فلما رآه شيخه على هذه الحالة وأنه سلك طريق المريدين وناهج منهج الصالحين مال إليه وأحبه وجعله شيخاً وأعطاء راية وأذن له في الذهاب حيث شاء لأعطاء العهود وتسليك الطريقة . فذهب إلى الخرطوم وتزوج بابنة عم له وأقام مع اخوته بيتاً طريقته بغيره وجد

وفي سنة ١٨٧١ رحل مع اخوته إلى جزيرة أبا وراه الخرطوم وبنى فيها جامعاً وخلوة للتدريس فاجتمع عليه سكان تلك الجزيرة وهم دغيم وكثانة وغيرهم من عرب البادية وأخذوا العهد عنه ودخل بعضهم في تلمذته وفي جملة من علي ودخلوا الذي جعله بعد ادعائه المهديونية خليفته الثاني ولم يمض إلا القليل حتى اشتهر صيته وكثر أتباعه وكان أستاذه محمد شريف قد انتقل إلى القادرية قرب جبل أولي على النيل الأبيض فكان يزوره في كل موسم أو عيد لتقديم واجب الطاعة . وقبل الدخول عليه يجعل الرماد على رأسه والشعبة في رقبته وفروة الضأن على صلبه شيئاً بالعبد في ذله فكان محمد شريف يحل الشعبة من رقبته والفروة عن صلبه ويلبسه أغزر الثياب فيقيم عنده أياماً ثم يعود إلى مركزه في جزيرة أبا . وفي بعض زياراته حدثه عن خيرات البلاد التي رحل إليها وسهولة العيش فيها وزين له الإقامة في العرايب بين أبا والكوة فانتقل إليها سنة ١٢٨٨ هـ ١٨٧٢ م وكانت العرايب على خصبها خالية من السكان والزراعة فعمرها وأقام فيها على صفاء نام مع محمد أحمد برهة ثم لم يلبث أن تكدر هذا الصفاء فصار جفاءً ثم تقوراً ثم عداءً

واختلفوا في سبب العداء والغالب أنه حسد من محمد الشريف لتلميذه لاقبال عربان العرايب إليه فأخذ يخفض من سطوته ويناثوه . وتعاظم النفور بينهما وظهر.

فأخذ محمد أحمد في انتقاد أعمال أستاذه ومن جملتها أن الشريف كان يأذن للنساء في حضور مجلسه وتقييل يده ولم يكن يرى مانعاً من الرقص والغناء فأخذ محمد أحمد يعلم تلامذته أن ذلك يخالف الشرع فبعث محمد الشريف إليه ووبخه وبخا اسمه من الطريقة وهي اهانة عظيمة في نظرهم

وكان محمد أحمد يحب الطريقة وله خلفاء وتلامذة فيها فلم يكن تركها سهلاً عليه فعمد إلى الملاينة فذهب إلى أستاذه وأتمس العفو وقد ذرى الرماد على رأسه وجعل في عنقه الشعبة وهي عود ذو شعبتين توضع في العنق علامة التذلل والاستعطاف وانهى به محمد شريف وطرده وأهانته . فلم يعد محمد يستطيع الكظم فالتجأ إلى شيخ آخر من الطريقة المذكورة اسمه الشيخ القرشي وكان بينه وبين الشيخ شريف منافسة تخاف هذا عاقبة الأمر فاستقدم محمد أحمد واستدناه فأبى وكان لذلك الأبناء رنة في آذان أهل السودان . وعظم محمد أحمد في عيني الناس وانتقل إلى جزيرة أبا . وبعد قليل مات الشيخ القرشي فبنى محمد على قبره قبة . وبالغوا في إكرامه نكابة بالشيخ الشريف وازداد الرجل شهرة بالتقوى والكرامة في معظم أنحاء السودان وهو إلى ذلك الحين لم يدع المهديونية

وكان استبداد حياة الأموال ضارباً أطنابه وحال السودان كما تقدم من الفلاقل والاضطراب فكان محمد أحمد إذا ذكر الضيق الذي أصابهم من ظلم الحياة نسب ذلك إلى خطية بني الإنسان وإن العالم قد فسد والناس قد ضلوا عن سواء السبيل فأنهم ما نالهم من غضب الله وإن الله سيبيح رجلاً يصلح ما فسد ويملا الأرض قسطاً وعدلاً هو المهدي المنتظر . وقد كان ذلك حديث الناس في سائر أنحاء السودان فحينما اجتمعوا تحدثوا في ما يقاسونه من الضنك وما ينتظرونه من الفرج على يد ذلك المنتظر حتى أصبح لفظ المهدي يدوي في سائر مجتمعاتهم ومنازلهم في الأكواخ والأسواق والمساجد والزوايا على الطرق والعطموح وحينما وجد اثنان أو ثلاثة فلا حديث لهم إلا الفرج المنتظر على يد المهدي

قيامه بالدعوة

وكان محمد أحمد على بينة من هذا الشعور العام وحدثه نفسه أن يكون هو الرجل المنتظر لكنه لم يصرح به لأحد . وهو في ذلك جاء عبد الله التعايشي من البقارة وكان يشتغل بالتنجيم وكتابة الاحجية وله مطامع كبيرة فاستحث محمد أحمد على القيام بالدعوة وأكد له أنه هو المهدي المنتظر من علامات زعم أن أباه وصفها

له وانه وجدها كلها في محمد احمد . فجاء ذلك وفقاً في خاطر محمد احمد فاعتقد انه المهدي وقرب التعايشي وتعاوننا على بناء قبة له واستقدم تلامذته واقام في جزيرة ابا وأخذ يفتش الكتب ويبحث عما يؤيد دعواه ويتبين صفات المهدي وعلاماته وأخذ يظهر دعواه لتلامذته سرّاً من أواسط سنة ١٨٨١



ش ٩٠ : الدراويش

ثم خرج سائحاً الى بلاد الغرب مع رجاله وعليهم لباس الدراويش وهي الحية المرقعة والسبيحة والعكاز وجعل يبت دعواه بين رؤساء القبائل على ان يكنموا ذلك حتى تأتي الساعة وعاد الى ابا وأخذ في مكتابة الناس في هذا الشأن . وبلغ ذلك الحكومة فلم تعباً به حتى اذا جاءتها الوشاية بشأنه من محمد الشريف وأطلعها على بعض تلك المذمورات بدأت تنهم بأمره . وكان حكمدار الخرطوم يومئذ رؤوف باشا فكتبه بما نسب اليه فاجابه بكتاب يؤيد به دعوته . فجمع علماء الخرطوم وأطلعهم على الكتاب فاتهموه بالجدب ولكنهم أجازوا القبض عليه فانتدب لهذا الامر

محمد بك ابو السعود أحد معاوني الحكومة فسار في قلة من الرجال فوصل جزيرة ابا في ٧ أغسطس سنة ١٨٨١ فوجد محمد احمد في الغار جالساً وحوله جمهور من تلامذته فسلم عليه وقال « ان حكمدار السودان بلغه أمر الدعوى التي قت بها وأرسلني لآتي بك اليه بمدينة الخرطوم وهو ولي الامر الذي يجب طاعته » فاجابه محمد احمد « اما ما طلبته من الوصول معك الى الخرطوم فهذا مما لا سبيل اليه وأنا ولي الامر الذي يجب طاعته على جميع الامة المحمدية » ثم شرع في تقديم الادلة على انه المهدي المنتظر فاعظله ابو السعود في الجواب وقال « ارجع عن هذه الدعوى فانك لا تطيق حرب الحكومة ولا ترى معك من يقاتلها » فاجابه محمد احمد وهو يتنم « أنا أقاتلكم هؤلاء » وأشار الى أصحابه ثم التفت اليهم وقال « أنتم راضون بالموت في سبيل الله » فقالوا نعم . فالتفت الى أبي السعود وقال له « قد سمعت ما أجابوا به فارجع الى ولي أمرك في الخرطوم واخبره بما رأيت وسمعت » فلما رأى أبو السعود صدق عزم محمد احمد وأعوانه على نصرة دعوائهم وان النصح لا ينجع فيهم عاد مسرعاً الى الخرطوم وقص على رؤوف باشا ما رآه وسمعه

مناهضة الحكومة له

فجهز رؤوف باشا حملة من بلوكين بعث بها الى جزيرة ابا وكان محمد احمد قد واعد رجاله على الصبر فاطاعوا فلما أتت جنود الخرطوم هجموا عليهم وقتلوا معظمهم وعاد الباقون ليخبروا بما كان . وهي أول وقعة جرت بين الدراويش والحكومة وعرفت بواقعة ابا واشتهر فوز المهدي فيها فعدّه اتباعه من كراماته لانه غلب الحكومة الظالمة . ولكن محمد احمد لم يكن يجهد مركزه بالنسبة للحكومة تخاف اهتمامها بأمره وهو هناك لا يقوى على مناهضتها وما كل مرة تسلم الجرة فعزم على الهجرة وجعل وجهته جبل قدير . فقال لأصحابه ان النبي جاءه في المنام وأمره بتلك الهجرة فطاعوه وساروا وهم يدعون الناس الى طاعة المهدي واعترضه ملك على جبل في الطريق يقال له جبل الجراة فخالف محمد احمد فخاره فكانت الغلبة للدراويش فاشتد ازهرهم وثبتوا في دعوتهم حتى أتوا جبل قدير في ٣١ أكتوبر سنة ١٨٨١ فلاقاه ملكه واسمه ناصر وانزله على الرحب والسعة فأمر محمد ببناء مسجد للصلاة

وكان على قاشودة في ذلك الحين مدير من قبل الحكومة المصرية اسمه راشد بك علم بقدم المهدي الى جبل قدير واستأذن رؤوف باشا في تأديبه وطال انتظاره الاذن وبلغه ان المهدي ورجاله في ضيق من المرض فزحف وهو يستتر يريد مباغتتهم

ولكن امرأة مؤمنة اتهم بالخبر فاستعدوا للقاء وعادت العائدة على راشد بك ورجاله وغنم الدراويش ما كان معهم من الزاد والذخيرة في ٩ ديسمبر منها وكان لهذا الخبر وقع شديد على رؤوف باشا في الخرطوم وخاف على فاشودة وأخذ في التجنيد بقيادة جيكر باشا وبث يستجد مصر فاستضعفته فعزله وولت مكانه عبد القادر باشا حلمي وألح جيكر بوجوب المبادرة فاذن له . فشد جنداً مختلطاً من العساكر والباشوزوق وعقد لواءه ليوسف باشا الشلالي في أواسط مايو سنة ١٨٨٢ وبث الشلالي الى المهدي ينصحه في الطاعة فاجابه جواباً يدل على استحقاقه به ويدعوه الى طاعته . والتقى الجيشان في جبل الجرداء . وفي ٢٩ مايو جرت واقعة قتل فيها الشلالي وجماعة من كبار قواده وغنم الدراويش ما كان معهم من المؤونة والذخيرة والعدة فازدادوا تصديقاً لدعوتهم وشاع ذلك النصر في أنحاء السودان فاعظمه السودانيون وارتفع قدر المهدي عندهم وتوافد اليه الناس يبايعونه حتى بلغ عددهم ٢٠.٠٠٠ في قدير وحدها . وهذه صورة المبايعات :

« بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم . أما بعد فقد بايعنا الله ورسوله وبايعناك على توحيد الله وألا نشرك به أحداً ولا نسرق ولا نرتكب ولا نأتي يهتان ولا نعصيك في معروف بايعناك على زهد الدنيا وتركها والرضى بما عند الله رغبة بما عند الله والدار الآخرة . وعلى أن لا نفر من الجهاد »

فلم تلبس سنة ١٨٨٢ حتى أصبحت السودان شعله ثوروية تنادي باسم محمد احمد ولي دعوته جماعة من كبار الرجال منهم عامر المكاشف في سنار والشريف احمد طاه من مشايخ السمانية شرقي النيل الازرق ومحمد زين وود الصليحاني وفضل الله ود كريف والحاج احمد عبد الغفار وغيرهم . وبعضهم تفانى في نصرته وقتل في سبيل دعوته . فاهتمت الحكومة بشأن المهدي وأخذ عبد القادر باشا حلمي في تحصين الخرطوم وجند ثلاث أورط من السود وأخذ في تمرينهم واحفر خندقاً وراء سور الخرطوم وأقام عليه الابراج ونصب فيها المدافع قاطم أن الموالون للحكومة على أنفسهم ثم حمل عبد القادر باشا بنفسه لاجتثاث تلك الثورة فأتى سنار لمحاربة احمد المكاشف وكان قد استفحل أمره هناك فخاربه في ٢٤ فبراير سنة ١٨٨٣ ففر المكاشف وغلب رجاله ودخل عبد القادر سنار وطمان الناس ثم حارب احمد عبد الغفار قرب الرصيرص فشنت شمله وأمر العلماء أن يكتبوا الرسائل وينشروها في تكذيب دعوة محمد احمد

سقوط كردوفان

وكانت كردوفان في أثناء ذلك قد أخذت بالثورة واتحد دعاة المهدي على طرد خدمة الحكومة المصرية وكان مديرها سعيد باشا يقيم في عاصمتها الايض فبذل جهده في اخاد الثورة فلم يفلح والدراويش يزدادون قوة وعدداً حتى هددوا بارا وكشجيل والبركة والحكومة في الخرطوم ثم سعيد باشا بالجند ثم رأى المهدي أن يقدم لنصرة دعاة نفسه وفي أوائل سبتمبر سنة ١٨٨٢ أصبح على مقربة من الايض فكتب الى محمد سعيد باشا يدعوه الى التسليم فجمع الباشا رجال مجلسه وشاورهم في الامر فأقروا على شق الرسل وأن لا يعيشوا جواباً ولكن أهل الايض كانوا على دعوة المهدي سرّاً وهم الذين دعوه الى فتحها وفي مقدمتهم الياس باشا أعظم تجار كردوفان وحاكمها السابق فاضموا الى العصاة في تلك الليلة ثم وبض الحامية وبقي محمد سعيد باشا في نحو عشرة آلاف من الجند الباشوزوق وأما جيش المتمهدي فكان جراراً فيه ٦٠٠٠ تحمل البنادق التي غنموها من الجنود المصرية بالمواقع الماضية وأما سائر قواته فتبلغ ستين ألفاً . ويقول سلاتين باشا في كتابه (النار والسيف في السودان) ان حملة البنادق لم تأت معه الى الايض بل بقيت في قدير

وفي ٨ سبتمبر هجم العصاة على الايض فارتدوا خاسرين وقد غنم منهم الجند المصري ٦٣ راية من جملتها راية المتمهدي نفسه واسمها « راية عزرائيل » وقتلوا منهم نحو عشرة آلاف وفي جملتهم محمد اخو المهدي ويوسف اخو عبد الله التعايشي ولم يقتل من الحامية الا ٣٠٠ فعظم ذلك على المتمهدي وأدرك خطر الهجوم على الاسوار الحصينة وعول من ذلك الحين أن لا يهاجم سوراً وانما يفتح البلاد بالتضييق عليها بالحصار حتى يضئها الجوع وتعهد الى التسليم . ثم جاء العصاة مدد فاشتد أزرهم فشدوا الحصار على الايض وعلى بارا وكان في بارا نور عنقرة أحد أمراء العرب وكان موالياً للحكومة ولكنه رأى مقامه حرجاً وتحقق الفشل فكتب الى المهدي سرّاً انه اذا أرسل اليه أميراً من اكابر أمرائه سلم له فارسل اليه ولد النجومي فخرج نور عنقرة مع محمد الخير وكان يلقب سر سوارى أي قائد الحيلة وسلم لولد النجومي فقبلها وانقضت سنة ١٨٨٢ والحصار شديد على الايض وبارا والعصاة يتكاثرون في سنار وغيرها

وكان المهدي قد أرسل فرقاً من جنده لنشر دعوته في دارفور وبحر الغزال فانتشرت الثورة هناك ولكنهم لم يفتنوا سنة ١٨٨٢ الا بعضاً من بلادها وفي أوائل

سنة ١٨٨٣ فتحوا بارا في ٥ يناير واضطرت الايض الى التسليم من الجوع في ١٩ منه فدخلت كردوفان في حوزة الدراويش وغنموا منها شيئاً كثيراً من المؤن والذخائر والاسلحة والاموال وصار المتمهدي من ذلك الحين حاكماً على كردوفان وقبض على سعيد باشا ورجاله وبعد اسرهم مدة اكتشف على تقرير بعثوا به سرّاً الى الخرطوم وأمر بقتلهم

ثم سلمت سائر بلاد كردوفان

حكومة المهدي

فلما فتح الايض ودانت له كردوفان أخذ في تنظيم حكومته على غير نظام الحكومة المصرية . وأهم أقسام الادارة على أبسط وجوها ثلاثة الجند والمال والقضاء فجعل على الجند خليفته عبد الله التعايشي قائداً عاماً لجماعة الدراويش يدير حركاتهم . وانشأ ادارة سماها بيت المال وفيه تحفظ الاموال كالعشور والغنائم والفقرة والزكاة والغرامات التي يضرربونها على شارب المسكر أو السارق وعهد بإدارة بيت المال الى صديق له اسمه احمد ولد سليمان . أما القضاء فأقام عليه رجلاً اسمه احمد ولد علي كان قاضياً في دارفور وسماه قاضي الاسلام . وكان محمد احمد منذ أوائل ظهوره قد عين خلفاءه وجعلهم أربعة مثل الخلفاء الراشدين يتولون الامر بعده الواحد بعد الآخر اولهم عبد الله التعايشي والثاني علي ولد الحلو والثالث محمد الشريف والرابع محمد السنوسي ولكن هذا رفض الخلافة

وعلم هذا المتمهدي ان الحكومة المصرية ستحمل عليه بكل قوتها لاستخراج كردوفان من يديه فأخذ يحث الناس على الجهاد ويحرق الدنيا في أعينهم ويحجب الآخرة اليهم وهم يقدون اليه زرافات وقبائل يتبركون به وقد آمنوا بدعوته بعد ان ذاقوا الراحة والاستقلال على يده فتخلصوا من الضرائب ونجوا من الباشيزوق واستبدادهم فاعتقدوا انه المهدي المنتظر الذي جاء « ليملا الارض عدلاً وقسطاً كما ملئت جوراً وظلماً » ومما ساعدهم على هذا الاعتقاد تظاهر هذا الرجل بالتقوى والزهد فلم يكن يلبس غير السراويل والحية فوقها منطقة من خوص يقضي نهاره في الصلاة ونشر المنشورات يحث بها الناس على ترك الدنيا والتمسك بالآخرة ويضع لهم القوانين والاحكام ومن أمثلة ذلك منشور نشره من الايض سنة ١٣٠١ هـ . وقعت لنا نسخة منه فنشرها مثالا لتعاليمه وهاك نصها بالحرف الواحد على علانها القوية :

« بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد واله

مع التسليم . وبعد فن عبد ربه محمد المهدي بن السيد عبد الله اعلماً منه الى كافة المشايخ في الدين والامراء والنواب والمقاديم اتباع المذكورين . يا عباد الله اسمعوا ما أقول لكم وكونوا على بصيرة واحمدوا ربكم واشكروه على النعمة التي خصكم بها وهي ظهورنا فهو شرف لكم على سائر الامم والسكن المطلوب منكم يا أحبابنا المهاجرة في سبيل الله والمجاهدة في سبيل الله والزهد في الدنيا وكل ما فيها فالى البوار ولو كانت لها بال لكان ربكم يحليها وانظروا في أهلها الذين كانت في كل ما يطلبوه وصارت لهم بعد ما كانت عسلاً حنظلًا وسماً وصاروا في غاية العذاب والهلاك وشدة التعب والمشقة ولو كان فيها خير لما صاروا هكذا وبعد ذلك فلهم العذاب الشديد فان عجبكم هذا فافعلوا والا فأتقوا الله وكونوا مع الصادقين واجاهدوا في سبيل الله فلهذه سيف مسلم في سبيل الله أفضل من عبادة سبعين سنة . ووقفه في الجهاد على قدر فواق ناقة يعني حلبة ناقة أفضل من عبادة سبعين سنة . وعلى النساء الجهاد في سبيل الله فمن صارت قاعدة وانقطع منها ارب الرجال فلتجاهد يديها ورجليها والشبابه فليجاهدن نفوسهن ويسكن بيوتهن ولا يتبرجن تبرج الجاهلية الاولى ولا يخرجن الا لحاجة سريعة ولا يتكلمن كلاماً جهراً ولا يسمعن الرجال أصواتهن الا من وراء الحجاب ويقمن الصلاة ويطنن أزواجهن ويسترن بتيابهن فمن قعدت كاشفة فاتحة رأسها ولو لحظة عين فتؤدب وتضرب سبعة وعشرين سوطاً ومن تكلمت بفاحشة فعليها ثمانون سوطاً ومن قال لآخيه يا كلب أو يا خنزير أو يا يهودي أو يا ... أو يا ... فيضرب ثمانين سوطاً ويحبس سبعة أيام ومن قال يا فاجر أو يا سارق أو يا زاني أو يا خائن أو يا ملعون فعليه ثمانون سوطاً أو يا كافر أو يا نصراني أو يا لوطي فعليه ثمانون سوطاً ويحبس سبعة أيام ومن تكلم مع أجنبية وليس بعاقده عليها ولا لامر شرعي يجوز ذلك الكلام فيضرب سبعة وعشرين سوطاً ومن حلف بطلاق أو حرام يؤدب سبعة وعشرين سوطاً ومن شرب الدخان يؤدب ثمانين ويحرق التباك ان كان عنده وكذلك من خزنها في فوه من عملها باقه ومن أبقاها فيه يؤدب مثل ذلك ومن باعها واشتراها ولم يستعملها يؤدب سبعة وعشرين سوطاً ومن شرب الخمر ولو مصة ابرة فيؤدب ثمانين سوطاً ويحبس سبعة أيام وجاره ان لم يقدر عليه يكلم أمير البلد وان لم يكلمه فيضرب ثمانين سوطاً ويحبس سبعة أيام ومن ساعد شارب الخمر بشربة ماء أو اناه فيؤدب كذلك ويحبس ويجاهد نفسه في طاعة الله حقيقة أشد من الجهاد بالارماح لان النفس أشد من الكافر مقاتلة فالكافر ثقاته وتقاتله وتكون لك الراحة منه وهي عدوة في صورة حبيب فقتلها صعب

ومسلحها تعب . ومن ترك الصلاة عمداً فهو عاصي الله ورسوله قيل كافر وقيل يقتل وجاره ان لم يقدر عليه يكلم أمير البلد وان لم يكلمه فيضرب ثمانين سوطاً ويحبس سبعة أيام وقيل اموالهم غنيمة . وبنت خمس سنين ان لم يسترها أهلها فيضربون من غير حبس ومن علم بأمة معها زوج غير عقد وصبر يوماً قيل يقتل وقيل يحبس وماله غنيمة واعلموا أيها الاحباب ان خلافتكم وامارتكم ونيابتكم عنا في الاحكام بالقضايا لاجل ان تشفقوا على الخلق وترهدهم في الدنيا ليركوها وترغبوهم في الآخرة ليرغبوها ويطلبوها وتعلموهم عداوة تقوسهم ليحذروا منها وتتصفوا من تقسكم اذا ادعوا عليكم فيها فما اشكل عليكم فأمرهم فيه بالصبر لغاية طلب الامراء وجههم عندنا وبصبر نخيره بحسب الحكم فيه من الله ورسوله واعلموا يقيناً ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون وكونوا عباد الله مع الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه واعلموا أيها الاحباب ان القضايا التي كانت من اثني عشر رجب الماضي عام ١٣٠٠ ببقعة ماسة قد صار رفعها مطلقاً ما عدا الامانة والدين ومال اليتيم وأما التي بعد الاثني عشر رجب الماضي وقبل الفتوح نسمع فيه الدعاوي . وأما قتل النفس ففيه تفصيل في كونه مخير ولي المقتول في أخذ الدية أو القصاص وأما بعد الفتوح بالنسبة الى العهد فيتعين فيه القصاص لا غير فاعلموا بذلك طبق المذنبين وكذلك مال الخلع أخذه عموماً من الأزواج بعد الدخول بهن والاستمتاع بهن والاستيلاء عليهن فلا يصح أخذه منهن فاحكموا فيه بالحكم الذي فصله الله تعالى في القرآن العظيم واعلموا يا أحبابي ولا تخافوا وامتلوا الامر وكونوا سامعين طائعين لامري ولا تغيروا ولا تكفروا النعمة التي من الله عليكم بها فقيدها بالشكر . وتزوج الغنية بعشرة ريال مجيدي أو أنقص والعزبة بخمسة ريال مجيدي أو أنقص ومن خالف هذا فعليه الادب بالضرب والحبس في السجن حتى ينوب أو يموت في سجنه ومقطوع من أهل زميرتا ونحن بريئون منه وهو بريء منا والسلام» (الختم)

وكان مع ذلك لا يغفل طرفه عين عن بث العيون والارصاد لاستطلاع حركات الحكومة ومعرفة اغراضها فكان يعرف كل ذلك في حينه معرفة تامة فلا تحدث حادثة او تنوي الحكومة نية او تخطو الجنود المصرية خطوة الا ويعلم بها هو . وارسل في اثناء ذلك قواده تبث دعوته في انحاء السودان فبعث عثمان دقنة الى السودان الشرقي بتولي قيادة العصاة هناك وارفقه بالمشورات الى قبائل السودان الشرقي لتكون عضداً له وكان عثمان دقنة هذا من تجار الرقيق في سواكن وكان ناقماً على الحكومة

حملة هيكس باشا

وكانت الحكومة المصرية في اثناء ذلك اخذت الثورة العرابية (في ١٥ سبتمبر سنة ١٨٨٢) واحتل الانكليز مصر واصبحوا اصحاب الرأي النافذ وقد اقروا على الغاء جيش عرابي وانشاء جيش جديد وكان بعضهم قد وثنى بعبد القادر باشا فاستدعته الحكومة الى مصر وأرسلت علاء الدين باشا حاكماً على السودان في ٢٠ فبراير سنة ١٨٨٣ وحصرت سلطته في الادارة الملكية وعهدت بقيادة الجند الى سليمان باشا نيازي وجعلت هيكس باشا الانكليزي رئيساً لاركان حربه



ش ٩١ : هيكس باشا

وأعدوا حملة لمحاربة المهدي كلها من جيش عرابي والحكومة تسيء الظن به وقد أرسلته اما ليهلك أو ينتصر فيعوض على الحكومة ما أفسده ولكن تلك الحملة كانت مشومة وآلت الى استفحال أمر المهدي ودرأويشه لانها هلكت عن آخرها على شكل لم يسمع بمثله ولم تطلع الحكومة على سبب ذلك الا بعد حين واليك هو :

جاء هيكس باشا في بادئ الرأي الى الخرطوم والحكومة لم تصمم على فتح الاييض فأقام هناك مدة فبلغه ان بضعة آلاف من العصاة بقيادة الامير احمد المكاشف وكيل المهدي هناك نخرج اليهم هيكس وحاربهم عند مراية بالقرب من جزيرة ابا فقتل المكاشف وعدد من قواده ورجاله وفر الباقون وكان لتلك الواقعة تأثير حسن في ارجاع ثقة اهل سنار والخرطوم الى الحكومة وقوة جنودها

فصممت الحكومة على ارسال حملة تفتح الاييض فكتب هيكس باشا الى الحكومة بالقاهرة انه لا يتحمل تبعة هذه الحملة الا اذا كانت القيادة له وحده فسلمت له بذلك ولكنها أرسلت معه علاء الدين باشا حاكم دار الخرطوم فطلب هيكس مدداً من الرجال والمال . وسار علاء الدين باشا الى شرقي النيل الازرق فاستحضر أربعة آلاف رجل . وفي أواخر اغسطس تمت معدات الحملة فاجتمعت في أم درمان . وفي ٨ سبتمبر استعرض هيكس باشا جنوده وفي ٩ منه خرجت الحملة من أم درمان قاصدة الدويم وبينهما مئة وعشرة أميال . وكانت تلك الحملة مؤلفة من أربع اورط من الجنود المصرية معظمهم من الذين حاربوا في سبيل الثورة العرابية وخمس اورط سودانية واورطة من الطنجية والخيالة وكانت الجنود المصرية تحت قيادة سليم بك عوني والسيد بك عبد القادر و ابراهيم باشا حيدر ورجب بك صديق . والباشبوزوق بقيادة خير الدين بك وعبد العزيز بك ووالي بك وملحم بك وبجي بك والطونجية والسواري بقيادة عباس بك وهي . وبلغ عدد جنود الحملة احد عشر ألفاً منهم سبعة آلاف من المشاة المصريين والباقيون من الباشبوزوق والخيالة وتوابع الحملة من الجمالة وغيرهم وفيها ٥٥٠٠ رجل و ٥٠٠ فارس وأربعة مدافع كروب وعشرة مدافع جبلية وستة من نوع النوردنفلت وكان فيها من الضباط الافرنج الكولونيل فركوهار رئيس أركان جرب والبكباشية سكندروف وورتر وماسي وايفانس وغيرهم ومكاتبو التمس والدالي نيوز والغرافيك

وفي ٢٠ سبتمبر وصلت الحملة الدويم وهناك اجتمعت بعلاء الدين باشا . اما هيكس فكان لا يزال في الخرطوم وقد ارسل تلفرافاً الى القاهرة انباء الحكومة بخروج الحملة من الخرطوم وبين الصعوبة التي ينتظر ملاقاتها في طريقه نظراً لحرارة الاقليم وقلة المياه . وكان في عزمه ان يجعل مسير الحملة من الدويم الى الاييض عن طريق باره وطول هذه الطريق ١٢٦ ميلاً يقيم في اثائها محطات فيها قوات عسكرية لحفظ

خط الرجوع (خط الاتصال) الى الدويم فيفتح اولاً بارة ويقيم بها مدة ثم يخرج على الاييض

فلما جاء الدويم وانضم الى الحملة تفاوض هو وعلاء الدين باشا في الامر فقال علاء الدين انه ارسل اناساً جسوا الارض فقالوا ان طريق بارة قليلة المياه وان احسن طريق للاييض يمثل هذا الجند الكبير طريق خور ابو جبل والرهيد الى الجنوب فان الماء كثير فيها . نعم ان طولها ٢٥٠ ميلاً ولكن مئة منها سهلة يسير بها الجند بكل راحة والماء كثير الا ان المسافة بين الدويم وبورابي وطولها ٩٠ ميلاً قليلة المياه فاقعه علاء الدين باشا ان الماء في تلك المسافة يسهل الحصول عليه وبناءً على ذلك قررا ان تسير الحملة عن طريق خور ابو جبل فوصلوا في ٢٤ سبتمبر الى شات واستولوا على آبارها وانشأوا نقطة عسكرية . وبدأ الجند منذ خروجهم من الدويم يقدررون العواقب الوخيمة وينتظرون البلاء العظيم . وكان سيرهم على شكل مربع يتأهب للقاء العدو في مقدمته الديلان فالطلائع فالضباط العظام واركان الحرب ثم المربع وهو مؤلف من المشاة المصريين وفي ساقته الخيالة والجمال والاحمال والانتقال وفي وسط المربع الطونجية وقد شبه سلاتين باشا ذلك المربع بقاية من الرؤوس والاعناق اذا اطلق العدو عليها رصاصة يستحيل ان تخطئها كلها

وزد على ذلك ان الجمال لم تكن تستطيع المربع بالنظر الى انحصارها في المربع فاجاعت واكلت قش ارحالها وخارت قواها حتى مات كثير منها . وفي ٣٠ سبتمبر وصلت الحملة الى قرية تبعد ٣٠ ميلاً عن الدويم اسمها زريقه

كل ذلك والحرارة تشدد واللغط يتعاظم بين الجند وكلهم خائف سوء العاقبة ثم حدث نفور بين هيكس وعلاء الدين وسببه اختلافهما في الرأي بشأن خطة المسير . فرأى علاء الدين ان النقط العسكرية في خط الاتصال لا حاجة اليها لأنها تقل عدد الجند بخلافه هيكس في ذلك لان قطع ذلك الخط يقطع كل امل برجوع احد من رجال الحملة حياً اذا قدر انكسارها في ساحة الحرب على أنهم لم ينشئوا نقطة عسكرية بعد شات

اما محمد احمد فخالما علم بمسير حملة هيكس جمع رجاله ودعاهم الى الجهاد في سبيل الله وخرج بنفسه وعسكر بقرب شجرة كبيرة بضواحي الاييض ينتظر وصول الحملة فاقتدى به خلفاؤه وامرازه فخرج كل منهم برجاله وعسكروا هناك وبنوا الاكواخ والكتول (نوع من العيش)

اما الحملة فازالت سائرة تسحف سحفاً كأنها مثقلة بالقدر المحتوم حتى وصلت الرهد في ٢٠ أكتوبر فاقامت هناك ٦ ايام شاهدت في اثائها طلائع الدراويش وشرذمات منهم يهاجمونها . وفي ٢٦ أكتوبر سارت ولم تكد تترك معسكرها حتى احتلته العصاة فلم علاء الدين اذ ذاك خطاه في احوال خط الاتصال وقد اصبحوا محاطين بالعدو من كل الجهات . وكان في عزيمتهم المسير الى الايض عن طريق البركة ولكن الجواسيس اخبروا هيدس ان العصاة زلوا البركة ومعهم خلفاء المهدي



ش ٩٢ : خريطة واقعة هيكس باشا

وامراؤهم بعدهم ورجلهم فتشاور علاء الدين وهيكس في هل يرجعون الى الرهد او يسرون الى كشجيل ومنها الى مليس فالايض . لان خور ابو جبل يتشعب عند الرهد الى شعبتين تسير احدهما الى البركة والاخرى الى كشجيل . فاقرا الرأي على المسير الى كشجيل فساروا في ٣ نوفمبر عشرة اميال بين الغابات والاحراج وقد اخطأوا الطريق ثم وقفوا وانشأوا زريبة باتوا فيها الى الصباح فاستأنفوا المسير حتى صاروا على مسافة ميلين من شيكان بين كشجيل والبركة وقد اجهدهم العطش فهجمت عليهم شرزمة من العصاة فتبادلوا اطلاق الرصاص وقبضوا على بعض منهم

فعلموا ان الدراويش هناك بكثرة عظيمة فجمع هيكس كبار رجاله وعقدوا مجلساً تشاوروا فيه فلم يقرروا على امر . وكثر اللفظ بين الجنود وتسلبط الرعب على قلوبهم وايقنوا بالهلاك . وفي الصباح التالي عزم هيكس على المسير تحت رحمة الله فجعل جيشه ثلاثة مربعات وساروا في طريق وعر كثير الاشجار والصخور فحصل بينه وبين الدراويش واقعة قتل فيها كثير من رجاله . ثم سار ايضاً فلم يش ميلاً حتى هاجموا ثانية في شيكان . وقد رأينا في منشور ارسله المهدي الى عثمان دقة يخبره بتلك الواقعة



ش ٩٣ : سلاتين باشا

ويسمي مكان وقوعها علوبة وكانت تلك الهجمة القاضية لم تبق على تلك الحملة ولم تذر لأن الدراويش هاجموا من كل جانب حتى صار الجنود المصريون يطلقون الرصاص بعضهم على بعض وهم لا يعلمون فقتل هيكس وكل قواده وجنده . ولم ينج منهم الا نحو ثمانمائة رجل اكثرهم من الضعفاء الذين اختبأوا بين الشجر او تحت جث القتلى وفي جملتهم رجل اسمه محمد نور البارودي كان في خدمة هيكس وهو الذي روى اكثر ما تقدم من مهلك هذه الحملة

فرجع المهدي وخلفاؤه وقواده الى البركة وقد سكروا من خمر النصر وتركوا

بعض الأمراء يجمعون الاسلاب والغنائم الى بيت المال . وبعد ١٥ يوماً عاد المهدي الى الايض بالمدافع والذخيرة والاموال التي اكتسبها من حملة هيكس . وكان دخوله الايض باحتفال شائق . ولا ريب ان تغلبه في موقعة شيكان جعل حكومة السودان تحت اخضه لان كثيراً من القبائل كانوا يترددون في امره وينتظرون حربه مع هيكس باشا فلما علموا بما كان انضموا اليه وصاروا من اعوانه

وكان سلاتين بك (سلاتين باشا الآن) الى ذلك الحين مديراً على دارفور وقد قام مشقات جسيمة في مناوأة العصاة وتمردهم . وكان يرجو الفرج على يد حملة هيكس فلما علم بفشلها لم يردّ بداً من التسليم فبعث الى المهدي بذلك وان ينفذ اليه بعض اقاربه ليسلم البلاد له فبعث اليه الامير محمد خالد ويكنى زقل اميراً على دارفور واوصاه بسلاتين خيراً . فوصل الدراويش دارا ونهبوها وارسلوا بعضاً من حسانها هدية للمهدي . وجاء سلاتين مخفوراً الى الايض وبايع المهدي واظهر الاسلام والايمان بالدعوة وسمي عبد القادر

واقام سلاتين من ذلك الحين ملازماً لعبد الله التعايشي يقف عند بابه في جملة الملازمين

السودان الشرقي

وفما كان هيكس يتجشم الاخطار في قطع الصحاري والقفار ينتظر المقدور كان عثمان دقة ينشر دعوة محمد احمد في السودان الشرقي وقد اجتمع حوله احزاب كبيرة . وقد حدثنا صديق رافق الحوادث في السودان الشرقي وعرف خفاياها قال : « ان توفيق بك محافظ سوا كن اذ ذلك تصرف مع العربان الذين يتولون خفارة الطريق بين سوا كن وكسلا تصرفاً اوجب تقورهم وذلك انه ولى عليهم شيخاً اسمه محمد الامين ليكون مسئولاً عنهم لدى الحكومة على جاري العادة وكانوا يكرهون هذا الرجل . فالتمسوا من المحافظ ان يبدله بسواه فابي الا توليته ففضبوا جميعاً ونفروا من الحكومة وهم كثار فاتفق مجي عثمان دقة بمنشور المهدي فانضموا اليه جميعاً فاشتد ازره بهم ثم انضم اليه غيرهم . فسار لمناوأة الحكومة في سوا كن وضواحيها فهاجوا سنكات في ٥ اغسطس سنة ١٨٨٣ ولكنهم عادوا خاسرين فساروا الى طوكر وحاصروها فارسلت الحكومة محمود طلماباشا قائد حامية السودان الشرقي لانقاذها فباغته الدراويش وكسروه شر كسرة . وحاولت الحكومة مقاومة الدراويش بكل وسيلة وحصلت وقائع كثيرة في تمانيب وترنكات وغيرهما فلم تعد

منهم بطائل . وما زالت سنكات وطوكر محاصرتين تطلبان المدد فاعدت الحكومة في اوائل سنة ١٨٨٤ حملة تحت قيادة باكر باشا سارت الى سوا كن لفتح الطريق بين سوا كن وبربر وطرد العصاة من البلاد الواقعة بينهما فسارت ومعها بحجة من مصوع وكسلا فلاقعا العصاة في التب بقتة في ٢ فبراير فخاربوها ففشلت وطادت بجني حزين . كل ذلك وحامية سنكات لا تزال محاصرة وفيها توفيق بك محافظ سوا كن المتقدم ذكره وكان رجلاً باسلاً شهماً اظهر في حصاره شجاعة لم تعهد الا بالقليل من الناس وكان قد جاء سنكات عرضاً واحصر فيها . وسنكات قرية صغيرة لا يزيد حاميها على ستين رجلاً وقد ضيق عثمان دقة السبل عليها وقطع المؤن عنها حتى كاد أهلها يهلكون جوعاً فكتب عثمان الى توفيق ان يسلم فلا يقتله فابي الا البقاء على ولاء الحكومة . فلما جاء باكر باشا وعاد خائباً بعث عثمان اليه ان يسلم فيسلم وان الامل بانقاذه قد انقطع فلم يجبه الا بالثبات . ولما رأى توفيق بك أخيراً ان المؤن فقدت والجند جاعت وأهل البلد ملت جمع اليه رجاله وأهل سنكات وشاورهم في الامر وحثهم على الثبات على ولاء الحكومة . فقالوا نحن على ما تريد فقال « قد نددنا بالطريق مقطوع بيننا وبين المدد فلنخرج مستقلين قاناً ان نسير الى سوا كن وإما ان يلاقينا العصاة فندافع عن أنفسنا حتى الموت »

فخرجوا في اوائل فبراير سنة ١٨٨٤ بعد ان هدموا الطوابي وأخربوا المنازل وما ساروا ميلين حتى لاقاهم عثمان دقة برجاله وهاجمهم فقاتل توفيق بك حتى قتل شهيد الامانة والبسالة ولم يسج من رجاله وأهل القرية الا نفر قليلون

اخلاء السودان

وكان ذلك من جملة العوامل لتأييد دعوى المتهدي ونشر سطوته وخوف الحكومة عاقبة أمره . وبدلاً من مواصلة العمل في كبج جهاج العصاة واسترجاع ما ملكوه من بلادها أقرت بمشورة الحكومة الانكليزية على اخلاء ما بقي من السودان في قبضتهم وسحب جنودها منها والتخلي عن السودان المصري كله للدراويش وأصدرت بذلك أمراً بتاريخ ٨ يناير سنة ١٨٨٤ واتخذت الحكومة الانكليزية الجزال غوردون باشا الى السودان للتظرف في أفضل الوسائل لسحب حامية السودان وسكانها من الافرنج وغيرهم وتثبيت حكومة منتظمة على سواحل البحر الاحمر وغير ذلك . فسار غوردون باشا ومعه الكولونيل ستوارت كاتم أسرارهم فوصلا القاهرة فأنباء السير اقلن بارنغ (اليوم اللورد كرومر) ان الحكومة الانكليزية قد فوضت

إليه إخلاء السودان وإعادة حكم الأمراء الذين كانوا يحكمونها لما فتحها محمد علي باشا
ويقال لهم الملوك أو أن يولي غيرهم كما يترامى له
غوردون باشا

فسار غوردون عن طريق كرسكو وأبي حمد فوصل بربر في ٩ فبراير سنة ١٨٨٤
وفي ١٨ منه وصل الخرطوم فتلقاء أهلها بالأكرام . وكان السودانيون يحبونه
ويكرمونه لأن جانبه وكرم أخلاقه . ومن الغريب أن يسير غوردون بنفسه بلا جيش



ش ٩٤ : غوردون باشا

إلى بلاد اشتعلت بنار الثورة ولكنه كان كثير الاتكال على الله وقد صرح بذلك عند
وصوله الخرطوم فقال « لم آت لانتفاذ السودان بجيش ولكنني أتكلت على الله فلا
أحارب إلا بإصلاح العدل »

سافر غوردون من القاهرة في ٢٦ يناير سنة ١٨٨٤ ومعه مساعده الكولونيل
ستيوارت قاصدين الخرطوم في عظمور أبي حمد فبربر فالخرطوم مصحوبين بأوامر
عالية خلاصتها في ما يأتي :

- ١ أن يسحب الموظفين المصريين وعائلاتهم وأموالهم من سائر أنحاء السودان
إلى مصر
- ٢ أن يقيم مقامهم موظفين من أهل السودان يدبر شؤونهم بحكمته كأنه يؤسس
دولة جديدة
- ٣ أن يجمع كلمة القبائل المجاورة للخرطوم ويحركها على قبائل الهدندوة في
السودان الشرقي فيفتح الطريقين بين بربر وسواكن وبربر وكلا
- ٤ أن ينقذ سنار وسائر البلاد الواقعة بين النيلين الأزرق والأبيض (الجزيرة)
- ٥ أن يرسل ٥ بواخر لتقل عائلات الجنود المصرية في مديريات خط الاستواء
وبحار الغزال

٦ أن يدبر طريقة لمن بقي في دارفور أن ينسحبوا إلى مصر عن طريق دنقلا
هذه كانت مقاصده عند خروجه من مصر وخلاصتها إخلاء السودان فلما وصل
بربر أراد أن يتلوها على أهلها فتعنه حسين باشا خليفة مدير بربر لأن التصريح بذلك
يجعل على بقية نفوذ الحكومة . فأطاعه ولكنه تلاها في المنمة فكانت داعية إلى
سرعة سقوط بربر بعد ذلك . وأما غوردون فوصل الخرطوم في ١٨ فبراير كما تقدم
وفي يوم وصوله جمع أعيان الخرطوم كافة في بناية المديرية وأتهمهم مهمته ثم خرج إلى
سراي الحكمارية فلاقاه مئات من الناس وتراموا على يديه ورجليه يقولونها وهم
يقولون « يا سلطانتا يا والدنا يا مخلص كردوفان » ثم أخذ غوردون وستيوارت في
تدبير شؤون الأحكام فأنشأوا أقلاماً مختلفة في الحكمارية للنظر في قضايا الناس
وانصافهم على اختلاف طبقاتهم . فأخرج دفاتر الحكومة القديمة وفيها قيود لذنمات
مطلوبة من أصحاب الأفيان خراجاً عن أفيانهم فوضع تلك الدفاتر في باحة عمومية
وأوقد فيها النار ولما اتقدت الثيران وتعالى لهيبها استخرج الكرايسج والعصي وسائر
أدوات الضرب والصفع التي كان يستخدمها الحكماداريون قبلاً والفاها في ذلك اللهب
وأهل الخرطوم ينظرون . فكان لذلك تأثير حسن في أذهانهم ثم أنشأ مجلساً وطنياً
مؤلفاً من أعيان المدينة وبعد قليل زار الترسانة والمستشفى وأخيراً ذهب لتعهد السجن
ومعه ستيوارت وكوتلجن والمستربوار فنصل انكلا هناك . فرأى فيه حوادث تدهنت
لها الأكباد فضلاً عن الفذارة وشاهد بين المسجونين أولاداً وشيوخاً بعضهم قد
ثبتت برائتهم ولا يزالون في السجن وآخرون سجنوا لتهمة فقتلوا ثلاث سنين في
السجن قبل أن تثبت عليهم جناية . ورأى هناك امرأة قضت خمس عشرة سنة مسجونة

لذنب اقترفته في صباحا قام غوردون باخراج المسجونين كافة وتطيف السجن فلم يأت المساء حتى خرجوا زرافات ووحدانا وهم يطلبون الى الله تعالى ان يطيل عمره وقضى أهل الخرطوم تلك الليلة سهارى فاضاوا الانوار الملونة وأوقدوا المشاعيل وباتوا فرحين مسرورين وأراد غوردون أن يمكن محبته من قلوب أهل السودان تخفف الضرائب وأنصف المظلومين وأبطل كثيرا من الضرائب ثم أصدر منشورا يلقي فيه الاوامر الصادرة بشأن إلغاء تجارة الرقيق وهاك مفاد المنشور:

منشور الى أهل السودان كافة

اعلموا أن راحتكم هي غاية ما نرجوه وبما اني أعلم ان إبطال تجارة الرقيق قد ساءكم وهاكم ما وضعته الحكومة من القصاص على من يتعاطاها وغير ذلك مما صدر من الاوامر العالية بشأن تأكيد الغائها فقد رأيت التماسا لراحتكم ان أبطل كل تلك الاوامر وأمنحكم الحرية التامة فلا يعترضكم أحد في اتخاذ الرقيق لخدمكم والسلام لكم
الخرطوم غوردون باشا

ففرح تجار الرقيق بهذا المنشور ولكنهم استدلوا منه على ضعف الحكومة وانها انما أصدرته بالرغم منها لانها لم تقو على تنفيذ أمرها في ابطال تلك التجارة. ثم حول نظره الى أمر المهدي فارسل اليه في الايض كتابا يطلب فيه اطلاق الاسرى ويؤليه كروقان وأرفق الكتاب بخمسة قيسة فرد محمد أحمد الخلة وبعث الى غوردون ان يعلم قيسل وان المهدي لم يقم بدعوته طمعا في الولاية

وكان غوردون باشا في أثناء مسيره الى الخرطوم قد تدبر أمر مهمته هذه فرأى ان ترك السودان وشأنها بعد اخلائها يعود على مصر بالوبال فلا تلبث الثورة ان تنتشر ويخفف الدراويش الى حدود مصر فبعث يوم وصوله الخرطوم رسالة برقية الى الحكومة الانكليزية يطلب فيها ان تبث اليه الزير رحمت باشا حالا حتى اذا أخلى السودان ودبر حكومته جعل الزير باشا خلفا له عليه خوفا من استفحال أمر المهدي وخروجه على مصر فابت الحكومة ارسال الزير فشق ذلك عليه كثيرا

ثم ما لبث ان علم بانتشار دعوة المهدي وانضمام معظم القبائل اليه فاصدر منشورا يتوعد فيه الثائرين بعذاب اليم وينصح لهم ان يشوبوا الى طاعة الحكومة وكان الكولونيل ستيوارت قد سار في مئة رجل بالاعلام البيضاء لمسالة القبائل القاطنة على النيل الايض وتلاوة منشورات غوردون عليهم فكان كلما بعد عن الخرطوم

ازداد تقور الناس منه حتى صاروا يعترضون مسيره ويحاربونه وأكثرهم من قبيلة البقارة فعاد الى الخرطوم خامسا فارسله غوردون ثانية في ٢ مارس سنة ١٨٨٤ بمنشورات أخرى فعاد بخفي حنين. وما زالت الثورة تقترب من الخرطوم وضواحيها حتى احدثت بها من كل الجهات. وفي أثناء ذلك جاءت حملة من الدراويش لحصار الخرطوم فذهب جمع منهم الى حلفاية شمالي المدينة فانهزمت حاميتها فجرد غوردون في ١٦ مارس عليهم التي مقاتل بالبنادق وفيهم الباشبوزوق والجند المنظم لاسترجاع حلفاية فاطلمهم الدراويش حتى غدروهم وكسروهم شر كسرة فعادوا القهقري الى الخرطوم وقد قتل منهم جمع كبير ففشل غوردون لهذه الكسرة وحاكم قواد تلك التجريدة وأكبرهم سعيد باشا وحسن باشا وكلاهما من أهل السودان فحكم عليهما بالاعدام لثبوت الخيانة عليهما فقتلا وقطعت أعضاؤهما

سقوط بربر ومهلك ستيوارت

وفي ٢٥ يونيو سنة ١٨٨٤ وصلت الاخبار بسقوط بربر والقبض على مديرها وارسله أسيرا الى الايض وتولى بربر أمير من أمراء الدراويش اسمه محمد الخير. وكان سقوط بربر ضربة قوية على الخرطوم لانها كانت واسطة الاتصال بينها وبين مصر فادرك غوردون صعوبة مركزه وتحقق يقينا ان انفاذ مهمته لم يعد ممكنا بالحسنى فلا بد من استعمال قوة الجند فطلب الى حكومته ارسال حملة لمساعدة فتددت انكلترا مدة قبل الاقرار على الحملة. على أنها أقرت في مايو على وجوب ارسالها ولكن جنودها لم تبدأ بالمسير الى السودان الا في سبتمبر فتدمر أهل الخرطوم وشكوا الى غوردون حالهم وفي حملتهم الاجانب المقيمون هناك فقال لهم من أراد الذهاب فليذهب أما أنا فلا أستطيع الخروج الا بعد انفاذ الحامية والناس أو أن أموت معهم. ولكنه أشار على ستيوارت ان يسير الى مصر بمن أراد مرافقته من الاجانب وعهد اليه ايصال تقاريره اليومية عن احوال الخرطوم من أول مارس الى ٩ سبتمبر وهو يوم سفر ستيوارت وظن غوردون أن ذهاب ستيوارت بهذه التقارير الى مصر يفيد الحملة القادمة لانقاده فركب ستيوارت باخرة وركب معه بعض الافرنج ورافقته باخرتان فوصل بربر وضررها ومربها فصادت الباخرتان وجرت باخرته حتى اذا تجاوزت أبو حمد الى واد قر ضايقها الدراويش من البر ثم جنحت فزل من فيها فلقبهم الدراويش وقتلهم وحملوا الاسلاب والاوراق الى المهدي. كل ذلك وغوردون يستحث الانكليز ويستنهض مهمهم وينذرهم بالخطر القريب فجاء خبر هلاك ستيوارت ومن معه قبل

خروج الحملة . على ان تلك الحملة لم تصل الخرطوم الا في ٢٨ يناير سنة ١٨٨٥ أي بعد سقوطها ومقتل غوردون يومين

حركات الدراويش

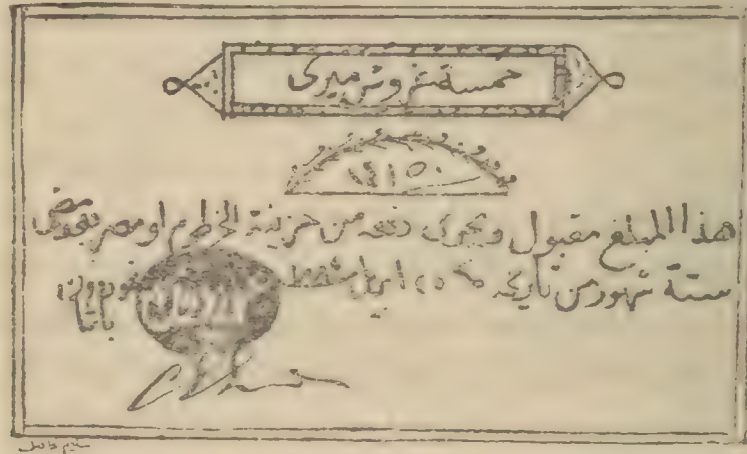
فلنتظر في حركات الدراويش واجراآتهم في معسكرهم في أثناء حصار الخرطوم ملخصاً عما رواه سلاتين باشا في كتابه « السيف والنار في السودان » وما أحكاها غيره من الاسرى الذين رافقوا تلك الحوادث داخل الخرطوم وخارجها تركنا المتهدي وقد عاد ظافراً الى الابيض بخيله ورجله فبعد وصوله اليها انقذ بعض امرائه لتأييد سلطته في دارفور وبحر الغزال وما جاورها ثم علم ما كان من أمر السودان الشرقي وظفر عثمان دقنا في سنكات وتغاييب والتب وحصار كسلة

وتكاثر دعاة المهدي بعد انتصاره على هيكس وتقاطر الناس اليه قبائل وجماعات قياماً بنصرته وكانوا يعسكرون بخيامهم وابلهم وخيلهم حول الايض فقلت مياه الايض تخاف المهدي أن يصيبهم جهد فاشار بالانتقال الى الزهد وفيها الماء غزيراً فانتقلوا اليها رجالاً ونساءً وأولاداً في أواسط ابريل سنة ١٨٨٤ باحلامهم وأثقالهم ودوابهم وأقاموا هناك والمهدي يقضي نهاره في الصلاة والوعظ والحث على الجهاد . ثم سمع بخروج الجنود المصرية من الخرطوم على أهل الجزيرة فبعث محمد ابا جرجا أميراً عليها في عدد عظيم من الدراويش على أن يمد أهل الجزيرة ويحاصر الخرطوم . فحصلت بينه وبين جنود الخرطوم وقائع انتصرت في أولها الجنود المصرية ثم عادت العائدة عليهم بعد ذلك كما رأيت . وارسل المهدي الشيخ محمد الخير أميراً على بربر فسار اليها وحاصرها وفتحها وارسل مديرها حسين باشا خليفة اسيراً الى معسكر المهدي في كوردفان . فالتقى بسلاتين باشا وتناطرا مصيبة الاسر . أما دقنا فكان مديرها مصطفى بك ياور (ثم صار مصطفى باشا) قد كتب الى المهدي غير مرة يعلم اليه فلم يركن هذا الى تسليمه بل بعث السيد محمد علي وبعض الشائقة ليجسوه فخاربهم وفرق شملهم وكان الماحور ككتشنر (اللورد ككتشنر باشا) قد جاء بمهمة سرية لاستطلاع نوايا مصطفى بك ياور واحوال السودان فشهد بعض مواقفه مع الدراويش

وخلاصة الامر أن حجار السودان ورماله كادت تنطق بصوت واحد « صدق محمد احمد بدعواه » وكان الى ذلك الحين مقبلاً في الزهد فكاتب اليه أمراؤه من انحاء مختلفة أن ينزل برجاله الى النيل الايض فكان يؤجل مسيره مظهراً الازدراء بقوة أعدائه والاعتداد بقوته ويستعرض جنوده كل جمعة استعراضاً عمومياً يحضره

هو بنفسه والجيش إذ ذاك ثلاثة أقسام يرأس كل منها خليفة من خلفائه . ولكن الخليفة عبد الله التعايشي كانت له الرئاسة الكبرى ويلقب « رئيس الجيش » وفرقة تسمى « الراية الزرقاء » ينوب عنه في قيادتها أخوه يعقوب التعايشي . وفرقة الخليفة علي ولد الجلو تدعى « الراية الخضراء » وفرقة الخليفة محمد الشريف تسمى « الراية الحمراء » أو « راية الاشراف » وتحت كل من هذه الرايات الثلاث رايات صغيرة لا يحصيها عدّ يجتمع حول كل راية منها مئات من الدراويش

وكيفية الاستعراض عديم أن يقف أمراء الراية الزرقاء برايتهم صفاً واحداً يولون وجوههم المشرق ويقف أمراء الراية الخضراء صفاً آخر يقابل الصف الاول



ش ٩٥ : نقود غوردون

وجهاً لوجه ويقف أمراء راية الاشراف صفاً آخر يقابل الشمال فيؤلفون مربعاً يتفصه ضلع كانه باب يدخل به المهدي وحاشيته فيمر بجانب الصفوف يحببها قائلاً : الله يبارك فيكم »

فلما انقضى رمضان تلك السنة قال محمد احمد انه قد أوحى اليه في الرؤيا « الحضرة » أن ينزل لمحاصرة الخرطوم وأمر رجاله بذلك حصار الخرطوم

فزحفوا برجالهم وأحلامهم وأثقالهم ودوابهم فضربوا نقارتهم وساروا حتى أشرفوا على الخرطوم وسلاتين معهم فمسكروا هناك تحت راية التعايشي . وسار الامراء الآخرون يبحثون عن مكان آخر يعسكرون فيه . ثم أمر المهدي أن يحرق جنده

بالخرطوم ويشددوا الحصار عليها فأمر أبا جرجا وولد النجومي أن يحاصروا برجالها من البر الشرقي للنيل الايض عند مكان اسمه كلا كلا وأمر أبا عنجه وفضل المولى أن يحاصروا طابية أم درمان على البر الغربي . وما زالوا محاصرين تلك الطابية حتى فتحوها في ١٥ يناير سنة ١٨٨٥ وهي أول طابية فتحوها من حصون الخرطوم . ويؤخذ من تقرير كتبه الشيخ المصوي أحد قواد المهدي في ذلك الحصار أن المهدي كان عازماً أن يشدد الحصار على الخرطوم حتى تسلم من الجوع كما فعل بالايّض وان رجال ولد النجومي وحدهم بلغوا عشرين ألفاً . وربما كانت قوة الدرايش كلها ستين ألفاً أو سبعين أو أكثر

أما غوردون فلم يقض في الخرطوم شهرين حتى نددت النقود من خزينتها فاصطنع نقوداً من الورق بفتات متفاوتة يتعامل بها الناس الى أجل مسمى . وقد شاهدنا كثيراً منها عند وصولنا المئمة سنة ١٨٨٥ وفي الشكل ٩٥ صورة احداها رسمها الاصلي عاماً

على أن ذلك قلما خفف من ضيق أهل الخرطوم ونزلها فانهم ما اتفكوا يشعرون بالضغط يوماً بعد يوم والحصار يزيدهم ضيقاً حتى أصبحوا محاطين بالعدو من كل جهة وقل زادهم أو فقد وجاعوا وغوردون يصبرهم ويعدم بقرب وصول الحملة الانكليزية لانقاذهم ولكنها تأخرت كثيراً فل الناس الانتظار واشتد الجوع حتى أكلوا لحوم القطط والكلاب ومضغوا سعف النخل وجذور النرة . كل ذلك وهم واثقون بوعد غوردون ولكنهم أصبحوا يسيئون الظن به أخيراً

الحملة الانكليزية لانقاذ غوردون

أما الحملة الانكليزية التي أقروا على ارسالها لانقاذ غوردون فبرحت مصر في أوائل الخريف وعدد رجالها ستة آلاف من نخبة الجند الانكليزي وأكثر قوادها من الاشراف إذ تسابق الانكليز الى الانتظام في سلك هذه الحملة لزعمهم أنها عبارة عن (ف. ح.) على النيل . فلم يصل من رجالها الى كورني الا بعضهم وتفرق الباقيون في نقط خط الاتصال . ومن كورني سارت حملة في عطور صحراء بيوضة الى المئمة بقيادة الجنرال ستوارت والقصد بها سرعة الوصول الى الخرطوم . وسارت حملة اخرى على النيل الى بربر بقيادة الجنرال ارل . وكما من سار برفقة حملة العطور فشهدنا وقائعها وسمعنا اطلاق مدافعها ورنات قنابلها ورصاصها فقطعت الحملة جكدول فأباً طليح فلاقاها العرب على الآبار فحصلت بين الفريقين واقعة شفت عن

انهزام العرب فتعقبهم الانكليز الى المئمة وساروا بقيادة الجنرال ستوارت ليلاً وقد كنت في جملتهم في تلك الليلة الليلاء . فكنا سائرين لا نرى شيئاً من آثار الطريق المؤدي الى المكان المقصود لشدة الظلام فاضطررنا الى الاستدلال عليها بالآبرة المغنطيسية (البصلة) والنجم القطبي وكنا تارة نصعد على آكام مناسين وطوراً نعرز أرجل جبالنا بأعشاب أو أنجم شوكية ولم نكن نخرج صوتاً ولا نقدح نازاً لئلا يكون بقربنا من الاعداء من يستطلع أحوالنا فتجبط مقاصدنا . ولم يأت آخر الليل حتى أصبحنا وليس فينا من لم يأخذ منه النعس مأخذاً عظيماً . وكانت تأخذ من أحدنا سنة الوسن وهو على ظهر الجمل فينتبه وهو على وشك السقوط فيعتدل

وعندما أصبح يوم غرة ربيع آخر أو ١٨ يناير أشرقنا على النيل المبارك عن بعد والمئمة عن يسارنا ولم نكد ندف والغزاة في الضحى حتى خرج الينا من أسوار المدينة (المئمة) جيش جرار من العربان وقفوا على مرمى رصاص منا وقد حالوا بيننا وبين النيل وجعلوا يطلقون علينا النار من وراء الاشجار والصخور فأمر الجنرال ستوارت بالترجل وانشاء زريبة وما كدنا نفعل حتى احتدمت نيران العدو فأمر الجنرال بتشكيل مربع ثم وقف وراء أحد المدافع ويده المنظر يراقب حركات العدو فأصابته رصاصة في بطنه فسقط على الارض وسقطت قلوبنا معه . وكان بجانبه المستر سانكي هربرت كاتب سر الجنرال المذكور فسألته ما ظنه بحياة الجنرال فأجاب متأسفاً أنه لا يرجو له شفاء . وما أتم كلامه حتى أصيب هو برصاصة في رأسه فشقق وسقط ميتاً لا حراك به وكان خادمه بجانبه يخاطبه في بعض حاجاته فلما رآه ساقطاً رفع يده منادياً يا سيدي يا سيدي ولم يتم قوله حتى أصيبت يده عند المعصم برصاصة ثقتها من الجانب الواحد الى الآخر . وكنا نرى كثيرين غيره يسقطون مثل تلك السقطلة . فلا تسلم عما حل بالجند من اليأس الا أنهم تجلدوا وأقاموا عليهم أكبر ضباطهم قائداً فآتموا تشكيل المربع بعد أن رفضوا الجنرال جرجا جرحاً بليغاً لم يعيش بعده أكثر من شهر واحد فمات عند انسحاب الحملة ودفن عند آبار جكدول في وسط الصحراء

فسار المربع ونحن داخله قاصداً النيل فهاجنا الاعداء ببسالة غريبة ثم ما لبثوا أن اقتربوا من مريتنا حتى تشتت شملهم فسرنا حتى أدركنا النيل عند الظلام بعد مفارقتنا إياه نحواً من أسبوعين فحينئذ تحية ملتح وعسكرنا على ضفته للبيت تلك

الليلة . وفي الصباح التالي جاءت العساكر مع من كان معهم في الزربية ثم انتقلنا الى قرية جنوبي المتمة يقال لها القبة . وكان غوردون قد أنفذ الملائكة تلك الحملة أربع بوخرا كانت في مياه الخرطوم ليستينوا بها في الوصول اليه وبث يقول لهم انكم اذا لم تصلوا النيل في بضعة أيام ذهبا هباء . منثوراً وقد علم السير شارلس ولسن خلف الجنرال ستيوارت على تبت الحملة بذلك في ٢١ يناير وكان يجب أن يبادر حالا الى الخرطوم بدلا من أن يقضي أربعة أيام بجوار المتمة . بلا داع فغادرها في ٢٤ يناير سنة ١٨٨٥ على باخرتين لم تصلا الخرطوم الا في ٢٨ منه وكانت قد سقطت وقتل غوردون في ٢٦ منه فعاد السير شارلس كاسف البال ولم يصل المتمة إلا بعد شق الانفس لان باخريته انكسرتا وأصابه من الخطر ما لا محل لتفصيله هنا



ش ٩٦ : دلالات الأرقام في خريطة الخرطوم
(١) الحكمدارية (٢) السراي (٣) حواصل الخنطة (٤) الترساة
(٥) القتلاقي (٦) طابية بوري (٧) مخازن البارود (٨) قرية توتي
(٩) الطابية البحرية (١٠) السراي الشرقية

سقوط الخرطوم

أما كيفية سقوط الخرطوم فعلى ما يأتي : من تأمل هذه الخارطة (ش ٩٦) علم أن الخرطوم واقعة موقعاً طبيعياً حصيناً للغاية فهي محاطة من الشمال والغرب بالنيل ومن الجنوب والغرب بسور منيع وراءه من الخارج خندق عميق والجند قامون على السور ليلاً ونهاراً وترى بين بنايات الخرطوم وسورها أرضاً لا بناء فيها وقد ذكرنا أن المهدي حاصر الخرطوم وشدد الحصار عليها لكي تسلم من الجوع فلم تمض مدة حتى أنباء جواسيسه أن حملة انكليزية قادمة لانقاذ الخرطوم وغوردون فبعث اليها جنداً لاقاها في أبي طليح تحت قيادة موسى ولد الحلو وأبي صافية فعادت خامسة فارسل جنداً آخر الى المتمة بقيادة نور عنجة فانكسر أيضاً كما تقدم . فلما بلغه خبر انكسار رجاله أراد التموه على اتباعه فامر بإطلاق مئة قبلة وقبلة وهي اشارة النصر عندهم فاطمان الدراويش ولكن محمد احمد جمع أمراءه وخلفاءه في جلسة سرية وقال لهم ان الحضرة جاءت فلوحت اليه أن يهاجر الى الأبيض . فاعترضه الامير محمد عبد الكريم قائلاً « ان الهجرة ميسورة لنا في كل حين والطريق الى الأبيض مطلق لنا فلنهاجم الخرطوم أولاً فإذا امتنعت علينا هاجرنا الى الأبيض وإذا فتحنها فلا يقوى الانكيز ولا غيرهم على أخذها منا » فاستحسن المهدي رأيه وصبر بضعة أيام وهو يستقضي أخبار الانكليز وحركاتهم . وفي ٢٥ يناير بلغه قيام الباخريتين من المتمة فاقر على مهاجمة المدينة في صباح اليوم التالي (يوم الاثنين في ٢٦ يناير سنة ١٨٨٥) فبعث الى القوات المحاصرة يقول انه علم بالوحي ان الله قد جعل أرواح أهل الخرطوم كلها في قبضته

وفي مساء ذلك اليوم ٢٥ منه قطع المهدي النيل الأبيض من أم درمان وكل من أراد الجهاد معه ووزل الى معسكر ولد النجومي في كلا كلا وخطب هناك خطاباً حث رجاله فيه على الجهاد وأوصاهم أن لا يقتلوا غوردون بائساً . ولما أتم خطابه عاد يبطاته الى أم درمان

وفي الصباح التالي ٢٦ منه الساعة الاولى بعد نصف الليل زحف الدراويش من كلا كلا بقيادة ولد النجومي وانقسموا فرقتين فرقة تهاجم السور بين النيل الأبيض وباب المسلمية وفرقة تهاجم من ناحية بوري (انظر الخارطة) وكان السور بين باب المسلمية والنيل الأبيض قد تهدم بعضه مما يلي النيل مجاورته أرضاً يفسرها ماء النيل في فيضانه ترى حدودها في الخارطة منقطة . وكان الماء قد انحسر عنه

اذ ذاك وتهدم بعضه فتسكونت فيه تمور دللتا عليه بتقطيع السور هناك الى نقط .
فعول الدراويش على أن يدخلوا المدينة من تلك التمور على أنهم اذا فازوا بالدخول
منها عدلوا عن الهجوم من جهة بوري ودخل القسمان معاً من جهة النيل الايض

مقتل غوردون

فزحفوا سكوتاً حفاة تحت جناح الليل لا تسمع لهم حركة حتى صاروا عند تلك
التمور فردموا الحندق ووسعوا التمور وصاحوا صياح الحرب قائلين « في سبيل الله »
ودخلوا يزاحم بعضهم بعضاً وقد غاصوا في الاوحال الى الركب فبغت الحامية فاطلقت
بعض الطلقات وكان فرج باشا قائد الحصون على باب المسلية فما انتبه الا وقد قضي



ش ٩٧ : رأس غوردون يريه الدراويش لسلتين باشا

الامر ولم تبق فائدة بالدفاع ففتح الباب وسلم قاتله الدراويش على المدينة كالسيل وعم
ينادون « للكنيسة . . للسراي » وامنعوا في الاهالي المساكين قنلا ونهباً لم يبقوا
ولم يذروا . وسار بضعة منهم الى السراي حيث يقيم غوردون وكان قد ينس من
قدوم الحملة وبات تلك الليلة حوالي نصف الليل ولم يكذب يغمض جفنه حتى سمع اطلاق
النار فصعد الى سطح السراي واشرف على الاسوار فرأى العرب قد دخلوا السور
ولم يعد باليد حيلة فلبس ثيابه وتقلد سلاحه وهم بالنزول فلاقاه ثلاثة من الدراويش
في أعلى السلم فسأل أولهم قائلاً « أين محمد احمد » فأجابته بطعنة قاضية وضربه آخر

بالسيف نحر قتيلاً ولم يبد دفاعاً . ويقال ان قتله من رجال ولد النجومي ولم يكن
ولد النجومي معهم فجاء بعدئذ فساءه قتله فأمرهم بحرق جثته الى باحة السراي وأن
يقطع رأسه ويحمل الى المهدي في أم درمان فحملوه اليه في متدبل كبير في الساعة
الاولى من النهار وكان سلاتين مقيداً في خيمته بأم درمان وقد سمع اطلاق المدافع
وعلم بهجوم العرب على الخرطوم ثم سمع بفتحها فوقف حزينا كئيباً فرحاملو رأس
غوردون به وبينهم رجلا اسمه شطا كان يعرفه سلاتين قبلا فكشف له عن رأس
غوردون وقال « اليس هذا رأس عمك الكافر »

فأثر ذلك المنظر في سلاتين كثيراً وكان قد هزل جسمه من الاسر والخوف وكاد
يغمي عليه ولكنه تجدد وقال بصوت ضعيف « انه مات في سبيل الدفاع عن واجباته
هنيئاً له فقد استراح من متاعبه » فقال له شطا ضاحكا « أمدح الكافر انك ستلقى
ما لقيه قريباً » فتأمل حال سلاتين اذ ذاك

ثم حملوا الرأس الى المهدي فظهر كدوره لذلك وكان سلاتين يظن ان المهدي لو
أراد أن يبق عليه وأوصى رجاله بذلك ما تجرأ أحد على مخالفة أوامره

هكذا سقطت الخرطوم عاصمة السودان في أيدي الدراويش وبسقوطها سقط
كل أمل بافتتاحها . ولكن المهدي لم يقم فيها بل أقام في أم درمان وبني هناك مدينة
جعلها عاصمة ملكه من ذلك الحين

أما الحملة الانكليزية فانها انسحبت من المنمة الى كورتى فاقامت هناك مدة ثم
عادت الى دنقلا فصر فسحبت معها كل من أراد مرافقتها من سكان شمالي كورتى
وأصبحت السودان من ذلك الحين مملكة المهدي السوداني

موت المهدي وخلافة التمايبي

فلما فتحت الخرطوم وعادت الحملة الانكليزية الى مصر ازداد الناس وثوقاً بدعوى
المهدي مع ما شاهدوه من توفيقه في مشروعاته فانه كاد لا يشهد موقعة الا انتصر فيها
ولا حاصر مدينة الا فتحها . واذا اعتبرت ما لاقته الحملة الانكليزية القادمة لانقاذ
غوردون من العراقيين والعوائق عجبت لما اتفق لمحمد احمد هذا من غرائب التوفيق .
فأخذ اشباعه ذلك دليلاً على كرامته وأيقن هو انه أصبح المالك المتصرف في السودان
من اقصائه الى اقصائه وخيل له انه سيفتح الامصار ويخضع الملوك والسلطين فتنتشر
سلطنته في الخافقين . على انه لم يكن يرجو أن يتم ذلك كله على يده ولكنه كان يقول
انه لن يموت الا بعد فتح الحرمين وبيت المقدس ثم ينزل السكوة ويموت فيها . ولكن

ساء فآله لأنه لم يكذب يؤيد سلطته ويقم في عاصمته « أم درمان » بضعة أشهر حتى دأبته الوفاة في ٢١ يونيو سنة ١٨٨٥ فيها على أثر إصابة شديدة بالحصى التيفوسية لم تتجع فيها حيلة فقارق هذا العالم على عنقريب « سرير سوداني » وحوله خلفاؤه الثلاثة وخاصة أمراءه منهم أحمد ولد سليمان ومحمد ولد البصير وعثمان ولد أحمد والسيد الملكي . فلما شعر المهدي بدنو الاجل قال لمن حوله بصوت منخفض « ان النبي صلى الله عليه وسلم اختار الخليفة عبد الله خليفة لي وهو مني وأنا منه فأطيعوه ما اطعموني .



ش ٩٨ : طبيب المهدي

استغفر الله . ثم تلا الشهادتين وجعل يديه متقاطعتين على صدره واسلم الروح ولم يكذب يخرج النفس الاخير من أنفاسه حتى تقدم الحضور فبايعوا عبد الله وسماه « خليفة المهدي » وكان في جملة من حضر موت المهدي امرأته عائشة ويدعونها « ستنا أم المؤمنين » فسارت لا بلاغ خبر وفاته الى نساءه الاخريات وتعزيتهن وكان

الناس قد تجمعوا ومئات وألوفاً حول المنزل ينتظرون الخبر عن سيدهم ومهديهم فلما علموا بموته ضجوا وصاحوا فاعز اليهم ان البكاء والتدب حرام لان المهدي إنما فارق مقامه في الارض بمجرد ارادته ليلقي وجهه ربه . فغسلوا الجثة ولفوها بالا كفان واحتفروا لها حفرة في تلك الغرفة حيث فارقتها الروح ودفوها وجعلوا فوقها بعد ذلك مقاماً من الخشب يغشاها ستر اسود وبنوا فوقه قبة وسموا ذلك المقام « قبة المهدي » يزورها الناس للتبرك واحتفروا بجانب القبة بئراً يستقي الزائرون منها للشرب والوضوء وحول القبة درابزون من الخشب « ش ٩٩ »



ش ٩٩ : قبة المهدي وفيه قبره

وكان سلاتين باشا قد نال العفو من المهدي قبل وفاته فخلت قيوده وعاد الى معية التعايشي فشاهد تلك الحوادث شهادة عين ووصفها في كتابه « السيف والنار والسودان » وصفاً تاماً

فقد دفن المهدي سار خليفته عبد الله الى الجامع وخطب في الناس وأبناهم بوقاة المهدي فيكي وبكى الناس ثم أوصاهم بالطاعة والاتحاد للعمل بأوامره . وبعد الخطبة تقدم الناس لمبايعته فتلوا صورة المبايعات التي ذكرناها قبل الآن ولكنه غير العبارة الاولى منها فجعلوها « يا بعنا الله ورسول الله ومهدينا ويا بعناك على توحيد الله الخ »

أوصاف المهدي

كان محمد احمد طويل القامة عريض المنكبين أسمر اللون قائمه قوي البنية . وكان أول قيامه بدعوته ربيع القامة فاصبح في أواخر أيامه سمياً ضخماً . وكان كبير الرأس عريض الجبهة حاد العينين أسودهما خفيف اللحية أسودها وعلى خديه آثار الاخاديد العرضية الثلاثة من كل جانب كسائر الدناقلة أبناء قبلته . وكان متناسب الاتق والقم لا ينفك مبتسماً فتظهر أسنانه وبين الاماميتين منها فليجة تشبه الثمانية « ٨ » تعد عند السودانيين وغيرهم من المشاركة علامة السعد ويقال لصاحبها أفلج . وكان ذلك من جملة ما حجب المهدي الى النساء وكن يسمينه « أبو فليجة »

وكان يلبس حية بيضاء قصيرة مضرية راحاً دائماً مغسولة نظيفة مطية براحة خشب الصندل والمسك وعطر الورد وكان مشهوراً بين أتباعه بهذه الراحة حتى نسبوها اليه فسموها « راحة المهدي » وذكر بعضهم خلافاً كان في حده ادعى انه من علامات المهدوية

وقد علمت من تدبير ترجمة حاله انه كان نبياً مدبراً رضي الخلق حسن السياسة ماهراً في التأثير على عواطف الناس اذا تكلم ظهر للسامعين ان جوارحه كلها تسلك فاذا ذكر ما آمن بني الانسان أو وصف النعم المقبل أو حث على الجهاد بكى وتخضع مواكب السامعين . ويظهر من سجل سيرة حياته انه صبور على البلوى كاظم للغيظ مسالم للاحزاب محسن اليهم راعب في امتلاك قلوبهم باللفظ وحسن الاسلوب . وكان ذلك من أكبر العوامل في نشر دعوته وقيام الناس بنصرته ولو أمد الله في أجله لكان فتح السودان صعباً على الجنود المصرية نظراً لاستهلاك قواده في سبيل نصرته . أما خليفته فكان على غير خلقه من اللين والدعة والمسالمة الى حد حاج غيرة الخائفتين الآخرين وغيرهما من الامراء فقام للشقاق بين الدراويش فضعفت عزائمهم وفست أمورهم وتضعفت أحوالهم وسهل الفتح على المصريين

تعاليمه

ذكرنا في ما تقدم ما كان من أعماله الحربية منذ ظهوره الى وفاته فنقتصر الآن على

ذكر ما أحدثه من التعاليم والتقاليد بين مسلمي السودان :

(١) علم الزهد في الدنيا وملذاتها ونيل المجد الدنيوي فابطل الرتب والالقب الرسمية وغير الرسمية وسأوى بين الغني والفقير وفرض على أتباعه لباساً واحداً يمتازون به ويدل على زهدهم وهو الحية المرقمة

(٢) جمع المذاهب الاربعة (المالكي والشافعي والحنفي والحنبلي) ووحدها بقسوة بعض ما بينها من الخلاف والغاء البعض الآخر واختار آيات من القرآن الكريم تلى كل يوم بعد صلاة الصبح وصلاة العصر منها « الراتب » وسهل طرق الوضوء

(٣) حرّم الاحتفال بالاعراس احتفالاً يدعو الى النفقة ومنع شرب الخمر وغيرها مما يتناولونه في الاعراس وخفض مهر الزواج فجعله عشرة ريالات وبدلتين للبكر وخمسة ريالات وبدلتين للثيب وجازى من يخالف ذلك بسلب أمواله كلها . وأبدل ولائم الاعراس بطعام من الثمر واللبن فتسهلت بذلك وسائل الزيجة على الفقراء وقد كانت نفقات العرس الباهظة حائلة بينهم وبين الاقتران

(٤) ابطل الرقص واللعب ومن رقص أو لعب فقصاصه الجلد وأخذ أمواله وترى تفصيل ذلك في منشور المهدي الذي تقدم نشره

(٥) منع الحج الى الحرمين خوفاً على قواته من التفريق وتعاليمه من الضياع لعلمه انها تخالف تعاليم أهل الاسلام . ووضع قصاصاً على من يشك في دعوته أو يتردد في تنفيذ أوامره أن تقطع يده اليمنى ورجله اليسرى ويكفى بثبوت التهمة عليه شهادة شاهدين وقد يكفي ان يدعي علمه ذلك بالوحي . وتأيداً لدعوته أحرق كل كتاب أو ورقة تخالف هذه التعاليم



ش ١٠٠ : نقود المهدي

وقد ضرب المهدي نقوداً باسمه هذه صورة قطعة فضية منها بحجمها الطبيعي (ش ١٠٠) على أحد وجهيها اسم المدينة التي ضربت فيها « أم درمان » وعند أسفل ذلك تاريخ ١٣٠٤ هـ وهي سنة استقلالهم بالافتقار السودانية وفي أعلاها رقم واحد يقصدون به السنة الأولى من سلطانهم . وعلى الوجه الآخر ما يشبه الطغراء يقرأ منها كلمة « مقبول » كأنهم يريدون بها أن هذه النقود مقبولة عند حكومتهم وعند أسفل الطغراء يقرأ سنة ٥ ربما يقصدون بها السنة الخامسة من ظهور المهدي أو عجزته وكان المهدي قد بعث أمراءه إلى الأنحاء لبث دعوته وتأييد سلطته وحث الناس للمهاجرة إلى أم درمان فسعى محمد خالد في دارفور فاتم إخضاعها وسار أبو عنجة إلى كردوفان وكانت قد سلمت إلى المهدي السكان الجبال الجنوبية منها فاضع بعضهم وبقي البعض الآخر مستقلاً . أما ما بقي من السودان الغربي من ضفاف النيل الأبيض إلى حدود وداي فقد دانت للمهدي برمتها

السودان الشرقي

أما في السودان الشرقي فما زالت سنار وكلا محاصرتين وقد دافعت حاميتهما دفاعاً حسناً حتى اضطرت إلى التسليم فلم تنقض سنة ١٨٨٥ حتى بلغ نقود المهدي وسلطته جنوباً إلى لادو من مديرية خط الاستواء ولم يبق من السودان في حوزة الحكومة المصرية إلا سواكن وحدها

واتفق في أثناء حصار سنار أن القوة المحاصرة لها كانت تحت قيادة الأمير عبد الكريم وهو من أقارب المهدي فدفعته حامية سنار فانفذ التعايشي ولد التجومي وهو من أعظم قواد الدراويش ففتحها في أغسطس سنة ١٨٨٥ فبعث التعايشي إلى عبد الكريم أن يأتي هو ورجاله إلى أم درمان وكان قد أخذ معه حصار سنار الجنود السودانية بلواء الخليفة محمد الشريف وهو من أقارب المهدي أيضاً فلما فتحت سنار على يد ولد التجومي ثم دعي عبد الكريم إلى أم درمان حمل عبد الكريم ذلك من التعايشي يحمل الأمانة له وذاع على الألسنة إذ ذاك أن عبد الكريم قال لو ضمت إليه رجاله ورجال الخليفة الشريف لأخرج الخلافة من يد التعايشي ودفعها إلى الخليفة الشريف لأنه أولى بها من ذلك . فبلغ ذلك الكلام مسمع التعايشي فبعث إلى أخيه يعقوب وهو عمده وقائد جنده وأخبره الخبر وأوصاه أن يكون الجند على استعداد عند وصول عبد الكريم . فلما وصل عبد الكريم لاقاه التعايشي بالتهنئة واثني على ما بذله في حصار سنار ثم شرفه وبعث إلى الخليفين وسائر الأشراف (أقارب

المهدي) فادخلهم غرفة داخلية ولما أستتب بهم المقام أمر كاتبه قلاً عليهم منشوراً كان قد كتبه المهدي في الأبيض يحرض أتباعه به على طاعة التعايشي فلما تمت تلاوة المنشور قال عبد الله أن عبد الكريم خان فأنكروا ذلك عليه ودافعوا عن صداقه وأمانته فظاهر بالعفو عنه ولكنه اشترط إخراج الجنود السودانية من قيادته إلى قيادة أخيه يعقوب فقبل الشريف وسائر الأقارب بذلك رغم إرادتهم ثم أشار التعايشي إلى الخليفة علي ولد الحلو بطرف عينه أن يجددوا المبايعة ويعين الطاعة فوضعوا أيديهم على القرآن وأقسموا أن يسلموا الجنود السودانية وأن يحافظوا على الطاعة . ولا ريب أن الشريف ورجاله فعلوا ذلك قهراً وفي أنفسهم حزازات يودون لو أنهم يذهبون بحياة التعايشي . وكانت تلك الحادثة أمثلة ذات بال أصبح بها مقاوموه مقصوصي الأجنحة لا يستطيعون حراكاً ولكنهم حقدوها عليه وأخذ كل من الفريقين ينظر إلى الآخر بعين الحذر . على أن الظواهر كانت تدل على اتحاد وارتباط متينين . أما التعايشي فما انفك يدعو الناس من الجهات البعيدة للمهاجرة إلى أم درمان ليعمرها ويحشد فيها قوة عظمى يستعملها عند الحاجة

خرب الاحباش

وفي أثناء ذلك تعدى بعض السودانيين على الاحباش في بلاد الحبشة وأخربوا كنيسة من كنائسهم والتجأ المتعدون إلى قلابات وهي في بلاد الدراويش مما يلي حدود الحبشة فقام حاكم المدينة بجاء الاحباش بجند كبير تحت قيادة الرأس عادل وأخربوا البلدة وأحرقوها حتى صارت قفراً يأوي إليها الضباع والذئاب وساقوا الأولاد والنساء أسارى إلى الحبشة . فبلغ التعايشي ذلك فكتب إلى يوحنا نجاشي الحبشة إذ ذاك أن يرسل الأسرى ويعين القدية التي يريدونها عنهم ولكنه بعث أيضاً يونس أحد قواده بجند إلى قلابات وأمره أن يحصنها ويقيم فيها حتى يأتيه أمر آخر وبعد قليل جاء نبأ أن يونس في ضيق فبعث أبا عنجة يتولى قيادة الدراويش في قلابات فسار في جنده وأتقذه من ضيقه . وقبض على ١١ أميراً ظهر أنهم تأمروا على قتل يونس وبعث إلى الخليفة يستشير في أمرهم فبعث إليه أن يقتلهم ثم ندم فبعث أن لا يفعل ولكن سبق السيف العزل

فجمع أبو عنجة هذه القوة وسار نحو رأس عادل لينتقم منه فوفق في هذه الحملة على غير انتظار وتغلب على رجال رأس عادل وأخرجهم من محلتهم واستولى على الخيم والمؤن وكل الامتعة وأسر امرأته رأس عادل وابنته . وكأنه بهذه الغلبة قد فتح كل

مقاطعة أحمرة فسارتوا إلى غندر على أمل أن يلاقي فيها خزان وأموالاً فلم يجد شيئاً فأحرق البلدة وعاد وهو ينهب ويسلب كل ما مر به بطريقه حتى ساقوا أمامهم قطعاً من نساء الاحباش وأطفالهم سوق الاغنام فلما وصلوا قلايات بنوا الاسرى إلى أم درمان فأخذ الخليفة خمسهم وضموا الباقي إلى بيت المال وقد مات منهم في الطريق مئات من الجوع والتعب وأصبح الطريق بين قلايات وأبي حراز مملوءاً بجثث أولئك المساكين وفي جملة جثث ابنة راس عادل وابنه لكن المنيعة عاجلت أبا عنجة فمات ولم يتجاوز ٣٢ سنة من عمره

ثم ما لبث التجاشي ملك الحبشة أن جند للانتقام من الدراويش على خراب غندر فحمل بجند كبير على قلايات وكانت جنود أبي عنجة لا تزال هناك ولم تفقد إلا قائدها الأكبر فتأهبوا للدفاع فوصل التجاشي وعسكر بالقرب من قلايات وانتهت الحرب بهرب الاحباش وقتل ملكهم وركبوا المعسكر غنيمة للدراويش فوجدوا في جملة الغنائم تاج التجاشي يوحنا مصنوعاً من الفضة ومحلى بالذهب وسيفه وكتاباً مرسلاً إليه من ملكة الانكليز فحملوا ذلك غنيمة إلى أم درمان

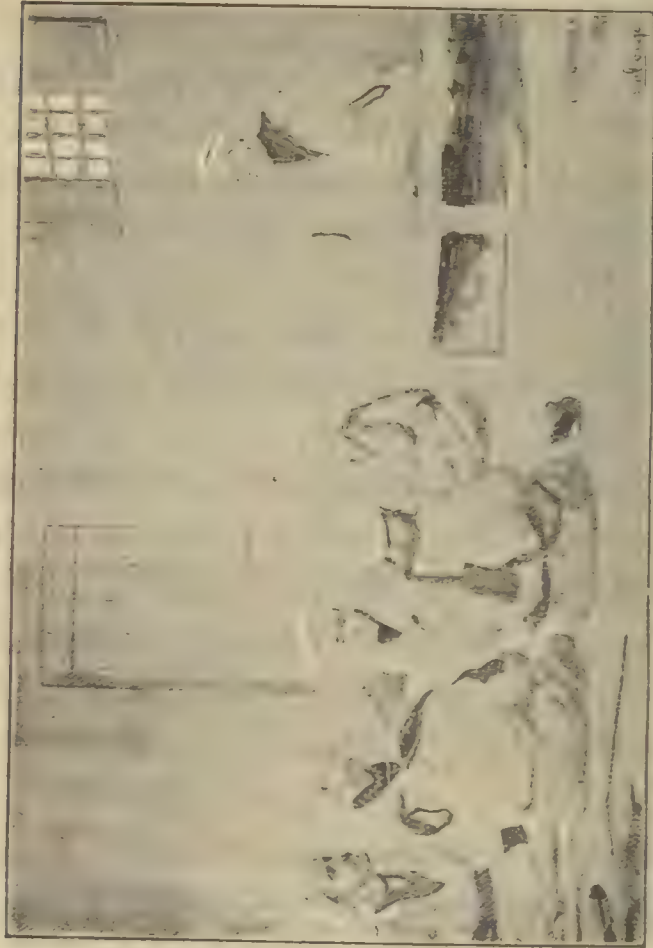
فتح مصر

ومن أغرب مطامع التعايشي فتح مصر وضماها إلى مملكته على حين أن المهدي نفسه لم يجاهر بذلك صريحاً. فلما توفي هذا كتب التعايشي كتاباً إلى جلالة السلطان وآخر إلى سمو الخديوي وآخر إلى ملكة الانكليز يطلب اليهم جميعاً أن يسلموا له ويدعوا لسلطانه وأرسل الكتب مع رسل خصوصيين إلى مصر فعاد الرسل ولم ينالوا جواباً غير الاحتقار والازدراء فشق ذلك عليه وحقد عليهم

فلما قدر له بالفوز على الاحباش حدثته نفسه أن يجرد على مصر فيفتحها ويقيم نخاساً من البقارة أو التعايشة أميراً يتولى حكومتها أو يأتي هو بجلالة قدره من يثته في أم درمان فينصب غفريه في سراي عابدين

ولم ير بين قواده أولى بهذه المهمة من عبد الرحمن ولد النجومي وكان من اشد الدراويش بطشاً وأصعبهم مراساً وأكثرهم استهلاكا في نصرة الدعوة وكان قبل ظهور المهدي تاجراً بين مصر والسودان قد خبر الطرق فارسله في حملة أكثرها من قبائل الجمالين والداقلة وغيرهم ممن جاوروا حدود مصر العليا وخالطوا سكان تلك الاقاليم متظاهراً أن قصده بذلك فتح مصر برجالهم أدري بها من غيرهم. ولكن الحقيقة أنه لم يجهل الخطر الذي يهدد ذلك المشروع فلم يدخل في تلك الحملة

أحداً من أقاربه وابناء عشيرته ولا من قبائل البقارة وغيرهم من عرب غربي النيل الا يرض لانهم من حزبه فاذخرهم حين الحاجة أما الدناقلة والجمالين فأكثروا من حزب الخليفة محمد الشريف وقد رايت ما بينه وبين التعايشي وما كان من تغير قلوبهما فما



١٠١٠ : مجلس التعايشي وقضائه

انفك هذا بعد ذلك يعتبر الشريف عدواً له تحت طي الخفاء فبعث أحزابه في حملته هذه وفي نيته أنهم إذا فتحوا مصر عاد الفخر له وانتفعت مملكته وإذا انكسروا تفهقروا إلى دنقلا وقد ضعف شأنهم وتخلص هو من دسائسهم

فحمل دنقلا محط رجال تلك الحملة وأقام يونس ولد الدغيم أميراً على دنقلا بقم

فيها ويدبر شؤونها وولد النجومي يقود الحملة ولا يعمل الا بمشورة يونس فلما أعد التعايشي تلك الحملة بعث كتاباً أخرى الى مصر وفيها الانذار الاخير فبقي الرسل مدة في اصوان ثم أعيدوا بلا جواب فبعث التعايشي رأس التجاشي يوحنا الى يونس أمير دنقلا على أن يرسله الى وادي حلفا تهديداً للمصريين . وأمر أن يسير ولد النجومي بهملته على مصر فلا يحرك ساكناً في حلفا بل يهاجم اصوان فاذا فتحها يقيم فيها حتى تأتيه أوامر أخرى

نخرج ولد النجومي من دنقلا في مايو سنة ١٨٨٩ في جيش لا نظام له والحكومة المصرية عالة بكل حركة من حله ورحاله . وكان سردار الجيش المصري اذ ذاك الجنرال غراقل باشا المشهور بالتآني وصدق الروية فضلا عن الرقة ولين الجانب فخصن حلفا واصوان وسائر الحدود

فلما دنت حملة الدراويش من ارجين بجوار حلفا اقتربت شذمة منهم الى النيل وولد النجومي لا يعلم بها فخرجت اليها الحامية المصرية بقيادة وودهاوس باشا فكسروها شر كسرة

وكان غراقل باشا قد خرج من اصوان فبعث الى ولد النجومي يبين له خطر موقفه وينصح له أن يسلم فيسلم قابى فسار السردار بجيش معظمه على البر الغربي للنيل وبعضه على البر الشرقي لان الدراويش كانوا قادمين على البر الغربي فحرت بينهم وبين الحاميات مناوشات ليست بذات بالحتى وصلوا توشكي وهناك حصلت الواقعة التي قضت على تلك الحملة فقتل قائدها وتشقت شملها واليك التفصيل

واقعة توشكي

توشكي قرية حقيرة على البر الشرقي وبعضها على البر الغربي للنيل بين كروسكو وحلفا على بضعة أميال من هيكل أبي سمبل شمالا مؤلفة من أعشاش صغيرة من الطوب والقش متفرقة على ضفة النيل في مسافة من الارض على موازاة النيل يبلغ طولها ثلاثة أميال وعرضها منه الى الصحراء نحو نصف ميل وفيها بعض النخيل وفي البر الغربي مقابل توشكي على بعد أربعة أميال منها جنوباً سلسلة تلال عالية من حجر الغرايت تمتد من الضفة غرباً نحو ثلاثة أميال في الصحراء وعند طرف هذه السلسلة والى جنوبها كان معسكر الدراويش بقيادة ولد النجومي وعلى نحو تلك المسافة شمالا سلسلة أخرى وبين السلسلتين سهل متصل بالصحراء وفيه حصلت الواقعة وكان السردار مقيماً في توشكي فبعث طلائعه في صباح ٣ اغسطس سنة ١٨٨٩

بأمر الاستكشاف معسكر العدو فنادوا واخبروا بان العرب يستعدون للمسير فخرج السردار لجرد الاستكشاف فلم يكذب يشرف على معسكرهم حتى رآهم هاجمين كالجراد فبعث الى الجند في توشكي وكان بعضهم لم يتناول طعاماً ولا شياً قليلاً فصاروا بأسرع من ملح البصر وهم لم يأكلوا بعد ولا حلوا من الماء الا شيئاً قليلاً فصم السردار اذ ذاك أن لا يكف عن الدراويش حتى يشتت شملهم في ذلك اليوم وكان قد علم بما كانوا فيه من الضيق والجوع . وهالك أسماء الارط التي شهدت تلك الواقعة وهي الارطة التاسعة بقيادة البكباشي لويد والعاشرة بقيادة البكباشي دن والثالثة عشرة بقيادة اليوزباشي كستر والطبجية بقيادة البكباشي رندل فضلاً عن القيادة الراكين والارطة الثانية من القيادة جاءت متأخرة وقال الذين شهدوا واقعة توشكي ان الارط السودانية عملت في ذلك اليوم أعمالاً عجيبة وبالغوا برغبتهم في الحرب حتى عصوا أوامر قوادهم لما دعوا الى الكف عنها والخلاص ان الواقعة المشار اليها لم تنقضى الا الساعة الثانية بعد الظهر من ذلك اليوم (٣ اغسطس سنة ١٨٨٩) . وبلغ عدد قتلى الدراويش ١٢٠٠ قتيل وزاد عدد امراهم على أربعة آلاف وفيهم النساء والاولاد فضلاً عن الاسلاب والاعلام والسيوف والرماح ولم يقتل من الجيش المصري الا ٢٥ وجرح ١٤٠

ووجد بين قتلى الدراويش اذ ذاك أعظم امراء تلك الحملة ما عدا عثمان الازرق وعلي ولد سعد وحسن النجومي وميرغني سوار الذهب وشيخ الايض فقد نجا هؤلاء بنحو الف واربعائة شريد وهم الذين استطاعوا الفرار من تلك الموقعة فقط . أما ولد النجومي فقد قتل وحز رأسه وحجى به الى السردار

فكان ذلك النصر ميسراً سر به المغفور له الخديوي الاسبق فبعث الى السردار يهنئه به لعله انه امثلة علمت التعايشي ما لم يكن يعلم . أما الذين قتلوا من الجنود المصرية فابتوا لهم مقاماً قرب مكان الواقعة ضموهم اليه وبنوا فوقه قبراً نقشوا فوقه باللغة العربية حفرأ على واجهة القبر كتابة هذا نصها

« شيد هذا الأثر تذكراً لواقعة توشكي التي حصلت في ٦ الحجة سنة ١٣٠٦ هـ وأنهم فيها جيش العصاة السوداني المرسل تحت امره عبد الرحمن ولد النجومي قسعتوا بعد قتل أميرهم وكان الجيش المصري تحت قيادة سعادة السردار غراقل باشا وفي هذا القبر دفنت جثث العساكر المصرية الذين استشهدوا وهم بالميدان » وبعد الواقعة سار الخديوي الاسبق في بعض رجال معيته لتفقد أحوال الحدود

فركب الى مكان الواقعة ووقف أمام قبر شهدائها يتأمل ما أظهره جنده من البسالة في ذلك القتال . وقد نشرنا رسمه رحمه الله واقعاً أمام ذلك القبر وقد أسند رأسه على كفه متأملاً (انظر الشكل ١٠٢)



ش ١٠٢ : توفيق باشا في توشكي

﴿ قحط عظيم ﴾ وكان خبر ذلك الانكسار صدمة قوية على الدراويش في أم درمان فصرفوا قدر أنفسهم ووقفوا عند حدم ولكنهم لم يكادوا يتخلصون من عواقب تلك الكسرة حتى دامهم قحط غلت فيه أمان الحنطة وقل الزاد واشتدت وطأة الجوع على الفقراء حتى أكلوا سيور الجلد التي يشدون بها مقاعدكم فكثرت النهب وازداد الضغط وكانت وطأة الجوع في الغالب أشد على المارين بأم درمان والقادمين إليها مما باهلهما حتى اتصلت الحاجة ببعضهم إلى بيع أولادهم بيع الرقيق اتقاداً لهم من الموت جوعاً . قال سلاتين « وكانت الجثث ملقاة في الشوارع والمنازل مئات وليس من يدفنها فاصدر التعايشي منشوراً قال فيه ان كل صاحب منزل مطالب بدفن الجثث التي تشاهد ملقاة قرب منزله فقلت الجثث على الشوارع ولكن بعضهم كانوا يحفرون حفراً بقرب المنازل يدفنونها بها تخلصاً من مشقة الحمل الى المدافن . وكانت مياه النيلين الازرق والايض تجري أمام ام درمان حاملة مئات من الجثث فارق أصحابها

الحياة على ضفاف النيل أو بالقرب منها فلقوها أهلهم أو أصحابهم فيه » وخلاصة القول ان الجوع أهلك من الدراويش أضعاف ما أبادته الحروب منذ ظهور المهدي الى ذلك اليوم . ورافق هذا الضيق جراد جارف أكل ما بقي من الزرع على ان التعايشي ما زال يث دعاة في سائر الانحاء لتأييد دعوته وكانت بقية من خط الاستواء لا تزال على ولاء الحكومة بقيادة أمين باشا فانفذت المانيا حملة بقيادة ستانلي الرحالة الشهير لانقاذ أمين باشا ففاست في سبيل ذلك مشقات جسيمة تمكنت



ش ١٠٣ : عبد الله التعايشي

بعدها من الخروج به وبعض الحامية فدخلت مديرية خط الاستواء بحوزة الدراويش ولم يبق للحكومة من السودان المصري الا سواكن وطوكر وقد فصلنا تاريخ التعايشي واصله وصفاته واخلاقه ومناقبه وحكومته وادارتها من حيث الجند والمالية والقضاء والبريد وسائر احوالها مطولاً في الجزء الاول من كتابنا تراجم مشاهير الشرق نكتفي منها هنا بوصف حكومته :

حكومة التعايشي وادارتها وأعمالها

١ - المالية

تسمى المالية عند الدراويش « بيت المال » أو هي بيوت المال يختص كل بيت منها بنوع من أنواع الدخل والخرج أهمها خمسة وهي : ١ بيت المال العمومي

- ٢ بيت مال الملازمين ٣ بيت مال الخليفة ٤ بيت مال ورشة الحرية
٥ بيت مال ضابطة السوق



ش ١٠٤ : خارطة الخرطوم وأم درمان في زمن النعمانيني

بيت المال العمومي : هو عبارة عن الخزانة العمومية لمملكة الدراويش
يجمع دخلها من المصادر الآتية : ١ الزكاة والفطرة ٢ الاسلاب والغنائم المكتسبة

- بالحرب ٣ العشور وهي ما يدفعه التجار على بضائعهم (المكس) ٤ ضريبة
الصمغ ٥ ضريبة القوارب ٦ قروض يعقدها بيت المال مع التجار ولا ينوي
دفعها ٧ ضرائب العبور في النيل من خفة الى اخرى (المعديات) ٨ غلة
الارض الواقعة غربي النيل الايض وشرقي النيل الازرق وهي تمتد جنوباً الى كركوح



ش ١٠٥ : عبد الله النعمانيني يقطع النيل ويجري رجاله على القتال

وفشوده وشمالاً الى حجر العسل ٩ معين يستولي عليه بيت المال العمومي من

بيوت المال الاخرى

أما نفقات بيت المال العمومي فهي : ١ نفقات نقل الجيوش ومؤنهم وذخائهم

الى المديرية والمقاطعات ٢ اعطيات الجند (رواتب الجهادية) ٣ رواتب المستخدمين ٤ الصدقات

﴿ بيت مال الملازمين ﴾ : ويراد به خزانة الملازمين وهم جند التعايشي الخصوصيين ومنهم حراسه ويأورانه . يجتمع دخل هذه الخزينة من محاصيل أرض الجزيرة (بين النيلين الأبيض والأزرق) وأما نفقاتها فمحصورة في رواتب الملازمين ﴿ بيت مال الخمس للخليفة ﴾ : وهو أشبه شيء بالخزينة الخاصة ودخله من المصادر الآتية : ١ معظم ما يفضل في خزائن المديرية بعد نفقاتها المعلومة ٢ محاصيل الجزائر الواقعة في النيل وفي جملتها جزيرة توتي تجاه الخرطوم ومحصول أرض الغنمية ومنها حلفاية وكلمين وكاتنا قبلا من أملاك الخاصة الخديوية ٤ عشر البضائع التي ترد من بربر الى أم درمان ٤ أثمان العبيد الذين يرسلون من المديرية ٥ محصول أكثر البواخر والسفن . أما خرج بيت مال الخليفة فمحصور في نفقات منزله الخصوصي

﴿ بيت مال ورشة الحرية ﴾ : ويشبه خزانة الحرية عندنا دخله من : ١ غلة جنائن الخرطوم ٢ محصول بعض السواقي بجوار الخرطوم ٣ العاج الوارد من خط الاستواء . وخرجه من : ١ نفقات البحرية ٢ نفقات الترسانة ويسمونها بيت الامانة ٣ استخراج ملح البارود وتفتيته ٤ نفقات معمل الاسلحة

﴿ بيت مال ضابطة السوق ﴾ : وهي خزانة الضابطة دخله من أموال السكيرين والمقامرين التي يحكم التعايشي بضبطها ومن ضريبة الحوانيت . وأما نفقاته فعلى ما يأتي : ١ رواتب الضابطة من الاقار والضباط ٢ نفقات بيت الضيافة وهو ليعقوب أخى عبد الله التعايشي ٣ نفقات بناء السور الكبير لام درمان . هذه هي أقسام المالية من الدخل والخرج أما المقادير التي تدخل وتخرج فلا يتيسر معرفتها

٢ — النقود والتجارة

لما قام المهدي بدعوته ووفق الى فتح المديرية استولى على خزائنها وأموال أهلها فكان ينفق مما وصل الى يديه من ذلك وهي النقود الدارجة في السودان على عهد الحكومة الميرية أهمها الريال الجيدي والريال أبو مدنع . فلما اتت مملكته وتقدت تلك الاموال أخذ في ضرب النقود باسمه أشار عليه بضربها احمد ولد سليمان فضرب نقوداً فضية شبيهة بالريال المصري نشرها رسمها وجزيئات شبيهة بالجزيئات المصرية . ولكنهم لم يكونوا يضبطون المقادير اللازمة من كل معدن منها . وكان الذهب قليلا

بين أيديهم فكفوا عن ضرب الجنيه وأكثروا من ضرب النقود الفضية فضربوا منها ضربات عديدة تعرف باسماء خاصة بها منها « ريال المهدي » وهذا أحسنها كلها ومنها « مقبول » و « أبو سدر » وكلاهما من ضرب القيرافوي . و « أبو كيس » وعليه رسم رحين متصاليين . و « العملة الجديدة » . على أنهم أخذوا ينقصون مقدار الفضة بالنسبة الى النحاس شيئاً فشيئاً حتى صارت نسبة الفضة الى النحاس كنسبة ٢ الى ٥ وكانت في بادئ الرأي ٧ الى ١ أي ان الريال كان يحتوي سبعة أجزاء من الفضة وجزءاً من النحاس وهو ريال المهدي فصار يحتوي جزئين من الفضة وخمسة من النحاس وذلك دليل على فقر السودان وفساد حكومته . على ان دار ضرب النقود كان يتخذها كبار الدراويش تجارة يكتسبون بها امولا طائلة لأنها تعطى حكراً أو ضمانة ومن قوانينها ان رأسها اثنان معاً يدفع الواحد منهما ستة آلاف ريال كل شهر وما يضر به من النقود يجب ان يكون مقبولا لدى التجار وغيرهم فاذا اعترض احد على صحتها أو تمنع عن قبولها فغلقه الجند أو سلب الاموال . فالريال صار يستبدله تجار أم درمان بثمانية ريالات من العملة الجديدة ويستبدلون الريال ابا مدنع بخمسة ريالات فاضطروا ملاقة لما يلحقهم من الخسارة بهذه المعاملة ان يرفعوا أثمان بضائعهم حتى بلغ ثمن شقة البقة الزرقاء التي يصطنعون منها ثياب النساء ستة ريالات وكان ثمنها على عهد الحكومة المصرية ثلاثة ارباع الريال . وأصبح رطل السكر (الرطل ١٤٤ درهماً) بريالين . ومن الغريب ان غلاء الاثمان قاصراً على البضائع الواردة من مصر أما ما يجلب من السودان فأثمنه بخمسة بالنسبة الى تلك فالجمل مثلا يساوي ستين ريالاً والبقرة مائة ريال وأردب الذرة ستة ريالات والخروف خمسة ريالات فأكثر

٣ — قواته

وأما قواته ومقدار ما كان عنده من الذخيرة والمؤونة قبيل ذهاب دولته فمعضلها من المشاة حملة السيوف والرمح وعددهم ٤٦٠٠٠ ومن الخيالة ٦٦٠٠ ومن العساكر الجهادية ٣٤٠٠٠ وجملة ذلك نحو مائة الف وخمسة آلاف مقاتل وعدد الاسلحة ٧٤ مدفعاً و ٤٠٣٥٠ بندقية هذه قوات التعايشي الرسمية ولكنها كانت تتضاعف بما ينضم اليها من القبائل القائمة بنصرته

٤ — القضاء

كان القضاء منوطاً عندهم بالقضاة وكبيرهم يسمى « قاضي الاسلام » وجميعهم آلات صماء بيد التعايشي فلا يصدر عن حكم الا كما يوحى به اليهم ما خلا القضايا

الطيفة من الاحوال الشخصية وما شاكلها فقضاة الدراويش هذا الاعتبار بين جاذبين قوين ضميرهم والاحكام الشرعية من جهة وارادة التعايشي من جهة أخرى وهالك أسما قضاة أم درمان عام ١٨٩٥

- | | |
|-----------------------|-------------------|
| (١) حسين ولد زهرة | من قبيلة الجمالين |
| (٢) سليمان ولد الحجاز | » » الحجاب |
| (٣) حسين ولد قيسو | » » الحمر |
| (٤) احمد ولد حمدان | » » العراقيين |
| (٥) عثمان ولد احمد | » » البطاحين |

(٦) عبد القادر ولد أم مريم وكان قاضي كلا كلا على عهد الحكومة المصرية

(٧) محمد ولد المفتي وهو قاضي المواد الجزئية بين الملازمين

وهناك قضاة آخرون للقبائل الغربية اذا حضروا الجلسة لا يصدررون حكماً بل يبدون رأيهم . أما شيخ الاسلام فهو حسين ولد زهرة المتقدم ذكره اول القضاة تلقى الفقه في مدرسة الجامع الازهر وهو أعلم أهل السودان كافة مع الميل الى العدالة وكثيراً ما أصدر أحكاماً تنطبق على مقتضى الشريعة الغراء وتخالف ارادة التعايشي فاصبح التعايشي غير راض عنه تمام الرضى وقلما يدعوه لحضور الجلسات وأساس الاحكام عندهم الشريعة الاسلامية وتعاليم المهدي التي أشرنا اليها في كلامنا عن أوصاف المهدي وتعاليمه ويرغمون ان هذه التعاليم انما وضعها المهدي لاهياء ما كاد يندثر من احكام الشريعة الغراء بالاهمال . وأهم تلك التعاليم الاعتقاد بأن محمد احمد هو المهدي المنتظر حقيقة ومن شك في ذلك فمقابله القتل

وواجبات قاضي الملازمين الحكم فيما يعرض بين الملازمين أو بينهم وبين عامة الناس وفي الحالة الثانية فالحق دائماً في جانب الملازمين . وهناك قاضيان ملحقان ببيت المال ينظران في القضايا المتعلقة بالاحكام الشرعية من جهة بيع الرقيق وشراؤه . وعندهم قاض يقيم في السوق ليحكم في الامور الطفيفة التي تعرض هناك

فتح أم درمان وذهاب دولة الدراويش

تلك حال حكومة الدراويش سنة ١٨٩٦ ثم توالى عليها التحس وجندت الحكومتان المصرية والانكليزية لغرها بحملة مختلطة من الانكليز والمصريين بقيادة السردار كتشر باشا وجرت في أثناء الطريق من حلفا الى الخرطوم وقائع قاسى فيها الجند مشاق عديدة من حملتها واقعة الاتربة وفيها قبضوا على الامير محمود ابن عم

التعايشي وقيد أسيراً كما ترى في الشكل ١٠٧ مع نحو ٢٠٠٠ من رجاله وما كان معهم من الغنائم . واستعد السردار من هناك للزحف على أم درمان وبلغ التعايشي ذلك فجمع ذوي شوره فاشار عليه بعضهم بالهجرة فغضب وأمر بضرب ذلك الناصح وقال « اني محارب حتى اقتل » وأمر بالتحصين وبناء الطوابي لاتقاء نيران مدافع العدو التي ستطلق عليهم من النيل . ولم يجده ذلك نقعاً فان الجيود المتحدة وصلت أم درمان في ٢ سبتمبر سنة ١٨٩٨ وخرج التعايشي لملاقاتها



ش ١٠٦ : كتشر باشا بعد فتح أم درمان

وبعد ثلاث هجمات متوالية اضطر التعايشي للفرار بعد أن يئس من الفوز وبعق ان أخاه يعقوب قد مات . واحتل الجند المتحد أم درمان ورفعوا عليها الرايتين المصرية والانكليزية ولما علم السردار بفراره بعث في أثره كوكبة من السواري ومعهم سلاتين باشا برّاً وأرسل مدرعتين بحراً فعدوا ولم يدركوه

وفي اليوم التالي استولوا على أوراق الخليفة وكتبه من يته . وأمر السردار

بنفس قبة المهدي ونش قبره وبعثت الجمجمة الى معرض التحف في لندن وبعثت سائر عظامه . ثم قصدوا بيت يعقوب أخى الخليفة وكانوا يظنون المال فيه فلم يجدوا شيئاً وتحققوا بعدئذ ان بعض رجال يعقوب لما تحققوا موته اتوا وخلعوا الابواب وأخذوا الاموال . ثم ذهبوا الى بيت المال فلم يجدوا فيه ما يستحق الذكر إلا ٢٠٠



ش ١٠٧ : الأمير محمود ابن عم التمايشي وهو اسير

قطار عاج . ثم ذهبوا الى سجن الخليفة واطلقوا من كان فيه من المساجين وكلهم من موظفي الحكومة وعددهم نحو ١٤٠٠ رجل بين ملكي وعسكري وبعد قليل نزل السردار كتش باشا الى مصر ونال على هذا الفتح مكافأة جزيلة وسمي لورد الخرطوم وورقي الكولونيل ونجت بك مدير قلم الخبايا الى رتبة لواء وسمي ادجوتانت جنرال للجيش المصري . وحاولوا القبض على التمايشي عبثاً وكانوا

كثا طلبوه من مكان فرأى الى سواء حتى علم ونجت باشا في أواخر سنة ١٨٩٩ ان التمايشي يتحضر للهجوم على أم درمان وعلم بمكانه فحمل عليه وحاربه في جديد حتى قتل في ٢٤ نوفمبر من تلك السنة وقتل معه الخليفة علي ود حلو واحمد فضيل والسنوسي احمد اخو الخليفة من أمه وهارون محمد أخوه وغيرهم وغنموا ما كان معهم من الذخيرة والاموال وانقضت بذلك دولة الدراويش

وصارت السودان من ذلك الحين تحت سيطرة الدولتين الانكليزية والمصرية وسندكر نص الوقا في كلامنا عن ولاية سمو الخديوي عباس الثاني

عود الى ولاية توفيق باشا

قد فرغنا من الكلام على الحوادث السودانية الى آخرها وان تجاوزنا زمن الخديوي توفيق باشا رغبة في ترابط الحوادث . فلتعد الى ما كان من أحوال مصر بعدما ذكرناه على أثر الحوادث العرايية ونفي العرايين فتقول :

أول شيء باشرته انكلترا بعد قهر العرايين واعادة السيادة الى الجناح الخديوي انها انقضت اللورد دوفرين معتمداً من قباها لتسوية المسائل المصرية وتنظيم تقرير بشأنها ولم يكن ذلك برضا الباب العالي . وأخذ اللورد دوفرين منذ وصوله الى القاهرة يجتمع بالخديوي والوزراء ويتداول معهم في المسائل التي يجب النظر فيها بعد أن درس أحوال البلاد وبحت بنفسه عن الامور التي كان عازماً على وضعها . ثم حرر تقريره المشهور وأرسله الى لندن في ٦ فبراير سنة ١٨٨٣ م بحث فيه بحثاً دقيقاً في حالة مصر السياسية والقضائية والمالية ودقق على الخصوص بديون الفلاحين . ثم شرع الانكليز في الغاء المراقبة الانكليزية الفرنسية للانفراد بالعمل فكبر ذلك على فرنسا ولكنها لم تستطع أمراً يمنع الغاءها فالفيت وجعل في مكانها بأمر الحضرة الخديوية موظف مصري دعوه مستشاراً مالياً وله الحق أن يحضر في جلسات مجلس النظار فتعين السير اوكلاند كولفن في هذا المنصب

اصلاحات جديدة

وفي أول مايو سنة ١٨٨٣ صدر الامر العالي بتشكيل المجالس الجديدة وغيرها على هذه الصورة :

١ مجالس المديرية : مجلس في كل مديرية ويكون لها أن تقرر رسوماً فوق

العادة لصرفها في منافع عمومية تتعلق بالمديرية إنما لا تكون قراراتها في هذا الشأن قطعية الا بعد تصديق الحكومة عليها

٢ مجلس شورى القوانين : وفائدته النظر في القوانين التي تسن حديثاً قبل نشرها ولا يجوز اصدار قانون أو امر يشتمل على لائحة ادارة عمومية ما لم يتقدم ابتداءً الى هذا المجلس لاخذ رأيه فيه . وان لم تعول الحكومة على رأيه فعليها ان تعلنه بالاسباب التي اوجبت ذلك إنما لا يترتب على اعلانه بهذه الاسباب جواز مناقشة فيها



ش ١٠٨ : اللورد دوفرين

٣ الجمعية العمومية : وهذه لا يجوز ربط أموال جديدة أو رسوم على منقولات أو عقارات أو عوائد شخصية في القطر المصري إلا بعد مباحثة الجمعية العمومية في ذلك واقرارها عليه

٤ مجلس شورى الحكومة : صدر الامر بتشكيله وتأجيل بيان أعماله ثم شرعت الحكومة في تنظيم الجيش المصري الجديد بعد ما ألغت الجيش القديم على ما تقدم فانتخبت من الضباط من لم يكن له يد في الحوادث العارضة وأخذت بعد

ذلك في تنظيم الجندرية والبوليس وجعلت السير افلن وود قائداً عاماً للجيش المصري وباكر باشا قائداً للجندرية والبوليس فكان عدد الجندرية ٢٠٠٠ فارس و ٣٠٠٠ ماش . ثم عين الجزال السير افلن وود سرداراً للجيش المصري ورئيساً لاركان حربه . فاختار لمساعدته عدداً من الضباط الانكليز جعلهم في اركان حربه وعهد اليهم قيادة الفرق لتعليمها الحركات العسكرية

ثم نظمت المجالس المحلية ووضع لها قوانين عادلة وعين لها رجال يقضون على أزمته وقد انصرف اليها هم اللورد دوفرين فتشكلت لجنة تحت رئاسة نخري باشا لانتقاء اللاتقيين الذين يجب انتخابهم ليعهد اليهم بالعمل والادارة . واهم مجلس النظر في مسألة القضاة الاوربيين فقررت لجنة التعديل أن يكون في كل مجلس ابتدائي أوريان وفي الاستثنائي أربعة . وفي ٨ شعبان سنة ١٣٠٠ هـ (١٤ يونيو سنة ١٨٨٣ م) صدر الامر الحديوي بترتيب هذه الحاكم ولائحة قوانينها . ثم صدر الامر الحديوي بكل من القانون المدني والتجارة البرية والبحرية والمرافعات وتحقيق الجنايات

ثم أشارت انكلترا على مصر بعد تبديد جيش هيكس باشا باخلاء السودان . فقبلت ولم يقبل شريف باشا رئيس وزارتها فاستعفى وخلفه نوبار باشا في ٨ يناير سنة ١٨٨٤ وتكاثرت الاشاعات على أثر ذلك عن مقاصد انكلترا بمصر وكثر القيل والقال حتى بين رجال انكلترا أنفسهم . ثم عقد مؤتمر دولي في يونيو سنة ١٨٨٤ في لندن تحت رئاسة اللورد غرافيل ناظر خارجية انكلترا للبحث في أمور كثيرة تتعلق بمصر فقرر تعديلات كثيرة انتهت بلا نتيجة فلا حاجة الى ذكرها

وفي ذي القعدة سنة ١٣٠١ هـ (اوائل سبتمبر سنة ١٨٨٤ م) وفد على القطر المصري اللورد نورثبروك معتمداً من انكلترا للنظر في المسألة المالية وأحوال الادارة الداخلية مستصحباً معه القاضي الهندي سميع الله خان بناءً على رغبة اللورد في انتخاب قاض مسلم يصحبه الى مصر ويكون شريكاً له في هذه المهمة فتحدث الناس كثيراً بسبب قدوم هذا المعتمد . أما هو فأخذ في ملاحظة ما أتى من أجله وطاف البلاد شمالاً وجنوباً . وبعد ان قضى أياماً طوالاً عاد الى بلاده وحرر تقريراً رفعه الى حكومته فلم يحز قبولا فنسجت عليه غناكب النسيان

وعاد الباب العالي الى الاحتجاج على الاحتلال الانكليزي وبعد المخاطرة مع انكلترا تم الاتفاق في اكتوبر سنة ١٨٨٥ م على ارسال مختار باشا الغازي معتمداً عن الدولة العلية في مصر وان ترسل انكلترا معه معتمداً اسمه السير وولف ، فجاء مختار



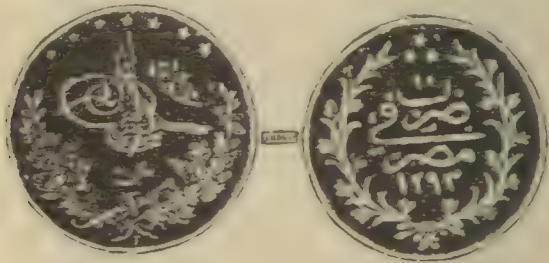
ش ١٠٩ : مختار باشا الغازي

باشا وما زال مقيماً الى عهد قريب احتجاجاً حياً على الاحتلال الانكليزي

النقود المصرية الجديدة

ثم اهتمت الحكومة باصلاح نقودها بانشاء نقود جديدة وما زالت المسألة تحت البحث الى اواخر سنة ١٨٨٥ م فصدر أمر عال بتاريخ ٧ صفر سنة ١٣٠٣ هـ أو ١٤ نوفمبر سنة ١٨٨٥ م مؤذن بضررها . وفي اواخر سنة ١٨٨٧ م ظهرت وتداولها الايدي وهي مبنية على حساب الكور العشرية تسهلاً للعمالة . وكيفية ذلك انهم جعلوا قيمة الجنيه المصري مائة قرش كما كان قبلاً وقسموه الى الف جزء دعوا الواحد منها ملياً أي جزء من الف . فالمليم هو جزء من الف من الجنيه المصري والقرش عشرة مليات والريال مائتا مليم (عشرون قرشاً) وهكذا . والجنيه وأجزاؤه مصنوعة من الذهب والريالات وأجزاؤها من الفضة والمليم ومركباته الى أبي العشر مليات من النيكل . وقسموا المليم الى نصفين يعرف الواحد منهما بنصف عشر القرش وقسموا كلا من هذين القسمين الى نصفين يعرف الواحد منهما بربع عشر القرش

أي جزء من أربعين من القرش وهي البارة وجميع أجزاء المليم مصنوعة من النحاس وترى في شكل ١١٠ مثال النقود المضروبة حديثاً وهذه القطعة تعرف بنصف ريال وقيمتها عشرة قروش أو مائة مليم . وترى على أحد وجهيها من الاسفل تاريخ سنة ١٢٩٣ هـ وهي السنة التي تولى بها السلطان عبد الحميد الخلافة العثمانية . ومن الاعلى رقم عشرة وهي السنة العاشرة من توليته وفيها ضربت هذه النقود . وترى على الوجه الآخر الطغراء العثمانية باسم عبد الحميد والى أسفلها رقم عشرة تحت حرف ش للدلالة على قيمة هذه القطعة أي عشرة قروش



ش ١١٠ : النقود المصرية الجديدة

أما قيم النقود الاجنبية بالنسبة للنقود المصرية فعلى الوجه الآتي :

الليرة الانكليزية تساوي	بارة	قروش صاغ	أو ملياً
٢٠	٩٧	٩٧٥	
» العثمانية »	٣٠	٨٧	٨٧٧ ١/٢
» الفرنسية (فاني)	٠٦	٧٧	٧٧١ ١/٢

ومتى عرفت قيم الليرات يمكنك استخراج قيم اجزائها وفي السنة التالية (١٥ ابريل سنة ١٨٨٦) قررت الحكومة المصرية اقتضاء ضرائب المنازل من الاجانب كما كانت تقتضيها من الوطنيين . وكان الاجانب معفين منها الى ذلك الحين

وهو شأن الجلاء

وفي ١٧ ربيع آخر سنة ١٣٠٤ هـ أو ١٣ يناير سنة ١٨٨٧ م الخ الباب العالي على الحكومة الانكليزية أن تعين زمن انجلاء جيوشها عن القطر المصري . فأجابت أنها لا يمكنها ذلك إلا متى استتب النظام فيها . وفي ٣ فبراير تقرر أن يكون جيش الاحتلال منحصراً في ثلاثة مراكز فيقيم في القاهرة ٢٩٠٠ جندي وفي الاسكندرية

٩٠٠ وفي اصوان ٤٠٠٠ وفي ١٥ جمادى الاولى أو ٩ فبراير اقترح السير وولف معتمد انكلترا في الاستانة على الباب العالي الاقتراحات الآتية بما يتعلق بمصر وهي :

- ١ استقلال مصر تحت سيادة جلالة السلطان والغاء العهود والامتيازات القنصلية
 - ٢ ان تكون عمالة مصر من قبيل الحياض على مثال حالة بلجيكا
 - ٣ حرية المرور في قناة السويس في زمني الحرب والسلم
 - ٤ اخلاء انكلترا للقطر المصري بعد ان يجمع الدول على وجوب ذلك
- فتلقى جلالة السلطان هذه الاقتراحات بفتور وطلب أن يتقدم كل ذلك تحديد انكلترا زمن الجلاء . وبعد النظر في هذه الاقتراحات مدة يومين رفضت وفي ٢٥ رجب سنة ١٣٠٤ هـ أو ١٩ ابريل سنة ١٨٨٢ م توفي شريف باشا رئيس مجلس النظار سابقاً وهو في أوروبا يسعى في ترويح النفس فاسف الجميع على فقده وحملت جثته الى مصر ودفنت فيها

وفي ١١ شعبان أو ٥ مايو منها عرضت انكلترا على الباب العالي أن يكون زمن احتلالها لمصر خمس سنوات فطلب الباب العالي أن يكون ثلاث سنوات ولم يتقرر شيء . وفي أوائل يونيو عرض على الباب العالي وفاق بينه وبين انكلترا بشأن مصر وهالك نصه :

- ١ تبقى مصر كما هي حسب نصوص فرمانات السلطانية
- ٢ يبقى خليج السويس على الحياد وتضمن الدول سلامة مصر
- ٣ تبقى العساكر الانكليزية في مصر مدة ٣ سنوات وعند انقضائها يلبث الضباط الانكليز في رئاسة الجيش المصري سنتين
- ٤ لا تخرج انكلترا عساكرها من مصر بعد ختام السنة الثالثة من التوقيع على الوفاق اذا حدث اضطراب جديد في مصر داخلياً أم خارجياً
- ٥ يحق لانكلترا احتلال مصر بمساعدة العساكر العثمانية اذا وقع احتلال بها أو خشي ان ترسل دولة أجنبية عساكرها الى مصر
- ٦ تستدعي الدولة العلية وانكلترا بقية الدول للتصديق على هذا الوفاق وتطلبان من الدولة اجراء بعض التعديلات في المعاهدات الدولية الخولة للاجانب في مصر جملة امتيازات

وبعد المحابر الطويلة بشأن هذا الوفاق رفض الباب العالي المصادقة عليه وفي ٩ يونيو سنة ١٨٨٨ سقطت الوزارة النوبارية وعهد الخديوي بتشكيل وزارة

جديدة الى رياض باشا والناس ما فتئوا منذ اعتزال رياض باشا الاعمال بعد حادثة عرابي يشخصون اليه بابصارهم وقد أحاطت به آمالهم لما اشتهر به من الحب للشعب المصري ورغبته في اصلاح البلاد ولما له من الولع الخاص بالزراعة وهو مشهور بذلك شهرة تضاهي شهرته في حب العلم وتنشيط ذويه . ومن مبادئه حرية الضمير والصرامة في اتباع الحق من حيث هو . وكثيراً ما قاده ذلك الى التنجي عن قبول منصب الوزارة في الاحوال التي كان يخشى معها تقييد أفكاره ومخالفة مبادئه . فعندما سقطت الوزارة النوبارية لم يكن الناس يصدقون أن رياض باشا يقبل أن يشكل وزارة جديدة . فلما أنعم البرق بحلوه على دستها وتقلده أعمال نظارتي الداخلية والمالية كادوا يطرون على أجنحة الآمال وتطاوالت أعناقهم استطلاعاً لما سيكون من أمر هذه الوزارة الجديدة

وفي أيام وزارته أنشئت الحاكم في الصعيد وتم ترميم القناطر الخيرية . وقد ادار شؤون الحكومة بحزم وصدق نية لكنه اغضب كثيرين واضطر الى الاستقالة في ٢٤ مايو سنة ١٨٩١ خلفه مصطفى باشا فهمي وظلت مقبالات الوزارة في قبضته حتى تولى الخديوي

عباس باشا حلمي

الخديوي السابق

ولد سنة ١٨٧٤ وتولى العرش الخديوي سنة ١٨٩٢

حياته الشخصية

هو بكر الخديوي الاسبق وُلد في ١٤ يوليو سنة ١٨٧٤ ولما توفي والده سنة ١٨٩٢ كان سموه أعزه الله في مدرسة فينا . وكان قبل ذهابه اليها قد تنقف في مدرسة عابدين التي شادها والده له وللدولة شقيقه البرنس محمد علي . فلما أتما دروسها فيها أرسلها والدها الى مدرسة جنيف بسويسرا فمكث فيها مدة يجد أن في تحصيل العلوم . ثم برحها الى فينا وانتظا في مدرستها الملكية العليا . وفي أثناء إقامتها في تلك المدرسة استأذنا والدها المرحوم بالتجول في أنحاء أوروبا لاستطلاع أحوال تلك المدينة من مصادرها . فزارا ألمانيا وانكلترا وروسيا وإيطاليا وفرنسا ولقيا من ملوك هذه الممالك رحاباً حسناً وزارا الممالك الاخرى

وفي سنة ١٨٨٩ عادا الى مصر واستأذنا والدها المرحوم في زيارة معرض باريس لذلك العام فأجابهما الى ذلك فلقيا هناك رحاباً جميلاً وعادا الى المدرسة . وفي سنة

١٨٩١ عاد إلى مصر في أثناء راحة المدرسة ثم رجعا إلى المدرسة في فينا . وفي ٨ يناير من السنة التالية عام ١٨٩٢ جاءها النبا البرقي ب وفاة الخديوي السابق ف أصبح سموه أكبرها مولانا الأمير خديوياً على مصر من ذلك اليوم . ثم جاءت رسالة الصدر الأعظم بتعيينه على ذلك العرش فأسرع إلى مقر حكومته فوصل الإسكندرية في ١٦ يناير المذكور فاحتفل القطر بقدمه احتفالاً يليق بمقامه



ش ١١١ : عباس باشا حلمي الخديوي السابق

واشتهر سمو الخديوي بانعطاف المصريين إليه أكثر مما إلى كل خديو سواه لما يلاقونه من دعته ولطفه وصدق محبته لهم . ويمتاز عصره عن عصور سائر أسلافه بهضة الأقاليم واتساع نطاق الحكومة وإطلاق حرية المطبوعات وتكاثر المطابع والجرائد والمجلات والمكاتب وسائر عوامل النهضة العلمية

وهو أوسع الخديويين اطلاعاً على أسباب المدنية الحديثة لأنه تنقف في مدارس أوروبا مع كثرة أسفاره إليها وإلى الأستانة . ولد ولي عهد البرنس محمد عبد المنعم

في ٢٠ فبراير سنة ١٨٩٩ وقد عهد بتعليمه وتثقيفه إلى شكري باشا وهو من أحسن العارفين بما يقتضيه منصب أمير مصر من الأصول والقواعد التي يجب أن يروض بها ولي العهد

وقد سافر سموه إلى الحرمين سنة ١٣٢٧ هـ (١٩٠٩) لقضاء فريضة الحج فبرح موكبه القاهرة في ٢٩ ذي القعدة سنة ١٣٢٧ (١١ ديسمبر سنة ١٩٠٩) فوصل جدة في ١٤ ديسمبر وحلت ركابه في مكة فزار مناسك الحج وأدى فرائضه وكان موضوع الاحترام والاعجاب حينما حل ثم يم المدينة قادی الزيارة وبرحها في ١٥ يناير سنة ١٩١٠ فوصل مصر في ٢٥ منه فزينت له العاصمة زينة لم يسبق لها مثيل

الوزارات في أيامه

وقد تقلب في أيام سموه وزراء هذه أسماء رؤسائها وتاريخ تشكيلها :

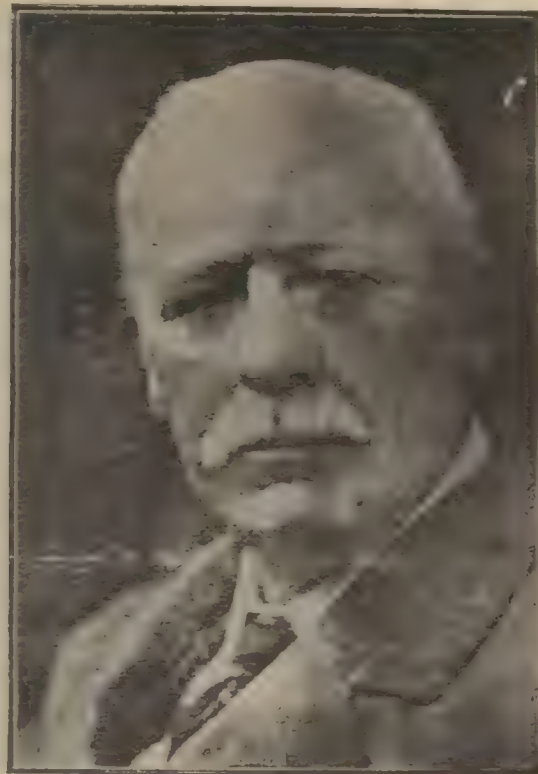
وزارة مصطفى باشا فهمي تشكلت	في ١٤ مايو سنة ١٨٩١
» رياض باشا »	» ١٨ يناير » ١٨٩٣
وزارة نوبار باشا تشكلت	في ١٤ أبريل سنة ١٨٩٤
» مصطفى باشا فهمي »	» ١١ نوفمبر » ١٨٩٥
» بطرس باشا غالي »	» ١٠ » » ١٩٠٨ (١)
» محمد سعيد باشا »	» ٢١ فبراير » ١٩١٠

وكل ما أجرته حكومة مصر على عهد الجنب الخديوي إنما جرى على أيدي وزرائه شأن الحكومات الدستورية الكبرى مع ما تقتضيه حالة مصر السياسية من قبول مشورة المحتلين بلسان عميدهم . وكان العميد في أول حكم سمو الخديوي اللورد كرومر

وما زال اللورد كرومر في هذا المنصب إلى ٦ مايو سنة ١٩٠٧ فأبدلته أنكلترا بالسير الدون غورست . وفي زمن اللورد كرومر تمكن نفوذ الانكليز في مصر وكثر نوابهم في الحكومة المصرية وهم المستشارون . ولا تخلو نظارة من مستشار أو وكيل فضلاً عن المفتشين والمهندسين والقضاة ورؤساء المصالح ومديريها وغيرهم . فاعمال الحكومة المصرية يجرها الوزراء باسم الجنب الخديوي وبمصادقة سموه ومشورة

(١) يمتاز تاريخ بطرس باشا غالي عن تواريخ سائر وزراء مصر انه مات مقتولاً عمداً بيد شاب اسمه ابراهيم الورداني تربس له وهو خرج من النظارة في رابطة النهار وأطلق عليه عدة رصاصات مات على أثرها ثم حوكم القاتل وقتل

الانكليز. وتسليلاً لتفهم الاعمال التي تمت على عهد سموه قسمها الى أبواب تبحث في كل منها على حدة فنقول :



ش ١١٢ : المنور كرومر

١ - الاعمال السياسية

نريد بهذا الباب ذكر ما جرى في زمن الختاب الخديوي مما يتعلق بالدول الاخرى وليس هو من قبيل ادارة البلاد الداخلية . وأول تلك الاعمال تحديد تخوم مصر في فرمان الشاهاني . فقد صدر فرمان المذكور في ٢٧ شعبان سنة ١٣٠٩ أو ٢٦ مارس ١٨٩٢ وفيه اختلاف عن فرمان الصادر للرحوم توفيق الخديوي الاسبق من حيث حدود مصر الشرقية عند شبه جزيرة سيناء . فدارت المخابرات بين وزارة خارجية انكلترا والباب العالي بهذا الشأن حتى أصدر الصدر الاعظم ملحقاً تلغرافياً بخوف الحكومة المصرية فيه ادارة شبه جزيرة سيناء مؤرخاً في ٨ ابريل من تلك السنة . وهذا نص فرمان المذكور بعد المقدمة

فرمان الخديوي السابق

« وانه لدى وصول توقيعنا الهاديوني الرفيع يكون معلوماً لكم أنه بناء على ما قضى به الله من انتقال جنتم كان محمد توفيق باشا خديوي مصر الى رحمة تعالى واعلاماً بجليل التفاتنا ونظراً الى حسن خداتكم وصدائقكم واستقامتكم لذاتنا الشاهانية ولنافع دولتنا العلية ولما هو معلوم لدينا من ان لكم وقوفاً ومعلومات تامة بخصوص الاحوال المصرية وانكم كفء لاصلاحها وجهنا الى عهدتكم الخديوية المصرية اخذودة بالحدود القديمة المينة في فرمان الشاهاني الصادر بتاريخ ٢ ربيع الثاني سنة ١٢٥٧ هـ والمينة أيضاً في الخريطة الملحقة بالفرمان المذكور مع الاراضي المنضمة اليها طبقاً للفرمان الشاهاني الصادر بتاريخ ١٥ ذي الحجة سنة ١٢٨١ هـ وذلك بمقتضى ارادتنا الشاهانية الصادر في ٧ جمادى الثانية سنة ١٣٠٩ هـ ولانكم اكبر اولاد جنتم كان الخديوي المتوفى وجهت الى عهدتكم الخديوية المصرية بوفيقاً للقاعدة المقررة بالفرمان الشاهاني الصادر في ١٢ محرم سنة ١٢٨٣ هـ القاضي بأن الخديوية المصرية تؤول الى اكبر الاولاد البكر فالبكر

« ولما كان زياد عمران الخديوية المصرية وسعادتها وتأمين راحة اهليها ورقاهتهم هي من المواد المهمة لدينا . ومن أجل مرغوبنا ومطلوبنا كنا وجهنا فرماناً شاهانياً لتحقيق هذه الغاية الحميدة بتاريخ ١٩ شعبان سنة ١٢٩٦ هـ الى جنتم كان والدكم بتوليته الخديوية المصرية وضمناه المواد الآتية :

« ان جميع ايرادات الخديوية المصرية يكون تحصيلها واستيفؤها باسمنا الشاهاني وحيث ان اهالي مصر أيضاً من تبعه دولتنا العلية وان الخديوية المصرية ملزمة بادارة أمور المملكة الملكية والمالية والعديلية بشرط أن لا يقع في حقهم أدنى ظلم ولا تعدر في وقت من الاوقات . خديوي مصر يكون مأذوناً بوضع التنظيمات اللازمة الداخلية المتعلقة بهم وتأسيسها بصورة عادلة . وأيضاً يكون خديوي مصر مأذوناً بتعدي وتجديد المشارطات مع مأموري الدول الاجنبية بخصوص الجرك والتجارة وكافة أمور المملكة الداخلية لاجل ترقى الحرف والصنائع والتجارة واتساعها ولاجل تسوية المعاملات السائرة التي بين الحكومة والاجانب أو الاهالي والاجانب مع امور ضابطة الاجانب بشرط عدم وقوع خلل بمعاهدات دولتنا العلية البوليتيقية وفي حقوق متبوعة مصر لها ولكن قبل اعلان الخديوية المشارطات التي تعقد مع الاجانب بهذه الصورة يصير تقديمها الى بابنا العالي . وأيضاً يكون حائزاً للتصرفات الكاملة في أمور المالية لكنه

لا يكون مأذوناً بقصد استقراض بوجه من الوجوه . وأما يكون مأذوناً بقصد استقراض بالاتفاق مع المداينين الحاضرين أو وكلائهم الذين يتعينون رسمياً وهذا الاستقراض يكون منحصراً في تسوية أحوال المالية الحاضرة وخصوصاً بها . وحيث أن الامتيازات التي أعطيت لمصر هي جزء من حقوق دولتنا العلية الطبيعية التي خصت بها الخديوية وأودعت لديها فلا يجوز لأي سبب أو وسيلة ترك هذه الامتيازات جميعها أو بعضها أو ترك قطعة أرض من الأراضي المصرية للغير مطلقاً ويلزم تأدية مبلغ ٧٥٠ ألف ليرة عثمانية الذي هو الوريث المقرر دفعه في كل سنة في أوانه . وكذلك جميع النقود التي تضرب في مصر تكون باسمنا الشاهاني ولا يجوز جمع عساكر زيادة عن ثمانية عشر ألفاً لأن هذا القدر كاف لحفظ أمانة بلاد مصر الداخلية في وقت الصلح . ولكن حيث أن قوة مصر البرية والبحرية مرتبة كذلك من أجل دولتنا يجوز أن يزداد مقدار العساكر بالصورة التي تستدعي فيها حالة دولتنا العلية محاربة وتكون رايات العساكر البرية والبحرية والعلامات المميزات لرتب ضباطهم كرايات عساكرنا الشاهانية ونباشينهم . ويباح لخديو مصر أن يعطي الضباط البرية والبحرية إلى غاية رتبة أميرالاي والملكية إلى الرتبة الثانية . ولا يرخص لخديوي مصر أن ينشئ سقناً مدرعة إلا بعد الاذن وحصول رخصة صريحة قطعية إليه من دولتنا العلية . ومن اللزوم المحافظة على كل الشروط السالفة الذكر واجتناب وقوع حركة تخالفها وحيث صدرت ارادتنا السنية بأجراء المواد السابق ذكرها قد أصدرنا أمراً هذا الجليل القدو الموشخ أعلاه بخطنا الجاهوني وأرسلناه »

« مخرراً في ٢٧ شعبان سنة ١٣٠٩ من هجرة صاحب العزة والشرف »

وهذا تلافيف الصدر الاعظم المتم له :

« معلوم لدى جنابكم العالي أن جلالة مولانا السلطان الاعظم كان قد صرح للحكومة المصرية بوضع عدد كاف من الجند بمجهاث الوجه والمويلح وطابا والعقبة الواقعة على شواطئ الحجاز . وكذلك في بعض جهات من شبه جزيرة طور سيناء بسبب مرور الحمل المصري من طريق البر »

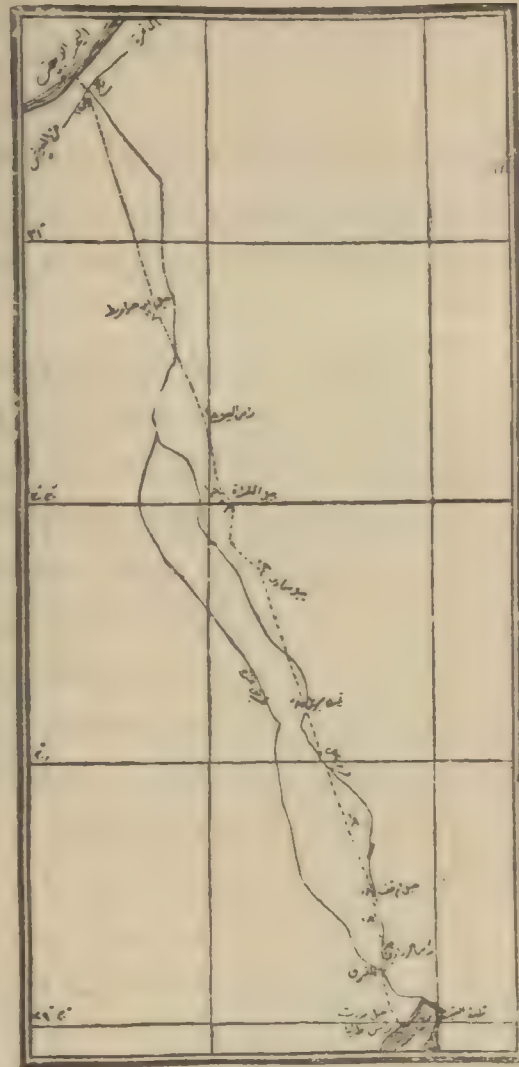
« ولما كانت جميع هذه الجهات غير مهيئة أصلاً في خريطة سنة ١٢٥٧ هـ المسلمة إلى جنتم كان محمد علي باشا المينة بها الحدود المصرية لذلك أعيد الوجه أخيراً إلى ولاية الحجاز بمقتضى ارادة شاهانية كما أعيد إليها طابا والمويلح وضمت العقبة كذلك الآن إلى الولاية المذكورة . أما من جهة شبه جزيرة طور سيناء فهي باقية على حالها وتكون

ادارتها بمعرفة الخديوية المصرية بالكيفية التي كانت مدارة بها في عهد جدكم اسماعيل باشا ووالدكم محمد توفيق باشا » اهـ

حدود مصر من الشرق

ثم وقع خلاف في أواخر سنة ١٩٠٦ على تلك الحدود الفاصلة بين مصر والشام وبعد مداوالات طويلة بين مصر والباب العالي اتفق الجانبان على تعيين لجنة ينتدبها الباب العالي وأخرى تنتدبها مصر . وقد انتخبت اللجنتان واجتمعتا على الحدود وأقرتا على اتفاقية رسمية مؤرخة في أول أكتوبر سنة ١٩٠٦ وهذا نص موادها المتعلقة بالحدود وصورة الخريطة التي رسمت لايضاح ذلك :

المادة الاولى — يبدأ الخط الفاصل الإداري كما هو مبين بالخريطة المرفقة بهذه الاتفاقية من نقطة رأس طابا السكاثة على الساحل الغربي لخليج العقبة ويمتد إلى قمة جبل فورت ماراً على رؤوس جبال طابا الشرقية المطلّة على وادي طابا ثم من قمة جبل فورت يتجه الخط الفاصل بالاستقامات الآتية — من جبل فورت إلى نقطة لا تتجاوز مائتي متر إلى الشرق من قمة جبل فتحي باشا ومنها إلى النقطة الحادثة من تلاقي امتداد هذا الخط بالعمود المقام من نقطة على مائتي متر من قمة جبل فتحي باشا على الخط الذي يربط مركز تلك القمة بنقطة الفرق (الفرق هو ملتقى طريق غزّة إلى العقبة بطريق نخل إلى العقبة) ومن نقطة التلاقي المذكورة إلى النلة التي إلى الشرق من مكان ماء يعرف بتبيلة الرادادي والمطلّة على التلمية (بحيث تبقى التلمية غربي الخط) — ومن هناك — إلى قمة رأس الرادادي المدلول عليها بالخريطة المذكورة أعلاه بـ ٣ أ — ومن هناك إلى رأس جبل الصفرة المدلول عليه بـ ٤ أ — ومن هناك إلى رأس القمة الشرقية لجبل ام قف المدلول عليها بـ ٥ أ — ومن هناك إلى نقطة مدلول عليها بـ ٧ أ إلى الشمال من تلمية سويله ومنها إلى نقطة مدلول عليها بـ ٨ أ إلى غرب الشمال الغربي من جبل سبوى — ومن هناك إلى قمة التلة التي إلى غرب الشمال الغربي من بئر المغارة (وهو بئر في الفرع الشمالي من وادي ماين بحيث تكون البئر شرقي الخط الفاصل) — ومن هناك إلى ٩ أ — ومنها إلى ١٠ غرب جبل المقرأة — ومن هناك إلى رأس العين المدلول عليه بـ ١١ أ — ومن هناك إلى نقطة جبل ام حواويط مدلول عليها بـ ١٢ أ — ومن هناك إلى منتصف المسافة بين عامودين قائمين تحت شجرة على مسافة ثلثمائة وتسعين متراً إلى الجنوب الغربي من بئر رفح والمدلول عليه بـ ١٣ أ — ومن هناك إلى نقطة التلال الرملية في اتجاه مائتين وثمانين درجة (٢٨٠) من الشمال



ش ١١٣ : خريطة الحدود بين مصر والسودان

المغناطيسي (اعني ٨٠ درجة الى الغرب) وعلى مسافة اربع مائة وعشرين متراً في خط مستقيم من العامودين المذكورين — ومن هذه النقطة يمتد الخط مستقيماً باتجاه ثلثمائة واربعه وثلاثين درجة (٣٣٤) من الشمال المغناطيسي (اعني ٢٦ درجة الى الغرب) الى شاطئ البحر الأبيض المتوسط ماراً ببلدة خرائب على ساحل البحر الاحمر

المادة الثانية — قد دل على الخط الفاصل المذكور بالمادة الاولى بخط اسود متقطع

في نسختي الخريطة المرفقة بهذه الاتفاقية والتي يوقع عليها الفريقان ويتبادلانها بنفس الوقت الذي يوقعان فيه على الاتفاقية ويتبادلانها

المادة الثالثة — تقام أعمدة على طول الخط الفاصل من النقطة التي على ساحل البحر الأبيض المتوسط الى النقطة التي على ساحل خليج العقبة بحيث ان كل عامود منها يمكن رؤيته من العامود الذي يليه وذلك بحضور مندوبي الفريقين

المادة الرابعة — يحافظ على أعمدة الخط الفاصل هذه كل من الدولة العلية والحدودية الجليلة المصرية

المادة الخامسة — اذا اقتضى في المستقبل تجديد هذه الأعمدة أو الزيادة عليها فكل من الطرفين يرسل مندوباً وتطبق مواقع العمود التي تزداد على الخط المدلول عليه في الخريطة

المادة السادسة — جميع القبائل الماطنة في كلا الجانبين لها حق الانتفاع بالمياه حسب سابق عاداتها أي أن القديم يبقى على قدمه فيما يتعلق بذلك وتعطى التأمينات اللازمة بهذا الشأن الى العربان والعشار وكذلك العساكر الشاهانية وافراد الاهالي والجندرمه ينتفعون من المياه التي بقيت غربي الخط الفاصل

المادة السابعة — لا يؤذن للعناكر الشاهانية والجندرمه بالمرور الى غربي الخط الفاصل وهم مسلحون

المادة الثامنة — تبقى أهالي وعربان الجهتين على ما كانت عليه قبلاً من حيث ملكية المياه والحقول والاراضي في الجهتين كما هو متعارف بينهم « انتهى »

اتفاقية السودان

قد تقدم في كلامنا عن الحوادث السودانية ان السودان استرجع سنة ١٨٩٧ بحملة مؤلفة من الجندين الانكليزي والمصري فاقضى ذلك ان يكون للدولتين معاً. وقد وضعتا وفقاً بهذا الشأن وقعت عليه الحكومتان في ١٩ يناير سنة ١٨٩٩ هذا نص مواده :

١ — تطلق لفظة السودان في هذا الوفاق على جميع الاراضي الكائنة الى جنوبي الدرجة الثانية والعشرين من خطوط العرض وهي :

اولاً الاراضي التي لم تخلها قط الجنود المصرية منذ سنة ١٨٨٢ ثانياً الاراضي التي كانت تحت ادارة الحكومة المصرية قبل ثورة السودان الاخيرة وفقدت منها وقتياً ثم افتتحها الآن حكومة جلالة الملكة والحكومة المصرية بالاتحاد

ثالثاً الأراضي التي قد تفتتحها بالاتحاد الحكومتان المذكورتان من الآن فصاعداً

٢ - يستعمل العلم البريطاني والعلم المصري معاً في البر والبحر بجميع أنحاء السودان ما عدا مدينة سواكن فلا يستعمل فيها الا العلم المصري فقط
٣ - تفوض الرئاسة العليا العسكرية والمدنية في السودان الى موظف واحد يلقب (حاكم عموم السودان) ويكون تعيينه بامر عال خديوي بناء على طلب حكومة جلالة الملكة ولا يفصل عن وظيفته الا بامر عال خديوي يصدر برضا الحكومة البريطانية
٤ - القوانين وكافة الاوامر واللوائح التي يكون لها قوة القانون المعمول به والتي من شأنها تحسين ادارة حكومة السودان او تقرير حقوق الملكية فيه بجميع أنواعها وكيفية ايلوتها والتصرف فيها يجوز سنها أو تحريرها أو نسخها من وقت الى آخر بمشور من الحاكم العام وهذه القوانين والاورام واللوائح يجوز ان يسري مفعولها على جميع أنحاء السودان أو على جزء معلوم منه ويجوز ان يترتب عليها صراحة او ضمناً تحوير أو نسخ اي قانون أو أية لائحة من القوانين أو اللوائح الموجودة وعلى الحاكم العام أن يبلغ على الفور جميع المنشورات التي يصدرها من هذا القبيل الى وكيل وقصل جنرال الحكومة البريطانية بالاهرة والى رئيس مجلس نظار الجنب العالي الخديوي

٥ - لا يسري على السودان أو على جزء منه شيء ما من القوانين أو الاوامر العالية أو القرارات الوزارية المصرية التي تصدر من الآن فصاعداً الا ما يصدر باجرائه منها منشور من الحاكم العام بالكيفية السالف بيانها

٦ - ان المنشور الذي يصدره حاكم عموم السودان ببيان الشروط التي بموجبها يصرح للاوربيين من أية جنسية كانت بحرية التجارة أو السكنى بالسودان أو ملك ملك كائن ضمن حدوده لا يشمل امتيازات خصوصية لرعايا أية دولة أو دول

٧ - لا تدفع رسوم الواردات على البضائع الآتية من الأراضي المصرية حين دخولها الى السودان ولكنه يجوز مع ذلك تحصيل الرسوم المذكورة على البضائع القادمة من غير الأراضي المصرية. الا أنه في حالة ما اذا كانت تلك البضائع آتية الى السودان عن طريق سواكن أو أي ميناء آخر من موانئ ساحل البحر الاحمر لا يجوز ان يزيد الرسوم التي تحصل عليها عن القيمة الجاري تحصيلها حينئذ على مثلها من البضائع الواردة الى البلاد المصرية من الخارج. ويجوز أن تقرر عوائد على البضائع التي تخرج

من السودان بحسب ما يقدره الحاكم العام من وقت الى آخر بالمشورات التي يصدرها بهذا الشأن

٨ - فيما عدا مدينة سواكن لا تمتد سلطة الحاكم المختطة على أية جهة من جهات السودان ولا يعترف بها فيه بوجه من الوجوه

٩ - يعتبر السودان باجمعه ما عدا مدينة سواكن تحت الاحكام العرفية ويبقى كذلك الى أن يتقرر خلاف ذلك بمشور من الحاكم العام

١٠ - لا يجوز تعيين قاض أو وكلاء قاض أو مأموري قضايات بالسودان ولا يصرح لهم بالاقامة قبل المصادقة على ذلك من الحكومة البريطانية

١١ - ممنوع منعاً مطلقاً ادخال الرقيق الى السودان أو تصديره منه وسيصدر منشور بالاجراءات اللازمة اتخاذها لتنفيذ بهذا الشأن

١٢ - قد حصل الاتفاق بين الحكومتين على وجوب المحافظة منهما على تنفيذ مفعول معاهدة بروكسل المبرمة بتاريخ ٢ يوليو سنة ١٨٩٠ فيما يتعلق بادخال الاسلحة النارية والذخائر الحربية والاشربة المقطرة أو الروحية وبيعها أو تشغيلها « اه

تحريراً بالقاهرة في ١٩ يناير سنة ١٨٩٩

(الامضاءات) « كرومر » « بطرس غالي »

وشرف سمو الخديوي السودان سنة ١٩٠٢ وزار الخرطوم فقبول بالاحتفاء والاعظام وتلا في سراي الخرطوم خطاباً بمعنى الرضى عن حالة السودان - ويرى القارئ في الصفحة التالية رسم سموه وهو يتلو الخطاب
الوافق الانكليزي الفرنسي

ومما يعد من قبيل الاعمال السياسية بمصر الاتفاق الذي عقد بين انكلترا وفرنسا في ٨ ابريل سنة ١٩٠٤ فهو ذو شأن في سياسة مصر لان فرنسا اعترفت فيه باحتلال انكلترا مصر واطلقت يدها فيها وهذا نص الفقرة المتعلقة بذلك من الاتفاق المذكور: « تصرح حكومة جلالة الملك (انكلترا) أنها لا تنوي تغيير حالة مصر السياسية . وتصرح حكومة الجمهورية الفرنسية أنها لا تعيق عمل بريطانيا العظمى في مصر بطلب تحديد زمن الاحتلال أو بأي أسلوب آخر »

٢ - الاعمال الادارية

يصعب تحديد ما جرى من الاصلاحات الادارية في عهد الجنب الخديوي ولكن

يقال بالاجمال ان معظم ماتم في زمن الاحتلال من الاصلاحات تم في عهد سموه . استهلت حكومته أعزه الله بالغاء السخرة وكانت الخبارات جارية بشأنها من قبل وقد



١١٤ : احتفال الخديوي بتولي خطابه امام سراي الخديوي

صدرت عدة أوامر عالية تتعلق بها حتى صدر الامر القاضي عليها في ٢٨ يناير سنة ١٨٩٢ وقد صدر بهذه المادة :

« تلغى السخرة في كامل أنحاء القطر المصري »

وصدر أمر سموه في هذا التاريخ بالغاء الضرائب التي كانت قد وضعت على الصنائع وفي أيام سموه التي نظام البوليس الذي كان متبعاً في زمن الخديوي الاسبق بأمره عال صدر في ٣ نوفمبر سنة ١٨٩٤ ووضع النظام الحالي بناءً على لائحة رفعها المرحوم نوبار باشا . وفي ظل سموه عدلت الضرائب بأمر عال صدر في ١٠ مايو سنة ١٨٩٩ وفي أيامه ألغيت الضرائب التي كانت على السفن المسافرة في النيل بأمر عال مؤرخ في ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٠٠ وألغيت الدخولية وهي الضرائب التي كانت الحكومة تتقاضاها على الخضار والفاكهة ونحوهما مما يدخل المدن فألغيت من أول سنة ١٩٠٣ والتي احتكار الملح في أول سنة ١٩٠٦ وفي عهد سموه صفيت حسابات الدائرة السنية وبيعت البواخر الخديوية .

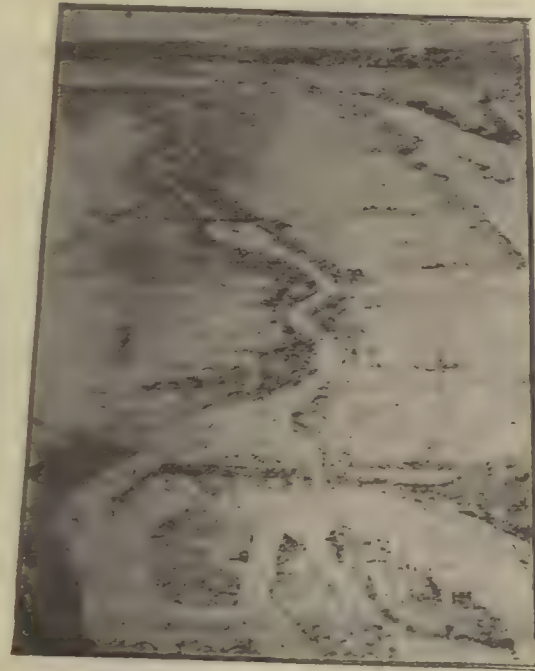
ومن الامور الادارية التي تمت في عهد سموه التي الاداري الذي قرره الحكومة من عهد غير بعيد وقد أفاد كثيراً

٣ - الاعمال الزراعية

ان الاعمال الزراعية التي شرعت بها الحكومة المصرية على يد مصلحة الري من أوائل عهد الاحتلال لم تظهر ثمارها إلا في عهد الجناب العالي فبعد أن كانت مساحة الاطيان الزراعية أقل من خمسة ملايين فدان ناهزت سبعة ملايين . وكانت البقاع التي تزرع قطعاً عند ولاية سموه نحو ٩٠٠٠٠٠ فدان فصارت نحو ١٥٠٠٠٠٠ فدان . وكانت غلة القطن سنة ١٨٩١ نحو ٤٦٠٠٠٠٠ قطار فصارت في العام الماضي نحو سبعة ملايين قطار . وأخذت تتحول ملكية الارض الى الفلاحين وكان عدد مالكي الاطيان في أول ولاية سموه نحو ٧٥٠٠٠٠ انسان فأصبح عددهم ١٣٥٦٠٠٠ نفس . ولا يخفى ما يدل عليه ذلك من توزيع الثروة بين الناس . وفي أيامه انشئت مدرسة الزراعة وصارت هذه الصناعة تعلم قانونياً . وانشئت المعارض الزراعية وتألفت الشركات الزراعية والبنك الزراعي والنقابات الزراعية

ومن المشروعات الزراعية قناطر أسبوط وهي على ٢٥٩ ميلاً جنوب القاهرة تولى انشاءها للحكومة شركة السير جون ايرد وشركاه بدأت فيها في شتاء عام ١٩٠٢ وامتت منه في ربيع سنة ١٩٠٨ وهي كالقناطر الخيرية شكلاً ولكنها تمتاز عنها بأن القناطر الخيرية مبنية من القرميد وهذه من الحجر . طول قناطر أسبوط ٨٣٣ متراً وعددها ١١١ قطرة عرض كل قطرة خمسة أمتار عليها أبواب من الحديد . وعلو

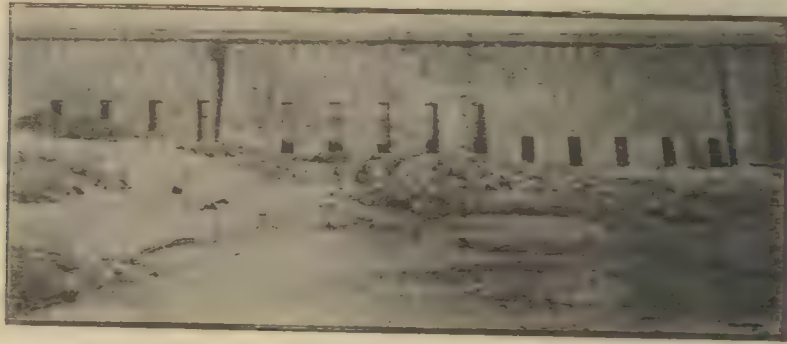
القناطر من قاع النهر الى السطح ١٢ متراً ونصف متر ونحاتها عند القاعدة ٢٦ متراً ونصف متر ونحاتها عند السطح سبعة أمتار وثمانون سنتيمتراً. والغرض من هذه القناطر اصلاح الري مدار السنة في مصر الوسطى والقيوم لأنها اذا أغلقت أعاقت جري الماء فيرتفع نحو ثلاثة أمتار فوق ارتفاعه الاعتيادي فيزيد مساحة الاراضي الزراعية نحو ٣٠٠.٠٠٠ فدان تروى من رعة الابراهيمية. ولقناطر أسبوط هويس لمرور السفن طوله ٨٠ متراً وعرضه ١٦ متراً



ش ١١٥ : قناطر أسبوط

تمثيل النيل وخزاناته من الجنوب الى الشمال ١ القناطر الخيرية في رأس الدلابل خزان أسبوط ٢ خزان اسوان ٣ جزيرة فيلي وفيها خراب أنس الوجود ٤ الهويس الذي يسير به السفن

أما خزان اسوان فهو أعظم مشروعات الري تولت انشاؤه الشركة المذكورة في اوائل سنة ١٨٩٩ واتمى في أواخر سنة ١٩٠٢ مواده من حجر الغرانيت والسمنت والحصى. وبلغ وزن ما كانوا ينجزون عمله في اليوم الواحد ٢٦٠٠ طن طوله ٢٠٠٠ متر ويمتد من الجبل الشرقي الى الجبل الغربي. وعلوه يختلف من ٢٠ متراً الى ٤٠ باختلاف عمق قاع النهر. ونحاته عند قاعدته ٢٥ متراً ونحاته أعلاه أو هو عرضه



ش ١١٦ : خزان اسوان

من فوق ٧ أمتار. وفي جدار الخزان ١٨٠ فتحة هي نوافذ عليها الابواب من الحديد تختلف سعتها باختلاف مواضعها منها ١٤٠ نافذة مسطح الواحدة منها ١٤ متراً. وأربعمون نافذة مسطح الواحدة منها ٧ أمتار وقد وصفنا كيفية استخدامه في السنة ١١ من الهلال.

٤ - النهضة المالية

ان النهضة المالية التي حصلت في زمن سموه لم يسبق لها مثل من عهد بعيد. فتكاثر الذهب وأرى الناس وتوسعوا في أسباب العيش ولا سيما في أواسط العقد الاول من هذا القرن بارتفاع أثمان الارضين فتألفت الشركات المالية العقارية والبنائية لاستثمار أرض البناء والاطيان الزراعية. ولولا تورط الناس في المضاربة لهدمت مصر من رد الفعل الذي أحدث الازمة المالية منذ بضع سنين. ومع ذلك فان ثمار النهضة المالية لا تزال باقية وهي ظاهرة في الحكومة وفي الامة وفي الاسواق التجارية وفي كل شيء كما يتضح ذلك من المقابلة

فيزانية الحكومة المصرية كانت سنة ١٨٩٢ نحو عشرة ملايين جنيه فأصبحت الآن نحو ١٦ مليوناً. وكانت الواردات التجارية سنة ١٨٩٢ قيمتها أقل من عشرة ملايين جنيه فزادت في أثناء النهضة المالية على ٢٦.٠٠٠.٠٠٠ جنيه وبلغت في السنة الماضية نحو ٢٣.٥٠٠.٠٠٠ جنيه. وكانت الصادرات ١٣.٥٠٠.٠٠٠ جنيه فصارت نحو ٢٩.٠٠٠.٠٠٠ جنيه. وقد تكاثر انشاء بنوك الصيرفة وأهمها البنك الاهلي انشئ سنة ١٨٩٨ ورأسماله ٢.٥٠٠.٠٠٠ جنيه. والبنك الزراعي انشئ سنة ١٩٠٢ ورأسماله خمسة ملايين جنيه وغيرها

ومن دلائل الثروة تكاثر الابنية واتساع المدن . وهذه القاهرة قد تضاعفت مساحتها مراراً عما كانت عليه قبلاً حتى كادت تصل بضواحيها . غير ما انشئ فيها باثاء هذه النهضة من الابنية الفخمة والقصور الباذخة . وعمرت الضواحي وانشئ بضواحيها بلد جديد لا مثيل له في سائر أقطار العالم تعني واحة عين شمس . واستحدث في أيام سموه بنك اقتصادي في مصلحة البوطة المصرية منذ بضع سنوات بلغ عدد الذين اودعوا نقودهم فيه الى آخر العام الماضي نيفاً و ٨٩٠٠٠ نفس وبلغ مقدار ما اودعوه ٣٥٧٠٠٠ جنيه استعانوا بها على أمورهم

٥ - النهضة العلمية والحركة الفكرية

ان الحركة العلمية التي حدثت بمصر في أثناء العشرين سنة الاخيرة ظاهرة كالشمس بما انشأته الحكومة أو ساعدت على انشائه من الكتاتيب والمدارس في أنحاء القطر أو بما أدخلته من التعديل في طرق التعليم وخصوصاً من حيث اللغة العربية . فقد كانت هذه اللغة يكاد يقضى عليها في المدارس المصرية فانتعشت الآمال باحيائها فاخذت الحكومة في ارجاع التدريس اليها واثبتت روح التعليم في أنحاء القطر وكثر الساعون في انشاء المدارس من أهل اليسار في الارياف - هذا من حيث المدارس الابتدائية أما التعليم العالي فاقم ما حدث منه في هذا العصر مدرسة القضاء الشرعي والجامعة المصرية وبذلت العناية في تحسين حال الازهر وغيره من المدارس الكبرى غير عناية الحكومة بالمعاهد العلمية كالمتحف المصري والمتحف العربي ودار الكتب المصرية ومن آثار الجنب الخديوي في خدمة العلم والهيئة الاجتماعية عنايته في فن التمثيل فافقد شاباً (جورج افندي ايض) يتلقى هذا الفن على أربابه في فرنسا وقد عاد سنة ١٩١٠ ومعه جوق مثل عدة روايات في الاوبرا على سبيل التجربة . ولا تزال عناية سموه موجهة الى تنشيط هذا الفن واحيائه في اللغة العربية

وأكبر أدلة الحركة الفكرية ظهرت في الصحافة بما أطلقته لها الحكومة من الحرية فتكاثرت الجرائد والمجلات في أيام سموه وتسمت مواضيعها وتألفت الاحزاب السياسية على اختلاف أغراضها ولكل منها جريدة أو غير جريدة تطلق بلسانه . وتألفت الشركات المالية لانشاء بعضها . وكبر حجمها وظهرت صفتها الوطنية وتنوعت مواضيعها وتألفت لها نقابة صحافية . ويقال بالاجمال ان الصحافة المصرية بلغت في هذا

(١) تجد مقالة ضافية في تاريخ النهضة الصحافية في الهلال سنة ١٨ صفحة ٨٣

العصر أرقى ما بلغت اليه في سائر الاعصر^(١) بما صارت اليه من التأثير في الامة والحكومة . وقد رأيت ان الحكومة المصرية كانت قد قيدت الصحافة بقانون انشأته سنة ١٨٨١ عرف بقانون المطبوعات فهذا القانون أخذت الحكومة في اهماله رويداً رويداً بعد الاحتلال وأصبح في عهد الجنب الخديوي عباس في حكم الملغى عراً . فرأت الحكومة بالعام الماضي (سنة ١٩١٠) ان تقيد المطبوعات لاسباب اقتضت ذلك فوضعت قانوناً جديداً هو تعديل القانون القديم

ومن آثار الحركة العلمية أيضاً انشاء الجمعيات الادبية والعلمية وتأسيس الاذنية الاجتماعية وأهمها نادي المدارس العليا ونادي دار العلوم في القاهرة . ولا يكاد يخلو بلد من البلاد الكبرى من ناد أو جمعية على اختلاف مواضعها

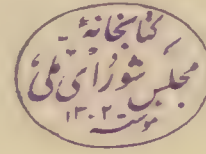
واتفق في اماره سمو الخديوي اضطراب أحوال المملكة العثمانية والتمالب بين السلطان عبد الحميد وأحرار مملكته . فكانت مصر مأجاً الفارين من الظلم أو الطالين للرزق من سائر الامم

ومن قبيل الحركة الفكرية في هذا العصر قيام نخبة من أدباء الشبان المسلمين للاصلاح الديني وزعيمهم المرحوم الشيخ محمد عبده المصري المتوفى سنة ١٩٠٥



ش ١١٧ : الشيخ محمد عبده

ومن هذا القيل جنوح الناس الى الحكم الدستوري وارتفاع صوت الصحافة في طلب الدستور وتوسيع اختصاص الشورى وزاد تألف الجمعيات الخيرية في زمن سموه واستظمت نظارة الاوقاف وانصرفت عنايتها الى حفظ الآثار وترميم المساجد وبناء المعابد والمستشفيات الخيرية آخرها المستشفى العباسي . وتضاعفت ثقات الاوقاف الخيرية على المبرات والاحسان . فكانت يوم تولى الاربعة الحديوية ٨٢٧٦ جنبها فاصبحت للعام الماضي ١٣٧١ جنبها وبالأجمال فان مصر بلغت في عصر الحديوي عباس باشا الثاني ما لم تبلغ اليه في العصور الماضية من حيث الرقي الاجتماعي والسياسي والاقتصادي والفكري في ظل سمو الامير أبيه الله



﴿ تم الجزء الثاني ﴾

(وبه تم الكتاب)

فهرس الجزء الثاني

من تاريخ مصر الحديث

صفحة	صفحة	بيان
٨٧	٣	حالة مصر عند قدوم الفرنسيين
٨٩		فتح فرنساويين مصر
٩٨		الديوان العمومي
١٠٢	٥	» » الخصوصي
١٠٧	٩	واقعة ابو قير
١١٢	١٦	سياسة نابوليون بمصر
١١٩	٢٢	اصلاحات فرنساويين بمصر
١٢٣	٢٢	حالة بونابرت على سوريا
١٣٠	٢٤	رجوعها الى مصر
١٣٢	٢٦	عود بونابرت الى فرنسا
١٣٨	٣٠	مقتل كلاير
١٤٠	٣٢	الجنرال مينو
١٤٤	٣٨	انسحاب فرنساويين من مصر
١٤٥	٤٣	من انسحاب فرنساويين الى محمد علي
	٤٤	الدولة المحمدية العلوية
١٤٩	٤٩	محمد علي باشا (صوته)
١٥٠	٥٥	ارتقاؤه منصة الاحكام
	٥٥	اعماله الحربية
١٥٧	٥٦	حرب الوهابيين
١٦٠	٦٨	مذبحة الماليك
١٦٥	٧٧	فتح السودان
١٦٧		حرب المورا
١٦٧		فتح سوريا
١٧١	٨٣	لماذا جرد فرنساويون على مصر
		المحلة الفرنسية
		الدولة العثمانية
		نشأة الدولة العثمانية
		سلطنة السلطان سليم بن يازيد
		» » سليمان القانوني
		» » سليم بن سليمان
		» » مراد بن سليم
		» » محمد بن مراد
		» » احمد بن محمد
		» » مصطفى وعثمان
		» » مراد بن احمد
		» » ابراهيم بن احمد
		» » محمد بن ابراهيم
		» » سليمان واحمد
		» » احمد بن محمد
		» » محمود بن مصطفى
		» » عثمان بن مصطفى
		» » مصطفى بن احمد
		علي بك الكبير
		سلطنة عبد الحميد الاول
		» » سليم الثالث

صفحة	صفحة
١٧٥	٢٤٧
١٧٦	٢٤٩
١٨٠	٢٥٠
١٨٢	٢٥٣
١٨٥	٢٥٧
١٨٨	٢٦١
١٨٩	٢٦٣
١٩٣	٢٦٤
١٩٧	٢٦٨
٢٠٠	٢٧٠
٢٠١	٢٧١
٢٠٢	٢٧٥
٢٠٤	٢٧٧
٢٠٤	٢٨١
٢٠٨	٢٨٣
٢١٥	٢٨٥
٢١٦	٢٨٧
٢١٨	٢٨٨
٢٢٤	٢٩١
٢٢٨	٢٩٦
٢٣٠	٢٩٧
٢٣٢	٢٩٨
٢٣٦	٣٠١
٢٣٨	٣٠٣
٢٤٢	٣٠٧
٢٤٤	٣٠٨
	٣٠٩

اواخر ايامه

اصلاحاته

الاصلاح الاداري

» الزراعي

» العسكري

» التجاري

» الصناعي

» الصحي

» العلمي

صفاته ومناقبه

ولاية ابراهيم باشا

» عباس الاول

» سعيد باشا

» اسماعيل باشا

ترجمة حياته

قناة السويس - تاريخها

عود الى اسماعيل

الديون المصرية

اعماله وآثاره

النهضة العلمية في ايامه

صفاته

ولاية محمد توفيق باشا

كيف كانت حالة مصر لما تولاه

الثورة العربية

العرب والترك

نشأة ترابي

فوز العراقيين

تغير القلوب بين الحديوي والعراقيين

صفحة	صفحة
٣٣٣	٣١٢
٣٣٥	٣١٢
٣٣٧	٣١٥
٣٣٨	٣١٦
١٣٩	٣١٨
٢٤١	٣٢١
٣٤٢	٣٢٤
٣٤٥	٣٢٥
٣٤٥	٣٢٦
٣٤٧	
٣٤٩	٣٢٩
٣٥٠	٣٣٢

اوصاف المهدي

تعاليم »

حرب الاحباش

فتح مصر

واقعة نوشكي

حكومة التعايشي

التفود والتجارة

القضاء

فتح ام درمان وذهاب دولة الدراويش

عود الى ولاية ترفيق باشا

اصلاحات جديدة

التفود المصرية

(تم فهرس الفصول ويديه الفهرس الابجدي)

صفحة	صفحة
١٤٧ ج ١	جابر بن الأشعث أمير مصر
١٧٤ ج ١	جامع ابن طولون
٢١٥ و ٢١٣ ج ١	الجامع الأزهر . بناؤه وتاريخه
٢٤ ج ٢	الجامع الأزهر . إعادة بناءه
١١٦ ج ٢	الجامع الأزهر . دخول الفرنساويين فيه
١٦٧ ج ١	جامع التنور لابن طولون
٢٢٣ ج ١	جامع الحاكم
٣٦٠ ج ١	جامع السلطان حسن
٣٤٤ ج ١	جامع الظاهر
١٠٣ ج ١	جامع عمرو بن العاص
٢٢٨ ج ١	جامع عمرو . تذهيبه
٧٩ ج ٢	جامع عمرو . قرآن فيه
٣٤٨ ج ١	جامع قلاوون
٣٧٧ ج ١	جانبلاط . سلطنته
١٧٤ ج ١	جبل يشكر . حديثه
١٢٠ ج ٢	جرجس الجوهري
٣١ ج ٢	جعفر باشا الوزير والي مصر
٣٧٦ ج ٢	جعفر باشا والي السودان
٧٩ ج ١	جغرافية مصر الحديثة
١٧ ج ١	جغرافية مصر القديمة
٣٢٣ ج ١	جمنق . سلطنته
٣١٣ ج ٢	جلاء الانكليز عن مصر . وفاق به
٢٢٦ ج ٢	جمال الدين الافغاني
٣٣٠ ج ٢	الجمعية العمومية . انشاؤها
٢٣١ ج ١	الجند في الدولة الفاطمية . تاريخه
١٨٢ ج ٢	الجندية . اصلاحها أيام محمد علي
١١١ ج ٢	الجوكر . شارة الفرنساوية
٢٠٦ ج ١	جوهر القائد قانع مصر
١٠٠ ج ١	الجزيرة . مدينة
١٩٠ ج ١	جيش بن خمارويه . حكمه
٢٧٢ ج ٢	الجيش المصري . الغاؤه
١٥٥ و ١٥٧ ج ١	حاتم بن هرثمة أمير مصر
٣٦٢ ج ١	حاجي بن شعبان . سلطنته
٣٥٩ ج ١	حاجي بن الناصر . سلطنته
٢٤ ج ٢	حافظ احمد باشا والي مصر
٢٥٣ ج ١	الحافظ بن محمد . خلافته
٢٢٥ - ٢٢٠ ج ١	الحاكم بأمر الله . خلافته
٥٥ ج ١	حانون ملك غزة
٢١٥ ج ٢	الحبشة . حربها مع اسماعيل
١٤٠ ج ١	الحبشة غزوها (راجع الاحباش)
٤٨ ج ١	الحنينيون . أمة قديمة
٣٤١ ج ١	الحج . طريقه
١٢٩ ج ١	الحجاج بن يوسف حصاره مكة
١٥ ج ١	حجر رشيد والهيروغليف
٣٤١ ج ٢	حدود مصر من الشرق
١٣٣ ج ١	الحر بن يوسف أمير مصر
٥١ ج ١	حرحور . كاهن مصري
٣٥٠ ج ٢	الحركة الفكرية في هذا العصر
١٣٦ ج ١	حسان بن عتاهية أمير مصر
٧٧ و ٦٤ ج ٢	حسن بك الجداوي أمير الحج
٢٣ ج ٢	حسن باشا الخادم والي مصر
٥٥ ج ٢	حسين بك شيخ البلد
٧٤ ج ٢	حسن قبطان باشا
٣٥٩ ج ١	حسن بن الناصر . سلطنته
٤٤ ج ٢	حسن باشا والي مصر

صفحة	صفحة
٢٣٦ و ٢٢٠ ج ١	خزانة الكتب للعزير بالله
١٤٦ ج ٢	خسرو باشا . والي مصر
١٤٦ ج ١	الخضيب بن عبد الحميد أمير الخراج
٢٥ ج ٢	خضر باشا . والي مصر
٢٧٥ ج ١	الخطبة العباسية بمصر
٢٠٢ ج ٢	الخطوط الحديدية اول انشائها بمصر
٣٠ ج ١	خفرع . ملك مصري
٩ ج ٢	الخلافة والعرب والتürk
٢٥٠ ج ١	خلف بن ملاعب الكلاني
١٢٢ ج ١	الخلفاء الراشدون . نقودهم
٣٣٧ ج ١	الخلفاء العباسيون في مصر
٩ ج ٢	خليج أمير المؤمنين . سبب خفره
١١٠ ج ٢	الخليج . فتحه زمن الفرنساوية
٣٥٧ ج ١	الخليج الناصري
٩٩ ج ٢	خليل البكري (الشيخ)
٣٥ ج ٢	خليل باشا . والي مصر
٣٤٩ ج ١	خليل بن قلاوون . سلطنته
١٨٥ و ١٦٦ ج ١	خمارويه بن احمد
٣٢٢ ج ١	الخوارزميون . اصلهم
١٥٢ ج ٢	خورشيد باشا . والي مصر
٢٩ ج ١	خورميخي . اسم هرم
٣٧٤ ج ١	خوش قدم . سلطنته
١٥٦ ج ١	خوط بن عبد الواحد بن يحيى أمير مصر
٢٩ ج ١	خوفو . ملك مصري
٢٤ ج ١	خونس . اله مصري
٢٨ ج ٢	حسن باشا الوزير والي مصر
٢٢ ج ٢	حسين » » »
١٤٥ ج ١	حسين بن جميل . أمير مصر
١٢٥ ج ١	الحسين بن علي . قيامه
٣٧ ج ٢	حسين باشا الوزير والي مصر
٢٥٢ ج ١	الحشاشون
٩٨ و ٨٥ ج ١	حصن بابل او دير النصارى
١٢٦ ج ١	الحسين بن تيمر . محاصرته مكة
١٣٦ و ١٣٣ ج ١	الحضن بن الوليد أمير مصر
٢٧٢ ج ٢	الحكم على العرايين
١١ و ١٧ ج ٢	الحكومة المصرية . نظامها أيام العثمانيين
١٢٩ ج ١	حلوان (مصر) بناؤها
٢٥٠ ج ٢	حليم باشا البرنس
٣٠٤ ج ٢	حملة انكليزية لانقاذ غوردون
١٣٩ ج ١	حميد بن قحطبة . أمير مصر
١٣٣ ج ١	حنظلة بن صفوان . أمير مصر
٣٣ ج ١	حنو . رجل مصري قديم
١٣٦ ج ١	الحوثة بن سهل . أمير مصر
١٤٩ و ١٤٥ ج ١	الحوف . انتفاض اهله
٤٦ ج ١	حور محب . ملك مصري
١٣٢ ج ١	حيان بن شريح . أمير الجيش
٣٤٩ و ٢١٣ ج ١	خان الخليلي بمصر
١٤٢ ج ١	الخراج . الزيادة فيه
٣٠٣ ج ٢	الخرطوم . حصارها
٣٢٢ ج ٢	» . خريطةها
٣٠٧ ج ٢	» . سقوطها
٣٤٩ ج ٢	خزان اسوان . بناؤه

صفحة	صفحة
خير بك . والي مصر ١١ ج ٢	دير النصارى أو حصن بابل ٩٨ ج ١
دارا . ملك الفرس ٦١ ج ١	الديوان أيام العثمانيين ١٧ ج ٢
دار الحكمة . للحاكم ٢٢٤ ج ١	الديوان الخصوصي زمن بونابرت ١٠٢ ج ٢
داود باشا . والي مصر ٢٠ ج ٢	الديوان العمومي » » ٩٨ ج ٢
داود بن يزيد . امير مصر ١٤٤ ج ١	ديوان المدارس ايام محمد علي ١٩٣ ج ٢
دحية بن المعصب . امير مصر ١٤٢ ج ١	الدواوين المصرية زمن اسماعيل وقبله ٢١٦ و ٢٣٥ ج ٢
دداكارع . ملك مصري ٣١ ج ١	ديوقليطيانوس مطارد للمسيحين ٧٣ ج ١
الدرأويش . لبسهم ٢٨٤ ج ٢	ذوالفقار بك من امراء المماليك ٤٥ و ٤٧ ج ٢
درويش باشا مندوب السلطان الى مصر ٢٥٦ - ٢٦١ ج ٢	الراضي بالله . خلافته ١٩٧ ج ١
الدستور . انشاؤه ٢٣٤ ج ٢	راغب باشا . والي مصر ٥٣ ج ٢
دكا داجيسيان جريدة فرنساوية ١١٩ ج ٢	راغب باشا . وزارته ٢٥٩ ج ٢
الدلالة . جند المغاربة ١٥٣ و ١٨٢ ج ٢	رضوان بك من امراء المماليك ٥١ ج ٢
دلسبس صاحب مشروع القناة ٢١٣ ج ٢	رضوان بك . امير المماليك ٤٢ ج ٢
دمياط . حروبها وفتوحها ١٠٦ و ١٥٦ ج ١	رع . اله مصري ٢١ ج ١
٢٧٣ و ٣١٢ و ٣٣١ ج ١	الرعاة من ملوك مصر ٣٨ ج ١
الدنانير المنقوشة . اول امرها ١٢٩ ج ١	رعمسيس الثاني . فرعون مصري ٤٧ ج ١
الدواوين أيام محمد علي ١٧٩ ج ٢	رفاعة بك الطهطاوي ١٩٦ ج ١
الدور الجاهلي من تاريخ مصر ٢٦ ج ١	رفع على حدود مصر ٨٥ ج ١
دوغيرين . تقريره ٣٢٩ ج ٢	الرقيق . ابطال تجارتها ورجوعها ٢٢٤ و ٢٧٩ ج ١
الدولة الاموية . حكمها ١٢٣ ج ١	و ٣٠٠ ج ٢
الدولة الطولونية . أصلها ١٥٤ و ١٩٦ ج ١	رياض باشا . وزارته ٢٣٥ ج ٢
الدولة العباسية . قيامها وفسادها ١٣٦ و ١٣٨ ج ١	الريان بن الوليد فرعون مصري ٤٠ ج ١
و ٢٠٨ ج ١	ريكاردين قلب الاسد ٢٩٤ ج ١
الدولة الفاطمية . حضارتها ٢٧٧ ج ١	زبير باشا ٢٦٢ و ٢٧٦ و ٣٠٠ ج ٢
» » . حكمها ٢٠٦ - ٢٧٧ ج ١	الزبير بن العوام من الصحابة ٨٧ ج ١
» » . مبدأها ١٩٧ ج ١	الزراعة ايام محمد علي ١٧٨ و ١٨٠ ج ٢
» الملكية القديمة ٢٦ ج ١	زكا الرومي . امير مصر ١٩٥ ج ١

صفحة	صفحة
الزنج . ثورتهم ١٦٩ ج ١	سليمان الحلبي قاتل كلابر ١٣٨ ج ٢
ساحة عابدين . مظاهرتها ٢٤٥ ج ٢	» بن عبد الملك . خلافته ١٣١ ج ١
السادات . الشيخ ٧٦ و ١١٢ ج ٢	» باشا الفرنساوي القائد ١٨٣ ج ٢
سالم بن سواده التميمي امير مصر ١٤٢ ج ١	» الفيومي . الشيخ ١٠١ ج ٢
سامرًا . بناؤها ١٥٤ ج ١	» القانوني . سلطنته ١٦ ج ٢
سباقون . ملك مصري ٥٤ ج ١	» باشا والي مصر ٢٠ ج ٢
سبسكاف . » » ٣٠ ج ١	سنان باشا والي مصر ٢٢ ج ٢
المبع السواقي . بناؤها ٣٥٧ ج ١	سنخ كارع ملك مصري ٣٣ ج ١
سبك حنب الثالث ملك مصري ٣٧ ج ١	سوتر . بطليموس الاول ٦٥ ج ١
ستوارت رفيق غوردون ٢٩٨ ج ٢	سوتر الثاني . بطليموس الثامن ٦٨ ج ١
ستوارت . مهلكه ٣٠١ ج ٢	السودان . اتفاقيته ٣٤٣ ج ٢
سحورع . ملك مصري ٣٠ ج ١	السودان فتحه لمحمد علي ١٦٥ ج ٢
سدني الاميرال الانكليزي ١٣٥ ج ٢	السودان الشرقي . احواله ٢٩٦ ج ٢
سرجون . ملك اشوري ٥٥ ج ١	السودان . تاريخها الحديث
السري بن الحكم . امير مصر ١٤٨ ج ١	قبل المهدي ٢٧٥ ج ٢
سعيد الايسر صاحب الجيش ١٨٦ ج ١	السودان . اخلاؤها ٢٩٧ ج ٢
سعيد باشا . ولايته ٢٠٢ ج ٢	السودان المصري . اقسامه ٨١ ج ١
سعيد بن يزيد . امير مصر ١٢٥ ج ١	سوريا . فتحها لابراهيم باشا الى
سكينة بنت الحسين . وفاتها ١٣٤ ج ١	خروجها منها ١٦٧ - ١٧١ ج ٢
سلاتين باشا في دارفور ٢٩٦ و ٣٠٩ ج ٢	سوريا . حملة بونابرت عليها ١٢٣ - ١٣٠ ج ٢
سلاطيس . ملك مصر ٣٨ ج ١	سيتي الاول . ملك مصري ٤٦ ج ١
سلامش بن بيرس . سلطنته ٣٤٦ ج ١	السيدة زينب . بناء مسجدتها ٢٠٢ ج ٢
السلجوقيون . أصلهم ٢٤٧ ج ١	سيزوستريس . فرعون مصري ٤٧ ج ١
سلطان باشا رئيس مجلس النواب ٢٤٩ ج ٢	سيف الدين ططر . سلطنته ٣٧١ ج ١
سلم بن يازيد العماني ٣٧٩ ج ١ و ٩٠ ج ٢	» قطز » ٣٣٥ ج ١
» بن سليمان . سلطنته ٢٢ ج ٢	سيف الدولة بن حمدان ٢٠٠ ج ١
» الثالث بن مصطفى . سلطنته ٧٧ ج ٢	سما الطويل ١٧٧ ج ١
سليمان بن ابراهيم . سلطنته ٤٤ ج ٢	سيمور الاميرال ٢٦١ و ٢٦٣ ج ٢

صفحة	صفحة
١٩٥ ج ١	عيسى النوشري أمير مصر
١٥٥ و ١٥٠ ج ١	« بن منصور »
١٤٩ ج ١	« يزيد الجلودي أمير مصر »
١٦٣ ج ١	غالب . شريف مكة
٢٧٦ ج ٢	غوردون باشا في خط الاستواء
٢٩٧ ج ٢	« لاخلأ السودان »
٣٠٣ ج ٢	« . نقوده »
٣٠٨ ج ٢	« . مقتله »
٣٣١ ج ١	الفارس اقطاعي
٢١٦ ج ١	الفاطميون . نسبهم
٢٥٦ ج ١	الفائز بن الظافر . خلافته
٢٦ و ٢١ ج ١	فتاح . إله مصري
٢٣٣ ج ١	الفتنة بين العبيد والأتراك
٣٦٩ و ٣٦٧ ج ١	فرج بن برقوق . سلطنته
٨٥ ج ١	الفرما . مدينة مصرية
٢٥٤ ج ٢	فرنسا والمسألة العراية
١٤٤ ج ٢	الفرنساويون انسحابهم من مصر
١٣٤ ج ١	الفرنساويون اخراجهم من مصر
١٤٥ ج ٢	
١٢٧ و ٩٨ ج ١	القسطاط عاصمة مصر
٢٦١ و ٢٦٥ و ١٦٣ ج ١	
١٤٦ ج ١	الفضل بن الربيع . ديسسته
٦٦ ج ١	فيلوبار . بطليموس الرابع
٦٥ ج ١	فيلادلفوس « الثاني »
٦٨ ج ١	فيلومار « السادس »
٢٠ ج ٢	قاسم باشا والي مصر
٤٤ ج ٢	« بك شيخ البلد »
٢٥٠ ج ٢	قانون المطبوعات
١٩٣ ج ٢	العلم . اصلاحاته أيام محمد علي
٣٢ ج ٢	علي باشا والي مصر
١١٥ ج ١	« بن أبي طالب . خلافته »
٢٠٤ ج ١	« الاخشيد . حكومته »
١٥١ ج ٢	« باشا الجزائر والي مصر »
٢٦ ج ٢	« السلحدار »
١٤٣ ج ١	« بن سليمان أمير مصر »
٣٦٢ ج ١	« شعبان . سلطنته »
٢٠ ج ٢	« باشا الصوفي والي مصر »
٢٠ ج ٢	« »
٦٨ و ٥٦ ج ٢	« بك الكبير . استقلاله بمصر »
٥٢ ج ٢	« بك الكبير . نشأته »
٥١ ج ٢	« تخيا الطويل . من الامراء »
٢٢٥ ج ٢	« باشا مبارك وزير المعارف »
١٤٨ ج ١	« بن موسى . مبايعته »
١٥٦ و ١٥٥ ج ١	« بجي الارمني أمير مصر »
٨٣ ج ١	عمر بن الخطاب
١٣٢ ج ١	عمر بن عبد العزيز . خلافته
١٤٤ ج ١	« غيلان صاحب الخراج »
١٢٥ ج ١	« قحزم الخولاني »
١٢٠ و ٨٤ ج ١	عمر بن العاص قانع مصر
١٤٩ ج ١	عمير بن الوليد أمير مصر
١٥٦ ج ١	عنبسة بن اسحق « »
٩٢ ج ١	عهد الامان للمصريين من ابن العاص
٣٥٦ ج ١	عيد الشهيد عند الاقباط
١٣٤ ج ١	عيسى بن أبي العطاء أمير مصر
١٦٥ ج ١	« دينار أمير الاسكندرية »
١٤١ ج ١	« لقمان أمير مصر »

صفحة	صفحة
٥٩ ج ١	قورش . ملك الفرس
١١٦ ج ١	قيس بن سعد صاحب راية الانصار
١٣٤ ج ١	« قبيلة . انتقلها الى مصر »
١٤٥ ج ١	القيسية . قتلهم
٦٣ ج ١	كارينا الثانية . امبراطورة الروس
٢٠٤ و ٢٠١ ج ١	كافور الاخشيد أمير مصر
٣١٤ ج ١	الكامل بن العادل . سلطنته
٢٧ ج ١	كايه خوس . ملك مصري
٨٤ ج ١	كتاب التبي . صورته
٣٢٦ ج ٢	كدش باشا . قانع أم درمان
٣٥٩ ج ١	كجك بن الناصر . سلطنته
٢٨٧ ج ٢	كردوفان . سقوطها
١٢٦ ج ١	الكعبة . احراقها
١٣٢ ج ٢	كلار . ولايته على مصر
١٣٨ ج ٢	« . مقتله »
١٨٩ ج ٢	كلوت بك الدكتور
٦٧ ج ١	كليوبيطرا ابنة انطيوخوس
٧٢ و ٦٩ ج ١	« بنت اوليتس »
٥٩ ج ١	كميز . ملك الفرس
٤٨ ج ١	الكنعانيون أمة قديمة
٢٤ ج ١	كنوم اله . مصري
٢٩ ج ١	الكنيسة . هيكل مصري
٩٨ ج ١	كنيسة أبي سرجة
١١٩ ج ٢	كوريه ديجيت جريدة فرنساوية
٢٦ ج ١	كوكه . هرم
١٥٠ ج ١	كيدر الصفدي أمير مصر
٣٧ ج ١	لابراتا . بناء مصري
١٧٩ ج ١	لؤلؤ غلام ابن طولون
٣٤٩ ج ١	القاهر يدرا . سلطنته
١٩٥ ج ١	« بن المعتضد . خلافته »
٢٠٩ ج ١	القاهرة المعزية . بناؤها وتاريخها
٢١١ و ٢٧٤ ج ١	
٣٧٥ ج ١	قايت باي . سلطنته
١٩٨ ج ١	القائم بأمر الله الفاطمي
١٠٣ ج ١	قبالات الاراضي
١٤٧ ج ١	قبة الهواء . أصل بنائها
١٤٠ ج ١	القبط . خروجهم من سخا
٣٢٠ ج ٢	قحط عظيم في السودان
١٩١ ج ١	القرامطة . أصلهم
١٣٠ ج ١	قرة بن شريك أمير مصر
٣٣٥ ج ٢	الفضاء عند التعايشي
١٩٣ و ١٦٤ ج ١	القطائع . بناؤها وخرابها
١٦٩ ج ١	قطر الندى بنت حمارويه
١٨٠ ج ٢	القطن . نقله الى مصر
١٤١ ج ١	القلانس . لبسها
٣٥٠ و ٣٤٩ و ٣٤٦ ج ١	قلاون . سلطنته
٢٩٠ ج ١	قاعة القاهرة . بناؤها
١١٩ ج ١	قليدوروث ملك النوبة
٢١٥ و ٢٠٨ ج ٢	قناة السويس . تاريخها
٣٤٧ ج ٢	قناطر أسبوط
١٨٠ ج ٢	القناطر الخيرية . بناؤها
٣٤٤ ج ١	قناطر السباع
٣٧٨ ج ١	قنسو أبو سعيد . سلطنته
٣٧٨ ج ١	« خمسمية . سلطنته »
٣٧٨ ج ١	« النوري . سلطنته »
١٢٥ ج ١	قطرة الخليج الكبير . بناؤها

صفحة

صفحة

لويس التاسع ملك الصليبيين ٣٢٣

٣٢٥ و ٣٢٧ ج ١

الليث بن الفضل . امير مصر ١٤٥ ج ١

لبنان باشا المهندس ١٨٢ ج ٢

ما . اله مصري ٢٣ ج ١

مارستان ابن طولون ١٦٨ ج ١

ماريت باشا مؤسس المتحف المصري

٢١٨ ج ٢

الماسونية الوطنية . انشاؤها ٢٢٦ ج ٢

مالك الهندي . امير مصر ١٥٢ ج ١

المامون الخليفة ١٤٣ و ١٤٨ و ١٥١ ج ١

مبايعه المهدي . صورتها ٢٨٦ ج ٢

المتحف المصري . تاريخه ٢١٨ ج ٢

المتقي لله . الخليفة ٢٠٠ ج ١

المتوكل على الله . خلافته ١٥٥ ج ١

مجامع . وصفها ٢٢٥ و ٢٣٩ و ٣١٠

٣٦١ ج ١

مجالس القضاء ايام محمد علي ١٧٩ ج ٢

» القضاء الاهلي . اصلها ٢٢٠ ج ٢

المجالس المختلطة . اصلها ٢٢٠ ج ٢

مجالس المديرية . انشاؤها ٣٢٩ ج ٢

مجلس حسي القاهرة . انشاؤه ٢٢٠ ج ٢

» شوري الحكومة . تشكيكه ٣٣٠ ج ٢

» شوري القوانين ٣٣٠ ج ٢

» المعارف ايام محمد علي ١٩٣ ج ٢

» النظار . اول انشائه ٢١٧ ج ٢

» النواب . أصله بمصر ٢٢٠ ج ٢

» . اجتماعه ٢٤٧ و ٢٤٩

٢٥١ و ٢٥٢ ج ٢

محفوظ بن سليم صاحب الخراج ١٤٥ ج ١

محكمة القضايا زمن بونايرت ١٠٥ ج ٢

محمد باشا والي مصر (اشخاص مختلفة)

٢٤ و ٢٧ و ٣١ و ٣٤ و ٤٣ و ٥٩ ج ٢

محمد بن ابراهيم . سلطنته ٤٣ ج ٢

محمد بن ابي بكر . مقتله ١١٤ - ١٢٠ ج ١

محمد بن ابي حذيفة من الصحابة ١١٣ ج ١

محمد بن اناش صاحب الرقة ١٧٧ ج ١

محمد باشا بن احمد باشا والي مصر ٣٨ ج ٢

محمد احمد المهدي . أصله ومنشأه ٢٨١ ج ٢

محمد الاخشيدي (بن طنج) حاكمه

١٩٩ - ٢٠٣ ج ١

محمد بن الاشعث . امير مصر ١٣٩ ج ١

محمد بن حاجي . سلطنته ٣٦١ ج ١

محمد باشا حيدر . والي مصر ٤١ ج ٢

محمد بك ابو الذهب ٥٨ - ٦٧ ج ٢

محمد بن زهير . امير مصر ١٤٤ ج ١

محمد بن السري . امير مصر ١٤٩ ج ١

محمد بن سليمان . امير مصر ١٤١ ج ١

محمد الشريف . أستاذ المهدي ٢٨٢ ج ٢

محمد باشا الصوفي والي مصر ٢٩ ج ٢

محمد بن ططر . سلطنته ٣٧١ ج ١

محمد بن طنج امير مصر ١٩٦ ج ١

محمد بن عبد الرحمن امير مصر ١٤٠ ج ١

محمد بن عبد الملك امير مصر ١٣٣ ج ١

محمد عبده . الشيخ ٣٥١ ج ٢

محمد علي باشا . اصلاحاته ١٧٦ - ١٩٧ ج ٢

صفحة

صفحة

مريز . ملك مصري ٣١ ج ١

مزاحم بن خاقان أمير مصر ١٦٠ ج ١

مسح أرض مصر ١٤٥ و ٣٥٢ ج ١

المستعلي بن المستنصر ٢٤٦ ج ١

المستعين . الخليفة ٣٦٩ و ٣٧٠ ج ١

» بن محمد . خلافته ١٥٨ ج ١

المستكني بالله . خلافته ٢٠١ ج ١

المستنصر بن الظاهر ٢٢٦ - ٢٤٦ ج ١

مسألة المطرية ٣٤ ج ١

مسألة بن عبد الملك حاصر

القسطنطينية ١٣١ ج ١

مسألة بن عقبة محاصرة المدينة ١٢٥ ج ١

مسألة بن محمد أمير مصر ١٢٤ ج ١

» بن يحيى أمير مصر ١٤٤ ج ١

مسيح باشا والي مصر ٢٢ ج ٢

المشهد الحسيني ٢٥٨ ج ١

مصر والباب العالي ٢٤٧ و ٢٥٣ ج ٢

مصر . حيواناتها ٨٢ ج ١

مصر . فتحها الاسلامي ٨٤ ج ١

مصر . فتحها ثانية ١١٩ ج ١

مصر . الفتح العثماني ٣٧٩ ج ١

مصر . حالها عند قدوم الفرنسيين ٨٧ ج ٢

مصر سكانها . احصاؤهم ٨١ ج ١

مصر . لماذا جرد الفرنسيون عليها

٨٣ - ٨٦ ج ٢

مصر . مزدوعاتها ٨٢ ج ١

مصر . وصف ابن العاص لها ٩٣ ج ١

مصر القديمة . جغرافيتها ١٧ ج ١

محمد علي باشا . حكومته ١٤٩ - ٢٠٠ ج ٢

محمد علي . صفاته و مناقبه ١٩٧ ج ٢

محمد علي . الفرمان بولايته ١٧٢ و ١٧٤ ج ٢

محمد علي باشا الحكيم ١٩٢ ج ٢

محمد كريم حاكم الاسكندرية ٨٩ - ١١١ ج ٢

محمد بن قايت باي . سلطنته ٣٨٧ ج ١

محمد بن الخليل امير مصر ١٩٥ ج ١

محمد باشا الكورجي والي مصر ٢٧ ج ٢

محمد المهدي الكبير . الشيخ ٧٥ ج ٢

الحمل . اصله ٣٢٨ ج ١

محمود باشا سامي البارودي ٢٤٢ - ٢٧٢ ج ٢

محمود الثاني . سلطنته ١٥٦ ج ٢

محمود بن مصطفى . سلطنته ٤٩ ج ٢

محمود باشا والي مصر ٢١ ج ٢

مختار بك اول ناظر للمعارف ١٩٤ ج ٢

مختار باشا الغازي ٣٣١ ج ٢

المدارس ايام محمد علي ١٩٤ ج ٢

المدارس الحربية ايام محمد علي ١٨٢ ج ٢

» الطبية بمصر . تاريخها ١٩١ ج ٢

» المصرية في باريس ١٩٦ ج ٢

مراد بك من المالك ٩٠ - ١٣٨ ج ٢

مراد بن احمد . سلطنته ٣٢ ج ٢

مراد بن سليم » ٢٢ ج ٢

المراقبة المالية ٢٣٥ ج ٢

مريز . ملك مصري ٣٢ ج ١

مروان بن الحكم . خلافته ١٢٦ ج ١

» بن محمد . خلافته ١٣٦ ج ١

مري ملك الصليبيين ٢٦٤ ج ١

صفحة

صفحة

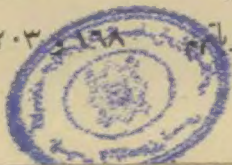
مصر ايم . اصلها ١ ج ١٧
 المصريون القدماء . ديانتهم ١ ج ٢١
 المصريون عند قدوم الفرنساوية ١٧٧٢ ج ٢
 مصطفى بن احمد . سلطته ٢ ج ٥٥
 مصطفى باشا لفغلي والي مصر ٢ ج ٣٠
 مصطفى باشا البستانجي والي مصر ٣٨ ج ٢
 مصطفى بن محمد . سلطته ٣٠ و ٤٤ ج ٢
 مصطفى باشا . والي مصر (الثاني) ١٩ ج ٢
 المطابع أيام اسماعيل ٢ ج ٢٢٢
 المطبعة الاهلية ٢ ج ١٩٧
 المطرية . محلة قرب القاهرة ١ ج ٣٤
 المطلب بن عبد الله أمير مصر ١٤٨ ج ١
 المظفر بن كيدر أمير مصر ١٥٢ ج ١
 معاوية بن أبي سفيان ١١٦ - ١٢٥ ج ١
 معاوية بن حديج السكوني ١١٩ و ١٢١ ج ١
 معاوية بن يزيد . خلافته ١٢٦ ج ١
 المعز بن باديس ٢٢٧ و ٢٤٥ ج ١
 المعز لدين الله . خلافته ٢٠٦ ج ١
 المعز بن المتوكل . خلافته ١٥٩ ج ١
 المعتصم . خلافته ١٥٢ ج ١
 المعتمد . خلافته ١٦٣ ج ١
 المعظم بن صالح . سلطته ٣٢٥ ج ١
 المغيرة بن عبيد الله أمير مصر ١٣٦ ج ١
 المفوض ١٧٠ ج ١
 المقاييس بمصر ١٠٠ و ١٣١ و ١٥٠
 و ١٥٧ و ١٦٨ ج ١
 المقدر بن المعتضد . خلافته ١٩٥ ج ١
 المقداد بن الاسود من الصحابة ٨٧ ج ١

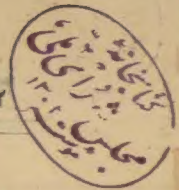
مقصود باشا والي مصر ٣٩ ج ٢
 المقوقس صاحب مصر ٨٥ و ٨٨ - ٩٢ ج ١
 المكتبة الخديوية . تاريخها ٢١٩ ج ٢
 المكتفي . خلافته ١٩٥ ج ١
 الملك الصالح طلائع ٢٥٦ ج ١
 الملكية . طائفة مسيحية ٧٥ ج ١
 المالك . الامراء ١٥ ج ٢
 المالك اصلهم ١٥٤ و ٣٢٦ و ٣٦٣ ج ١
 المالك عند قدوم الفرنسية ٨٧ ج ٢
 المالك . الكيد ١٤٥ و ١٥٢ ج ٢
 المالك . مذبحتهم ١٦٠ ج ٢
 منا . اول ملوك مصر ٢٦ ج ١
 المنابر في الكور . اول من اتخذها ١٣٦ ج ١
 منارة الاسكندرية ١٦٨ ج ١
 المنائر . اول احداثها ١٢٤ ج ١
 المنتصر بن المتوكل . خلافته ١٥٧ ج ١
 متوكتب . ملك مصري ٣٣ ج ١
 منشور المهدي ٢٨٨ ج ٢
 المنصور بن عبد العزيز . سلطته ٣٠٩ ج ٢
 المنصور لاجين ٣٥٢ ج ١
 المنصور بن محمد . خلافته ١٣٨ ج ١
 منصور بن زيد الرعييني أمير مصر ١٤١ ج ١
 المنصورة . بناؤها ٣١٧ ج ١
 منف . بناؤها ٢٦ ج ١
 منقح الاول . ملك مصري ٤٩ ج ١
 منكورع . ملك مصري ٣٠ ج ١
 منيفس . اله مصري ٢٧ ج ١
 المهدي . خلافته ١٦٣ ج ١

صفحة

صفحة

المهدي الخليفة العباسي . خلافته ١٤١ ج ١
 المهدي السوداني . تعاليمه ٣١٢ ج ٢
 المهدي السوداني . حكومته ٢٨٨ ج ٢
 المهدي السوداني حوادثه ٢٧٥ - ٣٢٩ ج ٢
 المهدي . موته وأوصافه ٣٠٩ ج ٢
 المهدي الكبير . الشيخ ١٠٠ ج ٢
 المهدي . مدينة الفاطميين ١٩٨ ج ١
 المهديون في الاسلام ٢٧٨ ج ٢
 موت . اله مصري ٢٣ ج ١
 موتسي بك مؤسس البريد المصري ٢٢١ ج ٢
 موغر الاستانة للسائلة العراية ٢٥٩
 و ٢٦٦ ج ٢
 مؤتمن الخلافة ٢٧١ ج ١
 المورا . حربها ١٦٧ ج ٢
 الموسيقى . اصله ٣٠٥ ج ١
 موسى بن بغا ١٧٢ ج ١
 موسى بن أبي العباس أمير مصر ١٥٢ ج ١
 موسى بن علي أمير مصر ١٤٠ ج ١
 » » » بن رباح أمير مصر ١٤١ ج ١
 » » » عيسى ١٤٣ ج ١
 » » » كعب ١٣٩ ج ١
 » » » مصعب ١٤٢ ج ١
 » » » الهادي . خلافته ١٤٣ ج ١
 » » باشا والي مصر ٣٥ ج ٢
 الموفق والمعتمد ١٦٩ ج ١
 » » وابن طولون ١٧١ و ١٨٢ ج ١
 المولد النبوي زمن الفرنسية ١١٠ ج ٢
 مياه القاهرة . جرها بالأنابيب ٢٢٠ ج ٢
 ميزانية الحكومة المصرية لسنة ١٨٢١
 ١٨٦ ج ٢
 الميزانية ومجلس النواب ٢٨١ ج ٢
 مينو . الجزال ١٤٠ ج ٢
 نابوليون . استعداد على مصر ٨٢ ج ٢
 ناصر الدولة ٢٣٨ ج ١
 الناصر بن قلاون . سلطته ثلاث
 مرات ٣٥٠ - ٣٥٨ ج ١
 ناصيف باشا . القائد العثماني ١٣٦ ج ٢
 نبته . هيكلي مصري ٤٥ ج ١
 نجم الدين ايوب والد صلاح الدين ٢٨٤ ج ١
 نحاو الثاني . ملك مصري ٥٨ ج ١
 نخروفس . » » ٢٧ ج ١
 زار وافتكين ٢٤٦ ج ١
 نقيس . اله مصري ٢٤ ج ١
 نقيس . ملك مصري ٢٦ ج ١
 نقود الدراويش ٣٢٤ ج ٢
 النقود المصرية أيام العثمانيين ٣٦ ج ٢
 » » » الجديدة ٣٣٢ ج ٢
 نكتانيس . ملك مصري ٦٣ ج ١
 نلسن قائد الاسطول الانكليزي ١٠٧ ج ٢
 النهضة العلمية أيام اسماعيل ٢٢٤ ج ٢
 » » » في عصر عباس باشا ٣٥٠ ج ٢
 النهضة المالية في مصر ٣٤٩ ج ٢
 نوان ميامون ملك اثيوبيا ٥٧ ج ١
 نوبار باشا ١٩٦ ج ٢
 النوبة . فتحها ١١٣ ج ١
 النوبة . محارباتها ٢٠٣ ج ١





صفحة	صفحة
٢٩٣ ج ١	نور الدين زنكي صاحب دمشق ٢٥٩
١٨٨ ج ١	و ٢٨٣ و ٢٨٧ ج ١
٣٣٧ ج ٢	نور الدين علي بن ايبك. سلطنته ٣٣٤ ج ١
١٩٧ ج ١	يتوقريس . ملكة مصرية ٣٢ ج ١
٣١٨ ج ١	هارون بن خارويه . حكمه ١٩٠ ج ١
١٣٣ ج ١	هارون الرشيد . خلافته ١٤٣ ج ١
١٣٠ ج ١	هاشم بن عبد الله امير مصر ١٤٥ ج ١
١٣٤ ج ١	الهائية . مدينة العباسيين ١٣٨ ج ١
١٦٠ - ١٥٧ ج ٢	هرثمة بن اعين امير مصر ١٤٤ ج ١
١٦٥ - ١٦٢ ج ٢	هرثمة بن نصر » » ١٥٥ ج ١
٢٦٧ ج ٢	هرقل ملك الروم ٧٥ و ١٣ ج ١
١٢٥ ج ٢	حشام بن عبد الملك . خلافته ١٣٣ ج ١
١٤١ ج ١	هفتكين الشراي ٢١٧ ج ١
١٣٩ ج ١	الهالي من خراج مصر ١٦١ ج ١
١٣٣ ج ١	حمدان . قبيلة ٩٩ ج ١
١٢٥ ج ١	الموارة . قبيلة ٦٠ ج ٢
١٥٧ و ١٦٠ ج ١	هوروس . اله مصري ٢٢ ج ١
١٣٥ ج ١	هولاكو التتري . فتح بغداد وغيرها
٧٥ ج ١	٣٣٤ و ٣٣٥ ج ١
٢١٧ و ٢١١ ج ١	هونوريوس . امبراطور روماني ٧٥ ج ١
٥١ ج ١	الهيروغليف المصري . حله ١٦ ج ١
١٤٦ ج ١	هيكس باشا . حمله . ٢٩١ ج ٢
٣٧٢ ج ١	الوائق . خلافته ١٥٥ ج ١
١٤٣ و ١٣٤ ج ٢	الوجاقات من الجند ١١ ج ٢
٢٨٦ ج ٢	واضح مولى ابي جعفر امير مصر ١٤١ ج ١
٧٠ ج ١	واقعة توشكي ٣١٨ ج ٢

انتهى الفهرس الابجدي

